المُنتقم

المنتقم "هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة فإنه إذا عوجل بالعقوبة لم يمعن في المعصية فلم يستوجب غاية النكال في العقوبة"[١].

المنتقم هو محق الحق ومزهق الباطل؛ ولذا فهو لا ينتقم إلا لحق وبحق وهو لا يظلم أحدا. والمنتقم لا ينتقم من أحد إلا لأجله، فالانتقام من الظالمين حق لهم وحق عليهم: من حيث كونه حق لهم لأجل أن يتذكروا لعلَّ الذكرى تنفعهم فيُكفِّرون عن سيئاتهم، ومن حيث كونه حق عليهم ليزداد المتقون تقوى، ويزدادوا تمسكا بالحق وثباتا عليه. وبهذا الأمر يقتدي المنتقم له والمنتقم منه بأن الحق لابد له وأن يحق.

وعليه فنحن نجزم بأن اسم المنتقم من أسماء الله تعالى كما سيتضح لاحقا.

يتساءل البعض عن جواز أن تكون من صفات الله عز وجل الانتقام الذي يدل على اسمه (المنتقم)! وللإجابة عن ذلك علينا أن نعرف من هو المنتقم، ثم نحصي ممن انتقم ولماذا، وكيف.

المنتقم هو الذي بيده مقاليد القوة والقدرة المُمكِّنة من الانتقام، والانتقام فعل قوي في مواجهة فعل أو أفعال سابقة العمل بغير حق، فيها من المظالم ما لا يرضي العباد وخالق العباد، والانتقام نتيجة لأسباب وعلل مفسدة لما يجب أن يكون صالحا، فالمنتقم الحق هو من ينتقم من المنتقمين (الذين هم على الباطل)، ولذا فهو الحق، أي صفة حميدة ومحببة لأجل أفعال الصفات الحسان.

إذا المنتقم الحق هو فاعل الحق، أي أنه محق الحق ومزهق الباطل، ولذا فهو الله جل جلاله، وفي هذا الأمر يكون التطابق والتماثل في آيات الله المؤكدة على ترسيخ الصفات الحسان.

---

[١] المقصد الأسنى، ج ١، ص ١٣٩.

كقوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[٢]، وقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا}[٣]، وقوله تعالى: {إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}[٤]، وقوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}[٥].

ولأن المنتقم هو محق الحق ومزهق للباطل، إذا الانتقام لم تكن أسبابه ظالمة، ولم يكن بذلك ظلما، بل إنه عدل لا يحقُّهُ باطل. وعليه فالانتقام من الباطل عدل في سبيل الإصلاح والفلاح والإعمار، والخليفة هو الذي ينتقم من الظلم والظالمين لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

المُنْتَقِم هو العادل في العقوبة لمنْ يشاءَ[٦]. غير أنه قد ورد في جامع الرسائل لابن تيمية الآتي: "في أسماء اللَّه تعالى (المُنْتَقِم) هو المُبالغ في العقوبة لمن يشاء" وليس في أسماء الله الحسنى اسم يتضمن الشر وإنما يذكر الشر في مفعولاته كقوله {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ}[٧]، وقوله {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٨] وقوله {اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[٩]، وقوله {إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ}[١٠] فبين سبحانه أن بطشه شديد، وأنه هو الغفور الودود"[١١].

---

[٢] الأنفال ٣٠.

[٣] الطارق ١٥، ١٦.

[٤] السجدة ٢٢.

[٥] الدخان ١٦.

[٦] النهاية في غريب الأثر – ج ٥ ، ص ٢٣١ ولسان العرب – ج ١٢ ، ص ٥٩٠

[٧] الحجر ٤٩، ٥٠.

[٨] الأعراف ١٦٧.

[٩] المائدة ٩٨.

[١٠] البروج ١٢ ـ ٢٠.

[١١] جامع الرسائل–ج١–ص٣٥٦

المنتقم أفعاله الانتقامية نتائجها لا تعود عليه مباشرة، بل تعود بشكل مباشر على من ظلموا ولم يستطيعوا ردع الظلم والظالمين، ولا يستطيعون إحقاق الحق، ومن يتوب بعد ظلم ويصلح ما افسد فإن الله غفور رحيم، قال تعالى: {فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١٢]. إما أولئك الذين لا يتوبون فإن الله شديد العقاب، ولهذا فجزاء السيئة سيئة مثلها ومن عفا وأصلح فأجره على الله وما ربك بظلام للعبيد، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}[١٣]. إنَّ قوله تعالى: (وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) ولمن انتصر بعد ظلمه، أي بعد أن انتقم من الظالم أو الظالمين، وهم لن يستطيعوا بعد ذلك ارتكاب مظالم فلا سبيل للانتقام منهم بغير حق، لقد تم الانتقام الذي هو إحقاق للحق وإزهاق للباطل، وسيظل السبيل مفتوحا أمام المنتقم للحق إذا استمر الظالم في ظلمه وهو يبغي الإفساد في الأرض التي جعل الله فيها الإنسان خليفة، ولذا فالعذاب سيظل لأولئك الظالمين حق في الدارين وهذا الانتقام لا ظلم فيه وذلك لأنه حق في مرضاة الله تعالى، (إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).

المنتقم: يعلم بالمظلمة وبالظالم الذي اقترف ظلما، وهو رافض لكل مظلمة، وهو قادر على إحقاق الحق، وقادر على تمكين المظلوم من بلوغ الانتصار والفوز المؤزر، وهو الذي لا يتأخر عن ذلك كلما شاء.

---

[١٢] المائدة ٣٩.

[١٣] الشورى ٤٠ ـ ٤٤.

المنتقم المطلق هو الله جل جلاله القادر العادل القوي الجبار المهيمن الحفيظ سبحانه جل جلاله الذي ينتقم من المجرمين مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآَيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}[١٤]. والمجرمون هم الذين ذُكِّروا بآيات الله ثم كفروا بها وأشركوا وظلموا الناس، هؤلاء منهم الله تعالى منتقم، وانتقام الله من الكفرة إدخالهم جهنم. قال تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[١٥].

والمنتقم بالإضافة هو المهتدي إلى صراط الحق المستقيم فلا يظلم أحدا، ولا يتأخر عن مناصرة المظلومين، يثأر للحق حتى يُزهق باطل القول والفعل والعمل، ويُقدِم على أداء فعل الخيرات، وهو الذي ينتقم من الذين يظلمون، وهو الذي يكيد كيد الكائدين ويمكر بمكر الماكرين مصلحا ومُعمِّرا ومفلحا في الأرض التي استخلفه الله فيها.

المنتقم: هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة والجبارين ويشدد العقاب على الطغاة وذلك بعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال وهو أشد للانتقام من المعاجلة بالعقوبة.

المنتقم هو الذي يَغلِب ولا يُغلَب، وذلك بأسباب امتلاكه لمعطيات الحق، أما الذي يُغلب فهو ضعيف القول والحجَّة، وضعيف القدرة والقوة، ولهذا من يستند على الحق استند على القوة والقدرة، ومن استند على باطل استند على ضعف ووهن.

والمنتقم انتقامه حق لأنه ينزل فعل الانتقام بعد استنفاذ السبل الكفيلة بالهداية والتنبيه، والمؤدية للعودة إلى الطاعة، فالمنتقم هو المنذر أي هو الذي أنذر الناس من عقوبته وبطشه وانتقامه بالرسل أولا قبل أن ينتقم منهم، ولهذا فالانتقام فعل مترتب على أفعال، قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ

---

[١٤] السجدة ٢٢.

[١٥] الزخرف ٣٩ ـ ٤٣.

رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ}[١٦]، مكانة المستخلفين في الأرض عالية عند ربهم، أما الكافرين فلا مكانة لهم إلا العذاب الذي هو انتقام منهم على ما يفعلون بغير حق، ولهذا فالانتقام مخصوص بهم وبعذابٍ أنذرهم المنتقم منه: {إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[١٧]، وإنذار المنتقم موجه للغافلين على وجه العموم، {لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آَبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ}[١٨]، والغفلة هي متابعة النفس غير المهتدية على ما تشتهيه، فأما متابعة النفس فبالهوى الذي نبه المنتقم عباده من سوء عاقبته فقال لخليفته منبهاً، {يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[١٩]. هنا وجب على الخليفة الانتباه إلى خطورة اتباع الهوى لأنه يؤدى إلى الغفلة المهلكة التي تؤدي بالعبد إلى نقمة المنتقم سبحانه: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آَتَيْنَاهُ آَيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ_كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[٢٠]. فالمتبع لهواه هو المعرض عن التمسك بما آتاه الله من نعم وفضائل وآيات حسان، وذلك لأنه تعالى بعد أن خص هذا الرجل بآياته وبيناته، وعلمه الاسم الأعظم، وخصه بالدعوات المستجابة، لمَّا اتبع الهوى انسلخ من الدين وصار في درجة الكلب، وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله في حقه أكثر، فإذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى، كان بعده عن الله أعظم، ثم قال تعالى: (فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلب إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ

[١٦] يونس ٢.

[١٧] نوح ١.

[١٨] يس ٦.

[١٩] ص ٢٦.

[٢٠] الأعراف ١٧٥–١٧٨.

يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث)، واعلم أن هذا التمثيل ما وقع بجميع الكلاب، وإنما وقع بالكلب اللاهث، وأخس الحيوانات هو الكلب، وأخس الكلاب هو الكلب اللاهث، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا، وأخلد إلى الأرض، كان مشبهاً بأخس الحيوانات، وهو الكلب اللاهث، فكذلك من آتاه الله العلم والدين أغناه عن التعرض لأوساخ أموال الناس، ثم إنه يميل إلى طلب الدنيا، ويلقى نفسه فيها، كان حاله كحال ذلك اللاهث، حيث واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة[٢١]، وهذا هو الهوى المؤدي لاتباع النفس على ما تشتهيه، وهو ما لا يريده المنتقم لخلفائه فجعلهم من المنتهين عما نهى عنه ولهذا حثهم على اتباع الحق وفعله والإكثار من أفعال الخيرات الحسان، {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[٢٢]. المعادلة واضحة بيِّنة، فمن طغى وآثر الحياة الدنيا فمأواه جهنم، ومن اتقى ربه عز وجل ونهى النفس عن رغباتها غير المحمودة فيفوز بالجنة، وهي نتاج الجزاء الأوفى.

ولهذا لا ينبغي الإغفال عن أهمية قضاء الوقت فهي غفلة مصدرها الأمل بغير حق وذلك بإرجاء الطاعة إلى أجل يتوهمون معرفته فيقول القائل منهم غداً، أو الشهر القادم، أو العام القادم وهكذا، هؤلاء يقول عنهم المنتقم جل جلاله: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ}[٢٣]، فهم في غفلة المتوهم الذي يظن أنه آمن من مكر الله، {أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ}[٢٤]، ولأن مكر الله حق فهو وجوبا لابد وأن يحدث، ومن يظن أن مكره لن يحدث سيكون من الخاسرين لا محالة، ولهذا يمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين،

[٢١] تفسير الرازي، ج ٧، ص ٢٩٩.
[٢٢] النازعات ٣٧ ـ ٤١.
[٢٣] الحجر ٣.
[٢٤] الأعراف ٩٩.

أي مهما مكر الماكرون من مكر، فإن الله سيكون منتقما من مكرهم بمكره جل جلاله، ومكر الله دائما خير، لأنه مبطل لكل مكر يمكرونه.

إن الغافلين عن الحق، هم غافلون عن الموجبات، ولكن لكل أمة أجل قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٢٥]، وعلى الخليفة أن لا يقع في مثل هذا الوهم فيتواكل ويتخاذل عن القيام بما أمره الله به من أمر الخلافة بل عليه أن يدرك ويوسع إدراك من استخلف عليهم بأهمية قضاء الوقت في طاعة الله رغبة في رضاه وخوفاً من انتقامه، وآخر أنواع الغفلة هي النسيان وكتب المنتقم على نفسه غفرانها بشرط الاستغفار والعودة وعدم الإصرار: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا}[٢٦]، ويلاحظ أن الإنسان جُبل على هذه الصفة فهو نسي، لذا جعل المنتقم هذا النوع من الغفلة قابل للتوبة والتراجع، وعلى الخليفة مع ذلك أن يحذر السهو والنسيان إقتداءً بالله الذي لا يضل ولا ينسى: {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}[٢٧].

وينذر المنتقم بالآيات، لأجل أن لا يكون العباد في غفلة من أمرهم، ولا يكونون بعدها نادمين كما هو حال الكفرة الفجرة، قال تعالى: {إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا}[٢٨]، وينذر ببعض أمثلة الانتقام فيشير إلى الصاعقة في قوله: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ}[٢٩]، فالإنذار هو آية المنتقم للعباد فمن يتجاهله يصيبه الانتقام: {وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ}[٣٠].

---

[٢٥] الأعراف ٣٤.

[٢٦] طه ١١٥.

[٢٧] طه ٥٢.

[٢٨] النبأ ٤٠.

[٢٩] فصلت ١٣.

[٣٠] القمر ٣٦-٣٧.

والمنتقم يتبع الإنذار بالتذكير الذي يلي إرسال الرسل المنذرين بالكتب السماوية قال تعالى: {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ}[٣١]، وهو الذي يلي الآيات أيضاً: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}[٣٢]، والتغافل عن الذكر من عجيب الأمور التي يقع فيها الإنسان ولا يجد لها اللب تفسيراً إلا الكفر والنكران، {وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ}[٣٣]، وهو من موجبات الانتقام في الدنيا وذلك بتسخير شيطان بسوء عمله ليكون قرين هذا المتغافل عن ذكر الرحمن فيحمله من الذنوب ما توجب إيقاع الانتقام به، {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}[٣٤]، كذلك الأمر في الآخرة فإن المعرض عن الذكر له من عذابها الشديد، {وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا}[٣٥].

والمنتقم هو الممهل والإمهال تفضل من المنتقم لإعطاء الفرصة للاستغفار والتوبة، لأن فعل المستحق للانتقام موجب للرد لكن المنتقم بالحق رحيم فمنحهم المهلة التي لا تعني التغافل: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}[٣٦] ، لكنها مهلة العليم بعباده، الحكيم في ما قضى، فلو انتقم من كل مستحق بدون مهلة التراجع لما كان هناك تائب ولما كان هو تواب، ولكنه جعل المهلة رحمة منه عسى أن يعود من يعود قال تعالى: {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٣٧]، ويتوجب على الخليفة أن يعمل بعمل من استخلفه في الأرض فيمهل العباد بغية منحهم فرصة للتراجع عن سالف ذنوبهم، وهذه

---

[٣١] ق ٤٥.

[٣٢] السجدة ٢٢.

[٣٣] الأنبياء ٥٠.

[٣٤] الزخرف ٣٦.

[٣٥] الجن ١٧.

[٣٦] إبراهيم ٤٢.

[٣٧] النحل ٦١.

المهلة كما هي رحمة لمن أراد العودة فهي نقمة من المنتقم على المصر: {فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}[٣٨]، وقد يقول القائل: لكنهم يأكلون ويشربون وينعمون بنعم الله كلها وبعض المطيعين محرومون من كثير مما عند هؤلاء الكافرين! لا عجب فهم إنما في هذا الحال ليزدادوا إثما فيشتد الانتقام منهم، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٣٩]، فمتى هذا الانتقام. إنه يوم الفصل بين المؤمنين والكافرين، {لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ}[٤٠]، ومما يُشعر بشدة الانتقام الإيجاز بنص التهديد فكلمة ويل موجزة من حيث النطق الصوتي لكنها في غاية السعة من حيث تخيل شكل الانتقام وطبيعته، ومن المهم الوقوف مع صورة من صور هذا الانتقام لتبين طبيعته، والآيات تتحدث عن المشركين الذين أصروا على الإشراك بالله من غير علم، قال تعالى: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا}[٤١]، يقول وأما المجرمون فمسوقون إلى جهنم ورداً كما تساق القطعان (ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا). ولا شفاعة يومئذ إلا لمن قدَّم عملاً صالحاً فهو عهد له عند الله يستوفيه. وقد وعد الله من آمن وعمل صالحاً أن يجزيه الجزاء الأوفى، ولن يخلف الله وعداً، ثم يستطرد السياق مرة أخرى إلى مقولة منكرة من مقولات المشركين. ذلك حين يقول المشركون من العرب: الملائكة بنات الله. والمشركون من اليهود: عزير ابن الله. والمشركون من النصارى: المسيح ابن الله. فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التي تنكرها فطرته، وينفر منها ضميره، قال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا

---

[٣٨] الطارق١٧.

[٣٩] آل عمران ١٧٨.

[٤٠] المرسلات ١٢-١٥.

[٤١] مريم ٨٦-٩١.

يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آَتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا}[٤٢].

(وقالوا اتخذ الرحمن ولدا) الرحمن جل جلاله الذي خلق الكون وما فيه وخلق الشيء من الشيء حتى تعددت المخلوقات وبلغت إلى ما لا نهاية، يقال عنه قد اتخذ ولدا، أستغفر الله إنه ليس في حاجة للولد، وكيف تكون له حاجة للولد، وهو لم يولد.! الذي يكون في حاجة للولد هو الذي سبق وأن جاء من صلب والد، أو أنه يحتاج للرعاية والعناية ويخاف خاصة حين يظلم غيره كيف يكون ذلك والله القوي القادر مالك الملك وبيده الأمر، فإذا أراد شيئا يقول له كن فيكون، من بيده القوة والملك لا يحتاج لأحد وكل أحد هو في حاجة إليه، قال تعالى في صورة الإخلاص: {لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد}، ولأنه خالٍ من الشبيه والمماثل فكيف لنا بالقول: أنه اتخذ ولدا. فالرحمن لم يلد ولم يولد ولم تكن له الصاحبة والولد، إنه الخالق بالمطلق، والخالق لا يحتاج للولد أبدا، وما المسيح إلا عبدا للرحمن، وعباد الرحمن هم المخلوقون خلقا، ولهذا لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح عيسى ابن مريم. قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآَيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[٤٣]. من يقول أن الرحمن قد اتخذ ولدا أشرك بقوله منكرا لا تعقله القلوب ولا العقول، أمرا لا تدركه الأبصار ولا يثبته واقع، وكيف تقبل عقول البعض هذا القول المنكر وهم يعلمون أن عيسى هو ابن مريم، وأن لمريم أب سابق عليها، وإذا كان عيسى هو

[٤٢] مريم ٨٨ ـ ٩٥.

[٤٣] المائدة ٧٢ ـ ٧٥.

ابن الله أو إنه الله كما يدعون، إذن ماذا يقال على آدم الأول المخلوق خلقا، فكيف يقرون بخلق آدم ولا يقرون بخلق عيسى عليه الصلاة والسلام وينسبونه إلى الله ولدا. ولهذا قال تعالى: (لقد جئتم شيئاً إدا) شيء منكر عظيم لا يغتفر، ولذا سيكون الانتقام من الذين قالوا هذا القول المنكر. وسيحق القول عليهم جميعا إن لم يتداركوا أمرهم استغفارا وتوبة لله الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولم تكن له الصاحبة ولا الولد.

والمنتقم هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء، وهو المحصي الذي لا يفوته قول أو فعل، فانتقامه حق: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[٤٤]، وفي هذه الآية يمكن استشعار أحقية الانتقام فهي تدل ولاشك على حقيقة أنه ما من انتقام دون علم وإحصاء للظاهر والمخفي من القول أو الفعل، فإذا وصل العبد بهما حد الانتقام حل به لا محالة، وإن لم يصل بتلك الأفعال والأقوال لهذا الحد وتراجع يجد المنتقم غفوراً رحيما، هنا تظهر أدق صور العدالة التي تجعل الانتقام حقا.

الانتقام عدل مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٤٥] وهو أجل وجوه العدل، فقد جعل المنتقم الجزاء بقدر الفعل في الدنيا تحقيقاً للعدل في الانتقام فقال: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[٤٦].

ومن غايات الانتقام الانتصار للمظلوم الذي أعيته الحيلة للانتصار لنفسه، فالانْتصَارَ من الظالم الانْتِصاف والانْتِقام، وانْتَصَر منه انْتَقَم: قال الله تعالى مُخْبِراً عن نُوح على نبينا وعليه

---

[٤٤] آل عمران ٤-٥.

[٤٥] يونس ٤٤.

[٤٦] المائدة ٤٥.

الصلاة والسلام ودعائِه إِياه بأَن يَنْصُره على قومه: {كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ}[٤٧].

أما القادر على الانتقام لنفسه من ظلم الغير فقد نزه المنتقم فعله فقال عز من قائل: {وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ}[٤٨]، وانتقام هؤلاء فعل محمود لأن فيه تحقيق للعدل ومحاربة للبغي، وسد لأبواب المظالم: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}[٤٩]، أي ينتقمون ممن بغى عليهم على ما جعله الله تعالى لهم ولا يعتدون، ومعنى الاختصاص أنهم الاخصاء بالانتصار وغيرهم يعدو ويتجاوز، ولا يراد أنهم ينتصرون ولا يغفرون ليتناقض هو وقوله السابق: {وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}[٥٠]. التسامح بين الناس رحمة، فمن غفر لأخيه ذنبا غفر الله له ذنوبا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ}[٥١].

كذلك يكون الانتقام لإحقاق الحق بالانتقام من الباطل ومرتكبيه: {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[٥٢]، وهي من أبرز غايات الانتقام التي أشار الله إليها في محكم كتابه، لأن في ذلك نصرة للحق الذي يجب أن يسود لأن الخالق هو الحق: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ

---

[٤٧] القمر ٩–١٣.

[٤٨] الشورى ٤١.

[٤٩] الشورى ٣٩.

[٥٠] الشورى ٣٧.

[٥١] الشورى ٣٩ ـ ٤٤.

[٥٢] الأنفال ٨.

مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[٥٣]، فالخليفة ملزم هنا بجعل الحق نصب عينه، فلا يغفل عن السعي لتحقيقه في كل الأمور صغيرها وكبيرها، وفي كل الأوساط وذلك بإشاعة ثقافة الحق التي تتمثل في عدة أمور منها:

١ . عدم كتم الحق ولو على النفس: {وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٥٤].

٢ . تعليمه في أوساط من يجهل الحق: {وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}[٥٥].

٣ . القول بالحق ولا غيره: {حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ}[٥٦].

٤ . العمل بالحق: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٥٧]

---

[٥٣] الحج ٦٢.

[٥٤] البقرة ٤٢.

[٥٥] البقرة ١٤٤.

[٥٦] الأعراف ١٠٥.

[٥٧] البقرة ٢٨٢.

٥ . نصرة الحق على الباطل ولو كان ذلك مغضباً لكثير ممن لا يعلمون: {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[٥٨].

٦ . عدم التعصب فيه إلى حد ما يكره الحق سبحانه:{ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ}[٥٩].

وقد يكون الانتقام لتعذيب الكافر بالآلام في الدنيا والآخرة فليظهر فيه مقتضى اسمه المنتقم، في الدنيا يكون الانتقام على عدة صور منها أن المنتقم ينصر المؤمنين على الكافرين مع غير توقع أي أن يكون الكافرون أكثر عدداً وأقوى عدة بما يخلق في نفوسهم يقيناً بالنصر إلا أنهم يخذلون بانتقامه سبحانه منهم بأيدي عباده المؤمنين فحيل بهم عذاب الانتقام الدنيوي: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ}[٦٠]، وقد يكون الانتقام في الدنيا بإلحاق الخزي بالكافرين: {فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ}[٦١]، وقد يكون بإرسال الشياطين عليهم لتفسد أعمالهم وتجعلهم في ضلالة على ضلالتهم :{ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا}[٦٢]، أما في الآخرة خصص له المنتقم عذابا مهينا: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا}[٦٣].

---

[٥٨] الأنفال ٨.

[٥٩] المائدة ٧٧.

[٦٠] التوبة ٢٥-٢٦.

[٦١] التوبة ٢.

[٦٢] مريم ٨٣.

[٦٣] النساء ١٥١-١٥٢.

ويكون الانتقام ليشقي عبداً عاداه ويسعد آخر والاه وذلك بأن يجعل بعض انتقامه ينزل بالمعتدي في الدنيا كالذل: {وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[٦٤]، وكذلك بإلحاق اللعنة بهم: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ}[٦٥].

وكذلك للمحافظة على التوازن بين قوى البشر بإيقاف الطغيان عند حده وذلك بالانتصار لأصحاب الحق فيفرح ويسعد بذلك المؤمنون: {وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ}[٦٦]، والخليفة دوره يتمثل في فهم غايات الانتقام للعمل بها، فلا يكون انتقامه من أعدائه إلا حقاً وليس بدافع الهوى كرها في بعض وحباً لبعض، وعليه إدراك دوره في المحافظة على التوازن بين قوى الناس متذكراً صفة البطش التي يعمل بها بعض العباد فيكون لهؤلاء نداً لنصرة المستضعفين وحفاظاً على حياة متوازنة لا يطغى فيها أحد على آخر، ويحرص على أن يُعمل بالحق.

وانتقام المنتقم يحل بالمستحق لأن اسمه المنتقم يقتضي وجود من يستحق الانتقام، فمن هو المستحق للانتقام ولماذا.

يجب أن نعرف أولاً أن الداعي الأول لانتقام المنتقم هو إغضابه بفعل أو قول، فعندما يرتكب العبد ما يغيظ الله سبحانه وتعالى يحل به الانتقام، والغيظ هو شدة الغضب الكامن[٦٧]، وإذا وصف به الله سبحانه فإنه يراد به الانتقام، قال تعالى: {وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ}[٦٨]، أي: غائظون

---

[٦٤] البقرة ٦١.

[٦٥] المائدة ٧٧-٧٨.

[٦٦] الحج٤١-٤٢.

[٦٧] نجعة الرائد وشرعة الوارد في المترادف و المتوارد، إبراهيم اليازجي اللبناني ج ١، ص ١٦٨.

[٦٨] الشعراء ٥٥.

بغضبهم، ويحمل المعنى الدلالي للفظة الغيظ فهماً دقيقاً لمعنى الانتقام، فهو شدة الغضب مما يدل على كثرة الكفر والعصيان من قبل العبد المستحق للانتقام، وكذلك يدل على شدة تمسك وإصرار هذا العبد على تلك الأفعال، كما تدل لفظة الكامن على التأني الذي يوحي بالمهلة والتي فيها ينذر المنتقم عباده ويذكرهم، كما فعل سبحانه مع فرعون وقومه فقد أرسل إليهم موسى عليه الصلاة والسلام داعياً إلى الحق ومنذراً من انتقام المولى عز وجل: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[٦٩] ، ثم ذكرهم بالآيات التي تناسب فهمهم وما كانوا يؤمنوا به على أنه حجة وبرهان: {قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ}[٧٠]، فلما واجهوا ذلك بالكفر والإصرار بلغ غضب المنتقم حد الغيظ فاستوجب الانتقام من هؤلاء على كفرهم وإصرارهم: {فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}[٧١]، فَلَمَّا ءاسَفُونَا أي أسخطونا، وفي معناه ما قيل أي أغضبونا

---

[٦٩] الأعراف ١٠٤-١٠٥.

[٧٠] الأعراف ١٠٦-١٢٤.

[٧١] الزخرف ٥٥.

أشد الغضب أي بأعمالهم، والغضب عند الخلف مجاز عن إرادة العقوبة فيكون صفة ذات أو عن العقوبة فيكون صفة فعل.

وذكر الراغب أن الغيظ هو الأسف الحزن والغضب معاً[٧٢]، وعلى الخليفة أن يستقي فهمه للانتقام من هذه الآيات حتى يكون انتقامه حقا لأن الفرق بين الانتقام الحق والانتقام الباطل هو في دلالته التي علمها المنتقم لخليفته، فعندما يكون الانتقام لفورة غضب ولفعل واحد يكون باطلا، وعندما يكون بلا إنذار ولا تذكير يكون باطلاً، وعندما تكون غايته شخصية بحتة وليس لغاية عامة يكون باطلاً، من هنا وجب على الخليفة التمييز والعمل بالانتقام الحق.

ولابد لنا أن نستعرض من حل بهم الانتقام لنعرف بمن يحل ويحل:

١- المشركون: وهم الذين يقرون بوجود الله إلا أنهم يقولون بوجود إله غيره، وباختلاف المسميات، فمنهم من جعل الهة سماها من قبيل هواه: {أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثَى تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى}[٧٣]، ومنهم من جعل له شركاء في الملك من الجن: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ}[٧٤]، أو من خلقه بشراً كانوا أم ملائكة: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا}[٧٥]، وهم في كل تخرصاتهم هذه أنما يدّعون حُجَّةً واهيةً ليس لهم فيها وجه حق، قال تعالى: {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ

---

[٧٢] تفسير الالوسي، ج ١١، ص ١٥٢.

[٧٣] النجم ١٩-٢٣.

[٧٤] الأنعام ١٠٠.

[٧٥] النساء ١٧١.

زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[٧٦]، هنا يحق الانتقام على هؤلاء المدّعين بغير حق ولا علم، وهو ما تكفل به المنتقم فقال لرسوله: {وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٧٧]، يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: لا يحزنكَ، يا محمد، قول هؤلاء المشركين في ربهم ما يقولون، وإشراكهم معه الأوثان والأصنام فإنّ العزة لله جميعًا، يقول تعالى ذكره: فإن الله هو المنفرد بعزة الدنيا والآخرة، لا شريك له فيها، وهو المنتقم من هؤلاء المشركين القائلين فيه من القول الباطل ما يقولون، فلا ينصرهم عند انتقامه منهم أحدٌ، لأنه لا يُعَازُّه شيء وهو السميع العليم، ذو السمع لما يقولون من الفرية والكذب عليه، وذو علم بما يضمرونه في أنفسهم ويعلنونه، وهو عالم الغيب والشهادة لا إله إلا هو.

والغاية من هذا الانتقام وضع حد لكل الادعاءات الباطلة تجاه الحق البيِّن، وهنا يأتي دور الخليفة في فهم هذه المسألة فيجب عليه وضع حد للمدعين لما لهذه الادعاءات من تأثير سيء على العباد وهم يقومون بما أمرهم الله به من عبادة وإعمار للأرض، فيخصص لكل مدعٍ منهم انتقاما يوقفه عند حد الحق الذي يجب على الخلفية أن يحرص على سيادته.

٢ . المُصرّون على أفعال الفواحش والمنكرات: وهذا الإصرار غالباً ما يحصل بعد سابق الإنذار عند ذاك وجب الانتقام من هؤلاء المصرين لما في إصرارهم من تحدٍ لإرادة المنتقم الذي نبه وأنذر ورغّب من أجل أن لا يقع العبد في الإصرار على فعل الفواحش: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[٧٨]، إما المستغفرون بعد فعلها سيجدون الله غفورا رحيما،

---

[٧٦] الزمر ٢–٣.

[٧٧] يونس ٦٥.

[٧٨] آل عمران ١٣٥.

لكن الكثير من العباد يُقبل على الإصرار أكثر من إقباله على الترك فينزل به انتقام المنتقم: {ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآَخَرِينَ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}[٧٩].

ومن وجوه الإصرار المؤدي إلى الانتقام التعمد مع النهي المسبق، يقول المنتقم جل وعلا: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ }[٨٠]، وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمّداً مذكور في معرض الشرط، وعند عدم الشرط يلزم عدم المشروط فوجب أن لا يجب الجزاء عند فقدان العمدية قال: (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله مِنْهُ)، ومن لم يعد فعفى الله عما سلف، والانتقام إنما يكون في العمد دون الخطأ وقوله (وَمَنْ عَادَ) المراد منه ومن عاد إلى ما تقدم ذكره، وهذا يقتضي أن الذي تقدم ذكره من القتل الموجب للجزاء هو العمد لا الخطأ[٨١]، وهذه الآية تعطي توضيحاً دالاً على الانتقام الحق فتجعل التعمد شرطاً أساساً للانتقام وبدونه يسقط كل عمل لم يكن العمد فيه أصلاً له من حد الانتقام.

٣ . الطغاة: وهم الذين لا يحمدون على نعم هم فيها ويتجاوزون الحدود دون مراعاة للآخر، يرون في أنفسهم كل شيء وهم نواقص، وهي صفة تقترن في الغالب بمُلك أو بكثرة مال أو بقوة بدن، مع عدم اعتبار للعباد، ولنأخذ حال فرعون الذي طغى في الأرض التي خلقت ليكون الإنسان عليها خليفة، قال تعالى: {اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى}[٨٢]، الذي طغى مستنداً إلى ملكه: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[٨٣]، وقد ينظر الإنسان إلى كثرة ماله فيتوهم أن فيه قوة فيقع في الطغيان، {كَلَّا

---

[٧٩] الشعراء ١٧٢-١٧٣.

[٨٠] المائدة ٩٥.

[٨١] تفسير الرازي

[٨٢] طه ٢٤.

[٨٣] الزخرف ٥١.

إنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى}[٨٤]، وقد يكون لقوة البدن أثر في وقوع الإنسان في الطغيان، {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآَخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[٨٥]، وكل هذه المعطيات الثلاثة إنما هي من نعم الله، فأساء كل منهم التصرف في هذه النعمة التي خوله الله إياها فجعلها لخدمة هواه، فحق عليه الانتقام كونه عمل لدنياه ونسي آخرته، {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآَثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى}[٨٦]، حيث حول الطغيان هذه النعم إلى دروب الفساد الذي يؤدي بعضه إلى بعض، {الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}[٨٧]، ولهذا على الخليفة أن يتجنب الطغيان وأن يحاربه فهو فتنة بأسباب المذلة والاستعباد وعدم احترام الآخرين وتقديرهم. والخليفة بطبيعته الإيمانية متقي لله تعالى، طائع له سجودا وركوعا، وقولا وفعلا، مبشر بالخير وداعي له ومصلح في كل أمر، وعادل بين الناس إن دعوه لحكم، عازما على أن يكون من الوارثين في الجنة، ولهذا فمخافة الله بين عينه في كل ما يرى، وعلى لسانه في كل ما يقول، وفي سمعه وحسه كلما استمع لشيء يُذكِّره بفضل الله عليه، وكل ذلك لأنه يعلم وهو مؤمن بقول المنتقم جل جلاله، {هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآَبٍ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ}[٨٨].

أما على صعيد المال فالخليفة مكلف بالإنفاق من هذا المال دون أن يطغى، والطغيان في المال على وجهين، إما أن يستأثر به لنفسه بخلا من عند نفسه فلا يتصدق ولا يحسن العمل

---

[٨٤] العلق ٦-٧.

[٨٥] المائدة ٢٧-٣٠.

[٨٦] النازعات ٣٧-٣٩.

[٨٧] الفجر ١١-١٤.

[٨٨] ص ٥٥-٥٦.

فيه مما يؤدي به إلى الفساد ثم الطغيان الموجب للانتقام، {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}[٨٩]، وإما أن ينفقه في غير ما أمره الله فينفقه على الملذات والمفاسد فيصبح عند ذاك من المسرفين، والمنتقم لا يحب المسرفين: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[٩٠]، أو قد يصبح من المبذرين وهو من إخوان الشياطين كما وصفه المنتقم في قوله تعالى: {وَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[٩١]، لا حول ولا قوة إلا بالله، اللهم اجعلنا من الطائعين المستخلفين فيها ولا تجعلنا من المفسدين والطاغين على العباد، وهب لنا من لدنك رشدا، من الآية الكريمة السابقة العلاقة واضحة بين التبذير وأعمال الشياطين التي تهتز منها الأبدان، ولذلك فإن الطاغين ملعونين مثل ما تُلعن الشياطين، حفظنا وإياكم منها ومن وسوستها وفتنتها وحفظ أولادنا وأزواجنا وأخوتنا ومن له حق علينا بالدعاء وحفظ أموالنا من اعتداءاتهم وتخريبهم.

---

[٨٩] القصص ٧٦-٨١.

[٩٠] الأنعام ١٤١.

[٩١] الإسراء ٢٦-٢٧.

وعلى الخليفة أن يعلم علم اليقين أن قوة البدن من نعم الله سبحانه يجب توجيها في طاعة الله وتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه، وفي إحقاق الحق ومحاربة الظلم: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }[٩٢] .

ويجب على الخليفة أن يوقن بأن جزاء الطغيان هو الانتقام في الدنيا كما حصل مع فرعون: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}[٩٣]، وانتقام في الآخرة من كل الطغاة، {إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَآبًا}[٩٤].

٤ – الظالمون: الظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به؛ إما بنقصان أو بزيادة؛ وإما بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير، ولذلك قيل لآدم في تعديه ظالم وذلك في قوله تعالى: {ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين}[٩٥]، وعليه فمن يُنهى عن شيء ضار ولم ينته عنه سيكون من الظالمين، ومن يعرف شيء ضارا وهو لا يتخذ الحيطة والحذر تجاهه سيكون من الظالمين أنفسهم، ولهذا فالظلم يمكن أن يكون للنفس ويمكن أن يكون للآخرين مصداقا لقوله تعالى: {قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ

---

[٩٢] البقرة ٢٤٧.

[٩٣] يونس ٩٠–٩٢.

[٩٤] النبأ ٢١–٢٢.

[٩٥] البقرة ٣٥.

وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ يَا بَنِي آَدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآَتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آَبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}[٩٦].

والظلم ثلاثة أنواع:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال تعالى: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}[٩٧]، وإياه قصد بقوله: {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}[٩٨].

والثاني: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[٩٩]، وبقوله: {إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ}[١٠٠].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: {فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ}[١٠١]، وقوله: {ظَلَمْتُ نَفْسِي}[١٠٢].

هذه مظالم يترتب على مرتكبيها ملاقاة أفعال الانتقام من الله المنتقم جل جلاله، وإلا هل يعقل أن يكفر الإنسان بربه أو يشرك به أو يفعل ظلما ويتركه هكذا يعبث دون أن يراعي حرية الآخرين وكرامتهم، إنه العادل في ملكه، ولهذا الانتقام من الظالمين فعل خير يقوم به الخليفة

---

[٩٦] الأعراف ٢٣ ـ ٣٠ .

[٩٧] لقمان ١٣.

[٩٨] هود ١٨.

[٩٩] الشورى ٤٠.

[١٠٠] الشورى ٤٢.

[١٠١] فاطر ٣٢.

[١٠٢] النمل ٤٤.

فيجازيه الله عليه حسنات كثار، ولذا فمن العيب أن يسكت الخليفة على أفعال وأعمال الطغاة العابثين في الأرض فسادا، كيف يسكت والله تعالى استخلفه ليصلح فيها ولا يفسد، ولأنه المهتدي بالحق للحق فلا يمكنه أن يسكت على أعمال المفسدين، فإن سكت على ذلك قد تلاحقه اللعنات كما تلاحق أولئك الشياطين الذين ربط المعنى بينهم كما سبق ذكره وبين الطغاة والظالمين.

الخلفاء هم الذين يقمعون الطاغين والمفسدين والظالمين وسافكي الدماء في الأرض بغير حق، ولأن الظالمين هم منكرون للحق والعدل واعتبار الآخرين من بني جنسهم وهم أيضا منكرون لفضله عليهم بالنعم الواسعة وإشراك بالله، وإنكار ما جاءت به الرسل تبشيراً وإنذاراً جعل الانتقام موجباً بحقهم، وهم كثر ذكرهم المنتقم في كتابه ليكونوا عبرة للمعتبر: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}[١٠٣]، والكثير منهم حلَّ الانتقام بهم في الدنيا قبل الآخرة، كأصحاب شعيب: {وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ}[١٠٤]، وقد نجي صالح والذين معه وكان انتقامه في مقابل ذلك من الظالمين مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}[١٠٥]، وغيرهم ممن أصابهم الانتقام لظلم عظيم وقعوا فيه وهو الإشراك بالله العزيز الحكيم.

---

[١٠٣] هود ٦٦ ـ ٦٨.

[١٠٤] هود ٩٤.

[١٠٥] هود ٦٦–٦٨.

قال تعالى: {والظالمين أعد لهم عذابا أليما}١٠٦، وقد يكون الانتقام من هؤلاء باختيار الفتنة لهم لتزيدهم ظلماً فيزيدهم جزاء ذلك انتقاماً مصداقا لقوله تعالى: {واتقوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذين ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً}[١٠٧]، فالفتنة تصيب الظالمين خاصة وقد تصيب بعض من المؤمنين على سبيل الاختبار والامتحان.

٥ – المجرمون: هم الذين يرتكبون الأفعال والأعمال المحظورة دينا أو عرفا، وفي هذا تعدٍ على أصول الفضائل والقيم الخيرة التي يرتضيها الناس، وفي ذلك تعدٍ لحدود الله تعالى أو حدود الناس وهذه الذنوب التي يرتكبها المجرمون فيحق عليهم الانتقام، فقد يكون ذنب المجرمين التكذيب مع وجود الآية الدالة على المصدق: {فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}[١٠٨]، وقد يكون الذنب الإعراض بمعنى عدم الاهتمام: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ}[١٠٩]، وربما يكون الذنب الموجب للانتقام هو الافتراء الباطل: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}[١١٠]، وهذه كلها من صور انتقام المنتقم في الدنيا، وليس ذلك أقصى ما يستحق هؤلاء فهناك انتقام الآخرة الذي يصفه المنتقم بآيات يذهل لها اللب، ويدمي منها الفؤاد لسوء ما اختار المنتقم للمجرمين من منقلب: {وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ

---

[١٠٦] الإنسان ٣١.

[١٠٧] الأنفال ٢٥.

[١٠٨] الأحقاف ٢٤–٢٥.

[١٠٩] السجدة ٢٢.

[١١٠] هود ٥٠–٥٣.

إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا}[١١١].

المجرم هو المتنصل من الأخلاق والمتجني عليها، رافضاً ومتمرداً أو قاتلاً بغير حق وكذلك يؤفكون، والمنصوص عليهم في الآية من المفترين على الله الكذب، إذ جعلوا لله ولداً بهتاناً من عند أنفسهم، وأصروا على ذلك مع شدة التنبيه والتوبيخ والزجر، {وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}[١١٢]، وعلة الانتقام ليست في كونهم ادّعوا ابناً لله فقط وإن كانت كافية للانتقام، بل في إشراكهم بالله فجعلوا هذا الابن إلها يعبدونه: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}[١١٣] .

وقد يكون التكذيب المطلق وعدم الاستماع لما جاء من الحق من كتب الرسل من ذنوب المجرمين التي تجعل الانتقام يحل بهم، {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا}[١١٤]، وصورة الانتقام البادية في الآية تتضح في قول المنتقم فدمرناها أي تدميراً عجيباً هائلاً لا يُقدّر قدره ولا تُعرف حقيقته، فهو أعلى درجات الهلاك الذي ليس بعده جبر أو إصلاح.

---

[١١١] مريم ٨٦-٩٣.

[١١٢] التوبة ٣٠.

[١١٣] المائدة ١١٦.

[١١٤] الفرقان ٣٦.

٦ – الكافرون: هم الرافضون المنكرون للشيء مع أن وجوده بيِّن لا تخفيه خافية، فهم يحاولون إظهار الباطل على حساب الحق، وفي ذلك معصية لا تجد إليها سبيلاً إلا في جهنم، أجارنا وإياكم منها. والكُفرُ: نقيض الإيمان. وكَفَروا، أي: عصوا وامتنعوا، وهو أيضا نقيض الشكر، والكُفرُ أربعة أنواع:

النوع الأول: كُفرُ الجحود مع معرفة القلب: مصداقا لقوله عز وجل: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[١١٥].

والنوع الثاني: كُفْرُ المعاندة: وهو أن يعرف بقلبه، ويأبى بلسانه.

النوع الثالث: كُفْرُ النفاق: وهو أن يؤمن بلسانه والقلب كافر.

النوع الرابع: كُفْرُ الإنكار: وهو كُفْرُ القلب واللسان[١١٦].

كل هذه الأنواع موجبة للانتقام، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}[١١٧]، للكافرين أمثالها بمعنى أن الانتقام حاضر لكل من يكفر بالله في أي زمان وفي أي مكان.

والكفر بكل أنواعه مما يمقته الله في عبده وذلك لعلة هي، أن الله اصطفى آدم ليكون خليفة في الأرض وفضله على كل مخلوقاته للقيام بهذا الأمر فإذا به يكفر وينكر ويعاند ويجحد، وهو الخسران في الدنيا والآخرة، {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا}[١١٨]، ومن يمقته الله ينزل به الانتقام لامحالة.

ومن وجوه الكفر الموجبة للانتقام هو مشايعة الكافرين، بمعنى القول بقولهم أو الفعل بفعلهم صغيراً أم كبيراً، لأن في ذلك مناصرة للباطل على الحق والآية الدالة على ذلك تلك التي تشير

---

[١١٥] النمل ١٤.

[١١٦] معجم العين، ج ١، ص ٤٤٠.

[١١٧] محمد ١٠.

[١١٨] فاطر ٣٩.

إلى ابن سيدنا نوح عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}[١١٩]، فمشايعة الكفار مما نهى عنه المنتقم، فلا نتخذهم أولياء: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}[١٢٠]، وصيغة التحذير الواضحة في الآية تنبه المصرين على هذا التولي إلى عاقبة ذلك، وتذكرهم بغضب الله الموجب للانتقام: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ}[١٢١].

وقد يكون الانتقام من الكافرين بيد عباد الله المؤمنين آية من المنتقم على قدرته على الانتقام من الكافرين بكل السبل: {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[١٢٢].

٧ . الماكرون: المكر بين الناس، مخادعة من ورائها فتك وتهلكة، قال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[١٢٣]، ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل، وهم الذين ذكر الله أنّ عيسى أحسّ منهم الكفر، وفي مقابل مكرهم مكر الله بهم، بأن سلّم الله عيسى من أن يؤذوه، وعلى ذلك قتلوا الشبيه وهم يُرَوْنه وكأنه عيسى وصَلبوه، فذلك قول الله عز وجل: {وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ}[١٢٤]. أي ما يودونه من مكر بموسى عليه الصلاة والسلام لم يتحقق

---

[١١٩] هود ٤١-٤٣.

[١٢٠] آل عمران ٢٨.

[١٢١] الممتحنة ١٣.

[١٢٢] البقرة ٢٥٠.

[١٢٣] آل عمران ٥٤.

[١٢٤] النساء ١٥٧.

وذلك برفع الله إليه سالما، وأما مكر الله بهم: فإنه إلقاؤه شبَه عيسى على بعض أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى، وهم يحسبونه عيسى، وقد رفع الله عز وجل عيسى قبل ذلك، وعليه فالمنتقم جل جلاله لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، وهو يعلم السرَّ والنجوى، ولهذا مكر بمكرهم فأبطله ودمغه بالحق فإذا هو زاهق؛ (والله خير الماكرين) بمعنى أن مكر الله دائما هو لأجل الخير، ومن هم غيره مخلوقون، والمخلوق لا يقارن بخالقه أبدا، والخالق خَلق كل شيء من أجل الخير، والمخلوق في كثرته يفسد ما يراد له أن يكون من أجل الخير إلا المستخلفين فيها فهم مصلحون.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}[١٢٥]، إنه مكر الكافرين بمحمد عليه الصلاة والسلام، لأجل أن يعيقوا مسيرته في الدعوة والهداية للحق، سواء بسحرك يا محمد أو بقيدك وسجنك أو قتلك، وهذه بدائل يظنون أنها الكافية بذلك، ولكن يريد الله أن يتم دينه ونوره ولو كره الكافرون والمشركون والمجرمون والفاسقون مصداقا لقوله تعالى: {وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[١٢٦]، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ}[١٢٧]، مهما مكر الماكرون بالفاعلين للخيرات لن ينجحوا في مكرهم، فمكرهم لابد وأن يفشل ويبور ولا يتحقق له النجاح، فالنجاح لا يتحقق إلا بالعمل الصالح. وعلى الخليفة أن يعمل صالحا في مرضاة الله ولا يخشى أحدا في ذلك مهما مكر الماكرون فالحق لابد وان يدمغ الباطل حتى يزهقه والحمد لله رب العالمين.

---

[١٢٥] الأنفال ٢٩، ٣٠.

[١٢٦] الأنفال، ٧، ٨.

[١٢٧] فاطر ١٠.

٨ . المكيدون: قال تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}[١٢٨]. الذين يحيكون المكائد للرسول والذين آمنوا، من أجل أن يعيقوا مسيرتهم وهم مبشرون ومنذرون وداعون للدين الحقن، وأولئك المعوقون هم الذين أصبح كيدهم في نحرهم، أي أن الله ناصر جنده ولا يخلف وعده، فكان كيده لكيدهم آية، فآمن من لم يُعتقد أن يؤمن، فمهلهم يا محمد قليلا سيرون العذابين في الدنيا على يديك والمؤمنين وفي الآخرة عذاب الحريق، وسيرون النتيجة أنك المنتصر ومن معك بإيمان وأنهم لمهزومون.

٩ . آكلوا الربا: قال تعالى: {الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[١٢٩]، فلننظر العلاقة القوية بين الذين يأكلون الربا وبين الذين يتخبطهم الشيطان من المس، أي سيكون الانتقام منهم كما ينتقم الشيطان من الذي مسه فيجعله يتخبط لا يملك زمام أمره فيضل سبيله وهو فاقد للإرادة التي تمكنه من أن يدرك حاله. قال تعالى: (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) المحق: إنقاص مع احتقار وتقليل شأن، فالله يقلل الربا ويحتقر صاحبه المنقوص عن الهداية للحق، ولذلك نهى الله عز وجل عن التعامل بالربا وبارك في الصدقات لتتضاعف حسناتها، وأحل البيع الذي فيه مكارم

[١٢٨] الطارق ١٥ ـ ١٧.

[١٢٩] البقرة ٢٧٥ ـ ٢٨١.

الأخلاق، ومن لم يهتدِ وعاد إلى ما كان عليه من كفر بالنعمة وحقوق الناس فالمنتقم سيكون له بالمرصاد فيجعل أولئك المتعاملين بالربا في نار جهنم وهو أعظم انتقام، وفي مقابل ذلك الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فالذين سيحزنون هم أولئك الكفرة الفجرة الذين يتعاملون بالربا فهؤلاء كمن يأكل في بطنه نارا. وبعد الإيمان يجب أن لا يتعامل المؤمن بالربا، فعليه بالاستغفار والتوبة ولا يعود إليه ثانية فالله غفور رحيم، ومن لم يتب بعد ذلك فسيكن حسابه عسيرا في الدارين في الدنيا من الله ورسوله والمؤمنين حقا، وفي الآخرة سيكون من الخاسرين الذين خسروا الجنة التي يفوز بها من اتقى ربه في الدار الدنيا.

١٠ . العصاة: قال تعالى: {وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[١٣٠] المنتقم جل جلاله باء بغضبه الكفرة وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، ولذلك فالغضب الحق يؤدي إلى الانتقام المحق للحق. قال تعالى: {لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[١٣١] اللعنة حكم مستمر حتى تنفيذ الحكم كفعل وهو العقاب الشديد وبذلك يحق الحق، ثم يكون العقاب بعد الحساب العادل والحمد لله رب العالمين.

١١ . المطففون: قال تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ

---

[١٣٠] البقرة ٦١.

[١٣١] المائدة ٧٨ ـ ٨١.

الْعَالَمِينَ}[١٣٢]. الويل ضمان لحصول العقاب لا محالة، وهو حكم صادر في انتظار التنفيذ الذي لا يمكن أن يفلت صاحبه منه، والمطففون هم الخاسرون الذين يقللون في الوزن والمكيال. ولهذا فالخليفة هو الذي يتقي الله خوفا من أية مظلمة، وهو الذي يعلم علم اليقين أن المطففين هم الخاسرون، فلا يطفف في الميزان ولا ينقص المكيال، وإذا حكم بين الناس حكم عدلا.

١٢ – الفاسقون: الفِسْقُ: الترك لأمر الله، الفِسْقُ، بالكسرِ التَّرْكُ لأَمْرِ اللهِ تعالى، والعِصْيانُ، والخُروجُ عن طَرِيقِ الحَقِّ[١٣٣]، وهو في الغالب الأعم يأتي بعد نعمة وفضل كبيرين ينعم بهما رب العزة ويقابلها بالجحود لا بالشكر، فالانتقام على هذا يأتي بعد عمل مستَحق للانتقام كمثل الخروج على النعمة مع عظم فضلها، فالعبد محتاج أيما حاجة إلى نعم الله فإذا رزقه البارئ حاجته ثم زاده وتفضل عليه بالبركة والزيادة نسي وأنكر ثم زاد بالخروج على أمر الله فسقاً، ويفصل لنا المنتقم هذه المسألة التي تفسر الانتقام من الفاسقين: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}[١٣٤]، وفي هذه الآية مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) في تفسير هذا الأمر قولان:

القول الأول: أن المراد منه الأمر بالفعل، ثم إن لفظ الآية لا يدل على أنه تعالى بماذا يأمرهم فقال الأكثرون: معناه أنه تعالى يأمرهم بالطاعات والخيرات، ثم إنهم يخالفون ذلك الأمر ويفسقون وقال صاحب «الكشاف» : ظاهر اللفظ يدل على أنه تعالى يأمرهم بالفسق فيفسقون، إلا أن هذا مجاز ومعناه أنه فتح عليهم أبواب الخيرات والراحات فعند ذلك تمردوا وطغوا وبغوا قال والدليل على أن ظاهر اللفظ يقتضي ما ذكرناه، أن المأمور به إنما حذف لأن قوله؛ (فَفَسَقُواْ) يدل عليه؛ لأنا نقول: إن المعصية منافية للأمر ومناقضة له، ففسق يدل على أن

---

[١٣٢] المطففين ١ ـ ٦.

[١٣٣] القاموس المحيط ج ٣، ص ٣.

[١٣٤] الإسراء ١٦.

المأمور به شيء غير الفسق لأن الفسق عبارة عن الإتيان بضد المأمور به فكونه فسقاً ينافي كونه مأموراً به، كما أن كونها معصية ينافي كونها مأموراً بها، فوجب أن يدل هذا اللفظ على أن المأمور به ليس بفسق، والمعنى أمرناهم بالأعمال الصالحة وهي الإيمان والطاعة والقوم خالفوا ذلك الأمر عناداً وأقدموا على الفسق أو أصروا على أفعاله.

القول الثاني: في تفسير قوله تعالى: (أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا) أي أكثرنا فساقها. وأما المترف: فمعناه في اللغة المتنعم الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش (فَفَسَقُواْ فِيهَا) أي خرجوا عما أمرهم الله به: (فَحَقَّ عَلَيْهَا القول) يريد: استوجبت العذاب، فعند ذلك استوجبوا الإهلاك المعبر عنه بقوله تعالى: (فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا) ولهذا فالتدمير حق لأنه في مواجهة فسق، وعلى المستخلفين في الأرض أن لا يتأخروا عن أعمال الخير بما فيها تدمير الفاسقين والمفسدين وأوكار الفسق والفساد، أي أهلكناها إهلاك الاستئصال. والدمار هلاك على سبيل الاستئصال.

وظاهر الآية يدل على أنه تعالى إنما خص المترفين بذلك الأمر لعلمه بأنهم يفسقون، وتدل سائر الآيات على أنه تعالى لا يبتدئ بالتعذيب والإهلاك لقوله: {إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حتى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ}[١٣٥]، وقوله تعالى: {مَّا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءامَنْتُمْ}[١٣٦]، وقوله تعالى: {وَمَا كُنَّا مُهلكي القرى إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظالمون}[١٣٧]، ولهذا الإهلاك هو للمظالم والمفاسد ولأعمال الفسق في الأرض، فكل هذه الآيات تدل على أنه تعالى لا يبتدئ بالإضرار، والحاصل أن المعنى: وإذا أردنا أن نهلك قرية بسبب علمنا بأنهم لا يقدمون إلا على المعصية لم نكتف في تحقيق ذلك الإهلاك بمجرد ذلك العلم، بل أمرنا مترفيها ففسقوا، فإذا ظهر منهم ذلك الفسق فحينئذ نوقع عليهم العذاب الموعود به[١٣٨].

---

[١٣٥] الرعد ١١.

[١٣٦] النساء ١٤٧.

[١٣٧] القصص ٥٩.

[١٣٨] تفسير الرازي، ج ١٠، ص ٢١.

وجزاء الفسق الانتقام كما يخبرنا المنتقم في محكم آياته: {فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا آَسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ}[١٣٩].

والنفاق هو وجه آخر للفسق، {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[١٤٠]، فالمنافقون هم الذين يظهرون ما لا يبطنون، وهكذا أظهر البعض إيمانا وهم يكنون في صدورهم كفرا وشركا، وفي هذا الإظهار والبطون مخادعة مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آَمِنُوا كَمَا آَمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آَمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ}[١٤١] فالمنافق إنما يمكن له أن يخدع الكثير من المؤمنين بإسراره الكفر، مما يوقع الوهم في نفوس من حوله من المؤمنين، وقد يتمكن المنافق من إدخال الوهن إلى نفوس المؤمنين فيثبطونهم عن القيام بما أمرهم الله به من طاعة ومعروف، لذلك كان انتقام العزيز الحكيم منهم شديداً مخيفاً ترتجف عند ذكره القلوب، يقول المنتقم محذراً ومخوفاً: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا}[١٤٢]

الانتقام وأنواعه:

---

[١٣٩] الزخرف ٤٥–٥٥.

[١٤٠] التوبة ٦٧.

[١٤١] البقرة ٨ ـ ١٦.

[١٤٢] النساء ١٤٥.

الانتقام هو سلب النعمة بالعذاب[١٤٣]، أي أن الانتقام يلي نعمة سابقة من منعم، ثم تُسلب هذه النعمة عقاباً على ذنب عظيم، ويمكن تلمس الجحود والإنكار من قبل المُنعَم عليه تجاه المنُعِم بنكران النعمة التي خوله إياها، وهذا ما استشعره الصالحون فوقفوا عند حده إحساسا منهم بقدرة المنتقم على سلب النعم، فعندما أدرك سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام بإمكان نكران النعمة بالنسيان والتغافل خاف المنتقم ففعل ما يوجب الشكر وذلك بالعودة عن ملاهي الدنيا إلى عبادة يتزود بها للآخرة قال تعالى: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ}[١٤٤].

وهذه النعم التي خول الله الإنسان الاستفادة منها سبقها عدم وفقر وعوز، ثم رزق الله الإنسان من نعمه، فإذا يقابلها كثير من الخلق بالنكران: {فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[١٤٥]، هذه العلاقة بين المعطيات الثلاثة (عدم – نعمة – نكران) توضح المسبب الأساسي لانتقام المنتقم بسلب هذه النعمة التي وهبت لمن عدم امتلاكها.

عليه يتضح أن فعل الانتقام مقصور على من وقع في مثل هذا السياق من الفعل، وأما من شكر ورضي وعبد فأولئك لا يصيبهم الانتقام: {الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[١٤٦].

وهذا الانتقام عندما يحل فإنه لا يدفع بأي وسيلة من الوسائل، فلا يمكن للمُنتقم منه أن ينتصر بأي حال من الأحوال، فلا يستطيع الانتصار لنفسه: {فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ

---

[١٤٣] الفروق اللغوية ، ج ١، ص ٧٧.

[١٤٤] ص ٣٠-٣٣.

[١٤٥] الزمر ٤٩.

[١٤٦] الانفال٤.

وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ}[١٤٧]، ولا يمكن لغيرة أن ينصره وإن رغبوا في الانتصار له: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}[١٤٨]، والمنتقم يتحدى من يتحداه فينزل انتقامه بالمستحق من عباد وهو يعلم أنه لا يرد، وفي آيات الانتقام تحدٍ واضح لمن يريد أن يكفر بأنعم الله وفيها أيضاً عبرة للمؤمنين تجنبهم الوقوع فيما وقع فيه المستحقون للانتقام، فهذه نعمتنا وهذا انتقامنا وتفكروا يا أولي الألباب، ولعل القصة التي يذكّرنا بها المنتقم في سورة الكهف حجة دامغة على استحقاق الانتقام بكل صوره لمن يكفر بالله: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا}[١٤٩]، فهذا العبد كفر بنعمة الله التي خوله إياها وتفضل عليه دون غيره، ثم قابل ذلك بنكران وإجحاف، هنا الانتقام منه حق لرد الاعتبار للمؤمن الذي حُرم من ذلك وهو في شكر مستمر لربه الرحمن الرحيم.

---

[١٤٧] الذاريات ٤٤-٤٥.

[١٤٨] القصص ٨١.

[١٤٩] الكهف٣٢- ٤٣.

ولهذا الانتقام صور غاية المنتقم من ذكرها إعطاء خليفته على الأرض حجة التذكير والتخويف والردع عن كل ما يكره المنتقم، وبالتالي يمكن له أن يتجنب هو، ويسعى لأن يتجنب غيره كل موجبات الانتقام.

وأول ما يشير إليه المنتقم سبحانه هو أن نوع الانتقام من جنس العمل الموجب له، كما ينص عليه المنتقم في كتابه الحكيم: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[١٥٠]، وأنواعه التي ذكرها المنتقم في هذه الآية الكريمة هي:

١ . الحصب: الريح العاصف التي فيها الحصى الصغار أو الثلج أو البرد والجليد حاصبا، ومنه قول الأخطل:

وَلقدْ عَلِمْتُ إذا العِشارُ تَرَوَّحَتْ. هَدَجَ الرّئالِ يَكُبُّهُنَّ شَمالا

تَرْمي العِضَاهَ بحاصِبٍ مِن ثَلْجِها. حتى يَبِيتَ على العِضَاهِ جُفالا.

وقال الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمالَ الشَّأْمِ تَضْرِبُنا. بحاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْثُورِ

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

(فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا) وهم قوم لُوط الذين أمطر الله عليهم حجارة من سجِّيلٍ مَنضُود.

٢ – الصيحة: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ}[١٥١]، {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ}[١٥٢]، ويلاحظ أن الانتقام بالصيحة يقترن بالإفاقة فهو في الصباح وبعد الشروق ولعلنا نلتمس لذلك تأويلاً، فهو يحل بهم وقت انتباههم ليعلموا أن هو الحق من ربهم،

---

[١٥٠] العنكبوت ٤٠.

[١٥١] الحجر ٧٢-٧٣.

[١٥٢] الحجر ٨٣.

ولو حل بهم ليلاً وهم نيام لأصابهم الهلاك من هول الصيحة ولما يعلموا حقيقة ما أصابهم من انتقام المنتقم.

٣ – الخسف: قال تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ) الذي خسفت به الأرض هو قارون.

٤ . الإغراق: قال تعالى: (وَمِنْهُم مَّنْ أغْرَقْنا) يعني: قوم نوح عليه الصلاة والسلام، وقد يكون أيضا فرعون وقومه الذين اتبعوه على الضلال.

هذه أنواع من الانتقام الشديد والمتأمل على سبيل تخيل وقوعه ليجزع جزعاً شديداً وليمتلكه خوف بادي مع يقين بأحقية هؤلاء لمثل هذا الانتقام، فقوم لوط كانوا يصرون على الإتيان بما يخالف الله، وما يخالف فطرتهم التي ذكرهم بها نبيهم: {وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ }[١٥٣]، ولابد من تفسير عرض لوط عليه الصلاة والسلام بالتفصيل ردا على ما يدعي بعض أعداء الإسلام من السوء على أنبياء الله، والمراد نساء أمته؛ لأنهن في أنفسهن بنات ولهن إضافة إليه بالمتابعة وقبول الدعوة، ويدل عليه وجوه:

الوجه الأول: إن إقدام الإنسان على عرض بناته على الأوباش والفجار أمر مستبعد لا يليق بأهل المروءة فكيف بأكابر الأنبياء.

الوجه الثاني: وهو أنه قال: (هَؤُلاء بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ) فبناته اللواتي من صلبه لا تكفي للجمع العظيم. أما نساء أمته ففيهن كفاية للكل. كما صحت الرواية أنه كان له بنتان، وهما: زنتا، وزعورا، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة. وقد دعاهم عليه الصلاة والسلام إلى التزوج بهن، وفيه قولان:

أحدهما: أنه دعاهم إلى التزوج بهن بشرط أن يقدموا الإيمان.

والثاني: أنه كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر في شريعته، وهكذا كان في أول الإسلام بدليل أنه عليه الصلاة والسلام زوج ابنته زينب من أبي العاص بن الربيع وكان مشركاً وزوج

---

[١٥٣] هود ٧٨.

ابنته من عتبة بن أبي لهب ثم نسخ ذلك بقوله: {وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[١٥٤]، لكنهم أبوا وعصوا أمر الرسول فحق الانتقام من هؤلاء: { فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ}[١٥٥]، وميزة هذا الانتقام- إضافة إلى ما ذكرنا من شدة وهول- أنه حاضر لكل من يخرج عن طاعة الله ظلما وعدواناً على حدود الله وحقوق العباد وفي كل زمان ومكان، وهذا ما يخبر به المنتقم منبهاً ومخوفاً للنفوس المريضة وواعظاً للخليفة ومن معه من أصحاب النفوس المؤمنة: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}[١٥٦].

وقد يكون يحل انتقام الرجم دون القلب كما حدث مع أصحاب الفيل وفي ذلك تقدير من العزيز الجليل، فالمكان الذي حل الانتقام بهم فيه بالقرب من مكة ولا يمكن أن يصيبه أمر القلب لان فيه بيت الله، كما أن الذنب الموجب للانتقام مخصوص بمرتكبيه وهم أصحاب أبرهة، أما أهل مكة فليسوا ممن ارتكب هذا الجرم العظيم لذلك لم يصبهم ومن هنا نتبيِّن أن الانتقام لا يكون إلا حقا لمن يتعدى حدود الله فكان الانتقام بالرجم بحجارة السجيل فقط مصداقا لقوله تعالى: {تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ}[١٥٧].

وإلى جانب ما ذكرناه هناك جنود مسخرون دائما لتنفيذ أمر الله بالانتقام ممن يحق القول عليهم بالنار وهؤلاء الجنود الكرام كثرة لا يعلمها إلا هو عز وجل، قال تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ}[١٥٨].

---

[١٥٤] البقرة ٢٢١.

[١٥٥] الحجر ٧٤.

[١٥٦] هود ٨٢-٨٣.

[١٥٧] الفيل ٤.

[١٥٨] المدثر ٣١.

وكذلك المطر، وهو من نعم الله على البشر وهو في نفس الوقت من جنوده التي لا يعلمها إلا هو من كثرتهم، قال تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}[١٥٩]، وذلك إرسال الله عليهم حجارة من سجيل من السماء. (فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ) فبئس ذلك المطر مطر القوم الذين أنذرهم نبيهم فكذّبوه. (إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً) إن في إهلاكنا قوم لوط الهلاك الذي وصفنا بتكذيبهم رسولنا، لعبرة وموعظة لقومك يا محمد، يتعظون بها في تكذيبهم إياك. وقال تعالى: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}[١٦٠].

وكذلك الصاعقة: التي تسقط من السماء فتضر بمن تقع عليه، وهي الصوت الشديد المكهرب، وقد اختص بها المنتقم قوما بعينهم وهم قوم ثمود الذين هداهم الله فلم يستمعوا ولم يعوا بالرغم من إنذار نبيهم المسبق من هذا الانتقام، لكنهم أصروا وأبدلوا الهدى بالضلالة: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}[١٦١]، وهو انتقام مذهل في كونه يحل بالتوازي مع الذنب في إشارة لا تخفى على المؤمن على أنه انتقام العليم الخبير، فأصحاب موسى تكلموا ورفعوا أصواتهم مطالبين برؤية الله جهرةً ظلماً من عند أنفسهم فحل بهم الانتقام موازياً لذنبهم بصوت الصاعقة الذي لا يوازيه في قوته صوت: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ}[١٦٢].

وانتقام الصاعقة كما يصفه المنتقم شديد وخاطف ولا يرد، إنذاراً من المنتقم للعباد لكي يحرصوا على عدم العمل بموجبات حلوله فيهم: {وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ}[١٦٣].

---

[١٥٩] النمل ٥٨.

[١٦٠] الفرقان ٤٠.

[١٦١] فصلت ١٧.

[١٦٢] البقرة ٥٥.

[١٦٣] الذاريات ٤٣-٤٥.

وكذلك الريح التي انتقم بها المنتقم من أعدائه أنواع، فمنها الريح الصرصر وهي الشديدة البرودة مصداقا لقوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}[١٦٤]، وشدة هذه الريح تُبيِّن نوع الذنب الموجب لمثل هذا الانتقام، فهي شديدة لتوازي شدة إصرار القوم على الكفر والعصيان بعد الآيات والنذر: {وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ}[١٦٥]، ونوع آخر هو الريح العقيم التي لا تُلْقِحُ شجراً ولا تُنْشِئُ سَحاباً ولا مَطَراً[١٦٦]: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ}[١٦٧]. إنها الريح التي تدمر ولا تعمِّر، لم تكن تلك المسخرة بحبيبات اللقاح أو المشبَّعة بالماء أو الناقلة السحب للأرض الجرز. ومع ذلك فإن النتائج المترتبة على الريح العقيم هي رحمة من الرحمن الرحيم على عباده المستخلفين فيها، وذلك لأنها هالكة للمهالك والذين ورائها، فهي لم تكن مرسلة على المستخلفين فيها، بل هي المرسلة على المفسدين فيها وسافكي الدماء بغير حق وهذه رحمة من المنتقم العظيم.

وكذلك البطش وهو الأخذ الشديد في كل شيء: بطش به. والله ذو البطشِ الشديد، أي: ذو البأس والأخذ لأعدائه[١٦٨]، وهذا النوع من الانتقام موازي لذنب يرتكبه العتاة من البشر كما وصفهم المنتقم في قوله تعالى: {وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ}[١٦٩]، فكان الانتقام ببطش أشد من بطشهم: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}[١٧٠].

---

[١٦٤] فصلت١٦.

[١٦٥] الحاقة ٦–٨.

[١٦٦] معجم العين ١، ٤١.

[١٦٧] الذاريات ٤١–٤٢.

[١٦٨] معجم العين، ج ٢، ص ٢٣٦.

[١٦٩] الشعراء١٣٠.

[١٧٠] الدخان ١٦.

وبعد فانتقام المنتقم ما حل بقوم إلا بعد نعم أنعمها ثم قوبلت بالكفر، وأمثلته كثيرة منها ما حل بقوم سبأ: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ}[١٧١]

ومنهم قوم نمرود: {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}[١٧٢]، ومعنى أتى الله بنيانهم استعارة بتشبيه القاصد للانتقام بالجاني نحو المنتقم منه، وقوله تعالى : (فأتى الله بنيانهم من القواعد) تمثيل لحالات استئصال الأمم، فالبنيان أي المبنى، وهو هنا مستعار للقوّة والعزّة والمنعة وعلوّ القدر. وفي إرسال سير العرم عَليهم آية على انفراده تعالى بالتصرف، وعلى أنه المنتقم وعلى أنه واحد، فلذلك عاقبهم على الشرك وما ارتكبوا من مظالم ومفاسد في الأرض.

والمنتقم يوعد من يعاديه بانتقام في الدنيا وفي الآخرة، وصور انتقام الآخرة أكثر هولاً من صور انتقام الدنيا، يقول المنتقم سبحانه: {إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً}[١٧٣]، والأنكال هي القيود التي لا يفلت منها فالت، والجحيم من حطب جهنم، والطعام ذو الغصة لِما فيه من معطيات الرفض لتناوله، الذي يمزق الحلوق مع شدة اللألم ومرارة المذاق وصعوبة البلع، والعذاب الأليم، هو العذاب الشديد المملوء بالأوجاع القاسية على أن تطاق، وهذه كلها جزاء مناسب لأولي النعمة، الذين لم يرعوا النعمة، ولم يشكروا المنعم عليهم بها.

ولأن في الآيات السابقة القول الرباني موجه إلى سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه فقال له بما في معناه: فاصبر يا محمد عليهم صبراً جميلاً، ودعهم فإن عندنا قيوداً تنكل بهم وتؤذيهم، وجحيماً تجحمهم وتصليهم، وطعاماً تلازمه الغصة في الحلق، وعذاباً أليماً في يوم مخيف، ثم

---

[١٧١] سبأ١٥-١٦.

[١٧٢] النحل ٢٦.

[١٧٣] المزمل ١٢-١٣.

يرسم مشهد هذا اليوم المخيف فيقول تعالى: {يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً}[١٧٤].

قال تعالى: {أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ}[١٧٥]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ}[١٧٦]، وصفهم المنتقم جل جلاله، بالصمم والعمى وما أحسن هذا الترتيب، وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل، لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى فإذا واظب على تلك الحالة أياماً أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى ، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية، روي أنه صلى الله عليه وسلم كان يجتهد في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا تصميماً على الكفر وتمادياً في الغي، فقال تعالى: (أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصم أَوْ تَهْدِي ألعمي) يعني أنهم بلغوا في النفرة عنك وعن دينك إلى حيث إذا أسمعتهم القرآن كانوا كالأصم، وهذه علامة كفر تستوجب الانتقام، وإذا أريتهم المعجزات كانوا كالأعمى، ثم بيّن تعالى أن صممهم وعماهم إنما كان بسبب كونهم في ضلال مبين.

ولما بيّن تعالى أن دعوته لا تؤثر في قلوبهم قال: (فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ) يريد حصول الموت قبل نزول النقمة بهم (فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ) بعدك أو نرينك في حياتك ما وعدناهم من الذل والقتل فإنا مقتدرون على ذلك، واعلم أن هذا الكلام يفيد كمال التسلية للرسول عليه الصلاة والسلام لأنه تعالى بيّن أنهم لا تؤثر فيهم دعوته واليأس إحدى الراحتين، ثم بيّن أنه لا بد وأن ينتقم

---

[١٧٤] المزمل ١٤.

[١٧٥] الزخرف ٤٠-٤١.

[١٧٦] الزخرف٣٦.

لأجله منهم إما حال حياته أو بعد وفاته، وذلك أيضاً يوجب التسلية، فبعد هذا أمره أن يستمسك بما أمره تعالى، فقال: {فاستمسك بالذي أُوحِىَ إِلَيْكَ}[١٧٧]، أي استمسك بالحق المبين الذي لا يدخله باطل وتوكل على الله في تمسكك به.

ويأتي الانتقام بصيغ غير مباشرة، وبغير لفظة الانتقام، ففي قوله تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}[١٧٨] ، قال سفيان الثوري وهو شديدُ المِحال بمعنى شديد الانتِقام[١٧٩].

وقد يشار إلى معناه كما في قوله تعالى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا}[١٨٠]، والمعنى نهاهم عن الطمع الذي يحملهم على الحيف والظلم على المستضعفين من النِّسْوان واليتامى، وبَيَّنَ أنَّ المنتقِمَ به لهم الله، فَمَنْ راقب الله فيهم لم يخسر على الله بل يجد جميل الجزاء، ومن تجاسر عليهم قاسى لذلك أليمَ البلاء[١٨١].

وبعد فإن الانتقام حق، له شروطه ليكون حق، وله صوره ولكل مستحق انتقامه الذي يليق بفعله، لذا فإن الخليفة مكلف بالقيام بالانتقام الحق الذي يتبع خطوات المنتقم الحق، في غاياته وصوره، ويجب أن يعرف أن هناك انتقاما باطلاً يجب أن يحذر الوقوع فيه فيكون من الذين كذبوا بالحق فيحل عليه انتقام المنتقم الحق جل جلاله: {فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[١٨٢] .

---

[١٧٧] الزخرف ٤٣.

[١٧٨] الرعد ١٣.

[١٧٩] لسان العرب ، ج١١، ص ٦١٦.

[١٨٠] النساء ١٢٧.

[١٨١] تفسير القشيري ٢، ٤٣.

[١٨٢] الزخرف ٢٥.

الانتقام في أساسه فعل لإحقاق الحق، فمن اتبع الحق في انتقامه كان من المستخلفين فيها الذين يصلحون ولا يفسدون ولا يسفكون الدماء بغير حق، ولا يجوز تسمية من يقترف ذنبا ويظلم به آخرين أن نسميه انتقاما، بل أن صفة الفعل التي تنطبق معه هي الظلم وفاعله ظالم، ولهذا المنتقم هو الذي لا يظلم أحدا، إما الظالم فهو الذي يتجنى على الآخرين بغير حق ويرميهم بما ليس فيهم ويرميهم بما لم يرتكبوا، مما يستوجب الانتقام منه لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ولأن الانتقام فعل خير فهو المستمد من المنتقم المطلق لكل خير، الله تعالى لا يمكن أن يظلم أحدا، الذي يظلم هو الذي لم يهتد إلى الأفعال الحسان، ولهذا فالفرق كبير بين من يفعل الأفعال الحسان حتى يتصف بها، وبين الذي يرتكب أفعال المظالم حتى يتصف بها، ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[١٨٣]، جاء استفسار الملائكة المكرَّمين للتبيان من الذي سيكون خليفة المصلح أم المفسد.!، وهم بهذا التساؤل ولثقتهم بأنفسهم أنهم لم يكونوا من المفسدين، والأرض بطبيعتها تتطلب المصلحين، فكانت الإجابة، في قوله تعالى: (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ

[١٨٣] البقرة، ٣٠ ـ ٣٧.

عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آَدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ).

وعليه فالخليفة هو من التزم بتعاليم الله، وهي التعاليم الثابتة التي نزلت آيات مفصَّلات لأولي الألباب، وهي المحتوية والمتضمنة في الكتاب المحفوظ الذي لا يأتيه الباطن من بين يده ولا من خلفه. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آَيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآَنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آَيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آَذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[١٨٤].

ولأن الانتقام رحمة فمن فعله نال من الدرجات الحسان التي يثيب الله عليها، اللهم اجعلنا من المحسنين ولا تجعلنا من المفسدين فيها ولا سافكي الدماء بغير حق، واجعل لنا الحق واجعلنا لإحقاقه ناصرين، ولا تجعلنا من المنتقم منهم واجعلنا من الذين ينتقمون من الباطل حتى يُحق الحق ولا يظلم ربك أحدا.

المنتقم عزيز والعزيز لا يقدم على الأفعال غير المبررة بموجبات الانتقام، ولذا فهو المُقدِم على الأفعال العظام، التي على رأسها إحقاق الحق وإزهاق الباطل. ولذا فالانتقام فعل خير لا يقدم عليه إلا خيرون، والخيرون هم المصلحون في الأرض أي أنهم المستخلفون فيها، قال تعالى:

---

[١٨٤] فصلت ٤٠ ٤٦.

{وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[١٨٥]، وقال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[١٨٦]. رب العزة لا يستخلف إلا عزيزا، والعزيز يأبى أن يكون كافرا ولا مشركا ولا ظالما ولا مجرما، بل إنه العادل الحق بما أمره الله تعالى والمنتهي عمّا نهاه عنه.

اللهم يا المنتقم اجعلنا على الانتقام من المفسدين في الأرض، واجعلنا قادرين على الانتقام من الذين يريدون الانتقام منا، اللهم يا المنتقم اجعلنا على القوة التي بها نتمكن من الانتقام من ضعفنا وجهلنا وهفواتنا وما يوسوس به الشيطان لنفوسنا، اللهم أنت بيدك الملك، ونحن صنعتك، تعلم ما فيه الخير لنا ما لا نعلمه لأنفسنا، وترى منّا ما لا نراه في أنفسنا، ليس في صفاتك الحسنى شر تعاليت على ذلك علوا كبيرا، فسميت نفسك المنتقم، ونحن نثق أن انتقامك عين نفعك، فنسألك يا الله أن تنتقم لنا ممن بغى علينا وأراد بالإسلام وبنا وبخلقك سوءا، اللهم إن أعداءك يكيدون كيدا فكد بهم كيدا، وأبطل كيدهم، واجعل تدبيرهم تدميرهم، ونعوذ بك من فجورهم وشرورهم، ونجعلك ربنا في نحورهم، وبانتقامك اسلبهم مدد الإمهال، وأرسل عليهم ألوان الوبال إنك أنت المنتقم سبحانك عليك توكلنا ولك الحمد جل جلالك.

العفُوُّ

العفُوّ: هو من بيده أمر تحقيق الفعل في المعاقبة أو المحاسبة أو المساءلة والعذاب تجاه من لا يستجيب للأمر ومع ذلك يغفر للمذنب بعدم إنزال العقاب مع أن المذنب يستحق ذلك، ولهذا فهو العفُوّ بمغفرته ورحمته، أي أنه المتجاوز عن السيئات والأخطاء بإعطاء الفرصة للتوبة وبما تعمل أيدي العباد من حسنات مما يجعل الحسنات يذهبن السيئات مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ

[١٨٥] يونس ٦٥.

[١٨٦] الصافات، ٨٠ . ٨٢.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ}[١٨٧].

الْعَفُوّ هو "الْوَاضِعُ عَنْ عِبَادِهِ تَبِعَاتِ خَطَايَاهُمْ وَآثَامِهِمْ، فَلا يَسْتَوْفِيهَا مِنْهُمْ، وَذَلِكَ إِذَا تَابُوا وَاسْتَغْفَرُوا، أَوْ تَرَكُوا لِوَجْهِهِ أَعْظَمَ مَا فَعَلُوا لِيُكَفِّرَ عَنْهُمْ مَا فَعَلُوا بِمَا تَرَكُوا، أَوْ بِشَفَاعَةِ مَنْ يَشْفَعُ لَهُمْ، أَوْ يَجْعَلُ ذَلِكَ كَرَامَةً لِذِي حُرْمَةٍ لَهُمْ بِهِ وَجَزَاءً لَهُ بِعَمَلِهِ"[١٨٨].

في أسماء الله تعالى العَفُوُّ وهو فَعُولٌ من العَفْوِ وهو التَّجاوُزُ عن الذنب وتَرْكُ العِقابِ عليه وأَصلُه المَحْوُ والطَّمْس، قال الليث العَفْوُ عَفْوُ اللهِ عز وجل عن خَلْقِه والله تعالى العَفُوُّ الغَفُور وكلُّ من اسْتحقَّ عُقُوبةً فتَرَكْتَها فقد عَفَوْتَ عنه[١٨٩].

وفي النونية:

وهو العفو فعفوه وسع الورى*** لولاه غار الأرض بالسكان[١٩٠]

والعفوُّ "هو الذي له العفو الشامل الذي وسع ما يصدر من عباده من الذنوب، ولا سيما إذا أتوا بما يسبب العفو عنهم من الاستغفار، والتوبة، والإيمان، والأعمال الصالحة فهو سبحانه يقبل التوبة، عن عباده ويعفو عن السيئات، وهو عفو يحب العفو ويحب من عباده أن يسعوا في تحصيل الأسباب التي ينالون بها عفوه: من السعي في مرضاته، والإحسان إلى خلقه"[١٩١]

واسم الله العفو يدل على ذات الله وعلى صفة العفو بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة العفو بدلالة التضمن، ويدل باللزوم على الحياة والقيومية، والسمع

---

[١٨٧] هود ١٤ ـ ١٧.

[١٨٨] الأسماء والصفات للبيقهي، ج ١، ص ١٤٨.

[١٨٩] لسان العرب – ج ١٥ ، ص ٧٢

[١٩٠] القصيدة النونية الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، ج ٢ ، ص ١٦.

[١٩١] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ج ١ ، ص ٥٦.

والبصر، والعلم والمشيئة، واللطف والرحمة، والحلم والقدرة، والعدل والحكمة، وغير ذلك من أوصاف الكمال، واسم الله العفو دل على صفة من صفات الأفعال، وفي دلالة اسم الله العفو على الصفة قال تعالى: {وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ}[١٩٢]، كذلك قوله: {وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ}[١٩٣].

العَفُوُّ من أسماء الله الحسنى، والعفو كثير العفو عن عباده والاسم العفو مكون من مقطعين صوتيين هما: (عـَ + فَوو)، والمعروف عن صوت العين أنه أعمق أصوات الحروف العربية فهو يصدر من الجوف، وفي هذا إيحاء بالصدق وبالرغبة وبالحرص لأن ما يصدر من الأعماق يهدف إلى مثل ذلك، أما المقطع الثاني فأنه يحمل دلالة لا تخفى على المتوسم لفعل الله تتمثل في الدلالة الهوائية للمقطع، ولو عدت لتكرار المقطع عدة مرات لوجدت نفسك تنفث ريحاً وفي ذلك مقاربة المعجزة بين الاسم والمسمى، إذ يقال عَفَا الله عن العبد مأْخوذ من قولهم عفَت الرياحُ الآثارَ إِذا دَرَسَتْها ومَحَتْها[١٩٤]، والمقاربة واضحة بين فعل العفوّ في محو ذنوب العبد وفعل الرياح في الأثر والذهاب به مع صوت المقطع (فوو) في الاسم الكريم.

وقد وصف الله نفسه بالعفو والغفران فقال: {وَكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً}[١٩٥]، وفي (كَانَ) الواردة في الآية ثلاثة أوجه:

الأول: كان قبل أن خلق الخلق موصوفاً بهذه الصفة.

الثاني: أنه قال (كَانَ) مع أن جميع العباد بهذه الصفة والمقصود بيان أن هذه عادة الله تعالى أجراها في حق خلقه.

الثالث: لو قال: إنه تعالى عفو غفور كان هذا إخباراً عن كونه كذلك فقط، ولما قال إنه كان كذلك كان هذا إخباراً وقع مخبره على وفقه فكان ذلك أدل على كونه صدقاً وحقاً ومبراً عن الخلف والكذب. وهذه الآية تدل على أنه تعالى قد يعفو عن الذنب قبل التوبة فإنه لو لم

---

١٩٢ الشورى ٢٥.

١٩٣ الشورى ٣٠.

١٩٤ لسان العرب ١٥، ٧٢.

١٩٥ النساء ٩٩.

يحصل ههنا شيء من الذنب لامتنع حصول العفو والمغفرة فيه، فلما أخبر بالعفو والمغفرة دلّ على حصول الذنب، ثم إنه تعالى وعد بالعفو مطلقاً غير مقيد بحال التوبة فيدل على ما ذكرناه[١٩٦].

والعفوُّ بقدرته على العفو وهو القادر على فعل كل شيء بعباده، وَقَوْلُهُ: {إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا}[١٩٧] ، هَذِهِ الْآيَةَ تَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ صِفَاتِ الْعَفْوِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعِزَّةِ وَالتَّبَارُكِ وَالْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، فَالْعَفُوُّ الَّذِي هُوَ اسمهُ تَعَالَى؛ مَعْنَاهُ: الْمُتَجَاوِزُ عَنْ عُقُوبَةِ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ تَابُوا إِلَيْهِ وَأَنَابُوا، وَلَمَّا كَانَ أَكْمَلُ الْعَفْوِ هُوَ مَا كَانَ عَنْ قُدْرَةٍ تَامَّةٍ عَلَى الانتقام وَالْمُؤَاخَذَةِ؛ جَاءَ هَذَانِ الإسمانِ الْكَرِيمَانِ: الْعَفُوُّ وَالْقَدِيرُ مُقْتَرِنَيْنِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ[١٩٨].

وفي قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّ الله لَعَفُوٌّ غَفُورٌ}[١٩٩]، دل بذكر فعل العفو والغفران أنه قادر على العقوبة لأنه لا يوصف بالعفو إلا القادر على ضده، فالمذنبون مستحقون للعذاب والعفوّ قادر على عذابهم، يقول جل وعلا: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عليكم عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ}[٢٠٠]، لكنهم بعفوه يمهلهم وهو قادر على ذلك فيذكرهم بذكر يسير قريب للإفهام، {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[٢٠١]، ويضرب لهم الأمثال المختلفة التي تترك عند العاقل أثراً بليغا لا يمكن محوه فيتعظ ويرجع وينتهي فيصيبه عَفْوَ العفوِّ سبحانه وتعالى من إله رحيم عفو كريم، {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القرآن مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[٢٠٢].

---

[١٩٦] تفسير الرازي ٥، ٣٥٣.

[١٩٧] النساء ١٤٩.

[١٩٨] شرح العقيدة ، محمد خليل ١، ١٤٠.

[١٩٩] الحج ٦٠.

[٢٠٠] الأنعام ٦٥.

[٢٠١] الدخان ٥٨.

[٢٠٢] الزمر ٢٧.

الخليفة عليه إذا أن يتبع نهج العفوّ سبحانه الذي استخلفه في الأرض فيمهل ويذكر ويضرب الأمثال للناس لعلهم يرجعون، فإذا رجع الناس إلى الحق عليه أن يأخذ بالعفو فيعفو عنهم.

والعفوّ قادر لأن "العفو اسم لإسقاط العقاب المستحق"[٢٠٣]، فالمذنب مستحق للعقاب والله قادر على عقابه لكنه سبحانه ينبه عباده قبل إنزال العقاب، فهو يذكرهم بأنواع الذكر، فيبدأهم بالذكر، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا}[٢٠٤]، ثم يبتليهم بضيق العيش لعلهم يتفكرون فيرجعون لعلهم ينزلون بساحة العفو، {وَلَقَدْ أَخَذْنَا آَلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ}[٢٠٥]، ثم يشدد على عبده فيُنزل به العذاب الأدنى لعله يرجع إلى ربه، {وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ}[٢٠٦]، فإذا عادوا وهو الأحب إلى العفوّ سبحانه غفر لهم، لأنه لا حاجة به إلى عذاب عباده، يقول العفو سبحانه مرغبا بالعودة إلى عفوه: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عليما}[٢٠٧].

فالعفو هو الإسقاط المطلق للعقوبة ليس تأخيرها، فالمقصود من العفو الإزالة كما تدل الآيات المحكمات، قال تعالى: {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى}[٢٠٨]، فليس المراد منه التأخير، بل الإزالة، فالعفو إذا هو الإسقاط المطلق، "ومما يدل على أن العفو لا يتناول التأخير أن الغريم إذا أخَّر المطالبة لا يقال: إنه عفا عنه ولو أسقطه يقال: إنه عفا عنه فثبت أن العفو لا يمكن تفسيره بالتأخير"[٢٠٩].

---

[٢٠٣] تفسير الرازي، ج ٢، ص ١٠٤.

[٢٠٤] طه ١١٣.

[٢٠٥] الأعراف ١٣٠.

[٢٠٦] السجدة ٢١.

[٢٠٧] النساء ١٤٧.

[٢٠٨] البقرة ٢٣٧.

[٢٠٩] تفسير الرازي، ج ٢، ص ١٩٠.

ويتأكد أن العفو هو الإسقاط في آية أخرى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٢١٠]، فظاهر العفو هو إسقاط الحق وذلك إنما يتأتى من الولي الذي له الحق على القتل، فصار تقدير الآية: فإذا عفي ولي الدم عن شيء يتعلق بالقاتل فليتبع القاتل ذلك العفو بمعروف، وقوله: (شَيْء) مبهم فلا بد من حمله على المذكور السابق وهو وجوب القصاص إزالة للإبهام، فصار تقدير الآية إذا حصل العفو للقاتل عن وجوب القصاص، فليتبع القاتل العافي بالمعروف، وليؤد إليه مالاً بإحسان، وبالإجماع لا يجب أداء غير الدية، فوجب أن يكون ذلك الواجب هو الدية، وهذا يدل على أن موجب العمد هو القود أو المال، ولو لم يكن كذلك لما كان المال واجباً عند العفو عن القود، ومما يؤكد هذا الوجه قوله تعالى: (ذلك تَخْفِيفٌ مّن رَّبّكُمْ وَرَحْمَةٌ) أي أثبت الخيار لكم في أخذ الدية، وفي القصاص رحمة من الله عليكم، لأن الحكم في اليهود حتم القصاص والحكم في النصارى حتم العفو فخفف عن هذه الأمة وشرع لهم التخيير بين القصاص والدية، وذلك تخفيف من الله ورحمة في حق هذه الأمة لأن ولي الدم قد تكون الدية آثر عنده من القود إذا كان محتاجاً إلى المال، وقد يكون القود آثر إذا كان راغباً في التشفي ودفع شر القاتل عن نفسه، فجعل الخيرة له فيما أحبه رحمة من الله في حقه[٢١١].

وهذا الإسقاط المطلق يوجب الشكر لما فيه من نجاة للعبد من وزر الذنوب، فأصحاب العجل لو لم يخبرهم العفو على لسان موسى عليه الصلاة والسلام لأثقل هذا الذنب العظيم كاهلهم ومنعهم مما أمروا به من تكليف بالطاعة وعمار الأرض، فقال لهم عز من قائل: {ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢١٢]، ومعنى لعلكم تشكرون: أي عفو الله عنكم، لأن العفو

---

[٢١٠] البقرة ١٧٨.

[٢١١] تفسير الرازي، ج ٣، ص ٦٤.

[٢١٢] البقرة ٥٢.

يقتضي الشكر، "والشكر طاعة الجوارح، وقال الجنيد: الشكر هو العجز عن الشكر. وقال الشبلي: التواضع تحت رؤية المنة. وقال الفضيل: أن لا تعصي الله. وقال أبو بكر الورّاق أن تعرف النعمة من الله. وقال ذو النون: الشكر لمن فوقك بالطاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان[٢١٣].

فعفو الخليفة يجب أن يكون مأخوذاً من عفو الله سبحانه أي بإسقاط العقاب بالمطلق، وعدم استحضار الذنب للمذنب في كل حين، وأن يعي أن ما لذنب صلة بآخر لأن العَفْوَ يعلمه بالآيات ذلك فيقول: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عليها وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[٢١٤]، أي عليه أن يعي أن ارتكاب العبد للذنب لا يجعله مذنبا على مر الدهر، فلا يجوز للخليفة أخذ الناس ببعض ذنوبهم وبغير حق.

ويُعلِّمُ العفوُّ القادر خليفته أن يكون متخلقا بصفاته تعالى أي أن يكون عفواً عند قدرته، بعيداً ومتجنباً للبطش، قريباً وعاملا بالعفو والمغفرة في هذه الآيات وآيات أخرى منها قوله تعالى: {مِنْ أجل ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ}[٢١٥]، وفي قوله: ومن أحياها فكأنما أحيا الناسَ جميعًا، إشارة واضحة إلى العفو عن القاتل بعد القدرة عليه ذلك أنه يقابل في الآية الكريمة القتل الوارد في أولها، فانظر بعين المتأمل إلى حدود القتل وما فيها من تحذير واضح ومخافة من الوقوع في قتل الناس جميعاً وبين ترغيب العفو بالعفو عن الناس، فعليك أيها الخليفة أن تختار العفو

---

[٢١٣] البحر المحيط، ج ١، ص ٢٥٧.

[٢١٤] الأنعام ١٦٤.

[٢١٥] المائدة ٣٢.

عند المقدرة لما في ذلك من أثر إيجابي يعينك على إعمار الأرض والقيام بأمر الله فيها من نشر العدل ومنع الفساد وعبادة الله الواحد الأحد.

والعفو يأتي بعد الغفران لأنه سبحانه يغفر للمستغفر ثم يأتي بعد ذلك بالعفو الذي يحمل في طياته جائزة المستغفر المتمثلة بترك العقاب على ما سلف من الذنوب، يقول العفوّ سبحانه: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢١٦]، ويُعلّم المولى عز وجل خليفته أن يغفر ثم يعفو من بعد ذلك، {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢١٧]، ومن الآيات التي تشير إلى أن الغفران يسبق العفو نستدل على أن العفو فعل انتهائي أي أنه يأتي بعد رجوع العبد عن الذنب وحصول المغفرة هنا يتحقق العفو الذي يمحو أثر الذنوب من صحف العبد ومن كل الإحصائيات التي جعلها المحصي سبحانه لتحيط بأفعال العباد.

والعَفُوُّ على فَعُول هو الكِثيرُ العَفْو[٢١٨]، فهو الذي يعفو عن صغير الذنوب وعن كبيرها للتائب المستغفر، فيعفو عن الضعيف الذي لا يقدر على فعل الخير لعلة الضعف أو الكبر أو لقلة التدبير مما يجعل بعض أفعالهم ذنوباً صغيرة، وهؤلاء جاء ذكرهم في قوله تعالى: {إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا}[٢١٩]، والإشارة واضحة إلى صغر الذنب وذلك لذكر العلة وهي الضعف المشار إلى أنواعه في الآية وفي آيات أخرى حددت بالضبط ما هي الأصناف التي يجب مراعاتهم كل حسب وضعه تعليماً وتفهيماً لفكرة مهمة يريد العفو أن يبينها لخليفته ليمكنه من التمييز، والذين يعود الأمر عليهم هم:

---

[٢١٦] آل عمران ١٢٩.

[٢١٧] النور ٢٢.

[٢١٨] مختار الصحاح ١، ٢١٠.

[٢١٩] النساء ٩٨-٩٩.

١- المضطر، والاضطرار حالة مُلجئة للمخالفة على كل صعيد، كالحاجة إلى الطعام، إذ يمكن للاضطرار أن يوقع العبد في الحرام، وليس عليه شيء ما دام خارج سور البغي فإذا دخله اختلف الحكم عليه، أما إذا حرص العبد على الطاعة واضطر الى الوقوع في ما حرم الله فإنه يجد الله العفو غفورا رحيما، {إِنَّمَا حَرَّمَ عليكم الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عليه إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢٢٠]، لذا وجب على الخليفة أن يتنبه إلى فكرة الاضطرار ويعرف معانيها جيدا ويدرك حدودها بالتحديد ليستطيع التمييز بين عاصٍ باغٍ، وبين مضطرٍ ذي حاجة، فيجعل لكل منهما حداً كما علمه المولى عز وجل.

٢- العليل، بكل أنواع العلل، أصابه العفو برحمته فرفع عنه الحرج فقال: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢٢١].

٢- الأطفال، وهؤلاء يُلتمس لهم العذر في أفعالهم وأقولهم إلى حد معين هو البلوغ، فإذا أتموه كانوا خارج الاستثناء، {وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عليم حَكِيمٌ}[٢٢٢].

٣- الشيوخ: غير أصحاب الحاجة إلى النساء وهم الشيوخ الطاعنون في السن الذين فنت شهواتهم، يقول العفو سبحانه: {غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ}[٢٢٣].

وهذه الأصناف أولى أن تكون مما يلفت انتباه الخليفة كونهم من المحتاجين إلى العون بشكل من الأشكال، فكان تنبيه العفو سبحانه لخليفته رحمة ورأفة بهؤلاء، وذلك ما يجب أن يتحلى به

---

[٢٢٠] البقرة ١٧٣.

[٢٢١] التوبة ٩١.

[٢٢٢] النور ٥٩.

[٢٢٣] النور ٣١.

الخليفة الحق، كما في هذه الآيات إشارات واضحة للخليفة ليكون واسع العفو وأن يتسع صدره لكل من يحتاج عونه وعفوه.

وهو الذي يعفو عن الذنوب العظيمة كما يقول عز من قائل في كتابه مخبراً عن قوم موسى عليه الصلاة والسلام: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢٢٤]، وهذه من نعم العفوّ سبحانه وتعالى العظيمة وهي العفو عن الذنب العظيم الذي ارتكبوه من عبادة العجل، وأشارت الآية الكريمة إلى مدى جهلهم وضعف إيمانهم، فما أن غاب عليهم موسى عليه الصلاة والسلام تلبية لأمر الله عز وجل خرجوا عن الطريق الحق فاستجابوا لدعوة أحد أصحاب موسى من الغاويين وهو السامري، مع وجود منذر ومذكر يدعوهم إلى الحق وهو هارون إلا أنهم واجهوه بالإصرار على هذا الذنب الكبير وهو الإشراك بالله، ومع هذه الزلة العظيمة عفا عنهم وتاب عليهم، فسبحان التواب الرحيم العفوّ الكريم، على هذا يكون العفو هنا كرماً من العفوّ فهو الكريم.

العفوّ هو الذي يمنح الرخص كما تنص المعاجم العربية، فيقال عفو أَعْفاهُ من الأَمرِ بَرَّأَه واسْتَعْفاه طَلَب ذلك منه والاسْتِعْفاءُ أَن تَطْلُب إِلى مَنْ يُكَلِّفُكَ أَمراً أَن يُعْفِيَكَ مِنْه يقال أَعْفِني مِنَ الخرُوجِ مَعَك أَي دَعْني منه واسْتَعْفاهُ من الخُروجِ مَعَه أَي سأَله الإِعفاءَ منه٢٢٥. فقد أعفاهم من كل ما لا يستطيعون فعله: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٢٢٦] وقوله: خُذِ العَفْوَ قيل العَفْو الفَضْلُ الذي يجيءُ بغيرِ كُلْفَةٍ والمعنى اقْبَلِ المَيْسُورَ مِنْ أَخْلاقِ الناسِ ولا تَسْتَقْصِ عليهم فيَسْتَقْصِيَ اللهُ عليك مع ما فيه من العَداوة والبَغْضاءِ، ويقال أَمَرَ اللهُ نَبيَّه أَن يأْخُذ العَفْوَ من أَخْلاقِ الناسِ قال هو السَّهْل المُيَسَّر

[٢٢٤] البقرة ٥١-٥٢.

[٢٢٥] لسان العرب ، ج ١٥، ص ٧٢.

[٢٢٦] الأعراف٤٢.

أَي أَمَرَه أَن يَحْتَمِل أَخْلاقَهُم ويَقْبَلَ منها ما سَهُل وتَيَسَّر[٢٢٧]، فالعفو ييسر على عباده فهو الذي يريد بنا اليسر ولا يرد العسر، فقد أعفى أمة محمد صلى الله عليه وسلم مما ابتلى به أقواماً غيرهم إذ كانت التوبة والغفران والعفو بعد قتل النفس كما يذكر لنا سبحانه: {وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عليهمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ أخرجوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا}[٢٢٨]، (وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عليهمْ) أي فرضنا وأوجبنا (أَنِ اقتلوا أَنفُسَكُمْ) أي كما أمرنا بني إسرائيل وتفسير ذلك بالتعرض له بالجهاد البعيد (أَوِ أخرجوا مِن دياركم) كما أمرنا بني إسرائيل أيضاً بالخروج من مصر. والمراد إنما كتبنا عليهم إطاعة الرسول والانقياد لحكمه والرضا به ولو كتبنا عليهم القتل والخروج من الديار كما كتبنا ذلك على غيرهم (مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مّنْهُمْ) وهم المخلصون من المؤمنين كأبي بكر رضي الله تعالى عنه. فقد أخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال: «لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر يا رسول الله لو أمرتني أن أقتل نفسي لفعلت فقال: صدقت يا أبا بكر» وكعبد الله بن رواحة، فقد أخرج عن شريح بن عبيد أنها لما نزلت أشار صلى الله عليه وسلم إليه بيده فقال: لو أن الله تعالى كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل، وكابن أم عبد، فقد أخرج عن سفيان «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال فيه لو نزلت كان منهم»، وأخرج عن الحسن قال: «لما نزلت هذه الآية قال أناس من الصحابة: لو فعل ربنا لفعلنا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " للإيمان أثبت في قلوب أهله من الجبال الرواسي" وروي أن عمر رضي الله تعالى عنه قال: «والله لو أمرنا لفعلنا فالحمد لله الذي عافانا فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "إن من أمتي لرجالا الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي"، وفي بعض الآثار أن الزبير وصاحبه لما خرجا بعد الحكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم مرا على المقداد فقال: لمن القضاء؟ فقال الأنصاري: لابن عمته ولوى شدقه ففطن يهودي كان مع المقداد فقال: قاتل الله

---

[٢٢٧] لسان العرب، ج ١٥، ص ٧٢.

[٢٢٨] النساء ٦٦.

تعالى هؤلاء يشهدون أنه رسول الله ويتهمونه في قضاء يقضى بينهم وأيم الله تعالى لقد أذنبنا ذنباً مرة في حياة موسى عليه الصلاة والسلام فدعانا إلى التوبة منه، وقال: اقتلوا أنفسكم ففعلنا فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربنا حتى رضي عنا؛ فقال ثابت بن قيس: أما والله إن الله تعالى ليعلم مني الصدق لو أمرني محمد صلى الله عليه وسلم أن أقتل نفسي لقتلتها، وروي أن قائل ذلك هو وابن مسعود وعمار بن ياسر، وأنه بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فقال: "والذي نفسي بيده إن من أمتي رجالاً الإيمان في قلوبهم أثبت من الجبال الرواسي وإن الآية نزلت فيهم"[٢٢٩].

وهو الذي أحل لأمة محمد صلى الله عليه وسلم من مباشرة الأزواج في رمضان ما حرم على غيرهم فقال: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عليكم وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآن بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٢٣٠]، فقد كان المسلمون يعلمون من الأمم التي سبقتهم والنصارى على وجه التحديد حرمة مقاربة المرأة في رمضان، "وإن لم تكن حجة قوية إلا أنها لا أقل من أن تكون شبهة موهمة فلأجل هذه الأسباب كانوا يعتقدون بقاء تلك الحرمة في شرعنا، فلا جرم شددوا وأمسكوا عن هذه الأمور فقال الله تعالى: (عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ) وأراد به تعالى النظر للمؤمنين بالتخفيف لهم بما لو لم تتبين الرخصة فيه لشددوا وأمسكوا عن هذه الأمور ونقصوا أنفسهم من الشهوة، ومنعوها من المراد، وأصل الخيانة النقص، وخان وأختان وتخون بمعنى واحد، فالمراد من الآية: علم الله أنه لو لم يتبين لكم إحلال الأكل والشرب والمباشرة

---

[٢٢٩] تفسير الالوسي، ج ٤، ص ١١٦.

[٢٣٠] البقرة ١٨٧.

طول الليل أنكم كنتم تنقصون أنفسكم شهواتها وتمنعونها لذاتها ومصلحتها بالإمساك عن ذلك بعد النوم كسنة النصارى"[٢٣١].

بالإضافة إلى رخص أخرى مصدرها حرص العفوّ على التخفيف وتيسر أمور المؤمنين، {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإنسان ضَعِيفًا}[٢٣٢]، والعفو يريد التخفيف عن العباد لأنه يريد لنا أن نكون قادرين على طاعته فكتب لنا اليسر وأبعد عنا العسر في طاعته الموجبة للعفو، {يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ}[٢٣٣]، فقد رحمنا التواب فخفف علينا قيام الليل: {إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عليكم فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ القرآن عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخرونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخرونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لأنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢٣٤].

كما أباح لنا التمتع بغرائزنا لعلمه بالضعف الحاصل عند الإنسان في مواجهة غرائزه فلم يمنعنا من شهوة النساء ولا من شهوة الطعام ليبعدنا عن الوقوع في الحرام، وهو موجب للعذاب، ونافٍ للعفو الذي يريده العفوّ لعباده: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عليكم وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٢٣٥].

---

[٢٣١] تفسير الرازي، ج ٣، ص ١١٧.

[٢٣٢] النساء ٢٨.

[٢٣٣] البقرة ١٨٥.

[٢٣٤] المزمل ٢٠.

[٢٣٥] البقرة ١٨٧.

ومن التخفيف ما كان في الفروض فما من فرض إلا وتجد معه تخفيفاً لغير القادر، فالصلاة تُقصر للمسافر رحمة من العفو: {وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عليكم جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا}[٢٣٦]، والصيام يؤجل للمسافر أو المريض: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عليكم الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ آخر وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٢٣٧]، والحج للمستطيع فقط ولو كان لزاماً على القادر وغير القادر لأصيب العباد بعناء شديد مادي وجسدي ومعنوي، {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[٢٣٨]، وهذه الاستطاعة هي من واجبات الخليفة سواء في توضيح حدوده جيداً لعموم الناس أم في تيسير ما يمكن منها للناس ليتمكنوا من أداء هذه الطاعة العظيمة، وَحَدُّ الاستطاعة يمكن إجماله بالآتي: اتفق الأكثرون على أن الزاد والراحلة شرطان لحصول الاستطاعة، روى جماعة من الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه فسّر استطاعة السبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحلة، وروى القفال عن جويبر عن الضحاك أنه قال: إذا كان شاباً صحيحاً ليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضي حجه فقال له قائل: أكلف الله الناس أن يمشوا إلى البيت؟ فقال: لو كان لبعضهم ميراث بمكة أكان يتركه؟ قال: لا بل ينطلق إليه ولو حبواً، قال: فكذلك يجب عليه حج البيت، عن عكرمة أيضاً أنه قال: الاستطاعة هي صحة البدن، وإمكان المشي إذا لم يجد ما يركبه.

---

[٢٣٦] النساء ١٠١.

[٢٣٧] البقرة ١٨٣-١٨٤.

[٢٣٨] آل عمران ٩٦-٩٧.

وأعلم أن كل من كان صحيح البدن قادراً على المشي إذا لم يجد ما يركب فإنه يصدق عليه أنه يستطيع لذلك الفعل، فتخصيص هذه الاستطاعة بالزاد والراحلة ترك لظاهر اللفظ فلا بد فيه من دليل منفصل، ولا يمكن التعويل في ذلك على الأخبار المروية في هذا الباب لأنها أخبار آحاد فلا يترك لأجلها ظاهر الكتاب لا سيما وقد طعن محمد بن جرير الطبري في رواة تلك الأخبار، وطعن فيها من وجه آخر، وهو أن حصول الزاد والراحلة لا يكفي في حصول الاستطاعة، فإنه يعتبر في حصول الاستطاعة صحة البدن وعدم الخوف في الطريق، وظاهر هذه الأخبار يقتضي أن لا يكون شيء من ذلك معتبراً، فصارت هذه الأخبار مطعوناً فيها من هذا الوجه بل يجب أن يعول في ذلك على ظاهر قوله تعالى.

والزكاة لمن يملك مالا مجمداً وخارج حاجته فقط وليس من ماله الذي ينفقه على أهله وعياله: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخرةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[٢٣٩]، من هذه الآيات يجب أن يعي الخليفة دوره في التخفيف عن العباد فلا يتشدد في المعاملات، وأن ينهج نهج ربه في التماس العذر للمضطر وغير القادر، وأن يتحرى أسباب ذلك لكي ييسر على الناس القيام بما هو مطلوب منهم في إعمار الأرض.

وعَفْوُ اللّهِ عز وجَلَّ عن خَلْقِهِ أوسع من أن يكون بمعنى واحد، فعفوه أوسع، فالعفو بمعنى أعْفاهُ من الأمْرِ بَرَّأَهُ[٢٤٠]، وتبرئة العفوّ لعبده خارج كل براءة ما دونه سبحانه، فهو الذي يعفو عن ذنب العبد ويبرأه من ذنبه بالمطلق. وفي مقابل ذلك العفاة من غير الله كثيراً ما يمنون على الناس بعفوهم، ولهذا فالعفو بالمطلق هو صفة الله والعفو بالإضافة هو من صفة الخليفة الذي يعفو فقط في دائرة النسبية، والله يعفو عن كل محسن متى ما أحسن بما أن الفرصة أمامه متاحة للاستغفار والتوبة،قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ

---

[٢٣٩] الأعراف ١٥٦.

[٢٤٠] معجم العين ج ١ ص ١٢٠ .

عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}[٢٤١]، ثم يبدل العفوّ ذنوب عباده حسنات: {إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٢٤٢]، فهل تجد غير الله العفوّ يفعل مثل ذلك؟، ومن البراءة المطلقة أن يتبع العفو بجائزة عظيمة هي الجنة: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[٢٤٣]، فمن ذا من غير الله يكافئ المذنب، وإن عاد عن سالف ذنوبه، هذا مما لا يقدر على القيام به أحد وذلك للنقص الحاصل في خلق الإنسان مقابل الكمال التام الذي يتصف به صاحب العفو المطلق سبحانه وتعالى، وهذا مما يجب على الخليفة الانتباه إليه، إذ يجب عليه الحرص على امتثال أنموذج العفو الذي يقدمه العفوّ سبحانه فيقتدي به ويسير على نهجه لما في ذلك من تيسير مهمته في إعمار الأرض.

والعفوّ هو الذي يهب العَفْوُ وهو المعروف[٢٤٤]، ودلالات المعروف واسعة، فكل نعم الله الظاهرة على العبد هي من معروفه، فهو الذي أنعم علينا في بطون أمهاتنا، فتولانا بمعروفه بالرعاية والحفظ وتكامل الخلق، {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}[٢٤٥]، وهو الذي جعل لنا السمع والبصر والأفئدة، قال تعالى: {وَاللَّهُ أخرجكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ

---

[٢٤١] الأحقاف ١٦.

[٢٤٢] الفرقان ٧٠.

[٢٤٣] آل عمران ١٣٥-١٣٦.

[٢٤٤] معجم العين، ج ١، ص ١٤٠.

[٢٤٥] الزمر ٦.

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢٤٦]، وهو من بعد ذلك يتولى رزقنا، يقول سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عليكم هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[٢٤٧]، وهو الذي يغفر لنا خطايانا ويؤجل حسابنا إلى يوم الوقت المعلوم عنده سبحانه، فيهيئ لنا أسباب العودة والاستغفار والتراجع وهي موجبات العفو المؤدي إلى النجاح والفلاح والحصول على الأجر والثواب لاسيما الأعظم منه فيدخلنا برحمته ومعرفته الجنة، يقول العفو جل من قائل: {يغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أجل مُسَمًّى إِنَّ أجل اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٢٤٨].

وعلى الخليفة أن يفقه أن من واجباته أن يعامل العباد بالمعروف، وأن يهبهم معروفاً، ويخاطبهم معروفاً من القول، ويأمرهم بالمعروف ويتم الأمر بنهيهم عن المنكر مصداقاً لقول العفو تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٢٤٩].

العَفْو في اللغة أيضاً يأتي بمعنى الفضلُ يقال عَفا فلان لفلان بماله إذا أَفضَلَ له وعفَا له عَمَّا له عليه إذا تَرَكه.[٢٥٠]، ويؤكد هذا المعنى ما جاء في قول العفوّ سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكم الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتباع بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٢٥١]، "وليس العَفْو في قوله فمن عُفِيَ له من أَخيه عَفْواً من ولِيِّ الدَّمِ ولكنه عفوٌ من الله عز وجل وذلك أَنَّ سائرَ الأُمَم قبلَ هذه الأُمَّة لم يكن لهم أَخذُ الدِّية إذا قُتِلَ قتيل،

[٢٤٦] النحل ٧٨.

[٢٤٧] فاطر ٣.

[٢٤٨] نوح ٤.

[٢٤٩] آل عمران ١٠٤.

[٢٥٠] لسان العرب، ج ١٥، ص ٧٢.

[٢٥١] البقرة ١٧٨.

فجعَله الله لهذه الأُمة عَفْواً منه وفَضْلاً مع اختيار وَلِيِّ الدمِ ذلك في العمْد وهو قوله عز وجل فمن عُفِيَ له من أَخيه شيءٌ فاتباع بالمعروف أَي مَن عَفا اللهُ جَلَّ اسمه بالدّية حين أَباحَ له أَخْذَها بعدما كانت مَحْظُورةً على سائر الأُمم مع اختياره إِيَّاها على الدَّمِ فعليه اتباع بالمعروف أَي مطالبَة للدِّية بمعرُوف وعلى القاتل أَداءُ الديةِ إِليه بإِحْسانٍ ثم بَيَّنَ ذلك فقال ذلك تخفيفٌ من ربكم لكم يا أُمَّة محمدٍ وفَضْل جعله الله لأَوْلِياءِ الدم منكم ورحمةٌ خصَّكم بها فمن اعْتَدَى أَي فمن سَفَك دَمَ قاتل وليِّه بعدَ قبولِه الدِّيَة فله عذاب أَليم والمعنى الواضح في قوله عز وجل فمن عُفِيَ له من أَخيه شيء أي من أُحِلَّ لَه أَخذُ الدِّية بدلَ أَخيه المَقتول عفْواً من الله وفَضْلاً مع اختياره فلْيطالِبْ بالمَعْروف"[٢٥٢]، كذلك ورد العفو بمعنى الفضل في قوله تعالى: {وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[٢٥٣]. فإن العفْوَ هنا معناهُ الإِفْضالُ بإِعْطاء ما لا يَجبُ عليه، أَو تركُ المرأَة ما يَجبُ لها يقال عَفَوْتُ لِفلان بمالي إِذا أَفْضَلْت له فأَعْطَيْته وعَفَوْت له عمَّا لي عليه إِذا تركْتَه له، وقوله إِلاَّ أَن يَعْفُونَ فِعْلٌ لجَماعَةِ النِّساءِ يطلِّقُهُنَّ أَزْواجُهنَّ قبل أَن يَمَسُّوهُنَّ مع تسمية الأَزْواجِ لهنَّ مُهورَهُنَّ فيَعْفُون لأَزْواجِهِنَّ بما وَجَب لهن من نِصفِ المْهرِ ويَتْرُكْنَه لَهُم أَو يَعْفُوَ الذي بيدِه عُقْدةُ النكاحِ وهو الزوج بأَن يُتَمِّمَ لها المَهْر كله، وإِنما وَجَبَ لها نصْفُه وكلُّ واحد من الزَّوْجين عافٍ أَي مُفْضِلٌ أَما إِفْضالُ المرأَةِ فأَن تتركَ للزوج المُطَلِّق ما وجَبَ لها عليه من نِصف المَهْر وأَما إِفْضاله فأَنْ يُتِمَّ لها المَهْرَ كَامَلاً لأن الواجِبَ عليه نصْفُه فيُفْضِلُ مُتَبَرِّعاً بالكلِّ[٢٥٤].

فإذا تفضل الخليفة على العباد بقول أو فعل وهو كثير لكسب قلوبهم كما يقول الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسان

---

[٢٥٢] لسان العرب، ج ١٥، ص ٧٢.

[٢٥٣] البقرة ٢٣٧.

[٢٥٤] لسان العرب، ج ١٥، ص ٧٢.

وبهذا يمكن للخليفة أن يكسب طاعة الناس بالتفضل عليهم مما يسهل عليه القيام بأمر الخلافة في إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

والله عفو يحب العفو ويصفَحُ عن الذنوبِ ويستر العيوب، يعفو عن المُسيء كَرَمًا وإحسانًا، ويفتح واسع رحمته فضلا وإنعاما حتى يزول اليأس من القلوب وترجو مقلب القلوب. ففضل العفو يمثل أيما تمثيل في ذلك الأمل الذي يمنحه للمذنب، فهو الذي يعفو عن المذنبين مهما كانت أنواع ذنوبهم كما ينص قوله تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[٢٥٥]، بل يصل هذا الأمل إلى المسرف وهو الذي تخطى درجة المذنب بعديد الذنوب وكبيرها فقال العفو سبحانه وتعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٢٥٦]، فمعنى قوله: (إِنَّ الله يَغْفِرُ الذنوب جَمِيعاً) أي بالتوبة والإنابة، الآية تقتضي كون كل الذنوب مغفورة قطعاً، وذلك لأن صيغة يغفر صيغة المضارع، وهي للاستقبال، وأن الله تعالى يخرج من النار من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله، وعلى هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعاً، إما قبل الدخول في نار جهنم، وإما بعد الدخول فيها، كما تدل الآية الكريمة[٢٥٧].

العفو على مستوى الخليفة تنازل عن حق، دون مطالبة لاحقة، مع تسامح إرادي دون إكراه، ويترتب على العفو طمأنة النفس ورضاها مع انتظار الزيادة في موازين الحسنات، التي يجازي الله عليها عباده الصالحين الذين استخلفهم في الأرض وأورثهم الجنة.

وكل الطيب الخالص من رزق البشر هو من عطاء العفوّ له الحمد على نعمه الطيبة الصافية، فعلى صعيد النعم المادية يأتي الماء الذي خُلِقَ منه كل حي، مصداقا لقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا

---

[٢٥٥] آل عمران ١٣٥.

[٢٥٦] الزمر ٥٣.

[٢٥٧] تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٢٧٢.

مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[٢٥٨]، وهو عطاء صاف خالص من الله العفو، بل تكاد تجمع الدراسات على الدرجة العالية لصفاء مياه الأمطار التي هي من خالص عمل الله وخاصه، فليس لبشر وإن عظم شأنه علماً أو عملاً القدرة على الإتيان بمطر مثيل للمطر الذي ينزله العفوّ القادر سبحانه، إذ ليس بإمكان أحد أن يأتي بالمطر متى شاء بينما العفوّ القادر يأتي به أنى شاء، أينما يشاء قال تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٢٥٩]، وهو الذي ينزل المطر بقدر محدد وعلى قدر يفيد الناس لأن المطر إذا زاد عن حدٍ يعلمه الله يصبح عذاباً للممطرين وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: {وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ}[٢٦٠]، والواضح في الآية تحديد القدر الذي يحيي الأرض فتنبت عشباً لتكون فيها حياة بعد الموت، فإذا زاد هذا القدر أو نقص فان النتيجة تكون غير تلك، وفي قصص الأولين ذكرى وعبرة تدلل على قدرة العفو ورحمته في تحديد كمية المطر الذي يقصد به الرحمة وليس العذاب ، كما حصل مع قوم نوح الذين أمطروا بحساب العذاب فكانوا من المغرقين، {قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ}[٢٦١]، ويطرح كثير من الماديين وعلماء أجروا حساباتهم خارج ساحة القدرة الألوهية قضية شحة المياه، وقدروا تواريخ محددة لنضوبه، {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ}[٢٦٢]، متناسين أن الماء الذي تقوم عليه الحياة بيد العفوّ القادر وحده، وحين يشاء هو وحده وفي الساعة التي قدر له أن ينضب فيها فسيكون أمره محتوماً، وبخلاف هذه الإرادة لن يكون هناك شحة ما دام الناس يرجون رحمة الله

---

[٢٥٨] الأنبياء ٣٠.

[٢٥٩] الروم ٢٤.

[٢٦٠] الزخرف١١.

[٢٦١] هود ٤٣.

[٢٦٢] المدثر ١٨-٢٠.

ويعملـون بموجباتهـا، ألا تـرى أيهـا المعـرض أن الفيضـانات تغـزو العـالم كـل يـوم مـن كثـرة الأمطار، ثم هل سأل سائل كم نهر في العالم جف ونضبت مياهه كليةً؟ مقابل الأنهار الكثيرة التـي لازالـت تجري منذ أن قدر لها خالقها أن تكون وإلـى اليوم تجري بـأمره، وهو بعد ذلك القـادر علـى حفظ مـوارد الميـاه لهذه الأنهـار وغيرهـا، فهـو القائـل: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[٢٦٣].

ومـن طيبـات العفـوّ الماديـة الكثيـرة والعديـدة ثمـار الشـجر، {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[٢٦٤]، ولحم الأسماك على سبيل المثال لا الحصر، {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢٦٥]، ومـن طيباتـه المخصوصة لعباده لذة وشفاء العسل، فهو من طيبات ما رزق العفوّ سبحانه لعباده، {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٢٦٦]، وقوله وأوحى رَبُّكَ إلى النحل يقال وحى وأوحى، وهو الإلهام، والمراد من الإلهام أنـه تعالى قرر في أنفسها هذه الأعمال العجيبـة التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وبيانه من وجوه:

---

[٢٦٣] الزمر ٢١.

[٢٦٤] الأنعام ١٤١.

[٢٦٥] النحل ١٤.

[٢٦٦] النحل ٦٨-٦٩.

الأول: أنها تبني البيوت المسدسة من أضلاع متساوية، لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها، والعقلاء من البشر لا يمكنهم بناء مثل تلك البيوت إلا بآلات وأدوات مثل المسطرة والفرجار.

والثاني: أنه ثبت في الهندسة أن تلك البيوت لو كانت مشكلة بأشكال سوى المسدسات فإنه يبقى بالضرورة فيما بين تلك البيوت فرج خالية ضائعة، أما إذا كانت تلك البيوت مسدسة فإنه لا يبقى فيما بينها فرج ضائعة، فهداية ذلك الحيوان الضعيف إلى هذه الحكمة الخفية والدقيقة اللطيفة من الأعاجيب.

أما قوله تعالى: (أَنِ اتخذي مِنَ الجبال بُيُوتًا)، المراد منه أنه تعالى خلق فيها غرائز وطبائع توجب هذه الأحوال، ثم قال تعالى: (ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ الثمرات) أي أن الله تعالى ألهم هذا النحل أن تلتقط تلك الذرات من الأزهار وأوراق الأشجار بأفواهها وتأكلها وتتغذى بها، فإذا شبعت التقطت بأفواهها مرة أخرى شيئاً من تلك الأجزاء وذهبت بها إلى بيوتها ووضعتها هناك، لأنها تحاول أن تدخر لنفسها غذاءها، فإذا اجتمع في بيوتها من تلك الأجزاء الطلية شيء كثير فذاك هو العسل، ثم قال تعالى: (فاسلكي سُبُلَ رَبِّكِ) والمعنى: ثم كلي كل ثمرة تشتهينها فإذا أكلتها فاسلكي سبل ربك في الطرق التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل، ثم قال تعالى: (يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا) أي مخازن تصنيع العسل التي خلقها الله من طبيعتها، ثم قال تعالى: (شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ) والمعنى: أن منه أحمر وأبيض وأصفر. وقوله: (فِيهِ شِفَآءٌ لِلنَّاسِ)، إنه تعالى لم يقل إنه شفاء لكل الناس ولكل داء وفي كل حال، بل لما كان شفاء للبعض من بعض الأدواء صلح بأن يوصف بأنَّ فيه شفاء. ثم أنه تعالى ختم الآية بقوله: (إِنَّ في ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) واعلم أن تقرير هذه الآية من وجوه:

الأول: اختصاص النحل بتلك العلوم الدقيقة والمعارف الغامضة مثل بناء البيوت المسدسة وسائر الأحوال التي ذكرناها.

والثاني: اهتداؤها إلى جميع تلك الأجزاء العسلية من أطراف الأشجار والأوراق.

والثالث: خلق الله تعالى الأجزاء النافعة في الهواء، ثم إلقاؤها على أطراف الأشجار والأوراق، ثم إلهام النحل إلى جمعها بعد تفريقها وكل ذلك أمور عجيبة دالة على أن إله العالم بنى ترتيبه على رعاية الحكمة والمصلحة[٢٦٧]، وهكذا فإن العسل من خالص عطاء العفو لعباده.

أما الطيبات الروحية فيأتي القرآن على رأسها، قال تعالى: {وَنُنَزِّلُ مِنَ القرآن مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا}[٢٦٨]، بطبيعة الحال إن القرآن مكمن الحُجّة والرحمة وهاتين الآيتين (الحجة والرحمة) هما في جميع آيات القرآن الكريم فمن تمكَّن من تدبره تمكَّن من استنباط واستقراء كل ما من شأنه أن يشفي مريضا، ولهذا قال (ورحمة للمؤمنين) والمؤمن هو الواثق من قول الله تعالى، وبوثوقه تطمئن نفسه بالقرآن كلمة ومعني وآية، أما أولئك الكفرة والمشركين فلا يتمكنون من تدبر القرآن ومن لم يتمكن من ذلك لا يدرك إعجازه الذي به تطمئن الأنفس وتثق في قول الله عز وجل.

ويختص العفو بعض عباده بالنبوغ، فيجعلهم أعلى درجة في الفهم والعمل بالأشياء والتعاطي بها من أقرانهم، كيوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[٢٦٩]، والذي نبغ في علوم كثيرة كتفسير الأحلام، قال تعالى: {وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخر إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي}[٢٧٠]،

ويوحي العفو بمضمن الإخفاء الذي يصل إلى درجة عالية من الضبابية، ولذلك شأن محدود ووقت محدود ذكره العفو سبحانه في محكم آياته فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ

---

[٢٦٧] تفسير الرازي، ج ٩، ص ٤٢٦.

[٢٦٨] الإسراء ٨٢.

[٢٦٩] يوسف ٢٢.

[٢٧٠] يوسف ٣٦-٣٧.

إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القرآن تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[٢٧١].

للعفو أنواع فيجب على الخليفة التمييز بين نوعين من العفو:

الأول: العفو الذي يحدث خيرا ويقصد إليه وهو المقصود في دعوة العفوّ لعباد للأخذ به، وقد ذكره العفوّ في آيات العفو وهي: قوله تعالى: {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى}[٢٧٢]، وقوله سبحانه: {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله}[٢٧٣]. ولهذا فمن لا يعفو ولا يصلح، لا أجر له عند الله، ولأن الأمر كذلك فالعفو والإصلاح هما مصدرا رحمة فلا ينبغي أن يغفل الخليفة عنهما. وعليه كان الاستخلاف في أساسه لأجل الإصلاح في الأرض.

والثاني: أن يصير العفو سبباً لمزيد جُرأة الجاني وقوة غيظه وغضبه وهذه الآية محمولة على القسم الثاني {والذين إِذَا أَصَابَهُمُ البغي هُمْ يَنتَصِرُونَ}[٢٧٤]، والتمييز واجب لكي لا يكون العفو عن المُصِرِّ كالإغراء له ولغيره بارتكاب الجديد من الظلم بحق العباد، فلو أن رجلاً قتل رجلاً وهو مصر على فعلته فلا يجوز العفو عنه لأن في ذلك تسفيه لمعنى العفو وتحريض لآخرين لسهولة القيام بمثل هذه الأعمال، ويروى أن زينب أقبلت على عائشة فشتمتها فنهاها النبي صلى الله عليه وسلم عنها فلم تنته فقال النبي صلى الله عليه وسلم: دونك فانتصري[٢٧٥]، كما أنه تعالى لم يرغّب في الانتصار بل بيّن أنه مشروع فقط، ثم بيّن بعده أن شرعه مشروط برعاية المماثلة[٢٧٦].

---

[٢٧١] المائدة ١٠١.

[٢٧٢] البقرة ٢٣٧.

[٢٧٣] الشورى ٤٠.

[٢٧٤] الشورى ٣٩.

[٢٧٥] السنن الكبرى، ج ٥، ص ٢٩٠.

[٢٧٦] تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٤٤٢.

فعن أي الذنوب يعفو العفوّ؟ العفو رحيم يعفو عن كل ذنوب عباده، وهو قادر على أن يعفو عن كبيرها وصغيرها، فلا يوجد ذنب لا يغفره الله إذا تراجع العبد عنه، وأبدل العمل به إلى عمل آخر صالح، فهو الذي يتجاوز عن الكبائر بعفوه، كفعله عز وجل مع أصحاب موسى عليه الصلاة والسلام، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٢٧٧]، فالشرك بالله هو من كبائر الذنوب، كذلك التولي يوم الزحف وهو من الكبائر التي أشار الله سبحانه وتعالى إليها منبهاً وداعياً إلى عدم الوقوع في مثل هذه الكبيرة، يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[٢٧٨]، والآية تدل على أن العفوّ سبحانه وتعالى تجاوز عن الذين تولوا يوم التقى الجمعان في يوم أحد، فلم يعاقبهم بتوليهم عن عدوّهم وإنما غفر لهم بعد أن عادوا واستغفروا، وتظهر في الآية الكريمة إشارة مهمة، هي أن المعاصي لا تنسب إلى الله ، فإنه تعالى نسبها في هذه الآية إلى الشيطان وهو كقوله تعالى عن موسى: {هذا مِنْ عَمَلِ الشيطان}[٢٧٩]، وقوله تعالى: {من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي}[٢٨٠].

ويشير العفوّ سبحانه إلى مسألة التولي في الزحف تارة أخرى تنبيها وتحذيراً منه للخليفة بعظم هذا الذنب، مما جعل من الواجب على الخليفة أن ينبه الرعية ممن حوله إلى ذلك مذكراً بوصف هذا الذنب بين الذنوب فهو من الكبائر الواجبة الاجتناب، يقول سبحانه: {وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخرةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ

---

[٢٧٧] البقرة ٥١-٥٢.

[٢٧٨] آل عمران ١٥٥.

[٢٧٩] القصص ١٥.

[٢٨٠] يوسف ١٠٠.

ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[٢٨١]، والعفو هنا جاء تفضلاً من العفوّ سبحانه ولولا فضله لما كان العفوّ وإن حصل الندم من المتولين والمخالفين لأمر الله ورسوله.

فالعفو يعفو عن كل الذنوب لأنه يسعها كلها فهو الواسع، وفي هذا الارتباط بين العفو والواسع آية لذوي الألباب، فالعفو لم يكن عفواً لو لم يكن واسعاً والواسع لم يكن واسعا لو لم يكن عفواً، فالعفو المطلق يشمل كل الذنوب وكل العباد وهذه هي السعة التي يتصف بها الواسع، والآيات توضح ذلك توضيحاً دقيقاً، يقول سبحانه: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عليم}[٢٨٢]، والآية تبدو واضحة في تميز الضيق الذي يعد به الشيطان وأتباعه ممثلاً بالفقر وهو ضيق العيش، والفحشاء وهي ضيق الصدور، وبين السعة التي يعد بها العفو الواسع من مغفرة وجاءت في الآية بصيغة النكرة دلالة على سعة هذه المغفرة، والمعلوم أن الفرق الأساسي بين النكرة والمعرفة هو أن النكرة تفيد العموم والمعرفة تفيد الخصوص، فجاء الله سبحانه بلفظة مغفرة نكرة لتحمل دلالة السعة وتعبر عنها أحسن تعبير، كذلك لفظة فضلاً هي الأخرى نكرة وجاءت لتناسب جو النص القرآني الدالُّ على سعة العفو سبحانه وتعالى عما يشركون، ولو رجعت بالبصر إلى ألفاظ الضيق الوارد في الآية لوجدتها جاءت بصيغة المعرفة، فهي محدودة الدلالة وتناسب الضيق الذي يعد به الشيطان واتباعه.

وهذه السعة في المغفرة والعفو عن العباد مصدرها الأساس علمه سبحانه وتعالى بخلقه فهو العليم الذي يعرف عن عبده ما توسوس به نفسه وما يخفي صدره، وهذه المعرفة أفضت إلى العلم بالضعف الذي يتملك الإنسان أما القوي المطلق سبحانه فكان العفو والمغفرة الواسعة، قال تعالى: {الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ

---

[٢٨١] آل عمران ١٥٢.

[٢٨٢] البقرة ٢٨٦.

إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى}[٢٨٣].

ومن عفوِّ العفوِّ أنه جعل العَفْوَ سنة بين عباده، فوعدهم أن يعفوَّ عنهم ليحببه إلى نفوسهم فدعا العبادَ إلى الأخذ بالعفو، ورغبهم فيه، ومناهم بالثواب عليه، فقال العفوّ الكريم سبحانه وتعالى: {وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٢٨٤]، أي "بمقابلة عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم والله غَفُورٌ رَّحِيمٌ مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته سبحانه على المؤاخذة وكثرة ذنوب العباد الداعية إليها، وفيه ترغيب عظيم في العفو ووعد كريم بمقابلته كأنه قيل: ألا تحبون أن يغفر الله لكم فهذا من موجباته، وصح أن أبا بكر لما سمع الآية قال: "بلى والله يا ربنا إنا لنحب أن تغفر لنا"[٢٨٥].

فعلق الغفران بالعفو والصفح، وعنه عليه الصلاة والسلام: "عفوا عن نساء الناس تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم ومن أتاه أخوه متنصلا فليقبل ذلك منه محقا كان أو مبطلا فإن لم يفعل لم يرد على الحوض"[٢٨٦]، وعنه عليه الصلاة والسلام: "مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلاَّ رَفَعَهُ اللَّهُ"[٢٨٧]، وعنه أيضاً: "ينادي منادٍ يوم القيامة: لا يقوم اليوم أحد إلا أحد له عند الله يد، فيقول الخلائق: سبحانك، بل لك اليد، فيقول ذلك مرارا، فيقول: بلى من عفا في الدنيا بعد قدرة"[٢٨٨]، وهذه الأحاديث دالة دلالة قاطعة على منهج العفو الذي يجب على العبد المؤمن انتهاجه، وكذلك الخليفة دوره يتمثل بالدرجة الأساس في التماس منهج العفو وتتبع خطواته.

---

[٢٨٣] النجم ٣٢.

[٢٨٤] النور ٢٢.

[٢٨٥] تفسير الالوسي، ج ١٣، ص ٣٨٣.

[٢٨٦] المستدرك على الصحيحين، ج ١٧، ص ٩٨.

[٢٨٧] صحيح مسلم ، ج ٨، ص ٢١.

[٢٨٨] شعب الإيمان للبيهقي ، ج ١٧، ص ٣٩٤.

والعفوّ يرغب عباده في العفو، {إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ}[٢٨٩]. أعاد سبحانه ذكر العفو تأكيداً لطمع المذنبين فيه ومنعاً لهم عن اليأس وتحسيناً للظنون بأتم وجه، وقد يقال: هذا تأسيس لا تأكيد فتذكر (أَنَّ الله غَفُورٌ) للذنوب صغائرها وكبائرها (حَلِيمٌ) لا يعاجل بعقوبة المذنب، وقد جاءت هذه الجملة كالتعليل للعفو عن هؤلاء المتولين وكانوا أكثر القوم، ذُكر أنه لم يبق مع النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد إلا القلة القليلة العدد والعظيمة الشأن.

والعفوّ سبحانه يريد لعباده أن يتمثلوا صفة العفو منه، فيذكرهم بصفته وهي العفو عنهم مع كبر الذنب فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا}[٢٩٠]، دين الرسالة الخاتمة ميسرا لا معسرا، يُعلِّم الخطأ ويُذكِّر بتلافيه، وينهى عن تكراره أو التمسك به، وبهذا فإن المعنى يدل على العفو المتكرر من العفو العظيم، وهناك ارتباط وثيق بين العفو والمغفرة، فالعفو عن الخطأ بأسباب الغفلة أو عدم الفطنة، أو بأسباب ظرفية أوجبت ذلك الأمر المنهي عنه إذا ارتبط بعلاقة فعليه مع فعل آخر كارتباط السكر مع الصلاة، أو ارتباط الاجتناب بالاغتسال، وارتباط ملامسة النساء بالطهارة، وغيرها كثير، هذه المنهيات لا يستوجب ازدواجها كما قلنا حتى لا يرتبط الفعل الصواب بالفعل الخطأ أو المحرم أو المنهي عنه. ولهذا ذكر الله في الآيات الكريمة السابقة، الفعل الصواب يصحح الفعل الخطأ حتى يحقق العفو والمغفرة، ويعفو عن كثير مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ

---

[٢٨٩] آل عمران ١٥٥.

[٢٩٠] النساء ٤٣.

وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٢٩١]. وعليه فالمغفرة للذنب والعفو للخطأ.

وجاء في محكم آياته دعوته للعفو إذ يقول: {وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأمور}[٢٩٢]، وقوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فأعفوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٢٩٣]، فالعفو ترك عقوبة المذنب، والصفح ترك التثريب والتأنيب وهو أبلغ من العفو إذ قد يعفو الإنسان ولا يصفح.

كما رغبنا المولى عز وجل بالعفو فقال: {وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ للتقوى}[٢٩٤]، وأثابنا على العفو، {فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى الله}[٢٩٥].

وذكر لنا العفو آيات للعفو لنتمثل معانيها، ونعي مضامينها، انظر إلى قوله تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[٢٩٦]، ألا تشعر بأن الله يرغبك في العفو أكثر مما يرغبك بالرد على من أساء إليك؟ وكيف لا وهو يمنيك بالأجر الذي أنت في أمس الحاجة إليه إن كنت تعي ما هو أجر العفوّ لمن يجيب دعوته هذه وكل دعواته الأخرى، متيقنا منه لأن العفو أخبرك فقال فمن عفا عمن أساء إليه، فغفر له إساءته، ولم يعاقبه بها، وهو على عقوبته قادر ابتغاء وجه الله، فأجر عفوه ذلك على الله، والله مثيبه عليه ثوابه.

---

[٢٩١] المائدة ١٥، ١٦.

[٢٩٢] الشورى ٤٣.

[٢٩٣] البقرة ١٠٩.

[٢٩٤] البقرة ٢٣٧.

[٢٩٥] الشورى ٤٠.

[٢٩٦] الشورى ٤٠.

وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا بيان لما جعل للمنتصر وتسمية الفعلة الثانية وهي الجزاء سيئة قيل للمشاكلة، وقيل تسمية كلتا الفعلتين سيئة لأنها تسوء من تنزل به، وفيه رعاية لحقيقة اللفظ وإشارة إلى أن الانتصار مع كونه محموداً إنما يحمد بشرط رعاية المماثلة. وقوله تعالى: (فَمَنْ عَفَا) أي عن المسيء إليه وَأَصْلَحَ ما بينه وبين من يعاديه بالعفو عما صدر منه فَأَجْرُهُ عَلَى الله فيجزيه جل وعلا أعظم الجزاء، إنه تصريح بما لوح إليه ذلك من الحث وتنبيه على أنه وإن كان سلوكاً لطريق الاحتياط يتضمن مع ذلك إصلاح ذات البين المحمود حالاً ومالا ليكون زيادة تحريض عليه، وإبهام الأجر وجعله حقاً على العظيم الكريم جل شأنه الدال على عِظَمِهِ زيادةً في الترغيب، وجيء بالفاء ليفرعه عن السابق أي إذا كان سلوك الانتصار غير مأمون، فمن عفا وأصلح فهو سالك الطريق المأمون العثار المحمود في الدارين.

وتغليب العفو واضح الدلالة في القرآن الكريم، كما في آيات العقاب، {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ}[٢٩٧]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، وكما في آيات القصاص، {وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ}[٢٩٨]، كذا في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عليكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتباع بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٢٩٩]، (يَأَيُّهَا الذين ءامَنُواْ) شروع في بيان بعض الأحكام الشرعية على وجه التلافي لما فرط من المخلين بما تقدم من قواعد الدين التي يبنى عليها أمر المعاش والمعاد (كُتِبَ عليكم) أي فرض وألزم عند مطالبة صاحب الحق فلا يضر فيه قدرة الولي على العفو فإن الوجوب إنما اعتبر بالنسبة إلى الحكام أو القاتلين، وأصل الكتابة الخط ثم كني به عن الإلزام، وكلمة على صريحة في ذلك

---

[٢٩٧] النحل ١٢٩.

[٢٩٨] المائدة ٤٥.

[٢٩٩] البقرة١٧٨.

(القصاص فِي القتلى) أي بسببهم على حد، وقيل: عدى القصاص بفي لتضمنه معنى المساواة إذ معناه أن يفعل بالإنسان مثل ما فعل، ومنه سمي المقص مقصاً لتعادل جانبيه، (الحر بِالْحُرّ والعبد بالعبد) جملة مبينة لما قبلها أي الحر يقتص بالحر، روي أنه كان في الجاهلية بين حيين من أحياء العرب دماء وكان لأحدهما طول على الآخر فأقسموا لنقتلن الحر منهم بالعبد والذكر بالأنثى فلما جاء الإسلام تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت آية القصاص فأمرهم أن يتباوؤا، فالآية كما تدل على ألا يقتل العبد بالحر والأنثى بالذكر لأن مفهوم المخالفة إنما يعتبر إذا لم يعلم نفيه بمفهوم الموافقة وقد علم من قتل العبد بالعبد وقتل الأنثى بالأنثى أنه يقتل العبد بالحر والأنثى بالذكر بطريق الأولى كذلك لا تدل على ألا يقتل الحر بالعبد والذكر بالأنثى لأن مفهوم المخالفة كما هو مشروط بذلك الشرط مشروط بأن لا يكون للتخصيص فائدة أخرى، والحديث بين الفائدة وهو المنع من التعدي وإثبات المساواة بين حر وحر وعبد وعبد، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَىْء أي ما يسمى شيئاً من العفو والتجاوز ولو أقل قليل، على إشعار بأن بعض العفو كأن يعفى عن بعض الدم أو يعفو عنه بعض الورثة كالعفو التام في إسقاط القصاص لأنه لا يتجزأ، والمراد بالأخ وليّ الدم سماه أخاً استعطافاً بتذكير إخوة البشرية والدين، وسماه أخا القاتل للإشارة إلى أن أخوة الإسلام بينهما لا تنقطع بالقتل، وعُفِيَ تعدى إلى الجاني وإلى الجناية بعن[٣٠٠].

مما سبق يجب على الخليفة أن يفهم معاني العفو وأن يعمل بالعفو وبعدم المؤاخذة للسهو الخطأ مستحضراً في كل موقف قول العفوّ جل وعلا: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعليها مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ علينا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ

---

[٣٠٠] تفسير الالوسي، ج ٢، ص ١٠٩-١١٩.

مولانا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[٣٠١] ، فالعفو من آثار عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ، وفي ذلك علينا بتناول وتدارس بعض من المقاربات اللغوية.

مقاربات لغوية

١- ترد في آيات العفو بعض الألفاظ من اشتقاقات العفة وهي على وجه التحدي: (العَفْو والعافية والمُعافاة)، وقد فرق العلماء بين هذه الاشتقاقات الثلاث على النحو الآتي: "فأَما العَفْوُ فهو ما وصفْناه من مَحْو الله تعالى ذُنوبَ عبده عنه، وأَما العافية فهو أَن يُعافيَهُ الله تعالى من سُقْمٍ أَو بَلِيَّةٍ وهي الصِّحَّةُ ضدُّ المَرَض يقال عافاهُ الله وأَعْفاه أَي وهَب له العافية من العِلَل والبَلايا، وأَما المُعافاةُ فأَنْ يُعافِيَكَ اللهُ من الناس ويُعافِيَهم منكَ أَي يُغْنيك عنهم ويغنيهم عنك ويصرف أَذاهم عنك وأَذاك عنهم وقيل هي مُفاعَلَة من العفوِ وهو أَن يَعْفُوَ عن الناس ويَعْفُون هُمْ عنه، وقيل العافية دِفاعُ الله تعالى عن العبد يقال عافاه اللهُ عافيةً وهو اسم يوضع موضِع المصدر الحقيقي وهو المُعافاةُ ، قال ابن سيده وأَعْفاهُ الله وعافاهُ مُعافاةً وعافِيَةً مصدرٌ كالعاقِبة والخاتِمة أَصَحَّه وأَبْرأَه"[٣٠٢].

٢- يشار إلى العفو تارة والى الصفح تارة أخرى في الاستخدام الدال على المسامحة أو إسقاط العقاب، لكنهما بمعنيين مختلفين، فالعفو ترك عقوبة المذنب، والصفح: ترك لومه[٣٠٣]، ويدل عليه قوله تعالى: {وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فأعفوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٣٠٤] .

٣- للعفو متممات تكشف عنها آيات العزيز الحكيم يذكرنا بها لنعي وندرك سعة العفو ونعرف حدوده ومقارباته، يقول سبحانه وتعالى: {رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا

---

[٣٠١] البقرة ٢٨٦.

[٣٠٢] لسان العرب، ج ١٥، ص ٧٢.

[٣٠٣] الفروق اللغوية، ج ١، ص ٣٦٢.

[٣٠٤] البقرة ١٠٩.

وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مولانا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ}[٣٠٥]، فطلبوا العفو وهو الصفح عن الذنب : وإسقاط العقاب ، ثم ستره عليهم صوناً لهم من عذاب التخجيل، لأن العفو عن الشيء لا يقتضي ستره فيقال: عفا عنه إذا وقفه على الذنب ثم أسقط عنه عقوبة ذلك الذنب، فسألوا الإسقاط للعقوبة أولاً لأنه الأهم، إذ فيه التعذيب الجسماني والنعيم الروحاني بتجلي البارئ تعالى لهم وقال الراغب: العفو إزالة الذنب بترك عقوبته، والغفران ستر الذنب وإظهار الإحسان بدله، فكأنه جمع بين تغطية ذنبه، وكشف الإحسان الذي غطى به. والرحمة إفاضة الإحسان إليه، فالثاني أبلغ من الأول، والثالث أبلغ من الثاني، وهكذا وراء كل ذنب مغفرة ووراء كل مغفرة رحمة وفضل الله أكبر وأعظم[٣٠٦].

وعليه أقول على الترتيب:

ـ عَفْوٌ من عَفُوٍّ كريم يبدل مكان السيئة الحسنة، مصداقا لقوله تعالى: {ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[٣٠٧]. إنه العفو الغفور مصداقا لقوله تعالى: {فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[٣٠٨].

. مغفرة من غفور رحيم، قال تعالى: {فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٣٠٩]، وقال تعالى: {لَيْسَ عليكم جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ

---

[٣٠٥] البقرة ٢٨٦.

[٣٠٦] تفسير البحر المحيط، ج ٣، ص ١٣٠.

[٣٠٧] الأعراف، ٩٥.

[٣٠٨] النساء ٩٩، ١٠٠.

[٣٠٩] البقرة ١٩٢.

وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٣١٠].

. رحمة من الرحمن الرحيم، قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[٣١١]

فهناك فرق بين الألفاظ الثلاثة الواردة في الآية، وهي: (العفو والمغفرة والرحمة)، فالعفو أن يسقط عنه العقاب، والمغفرة أن يستر عليه جرمه صوناً له من عذاب التخجيل والفضيحة، كأن العبد يقول: أطلب منك العفو وإذا عفوت عني فاستره على.

بناء على ما تقدم، العفو قيمة حميدة وفضيلة لا تتم إلا في مرضاة الله تعالى، فمن عمل عليها وعمل بها نال المغفرة والرحمة معا ومن لم يعمل عليها والفرصة أمامه فسيندم يوم لا ينفعه الندم، ولهذا فالخليفة هو الذي لا يضيع فرصة لإحقاق الحق وفعله بما يعمل من عفو وغفران وما يقدمه من مرحمة لمن هم في حاجة إليها من بني جنسه، ولله وجوه كثيرة تستوعب أقوال الخليفة وأفعاله وأعماله وسلوكياته الحسان التي بها ينال العفو والمغفرة والرحمة من الرحمن.

اللهم يا العفو اعفو عن غفلتنا بالرحمة ولا تجعلنا من الضالين، واعفو عن كل ما يشبع حاجاتنا في رضاك واجعلنا من المتصدقين المتطهرين والمتزكين، ولا تجعل في رزقنا رِباً ولا تجعل في أبنائنا شقاء ولا ضعفاً ولا فاقةً، اللهم اجعلهم على طاعتك أغنياء أقوياء على سنة رسولك محمد عليه الصلاة والسلام يحقُّون الحق ويزهقون الباطل حتى ترضى، يا من خلقت الأرض وجعلت فيها خليفة طائعا لك وخلقت السماوات العلا، اللهم بعفوك ترحم وتغفر فارحمنا بطاعتك واغفر لنا خطايانا ولا تجعلنا من الغافلين. اللهم اعفو عن أبصارنا وأسماعنا أن ترى أو تسمع ما نهيت عنه، واجعل قلوبنا مطمئنة بما أمرت به، وعقولنا كافرة بما حرَّمت ونهيت.

---

[٣١٠] البقرة ١٩٨، ١٩٩.

[٣١١] البقرة ١٦٣.

الرؤوف

الرؤوف: من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته يوحي بالرأفة والرحمة والعناية، ومن اسم الله الرؤوف تؤخذ الرأفة، وهي شدة الرحمة، فالمراد من الرؤوف أنه سبحانه هو المنعم بجلائل النعم ودقائقها، ويتعهد خلفاءه في الأرض بعنايته وجوده وإحسانه وعفوه وغفرانه.

وفي لسان العرب الرأْفة الرحمة وقيل أَشد الرحمة، يقول تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[٣١٢].

الرؤوف "يدل علي ذات الله وعلي صفة الرأفة بدلالة المطابقة ، وعلي ذات الله وحدها بالتضمن"[٣١٣].

الرؤوف "ذو الرأفة وهي شدة الرحمة"[٣١٤]

الرؤوف: هو من يحس بحال من هو مهم لديه، وهو الحريص على سلامته وأمنه وحفظه، يعلم بحاله وما هو عليه، ويعلم بما سيكون عليه، ويعلم بما سيقدم عليه قبل إقدامه، وهو الذي يعلم بما يجب بالمطلق، ولكن المرءوف بحاله لا يعلم بذلك فينحرف ولم ينته ولا يتجنب ما يستوجب تجنبه فيقع في ما لم يكن مرضيا عليه، ولهذا فهو في حاجة للرأفة به وبحاله حيث إيتائه القليل القليل من العلم وهو لم يخرج عن دائرة الممكن النسبي.

---

[٣١٢] – الحديد ٢٧

[٣١٣] أسماء الله الحسنى، ج ٢٣، ص ١٩.

[٣١٤] فيض القدير، ج ٢، ص ٦١٨.

و الرؤوف هو الرحيمُ بعباده العَطُوفُ عليهم بأَلطافه والرأْفةُ أَخصُّ من الرحمةِ وأَرَقُّ[٣١٥].

والرَّأْفَة أرقُّ من الرحمة، والرأفة أبلغ من الرحمة، ولهذا قال أبو عبيدة: إن في قوله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيم}[٣١٦]، تقديما وتأخيرا أراد أن التوكيد يكون في الأبلغ في المعنى فإذا تقدم الابلغ في اللفظ كان المعنى مؤخرا. حتى قيل أن الرأفة أشد الرحمة، وقيل: الرحمة أكثر من الرأفة، والرأفة أقوى منها في الكيفية، لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم.[٣١٧] وصفة الرأفة ممكن أن يوصف بها غير الله تبارك وتعالى، فقد وردت في وصف الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، إذ يقول تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٣١٨]

و(الرؤوف) من أسماء الله الحسنى الذي تردد في القرآن الكريم مرتبطا بالرحمة في كل مواضعه، وهذا يجعلنا نقف عند هذا الاقتران الثنائي بين الرأفة والرحمة في القرآن كله، إذ وردت مادة (رأف) في القرآن الكريم كله ثلاث عشرة مرة، عشر مرات منها في وصف الله تعالى، مثل قوله: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٣١٩] ووردت مرة صفة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٣٢٠]ومرة وصفا

---

[٣١٥] – لسان العرب ج٩ ص ١١٢

[٣١٦] -التوبة ١١٧

[٣١٧] – الفروق اللغوية ج١ ص ٢٤٦

[٣١٨] – التوبة ١٢٨

[٣١٩] – البقرة ١٤٣

[٣٢٠] – التوبة ١٢٨

لأتباع سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[٣٢١] وفي موضع آخر وردت مفردة أي بدون رحمة في قضية تتعلق بحد الزنا في قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجلدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[٣٢٢]، وهذا يقتضي التحليل في موضعه إن شاء الله، فلماذا لم يقل الله تعالى رأفة ورحمة؟ وقال رأفة فقط، أما ما يتعلق بتردد هذا الاسم مع الذات الإلهية، فنلاحظ ابتدأ ارتباطه بالرحمة في ثمانية مواضع لم ينفصل فيها اسم الرؤوف عن صفة الرحمة المتعلقة بذات الله، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} [٣٢٣]، مما يقتضي اتصالا مفهوميا ودلاليا بين الرأفة والرحمة يلخصها ابن منظور بقوله: إن الرأفة هي أشد الرحمة ويضيف لها أبو هلال العسكري: أن الرحمة أكثر من الرأفة إلا أن الرأفة منها أقوى من الكيفية لأنها عبارة عن إيصال النعم صافية عن الألم، هذا التحليل اللغوي للفرق الدلالي بين الرأفة والرحمة من حيث التدرج في الدلالة من الأشد إلى الأخف ومن الأخص إلى الأعم، إذ الرأفة أشد الرحمة، والرحمة أكثر من الرأفة إلا أن الرأفة أخص منها، وهذا يوصلنا إلى نتيجة أن الله رءوف رحيم بكل صغيرة وكبيرة وبالذنب العظيم وبالذنب الصغير، لا فرق عنده إذا أراد التوبة عن عباده، ومن هذا نفهم لماذا أتت هذه الصيغة مع الذنب العظيم الذي ارتكبه المؤمنون بتخلفهم عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، إذ يقول تعالى: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ

---

[٣٢١] – الحديد ٢٧

[٣٢٢] – النور ٢

[٣٢٣] – الحج ٦٥

خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٣٢٤] فهؤلاء قد أحسوا أن الأرض قد انطبقت عليهم ولم يعد مجال للمغفرة حتى أخص الناس لهم أزواجهم قد تخلفوا عنهم لعظم ذنبهم، إلا أن الله أرأف وأرحم بعباده من خلقه أجمعين، ولهذا تاب عليهم.

وقد ورد اسم الله تعالى (الرؤوف) مفردا في موضعين اتصل بهما الاسم بالعبادة، بقوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[٣٢٥]وقوله تعالى: {يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[٣٢٦]والعبودية كما نعلم أعلى مرتبة يصل الإنسان لها في تدرج الإيمان، كما قال تعالى عن رسوله الكريم محمد صلى الله عليه وسلم: {سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٣٢٧]والرأفة كما قلنا نهاية الرحمة أو أشد الرحمة، ومن هنا نفهم اقتران العبودية التي هي أعلى قيمة يصل إليها الإنسان في دائرة السالب مع الرأفة التي هي أعلى صفة في دائرة الموجب تصل إليها رحمة الله تبارك وتعالى. والملحظ الآخر الذي يمكن تأشيره إلى ورود اسم الجلالة (الرؤوف) في القرآن الكريم بلام التوكيد في خمسة مواضع من المواضع الثمانية التي ورد فيها الاسم مرتبطا بالذات الإلهية وبالتأكيد، فان ارتباط اللام الدالة على تأكيد الأمر وتحققه تعطي قوة إضافية لصفة الرأفة والرحمة التي يتصف بها الله تعالى، ومن الملحظ أن اسم الله تعالى (الرؤوف) قد ورد صفة لغير الله تعالى في القرآن الكريم، إذ ورد صفة للرسول صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

---

[٣٢٤] – التوبة ١١٨

[٣٢٥] – البقرة ٢٠٧

[٣٢٦] – أل عمران ٣٠

[٣٢٧] – الإسراء ١

عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٣٢٨] وورد صفة لأتباع سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[٣٢٩] أما مجيئها بذات الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا أمر طبيعي، إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو نفسه الرحمة المهداة مثلما قال تعالى فيه: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[٣٣٠] فالرسول هو الرحمة المهداة من الله تعالى بسلوكه وتخفيفه عن المؤمنين بأمر الله تعالى، حيث يقول تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٣٣١]، وكما أن البشارة قد أتت به في الإنجيل والتوراة أن يأتي نبي يخفف عن أمته ويرحم به، في قوله تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٣٣٢]، وقوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٣٣٣] فهنا نحن أمام صورتين متضادتين، أولهما مشهد للرأفة والرحمة يمثله الرسول محمد صلى الله

---

[٣٢٨] – التوبة ١٢٨

[٣٢٩] – الحديد ٢٧

[٣٣٠] – الأنبياء ١٠٧

[٣٣١] – أل عمران ١٥٩

[٣٣٢] – المائدة ١٥ – ١٦

[٣٣٣] – الأعراف ١٥٧

عليه وسلم وأمة الإسلام بما خفف عنهم من العبادات والتشريعات والتحليل والتحريم، وثانيهما مشهد التشديد مع اليهود من بني إسرائيل لا تتعلق بعدم الرأفة بهم، إنما لظلمهم أنفسهم، يقول تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[٣٣٤]. فالرأفة موجودة مع بني إسرائيل، إلا أن تعنتهم وجدلهم أوجب عليهم ذلك التشديد، كما اوجب الإيمان واليقين في قلوب المسلمين الرأفة بهم من الله تبارك وتعالى.

أما مجيئها مع أتباع النبي عيسى عليه الصلاة والسلام فيبدوا منطقيا من حيث أن رسالة النبي عيسى عليه الصلاة والسلام كانت تخفيفا من الشدة التي فرضت على بني إسرائيل من اليهود نتيجة لظلمهم وعصيانهم مثل ما قال فيهم تعالى: {فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا}[٣٣٥] فكان مجيء النبي عيسى عليه الصلاة والسلام رحمة ورأفة بالناس في حينها كما أن الذين اتبعوه اتصفوا بهذه الصفة حتى وصل بهم الأمر إلى ابتداع الرهبانية رغبة منهم في التعمق في الله تعالى من غير أن يأمر الله تعالى بها، إذ يقول تعالى: {ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ}[٣٣٦]

وصفة الرؤوف من الصفات التي تدل على سعة رحمته، التي تشمل كل الوجود بحكمة أرادها سبحانه وتعالى إذ يقول: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ

---

[٣٣٤] – النساء ١٦٠ – ١٦١

[٣٣٥] – النساء ١٦٠ – ١٦١

[٣٣٦] – الحديد ٢٧

بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[٣٣٧]. إن رحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا تعم الكل، أما في الآخرة فهي مختصة بالمؤمنين وإليه الإشارة بقوله: {فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ}.

ويوضع اسم الله الرؤوف في مجموعة دلالية واحدة تتكون من الرحمن والرحيم والفتاح واللطيف والودود، أما اتصال الرؤوف بهذه الأسماء والصفات فيتحقق بالشكل الأتي:

الرحمن: ومعنى الرحمة في المخلوق رقة القلب، ولكن هذا المعنى لا يليق بالخالق سبحانه، فالمراد منها بالنسبة إليه أنها صفة تليق بجلاله سبحانه ولازمها الإنعام فمعنى الرحمن: المنعم بجلائل النعم على مستحقها وغير مستحقها، والرحمة صفة لله تعالى تليق بجلاله سبحانه، يقول تعالى: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا}[٣٣٨]، وأما الرحيم فهو المنعم بدقائق النعم وصغائرها على مستحقيها وغير مستحقيها، قال تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[٣٣٩]. والفتاح هو الذي يفتح خزائن رحمته للناس، فيفتح لهم برحمته أبواب النصر، ومنه قوله تعالى: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تأخر وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[٣٤٠]، وهو ما فتح الله على رسوله به إذ نصره على أعدائه، كما فتح له أبواب الأرض. ويفتح لهم أبواب المعارف والعلوم النافعة، كما يفتح لهم أبواب كل الخير، قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٣٤١]، ويفتح لهم رحمته بالحكم بالحق، ومنه قوله تعالى: {قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ

---

[٣٣٧] – الأعراف ١٥٦

[٣٣٨] – الإسراء ١١٠

[٣٣٩] – البقرة ١٦٣

[٣٤٠] – الفتح ١ – ٤

[٣٤١] – فاطر ٢

نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ}[٣٤٢]، وكذلك اسم اللطيف أي خالق اللطف بعباده، وهو الرفق، فهو سبحانه يلطف بهم من حيث لا يشعرون، ويرفق بهم فيما تجري به المقادير. قال الله تعالى حكاية عن قول سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أخرجنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}[٣٤٣] فضلا عن ذلك اسم الودود المأخوذ من الود وهو الحب، ومحبة الله تبارك وتعالى خاصة بصنف من عباده وهم المؤمنون الطائعون قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٣٤٤]، والمراد من محبة الله لعبده زيادة إنعامه عليه، بجعله من أهل القربى عنده. نتيجة لما ورد نجد أن اسم الله تعالى الرؤوف يتصل اتصالا مباشرا مع هذه الأسماء التي تشكل بمجموعها باب لطيف يمكن أن نسميه باب الرأفة والرحمة، فنجد أن الرأفة تتعلق بالحس والعاطفة الوجدانية التي بها يزداد الاعتبار والتقدير مع الحرص الشديد على من ترتبط الرأفة به، فالله تعالى لو لم يكن رءوفا ما كان رحمانا ولو لم يكن رءوفا لم يكن رحيما ولو لم يكن رءوفا لم يكن لطيفا، ولو لم يكن رءوفا لم يكن فتّاحا، ولو لم يكن رءوفا لم يكن ودودا.

ومن الرأفة قوله تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}[٣٤٥] هذه الآية تتحدث عن الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها وبذلوها طلبا لمرضاة الله ورجاء لثوابه،

[٣٤٢] – الأعراف ٨٩

[٣٤٣] – يوسف ١٠٠

[٣٤٤] – المائدة ٥٤

[٣٤٥] – البقرة ٢٠٧

فمن رأفته ورحمته وفقهم لذلك، وقد وعد بذلك فقال: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ والقرآن وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٣٤٦]، وفي هذه الآية أخبر أنهم اشتروا أنفسهم وبذلوها، وأخبر برأفته الموجبة لتحصيل ما طلبوا، وبذل ما به رغبوا.

والخليفة في جميع أطوار حياته بأشد الحاجة إلى من يرحمه ويرأف به، إذ يقول تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا}[٣٤٧] والتخفيف هنا مرتبط بالرأفة، إذ تسهيل ما أمر به الله تبارك وتعالى وما نهى عنه، ونتيجة لحصول المشقة في بعض الشرائع أباح تعالى ما تقتضيه الحاجة كالميتة والدم ونحوهما للمضطر، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٣٤٨]، وكتزويج الأمة للحر بشروط حددها تبارك وتعالى، وذلك لرحمته التامة وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله عنه، ما يضعف عنه وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته.

و الخليفة لا يملك الرحمة الحقيقية به في دفع الضر عنه، وجلب الخير له، وإفاضة النعم عليه ظاهرها وباطنها، جليلها ودقيقها، ماديها ومعنويها.

---

[٣٤٦] – التوبة ١١١

[٣٤٧] – النساء ٢٨

[٣٤٨] – البقرة ١٧٢ – ١٧٣

وحظ الخليفة من هذه الصفة أن يتخلق بشيء مما تدل عليه قدر الاستطاعة، فيكون رحيما بخلق الله، مؤيدا لأرباب الحق، ناصرا لأولياء الله لطيفا في معاملاته لخلق الله، رفيقا بهم، مملوء القلب بالرأفة والرحمة، محبا لله، ومحبا لكل من يحبهم الله، ولكل ما يحبه الله.
وتتردد كثير من المفردات في القرآن الكريم التي توحي بالرأفة منها اليسر والإحسان والتخفيف والخير والنفع والعفو والغفران وكلها تدل على أن البارئ عز وجل، يرأف بالخليفة وذلك من أجل تسهيل مهمته التي وكل بها في الأرض، تلك المهمة التي بدأت مع استخلاف آدم عليه الصلاة والسلام في الأرض، ومنحه مقاليدها، على عهد من الله وشرط، وإعطائه المعرفة التي يعالج بها هذه الخلافة، قال تعالى:{وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٣٤٩].

مظاهر الرأفة:

١- الخلق:

ترددت لفظة (خلق) في أكثر من نص قرآني وكلها تشير إلى استعراض مهيب لما خلق الله تبارك وتعالى في هذا الكون العجيب، إذ يقول تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٣٥٠]. فالبارئ عز وجل يرسم ملمحا جميلا هنا في توجيه أنظار المستخلفين في الأرض إلى ما يحيط بهم من كل الاتجاهات، السماء والأرض وما فيهن، أسئلة تتبادر إلى الذهن لمن خلق الله تعالى كل هذه الموجودات؟ يجيب البارئ تعالى في أكثر من نص وبالصيغة نفسها أنها من أجلكم، ففيه دليل على أن الأصل في الأشياء المخلوقة الإباحة، حتى يقوم دليل يدل على النقل عن هذا الأصل، ولا فرق بين الحيوانات، وغيرها مما ينتفع به من غير ضرر، ثم أكد بعد ذلك بقوله:

---

[٣٤٩] البقرة ٣٠.

[٣٥٠] -البقرة ٢٩

(جَمِيعاً) ففيه دلالة قوية على هذا الأمر، وخلق السماوات والأرض من الأمور العظيمة والجليلة التي ركز عليها القران الكريم، فهي أساس الوجود وتتواجد عليها الخلائق وخطاب القرآن الكريم لا ينفك عن ذكرهما بوصفهما محورا مهما في عملية التبليغ الإسلامي، فهما من آيات الله، إذ يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[٣٥١] فالمقصود هنا ذات السماوات والأرض وصفاتهما، وإنما جمع السماوات، لأنها أجناس مختلفة، كل سماء من جنس غير جنس الأخرى، ووحد الأرض؛ لأنها كلها من جنس واحد، وهو التراب، إذ نجد في كثير من الآيات القرآنية التي تتحدث عن الخلق يتصدر الحديث دائما عن السماوات والأرض فهي من الدلائل العظيمة التي تشير إلى عظمة صنعة الصانع الحكيم، إن هذا الكون بذاته كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته؛ ويشي وراءه من يد تدبره بحكمة، ويوحي بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة وحساباً وجزاء إنما يدرك هذه الدلائل ويقرأ هذه الآيات ويرى هذه الحكمة، ويسمع هذه الإيحاءات (أولو الألباب) من الناس، الذين لا يمرون بهذا الكتاب المفتوح وبهذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين غير واعين! وهذه العظمة والقدرة في هذا الكون الفسيح كلها رأفة بالخليفة، فهي جانب نفعي له والجانب النفعي يساعده على تخطي صعاب الحياة بكل أشكالها، إذ يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٣٥٢] جمعت هذه الآية أهم ما خلقه الله تبارك وتعالى وفي الوقت نفسه فيه رأفة بالخليفة، ابتداء بالسماوات والأرض، ثم بعد ذلك تعاقب الليل والنهار مع علم كل عاقل بأنه لا يتهيأ من أحد من الآلهة

---

[٣٥١] – ال عمران ١٩٠– ١٩١

[٣٥٢] – البقرة ١٦٤

التي أثبتها الكفَّار أن يأتي بشيء منها، أو يقتدر عليه، أو على بعضه، أما الليل والنهار فهما يتعاقبان فكل واحد يخلف الآخر وكون زيادة أحدهما في نقصان الآخر وتفاوتهما طولا وقصرا وحرا وبردا، فهي كلها دلالات واضحة وبراهين بيِّنة تدل على الخالق سبحانه، فضلا عن ذلك حركة الشمس والقمر، قال تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٣٥٣] فالشمس والقمر من الآيات الدالة على انفراد الله تبارك وتعالى بالخلق والتدبير وعلى صفات إلهيته، فالكرة العظيمة كالشمس تبدو مقاربة لكرة القمر في المرأى وإنما ذلك من تباعد الأبعاد فأبعاد فلك الشمس تفوت أبعاد فلك القمر بمئات الملايين من الأميال، حتى يلوح لنا حجم الشمس مقارباً لحجم القمر. فبيَّن الله أنه نظم سير الشمس والقمر على نظام يستحيل معه اتصال إحدى الكرتين بالأخرى لشدة الأبعاد بين مداريهما، فلا يتسهل للشمس ولا يتسخر (أَن تدْرِكَ القمر) في سلطانه بأن تجتمع معه في الوقت الذي حده الله تعالى له وجعله مظهراً لسلطانه فإنه عز وجل جعل لتدبير هذا العالم بمقتضى الحكمة لكل من النيرين الشمس والقمر حداً محدوداً ووقتاً معيناً يظهر فيه سلطانه فلا يدخل أحدهما في سلطان الآخر بل يتعاقبان إلى أن يأتي أمر الله عز وجل، وهذا النظام الدقيق لم يخلق عبثا إنما ارتبط خلقه بالخليفة فهو مسخر له فلا يأتي ليل بعد ليل من غير نهارٍ فاصلٍ بينهما.

وجرى الفلك في البحر، يمثل جانبا مهما من جوانب التسخير التي أرادها الله تبارك وتعالى على هذه الأرض، فالبحر خلقه على هيئة يمكن معها السبح والسير بالفلك.

وزيد في الامتنان أن لحم صيده طريّ. فهذه السفن العملاقة تبحر بوسط هذه البحار العظيمة وتنقل ما تنقل من البضائع المختلفة من الشمال إلى الجنوب وبالعكس ومن الشرق إلى الغرب وبالعكس، حركة دءوبة لا تنقطع أبدا وكلها من أجل خدمة الخليفة، فالجري في البحر هو

---

[٣٥٣] – يس ٣٨ – ٤٠

مظهر التسخير قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٣٥٤]، إذ لولا الإلهام إلى صنعها على الصفة المعلومة لكان حظها من البحر الغرق. فجعل البحر صالحاً لحملها، وأوحى إلى نوح عليه الصلاة والسلام معرفة صنعها، قال تعالى: {وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٣٥٥] ، ثم تتابع إلهام الصناع لزيادة إتقانها.

وتسخير البحر ليس فقط مرور السفن فيه من أجل التجارة، بل بالغوص فيه من أجل الحصول على اللؤلؤ والمرجان بوصفهما من النفائس الغالية التي تباع بأسعار عالية جدا، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٣٥٦]، فضلا عن ذلك استخراج اللحم الطري الذي يعد رافدا أساسيا في التغذية بجانب أنواع اللحوم الأخرى، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٣٥٧] وقوله تعالى: {وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٣٥٨]، وغير ذلك من منافع البحر.

---

[٣٥٤] – الحج ٦٥

[٣٥٥] هود ٣٧ – ٤١

[٣٥٦] – الجاثية ١٢

[٣٥٧] – النحل ١٤

[٣٥٨] – فاطر ١٢

وإنزال المطر من السماء، وإحياء الأرض به، وبثّ الدوابّ منها من علامات الرأفة، قال تعالى : {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأخرجنا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فأخرجنا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٣٥٩] فالمطر يتكوّن في طبقات الجوّ العُليا الزمهريرية عند تصاعد البخار الأرضي إليها فيصير البخار كثيفاً وهو السّحاب ثمّ يستحيل ماء. فالسّماء اسم لأعلى طبقات الجوّ حيث تتكوّن الأمطار. وبالماء تخرج من الأرض أصنافا من النبات. ولذا فإنّ النبات جنس له أنواع كثيرة؛ فمنه زرع وهو ما له ساق ليّنة كالقَصَب؛ ومنه شجر وهو ما له ساق غليظة كالنّخل، والعنب؛ ومنه نَجْم وأبّ وهو ما ينبت لاصِقاً بالتّراب، وهذا التّعميم يشير إلى أنّها مختلفة الصّفات والثّمرات والطبائع والخصوصيات والمذاق، وهي كلّها نابتة من ماء السّماء الّذي هو واحد، وذلك آية على عظم القدرة، قال تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٣٦٠]. الماء واحد، والثمر بعضه اكبر من بعض أو بعضه أفضل من بعض، وبعضه حامض وبعضه حلو، إلى غير ذلك من التنوع المبارك من الرؤوف المطلق جل جلاله. فلو كان ظهور الثمار بالماء والتراب، لوجب في القياس، أن لا تختلف الألوان والطعوم، ولا يقع التفاضل في الجنس الواحد إذا ثبت في مغرس واحد، وسقي بماء واحد، ولكنه صنع اللطيف الخبير.

ويرافق النبات في هذه الحياة الدواب مصداقا لقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا

---

[٣٥٩] – الأنعام ٩٩

[٣٦٠] – الرعد ٤

مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ}[٣٦١] فهي أحدى المخلوقات التي سخرها الله تبارك وتعالى للخليفة وجعلها تحت إمرته يسيرها كيف يشاء تقضي له حوائجه وتدفع عنه المشقة، فإن من الدواب المبثوثة ما ينتفع به الناس من أكل لحومها والانتفاع بألبانها وأصوافها وجلودها وقرونها وأسنانها والحمل عليها والتجمل بها في مرابطها وغدوّها ورواحها قال تعالى: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[٣٦٢] وإذ كانت البحار من جملة الأرض فقد شملَ الانتفاع بدواب البحر فالله كما أبدع الصنع أسبغ النعمة فأرانا آثار الحكمة والرحمة والرأفة بنا.

وتمثل الرياح جانبا مهما من جوانب الطبيعة، والريح معروف وهي الهواء المتحرك وعامة المواضع التي ذكر الله تعالى فيها إرسال الريح بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب كما في قوله تعالى: {فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخرةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ}[٣٦٣] وكل موضع ذكر فيه بلفظ الجمع فعبارة عن الرحمة، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فأخرجنا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٣٦٤]، والرأفة تجلت هنا مع الرياح ودورها الذي تقوم فيه، فهي تبشر بالرحمة التي تنشر الغيث الذي هو من أتمّ النعم وأجلها وأحسنها أثراً، تحمل سحائبا ثقالاً بالماء لأجل بلد ليس فيه حياً ولسقيه، ومن ذلك قوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ}[٣٦٥].

---

[٣٦١] – لقمان ١٠

[٣٦٢] – النحل ٥ – ٧

[٣٦٣] – فصلت ١٦

[٣٦٤] – الأعراف ٥٧

[٣٦٥] – فاطر ٩

ومن رأفته تبارك وتعالى أنه خلق الهواء سابق علينا، فالخليفة عندما يأتي إلى الدنيا لابد له من التنفس فهو احد الأسباب المهمة للحياة وبدونه لا يمكن أن تكون الحياة، فضلا عن ذلك أن الطائرات لا يمكنها الطيران إلا بوجود الهواء، وكذلك الحال لبقية المخلوقات فهي تحتاجه من أجل التنفس ومن أجل الطيران أيضا.

ومن رأفته تعالى خلق لنا الطعام الذي بسببه استمرار الكائنات الحية، فهو أداة مهمة ولذلك نجد أن النص القرآني كرره كثيرا في خطابه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ}[٣٦٦]. هذا خطاب للناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، فامتن عليهم بأن أمرهم أن يأكلوا من جميع ما في الأرض، من حبوب، وثمار، وفواكه، وحيوانات، حالة كونها (حَلالا) أي: محللا لكم تناوله، ليس بغصب ولا سرقة، ولا محصلا بمعاملة محرمة أو على وجه محرم، أو معينا على محرم. (طَيِّبًا) أي: ليس بخبيث، كالميتة والدم، ولحم الخنزير، والخبائث كلها، ففي هذه الآية، دليل على أن الأصل في الأشياء الإباحة، أكلا وانتفاعا، وأن المحرم نوعان:

إما محرم لذاته، وهو الخبيث الذي هو ضد الطيب.

وإما محرم لما عرض له، وهو المحرم لتعلق حق الله، أو حق عباده به، وهو ضد الحلال.

وفيه دليل على أن الأكل بقدر ما يقيم البنية واجب، يأثم تاركه لظاهر الأمر، ولما أمرهم بإتباع ما أمرهم به - إذ هو عين صلاحهم - ونهاهم عن إتباع (خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ) بالطرق التي يأمر بها، وهي جميع المعاصي من كفر، وفسوق، وظلم، ويدخل في ذلك تحريم السوائب، والحام، ونحو ذلك، ويدخل فيه أيضا تناول المأكولات المحرمة، (إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ) ظاهر العداوة، فلا يريد بأمركم إلا غشكم، وأن تكونوا من أصحاب السعير، فلم يكتف ربنا بنهينا عن إتباع خطواته، حتى أخبرنا - وهو أصدق القائلين - بعداوته الداعية للحذر منه، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ

---

[٣٦٦] - البقرة ١٦٨

تَعْبُدُونَ}[٣٦٧] هذا أمر للمؤمنين خاصة، وذلك أنهم هم المنتفعون على الحقيقة بالأوامر والنواهي، بسبب إيمانهم، فأمرهم بأكل الطيبات من الرزق، والشكر لله على إنعامه، باستعمالها بطاعته، والتقوى بها على ما يوصل إليه، فأمرهم بما أمر به المرسلين في قوله: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}[٣٦٨]. فالشكر في هذه الآية، هو العمل الصالح، وهنا لم يقل (حلالا) لأن المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأن إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له. قال: (إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) أي: فاشكروه، فدل على أن من لم يشكر الله، لم يعبده وحده، كما أن من شكره، فقد عبده، وأتى بما أمر به، ويدل أيضا على أن أكل الطيب، سبب للعمل الصالح وقبوله، والأمر بالشكر، عقيب النعم؛ لأن الشكر يحفظ النعم الموجودة، ويجلب النعم المفقودة كما أن الكفر، ينفر النعم المفقودة ويزيل النعم الموجودة.

٢- ومن مظاهر الرأفة المودة التي بيننا:

جعل الله تبارك وتعالى الخلق أجمع ضمن سلسلة مرتبة من العلاقات التي تربطهم جميعا، وبما يضمن بقاء التواصل بينهم، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّـهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّـهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}[٣٦٩]. بين الله تبارك وتعالى في هذه الآية أن الخلق كلهم من أصل واحد يرجعون إلى آدم وحواء، ومن آدم وحواء خلق خلقا كثيرا، فبث منهما رجالا ونساء فلم يستقل كل واحد بنفسه بل فرقهم الله تبارك وتعالى وجعلهم شعوبا وقبائل وذلك من أجل أن يتعارفوا، وهذا التعارف ترتب عليه كثير من الأمور منها الدفاع المشترك ضد أي عدوان خارجي فضلا عن ذلك التعاون الداخلي فيما بينهم في كل الأمور، هذا يمثل الإطار العام للتعاون أي في حدوده الواسعة، أما الإطار

---

[٣٦٧] – البقرة ١٧٢

[٣٦٨] – المؤمنون ٥١

[٣٦٩] – الحجرات ١٣

الخاص فهو الأسرة الواحدة وخاصة بين الأزواج فهي من أقوى الروابط واشملها وأكثرها تأثيرا، والود محبة الشيء وتمنيه قال تعالى في خطابه للخليفة في إشعار له بقيمة المودة في تكوين الحياة الزوجية: قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٣٧٠] هذه آية فيها عظة وتذكير بنظام الناس العام وهو نظام الازدواج وكينونة العائلة وأساس التناسل، وهو نظام عجيب جعله الله مرتكزاً في الجبلة لا يشذ عنه إلا الشاذ. جعل البارئ عز وجل التزاوج أنسا بين الزوجين فربط بينهما بالمودة والرحمة وهي نعمة من نعم الله تبارك وتعالى على البشر ومظهر من مظاهر رأفته بالمستخلفين، فالخليفة يتخلق بهذه الخصيصة التي منحها الله له ضمن إطار الواقع الاجتماعي الذي يعيش فيه، فعلاقة الأزواج يرتسم من خلالها الخليفة مرضاة الله تبارك وتعالى من خلال تحويل الأوامر والنواهي إلى واقع حال في تصرفاته الأسرية وهذا ما يعزز المودة وينشئها ضمن إطار إسلامي بحت.

بل أن الله تبارك وتعالى جعل المودة هبة من الهبات التي يرأف بها عباده يوم القيامة، فقال: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا}[٣٧١]، في إشارة إلى تجمع المؤمنين يوم القيامة وطبيعة العلاقة التي تربطهم بالرؤوف الرحيم، فهي مبنية على المودة، فضلا عن ذلك يجعل بين أنفسهم مودة، قال تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[٣٧٢]، والمودة تقتضي المحبة المجردة من كل غرض دنيوي، ولهذا ورد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: {ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ

---

[٣٧٠] – الروم ٢١

[٣٧١] – مريم ٩٦

[٣٧٢] – الأعراف ٤٣

فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ}[٣٧٣] أي أن عمل الرسول صلى الله عليه وسلم في دعوته وجهاده لا ينتظر منه أجرا من الناس، إنما هي علاقات الود مع أهله وأصحابه، وقد وصف ذاته تعالى بالود في قوله: {وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ}[٣٧٤]وقوله تعالى: {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}[٣٧٥]، فمودة الله تعالى لعباده مراعاته لهم ولا تقتصر المودة على الأزواج فقط وإنما تتفرع إلى فروع عدة تتمثل في باقي العلاقات الاجتماعية منها العلاقة مع ألأخوال ومع الأعمام فضلا عن ذلك العلاقة مع الجيران ومن ثم بقيت الخلق.

فالمودة عالم جميل وعظيم جعله الله تبارك تعالى من أجل إضفاء الحياة سمة خاصة ألا وهي الرأفة العظيمة التي أوجدها الرؤوف الرحيم.

أما الأمومة فهي تمثل جانبا مهما من العلاقات الإنسانية التي أوجدها الله تبارك وتعالى، فهي المرتكز الأساس للمجتمع الإنساني، إذ يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[٣٧٦]، الأمومة اسم يتردد بترنم في ذهن الفتاة ويكبر معها من سنة إلى أخرى رغم انه يحمل بداخله مشقة بعد مشقة كما ذكرها القرآن الكريم، فتبدأ المشقة منذ ألحظة الأولى التي تكتسب فيها صفة الأمومة وهي بداية تلقيح البويضة وما يرافقها من وحم وضعف وثقل ثم بعد ذلك وجع الولادة الشديد، ولم يقف الأمر إلى هذا الحد بل يتبعه رضاعة تستمر لمدة عامين، هذا كله يجري بطريقة تتعشق فيها رأفة البارئ جل جلاله، فضلا عن ذلك أن وشيجة الأبوة والبنوة هي أول وشيجة بعد وشيجة الإيمان في القوة والأهمية،

---

[٣٧٣] – الشورى ٢٣

[٣٧٤] – البروج ١٤

[٣٧٥] – هود ٩٠

[٣٧٦] – لقمان ١٤ – ١٥

وأولاها بالرعاية والتشريف، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}[٣٧٧].

٣ . ومن مظاهر رأفته بيّن لنا الحلال من الحرام:

الحلال والحرام من أول المفردات التي عرفها الخليفة، وذلك في قوله تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[٣٧٨] فبعد أن خلق الله تبارك وتعالى آدم عليه الصلاة والسلام وفضله، خلق حواء ليسكن إليها ويستأنس بها، ثم أمرهما بعد ذلك سبحانه وتعالى بالسكن في الجنة والأكل منها رغدا، إلا أنه تعالى نهاهما عن الأكل من شجرة، وهي نوع من أنواع شجر الجنة، والنهي هنا دال على التحريم بدليل قوله تعالى: (فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) لأنه رتب عليه الظلم. بعد هذا الاختبار لخليفة الله في الأرض أصبح الحلال والحرام من المفردات التي رافقت كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام والذي ترجم من خلال الكتب السماوية التي رافقتهم.

يتبادر إلى ذهن الخليفة بعض الأسئلة لماذا من الرأفة معرفة الحلال والحرام؟.

لنأخذ بعض الأمور التي حرمها البارئ عز وجل ولنقف على العلاقة التي بينها وبين الرأفة، فعلى سبيل المثال: الخمر من المحرمات في الشريعة الإسلامية، وجاء تحريمه على مراحل فكانت المرحلة الأخيرة بهذه الصيغة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ

[٣٧٧] – الأحقاف ١٥ – ١٦

[٣٧٨] – البقرة ٣٥

مُنْتَهُونَ}[٣٧٩] يذم الله تبارك وتعالى الأشياء القبيحة، ويرسم لها صورة تتناسب مع فعل الشيطان بقوله: (رجس) وهنا التحريم لم يأت بصيغة إن هذا حرام بل جاء بصيغة أكثر تأثيرا وإيحاء من خلال لفظة (فَاجْتَنِبُوهُ) بمعنى اتركوه، فالله تبارك وتعالى يريد الفلاح للمستخلفين، وهذا الفلاح لا يتحقق إلا من خلال ترك ما حرم الله، وبالأخص الفواحش المذكورة ومنها الخمر الذي نحن بصدده، فالخمر هو كل ما خامر العقل أي غطاه، فمن مفاسدها الداعية إلى تركها واجتنابها: أنها رجس بمعنى الخبث، والأمور الخبيثة مما ينبغي اجتنابها وعدم التدنس بها، والدنس لا طهارة فيه، والخليفة من المتطهرين، ولذا فإنه المجتنب والمنتهي والمبتعد عن كل دنس، ولهذا فمن الطاعة إتباع الأوامر والنواهي الإلهية، وما يخالفها من عمل الشيطان، الذي هو أعدى الأعداء للإنسان.

والخمر من الأمور الموجبة للعداوة والبغضاء بين المستخلفين، والشيطان حريص كل الحرص على بثها من أجل أن يوقع بينهم ما يكون السبب في فرقتهم وابتعادهم عن دين الله تبارك وتعالى، وفي هذا الأمر امتحان للعباد، فمن يُرد أن تثقل موازينه فعليه بطاعة الله ومن يُرد أن تخف موازينه فعليه بإتباع الشيطان وما يُخيِّل به وما يوسوس وما يزينه لضعاف العقول، ومما يصاحب شارب الخمر انه يقترن معه السباب عند شربه مما يؤدي في بعض الأحيان إلى حصول القتل بين الشاربين أو غيرهم، وفي كثير من الأحيان الصراع والخصام والفتنة وارتكاب المحرمات بأسباب الخمر كثيرة، هذا يمثل الجانب المادي، أما الجانب الروحي، فهو يصد القلب عن ذكر الله جل جلاله، بالبعد عن ذكره والصلاة، والصلاة هي من أهم وسيلة للاتصال بين العبد وربه، يناديه ويجيبه، فهي من الفرائض التي أكد عليها القران الكريم مرارا، وهي صفات المؤمنين. قال تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ

---

[٣٧٩] – المائدة ٩٠– ٩١

يُنْفِقُونَ}[٣٨٠]، وقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[٣٨١].

كذلك من جملة ما حرم الله تبارك وتعالى الزنا، إذ يقول تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}[٣٨٢]، الزنا من الذنوب العظيمة فهي لا تقتصر على فعل جنسي فقط، بل يتعدى الأمر إلى أكثر من ذلك، وهذا ما عرضته الآية الكريمة، فالنص القرآني هنا لم يشر بكلمة التحريم بل أشار بكلمة الابتعاد التي هي أبلغ من التحريم، لأن ذلك يشمل النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، ووصف الله الزنا وقبحه بأنه (كَانَ فَاحِشَةً) أي: إثما يستفحش في الشرع والعقل والفطرة لتضمنه التجرؤ على الحرمة في حق الله وحق المرأة وحق أهلها أو زوجها وإفساد الفراش واختلاط الأنساب وغير ذلك من المفاسد. ولذلك نجد صيغة العقوبة وما رافقها من رفع الرأفة في قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ}[٣٨٣].

ومن الرأفة تحريم الخبائث وإباحة الطيبات، ولقصر نظر الناس فإنهم لا يستطيعون تحديد الحلال من الحرام في الأشياء والأفعال، فلكي ينصرف الخليفة إلى مهمته التي استخلفه الله تبارك وتعالى من أجلها وهو إعمار الأرض وإقامة دين الله، فكان أن يَسَّرَ الله تعالى له أمر الخير والشر، والحلال والحرام رأفة بقدراته العقلية التي لا تستطيع أن تستوعب كل المهام التي يمكن أن تناط بها في هذا الاستخلاف، فجعل الحلال والحرام من خصائص الله تبارك وتعالى، وجعل تنفيذها من مقدرات العباد رأفة بهم لا نقمة عليهم.

---

[٣٨٠] – البقرة ٣

[٣٨١] – البقرة ٢٧٧

[٣٨٢] – الإسراء ٣٢

[٣٨٣] – النور ٢ – ٣

الرأفة صفة عظيمة أوجدها الله تبارك وتعالى، وهذه الصفة العظيمة كيف تترجم في الواقع الإسلامي؟. وكيف تكون أداة مهمة في يد الخليفة من أجل الإصلاح الذي يريده الله تبارك وتعالى؟.

فالخليفة يستمد صفاته من صفات الله تبارك وتعالى، وعلى هذا يعامل ما حوله برأفة بدء بعلاقته مع الآخرين، وهذه العلاقة تكون محكومة بالشرع الذي يريده الله تبارك وتعالى من ذلك عدم الزنا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ}[٣٨٤]. الحفظ هو الصيانة والإمساك، وحفظ الفرج عن الوطء إلا على زوجاتهم وما ملكت أيمانهم، فالزنا اعتداء على الحرمات وهتك للعرض وفيه تجاوز لا يريده الله تبارك وتعالى، فضلا عن ذلك ما يتركه للمجتمع من خراب، فيلحقه تفكك للأسرة وانحلال خلقي يؤدي إلى كثير من الأمراض، وهذا ما نجده في وقتنا الحاضر من تفشي مرض الإيدز الذي لا يرحم كبيرا ولا صغيرا، فما أقتله، وأهلكه فهو أشد قتلا وإهلاكا من القنبلة التي ألقيت على هيروشيما، فهو يقتل يوميا دون توقف وحتى الآن لا علاج له إلا بالتمسك بما أراده الله جل جلاله، فالإيدز هلاك، وهو بالأسباب المنهي عنها بالمطلق والله تعالى لا يريد الهلاك للمستخلفين في الأرض، ولهذا قال: (وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلا). قال تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[٣٨٥]

وكذلك السرقة وهي أخذ ما ليس له أخذه في خفاء وصار ذلك في الشرع لتناول الشيء من موضع مخصوص وقدر مخصوص، قال تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ

[٣٨٤] – المؤمنون ٥ – ٧

[٣٨٥] – البقرة ١٩٥

اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٣٨٦] فهي أيضا من باب الاعتداء على الغير، وهذا العمل بعيد كل البعد عما ينشده الرؤوف الرحيم، فمن باب الرأفة عدم السرقة بل يجب المحافظة على أموال المستخلفين حتى لا تكون بينهم الفتنة.

٤- من مظاهر الرأفة إرسال الرسل:

لما كانت أمم الأرض في القرون الأولى على شكل شعوب وقبائل متفرقة، منعزلة عن بعضها في نواحي الأرض، وكانت هذه الشعوب والقبائل بحاجة إلى منبه ينبهها، ومنذر ينذرها، ومصلح يهذبها بما يطهرها من الدنس والظلم والضلال. قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[٣٨٧]. فقد اقتضت حكمة الله جل جلاله أن يرسل إلى الأمم والشعوب في قراهم وبواديهم وحواضرهم المنعزلة رسلا مبشرين ومنذرين، لئلا يكون لهم حجة بالجهل والغفلة، وكان هؤلاء الرسل يحملون مهمة واحدة، ذات أسس ومبادئ واحدة، فيمثلون إرادة مرسلهم بها، ويبلغون كتبه ووحيه، ويؤدون رسالته، قال تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}[٣٨٨] فكل نفس تحمل وزرها لا وزر نفس غيرها، والله جل جلاله لا يعذب قوما إلا بعد أن يبعث لهم رسولا فيلزمهم الحجة، وذلك من خلال الكتاب الرباني المنزَّل على الرسول فهو المرجع لأمته، مهما تعاقبت العصور، فيرجعون إليه في تحديد عقائد الدين وأسسه، ومبادئه وغاياته ويرجعون إليه في التعرف على أحكام شريعة الله لهم واستبانة الواجبات التي يأمرهم بها، والمحرمات التي ينهاهم عنها، والفضائل والكمالات التي يحثهم عليها ويندبهم إليها، كما يرجعون إليه ليطالعوا مواعظه ونصائحه، وأمثاله وآدابه، وما تضمنه

---

[٣٨٦] – المائدة ٣٨-٣٩

[٣٨٧] – النحل ٣٦

[٣٨٨] – الإسراء ١٥

من بشائر ونذر، ووعد ووعيد، وسائر الوسائل والأساليب ذات الفضائل الرفيعة، الهادية إلى صراط الله المستقيم، إذ يقول تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٣٨٩] هذه الآية تبين انه لا نبي إلا ومعه كتاب منزل، وفيه بيان الحق.

إن عملية إرسال الرسل كلها رأفة أو قل مشبعة بالرأفة التي يكتنزها البارئ عز وجل للمستخلفين، وبعبارة أخرى إن إرسال الرسل إنقاذ لهم من العقوبة التي ينتظرونها نتيجة ما كانوا عليه من الضلال والضياع بعيدا عن البارئ جل جلاله، فالبعد عن البارئ جل جلاله هلاك والقرب منه رحمة، وبرأفته جعل المستخلفين فيها هم الأقرب إليه لأنهم أصحاب التقوى.

وإرسال الرسل يرسم ملمحا فكريا يتصل بطبيعة خلق الإنسان في أحسن تقويم، ويكون ذلك من خلال محدودية الفكر البشري في التعرف على ربه جل جلاله، من ذلك ما كان عليه المسلمون قبل البعثة النبوية ،إذ يقول تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}[٣٩٠]، ومنه أيضا قوله تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ}[٣٩١].

٥- مظاهر الرأفة في الكون:

---

[٣٨٩] – البقرة ٢١٣

[٣٩٠] –البقرة ١٥١ – ١٥٢

[٣٩١] – ال عمران ١٦٤

ومن الرأفة معاملة المسكين واليتيم والأسير معاملة تتفق مع صلب الشريعة الإسلامية، وهي من صفات الخليفة إذ يقول تعالى: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا}[٣٩٢]، فكل واحد من هؤلاء الثلاثة طلبه الأول والأخير هو الطعام، فالكل فاقد له وهم بأمس الحاجة إليه، فالمسكين واليتيم لا يملكان في بعض الأحيان أو كثيرها الطعام اللازم لهما، أما الأسير فهو يختلف عنهم اختلافا جذريا، فإنه يعيش في وضع صعب لا يستطيع حتى الحركة الحرة التي تكون في بعض الأحيان هي السبب في الحصول على الطعام، فمعاملته لابد أن تتسم بالرأفة أكثر من الصنفين السابقين، وتخصيص الطعام في هذه الآية بالذكر لما في إطعام المحتاج من إيثاره على النفس وهذه من صفات الخليفة الصالح الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[٣٩٣]، فالإيثار هذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها، أما الطعام فهو عصب الحياة فلا يستطيع أي كان العيش بدونه، ويعد في بعض الأحيان معيارا بين المستخلفين من أجل تصنيفهم لإيضاح وضعهم الاقتصادي.

ومن الرأفة أن لا يُفسد زرع ولا حرث فهي من الأملاك المستحقة للاحترام رأفة بالعباد الذين جعل لهم الرؤوف الكريم حقا فيها، ولهذا فإفساد الحرث والزرع معصية لا يقدم عليها خليفة من خلفاء الرؤوف الرحيم. قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}[٣٩٤]،

---

[٣٩٢] – الإنسان ٨ – ٩

[٣٩٣] – الحشر ٩

[٣٩٤] البقرة ٢٠٤ – ٢٠٦

فمن يعمل المعاصي فعمله هذا هو إفساد في الأرض، فالزروع والثمار والمواشي، حقوق للذين خلقهم الله في أحسن تقويم فلا تدمر بغير حق.

لعل من أهم مظاهر الرأفة، الرأفة بالوالدين ذلك أنهما أقرب الناس للإنسان، وهو لا يشعر بما قدماه له من عناية وتربية وسهر، فربما لغياب ذلك عنه لا يؤدي الإحسان لهما كما أمر الله تعالى بذلك، ولهذا أمر الله تبارك وتعالى الخليفة أن لا يعق والديه، والعقوق ليس النهي عن الضرب والسب، إنما هو عن أقل كلمة وهي: (أف)، إذ يقول تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[٣٩٥]. تشتمل الآية الكريمة على حقين، حق الله تبارك وتعالى في عبادته وعدم الإشراك به، وهذا الحق شغل حيزا كبيرا في النص القرآني، إذ ورد على لسان الأنبياء في دعوتهم إلى عبادة الله تبارك وتعالى، يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[٣٩٦]، وقوله تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٣٩٧]، وقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ}[٣٩٨]، في هذه الآيات نجد أن الدعوة إلى العبادة مثلت

[٣٩٥٣٩٥] – الإسراء ٢٣ – ٢٤

[٣٩٦] – المائدة ١١٦ – ١١٧

[٣٩٧] – الأعراف ٧٣

[٣٩٨] – هود ٨٤

العمود الفقري للخطاب الذي حمله الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى الناس كافة، أما الحق الثاني فهو حق الوالدين، إذ نلتمس عظم هذا الأمر من خلال وروده بعد حق عبادة الله تعالى، فقد خص الله تعالى الأم بالرأفة خاصة لأنها أشد تعبا وجهدا مع الأبناء، يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٣٩٩].

وجانب آخر من جوانب الرأفة التي ينشدها الخليفة هو الرفق بالحيوان، فهذا المخلوق الذي سخَّره الله تبارك وتعالى من أجل أن يكون في خدمة العباد،قال تعالى: {وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٤٠٠]، والرأفة لا تقتصر فقط على هذه الحيوانات التي ذكرت في هذه الآيات بل جميع الحيوانات، فهي سِمة مهمة يجب أن يتصف بها الخليفة، ونذكر على سبيل المثال الهرة التي كانت سببا في دخول امرأةٍ النارَ بعد أن حبستها، فلا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، ولاهي أطعمتها، وفي هذا ظلم، والظلم ليس من صفات الخليفة. الخليفة من صفاته الرأفة التي استمدها من الرؤوف المطلق جل جلاله.

٦- من مظاهر الرأفة نعمة العقل:

العقل قوة متهيئة لقبول الهداية والإيمان والعلم، وهو من النعم التي أنعم بها الله تبارك وتعالى علينا التي لا تقدر بأي ثمن، فهو الميزان الذي من خلاله يستطيع الخليفة التصرف وفق معطيات الحياة بكل تفاصيلها، به يدرك وبه يتفكر ويتذكر ويتدبر ويستنبط ويستقرى حتى اليقين. ولهذا تكرر في الخطاب القرآني لفظة (يعقلون) التي أخذت حيزا كبيرا من هذا

---

[٣٩٩] – الأحقاف ١٥

[٤٠٠] – النحل ٥ – ٨

الخطاب، قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[٤٠١] وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[٤٠٢].

ومن المواضع التي ذم الله جل جلاله فيها الكفار بعدم العقل قوله: {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[٤٠٣] شبَّه الله تبارك وتعالى الكفار هنا كمثل البهائم التي ينعق لها راعيها، وليس لها علم بما يقول، فهم يسمعون مجرد الصوت، الذي تقوم به عليهم الحُجَّة، ولكنهم لا يفقهونه فقها ينفعهم، فلهذا كانوا صما لا يسمعون الحق سماع فهم وقبول، عميا لا ينظرون نظر اعتبار، والسبب الموجب لذلك كله، أنه ليس لهم عقل مدرك للحق وواقف عنده، بل هم في سفاهة العقل لا في يقينه.

٧- ومن مظاهر الرأفة رزقه للجميع:

هذا من عظيم رأفته فرزقه عام لا يفرق فيه بين أحد مهما كانت ديانته ومهما كان لونه أو جنسه، رزقه لكل ما خلق، من يعبده يرزقه، ومن يكفر به يرزقه، ولهذا فهو رءوف بمن يعلم فآمن، وبمن لا يعلم فَضَلَّ، وذلك لأنه العليم المطلق جل جلاله، قال تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا}[٤٠٤] فرزق الله ليس ممنوعا من أحد بل أن جميع الخلق يشملهم رزقه وذلك بفضله وإحسانه. أما التفضيل في الدنيا فهو يكون بسعة الرزق وقلته وفي

---

[٤٠١] – الأنعام ١٥١

[٤٠٢] – المؤمنون ٧٨ – ٨٠

[٤٠٣] – البقرة ١٧١

[٤٠٤] – الإسراء ٢٠- ٢١

العلم والجهل والتدبر وانعدامه، وغير ذلك من الأمور التي فضل الله العباد بعضهم على بعض بها.

وترددت مع لفظة (الرزق) مشيئة الله تبارك وتعالى، منها قوله: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخرةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[٤٠٥]، وقوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٤٠٦]، وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٤٠٧] إن ارتباط المشيئة بالرزق ينم عن عظمة الله تعالى وقدرته، فضلا عن ذلك ارتباط هذا الأمر بقضية مهمة جدا، وهي قضية الإصلاح والفساد، بمعنى أن الله تعالى يعلم ما يصلح العباد وما يفسدهم، فيمكن القول أن الرزق وإن كان للجميع فإن السعي إليه ليس بطريقة متساوية، فالله يبسط الرزق لمن يسعى إلى كسبه بالحلال، بالعمل الجاد والإخلاص والإصلاح، ولهذا يرزق من يشاء من عباده ويقدر.

والخليفة يستمد هذه الصفة من الله تبارك وتعالى في تعامله مع الآخرين وخاصة مع أقرب المقربين إليه، فلا يفرق بين أبناءه في توزيع رزقه عليهم، فالكل يجب أن يكونوا وفقاً لمعايير واحدة، ووفقا لقواعد الحقوق والواجبات والمسؤوليات، والفرض الذي فرضه الرؤوف للآباء والأبناء في الحياة والنصيب في الميراث، وهذه المعايير واجبة الأخذ بها، وفي هذه المعايير تتضح رأفة الخالق جل جلاله بعباده.

٨- من مظاهر رأفته التوبة للجميع:

التوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط فيه والعزيمة على ترك المعاودة وتدارك ما أمكن أن يتدارك من الأعمال بالإعادة فمتى اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التوبة،

---

[٤٠٥] – الرعد ٢٦

[٤٠٦] – العنكبوت ٦٢

[٤٠٧] – الروم ٣٧

وتاب إلى الله وتذكر ما يقتضي الإنابة، والتزم بأمره إقداما على ما يجب وانتهاء عن ما لا يجب الإقدام عليه، قال تعالى: {وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٤٠٨]، فمن رأفة الله تبارك وتعالى انه يقبل التوبة عن عباده ويطلب منهم عدم القنوط فيقول تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٤٠٩] يبين الله تبارك وتعالى كرمه للمسرفين من عباده ويحثهم على الإنابة، وعدم اليأس من رحمة الله جل جلاله، دون الإبقاء على المعصية أو الإصرار عليها، نتيجة التأويل الخاطئ أو التفسير الخاطئ الذي يقنعون به أنفسهم فيقولون قد تراكمت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها ولا سبيل يصرفها، وهذا كلام بعيد كل البعد عن رحمة الله تبارك وتعالى، فرحمته وسعت كل شيء، وهو الرؤوف الرحيم جل جلاله.

التوبة كلمة ترددت في النص القرآني في مناسبات عدة، فهي تحمل مضمونا معرفيا ينساق خلف النصوص التي وردت فيها، فضلا عن ذلك أن وجود هذه الكلمة يحيلنا إلى كلمات أخرى مرتبطة بها من قريب أو من بعيد، كالذنب والحرام والتجاوز والفساد وغيرها من الكلمات التي تنحو كما ينحو هذا المنحى، بمعنى آخر أن ارتباط هذه الكلمات بكلمة التوبة يفتح لنا ملفا أوجده الله تبارك وتعالى في تعامله مع عباده، فهو الذي يقبل التوبة، إذ يقول تعالى: {وَهُوَ

---

[٤٠٨] – النور ٣١

[٤٠٩] – الزمر ٥٣

الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[٤١٠]، وقوله تعالى: {أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٤١١]. إن وجود التوبة يحيلنا إلى استرجاع قراءة الآيات القرآنية التي تخللتها التوبة، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٤١٢] في هذه الآية وردت كلمة (يفسد) والفساد هو ضد الصلاح مما يترتب على فاعله الإثم والذنب، فلا يذهب الإثم والذنب إلا عن طريق التوبة التي خطها الله تبارك وتعالى لعباده، فبعد قبول التوبة تغلق صفحة وتفتح أخرى لتسجيل وقائع جديدة ترسم فيها رأفة البارئ عز وجل، فتتحقق المغفرة التي أرادها الله تعالى، فمن الأمثلة البارزة التي تجسدت فيها التوبة ما حصل لآدم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فأخرجهمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٤١٣]، وتجلي غفران الذنوب الكبيرة في قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين قتل رجلا، قال تعالى: {وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[٤١٤]. والمغفرة لا تشمل الأنبياء فقط بل هي تتسع لكل عباد الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ

---

[٤١٠] – الشورى ٢٥

[٤١١] – التوبة ١٠٤

[٤١٢] – البقرة ٣٠

[٤١٣] – البقرة ٣٥ – ٣٧

[٤١٤] – القصص ١٥ – ١٦

الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[٤١٥].

٩- من مظاهر رأفته عنايته بعباده:

تمثل عناية الله تعالى لعباده جانبا مهما من جوانب الرأفة التي يتسم بها البارئ تبارك وتعالى، فالله جل جلاله هو خالقهم فلا يتركهم دون عناية، وعنايته تتمثل في صور عدة وبحسب ما يتطلب الموقف، فمن بداية خلقته تبرز العناية الإلهية، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخر فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٤١٦]. هنا يستعرض البارئ عز وجل مراحل التكون أو الأطوار التي يمر بها من خلق في أحسن تقويم من بداية تكونه إلى آخر ما يصير إليه، فتبدأ بالطين، والطين أخذ من جميع الأرض، ولذلك جاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الطيب والخبيث ومنهم الأبيض والأسود، وغير ذلك من السمات، (ثُمَّ جَعَلْنَاهُ) جنس الآدميين (نُطْفَةً) تخرج من بين الصلب والترائب، فتستقر (فِي قَرَارٍ مَكِينٍ) وهو الرحم، محفوظة من الفساد وغير ذلك. هنا تتجلى العناية الإلهية في الرحم مكان حفظ الجنين، فهو يمثل العناية العجيبة، يبقى تسعة أشهر يعيش على حياة أمه، يحيطه ماء من كل مكان يدافع عنه ويصد أي أذى خارجي يتعرض له فلولا هذه العناية المصاحبة للجنين لتعرض إلى أنواع مختلفة من المخاطر الخارجية. هذه العناية تكون وهو في بطن أمه أما بعد خروجه إلى الدنيا، فالله تبارك وتعالى لا يتركه دون عناية وحفظ بل تلازمه أين ما ذهب وأين ما حل، قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ

---

[٤١٥] - أل عمران ١٣٥ - ١٣٦

[٤١٦] - المؤمنون ١٢ - ١٤

مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}[٤١٧] والمعقبات جند الله يحفظون بدنه وحياته من كل من يريد به السوء، أو يلحق به الضرر، فهم ملازمون له دائما، لا يتركونه لا بليل ولا بنهار، لأن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وهكذا، وما من عبد إلا وله ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته، فضلا عن ذلك أن علم الله تبارك وتعالى محيط به. ومن الأمثلة الواضحة البينة التي ترسم لنا العناية بأوضح صورها، العناية الإلهية التي صاحبت النبي يونس عليه الصلاة والسلام وهو في بطن الحوت قال تعالى: {فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}[٤١٨]ويقول أيضا تبارك وتعالى: {فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ لَوْلَا أَنْ تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[٤١٩] يستعرض البارئ عز وجل ما حصل للنبي يونس عليه الصلاة والسلام، وهو التقام الحوت له، فهو أمر غريب لم يسمع به من قبل إلا من باب الخيال، حوت كبير داخل بحر عظيم أمواجه متلاطمة، ظلام دامس صورة معقدة لا يصدر عنها أي شيء يوحي بالحياة، وكل هذه التصورات في جانب، ورأفة الله تعالى به في جانب آخر، بقي يونس عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت بعناية الله تعالى وتدبيره، في مكان غريب عليه كل الغرابة لا ملجأ له ولا مخرج، فنادى وهو في بطن الحوت (لا إِلَهَ إلا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فاستجاب الله له، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، واختيار شجرة اليقين أيضا فيه رأفة بيونس عليه الصلاة والسلام لأنها تظله بظلها الظليل، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به، وبره.

---

[٤١٧] – الرعد ١١

[٤١٨] – الصافات ١٤٢ – ١٤٦

[٤١٩] – القلم ٤٨ – ٥٠

ويتشكل دور الخليفة ضمن نطاق العناية بما يوجد حوله، ابتداءا بأسرته فلابد له أن يعتني بهم فهم أمانة في عنقه ويسأل عنهم يوم القيامة، فهم كالزهور لابد من عنايتهم والوقوف على حاجاتهم والتعرف على مشاكلهم، أما تركهم فمصيرهم سيكون قاتم بعيد كل البعد عن شرع الله تبارك وتعالى. والعناية تشمل كل شيء مرتبط بالخليفة حتى الشارع الذي يمشي عليه، فيتجنب أن يرمي فيه أي شيء يعيق حركة المارة أو يفسد السبيل. هذه الأمور التي تحدثنا عنها لا يستهان بها لأن فعلها وإن كانت تبدو للبعض أمرا هينا إلا إنها تمثل جانبا مهما من جوانب تفعيل عناية الرؤوف الرحيم.

١٠- التيسير من باب الرأفة:

أرسل الله تبارك وتعالى الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلى مختلف الأمم من أجل بيان شرعه جل جلاله، قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}[٤٢٠] فالله تبارك وتعالى جعل لكل أمة شرعا يتبعونه، والشرع يتمثل بالكتب السماوية، كالزبور والتوراة والإنجيل والقرآن الكريم، فهذه الكتب جاءت لكي تبين الأحكام الشرعية، التي يريدها الله تبارك وتعالى، والأحكام لابد لها من تطبيق لكن في بعض الأحيان لا تطبق أو تؤجل وهذا يدخل من باب اليسر الذي اتسم به البارئ عز وجل، واليسر ضد العسر، فمن مظاهر الرأفة تيسير العبادة، فإن الله تعالى لم يكلف عباده مالا يطيقون من العبادات في وقت ضعفهم أو حتى في وقت شدتهم بل أن التشريع راعى حالات الإنسان في ضعفه أيام سفره ومرضه وسمح له بما لا يسمح للمقيم والصحيح، ومن ذلك عبادة الصوم، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ

---

[٤٢٠] – المائدة ٤٨

آخر وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ آخر يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٤٢١]. في هذه الآيات الكريمة يستعرض البارئ جل جلاله أحد أركان الإسلام ألا وهو صوم شهر رمضان، فقد جعله واجبا على كل المسلمين، لكن من تيسيره جعل فيه رخصة، إذ لا يستطيع البعض الصوم نتيجة لعائق صحي أو قد يكون مسافرا، فمن باب التيسير جعل الله تبارك وتعالى الأيام التي أفطرها الصائم يعيدها في أيام آخر بعد رمضان. وكذلك الحج فرضه الله تبارك وتعالى على المسلمين لكن أيضا جعل فيه شرطا بقوله: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[٤٢٢]، والسبيل هو الزاد والراحلة، والحج فرض عين على كل مسلم قادر، وبهذا عذر الله سبحانه غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب، فلا يؤاخذه به ولا يطالبه بأدائه، فإذا حج سقط الفرض عن نفسه، وليس حج المستطيعين بمسقط الفرض عن العاجزين. وبهذا تتجلى رأفة الله تبارك وتعالى من خلال أحكامه التي وضعها، والتي من خلالها نستنبط أن رأفته صاحبت فرائضه في سبيل أن يكون تطبيقها موافقا للواقع.

ويأتي دور الخليفة في هذا الباب وهو اليسر فلابد له أن يتعامل مع الآخرين وفق هذا المنطلق الذي أراده الله تبارك وتعالى فليكن باب التيسير واضحا أمامه، فإن يطلب أحد مبلغ من المال والآخر لا يستطيع السداد فعليه الانتظار والصبر حتى يسترجع ماله وإن سامحه فهو أمر عظيم يحتسبه عند الله جل جلاله، وكذلك الأمر في جميع مرافق الحياة وإن تعرض الخليفة

---

[٤٢١] –البقرة ١٨٣ – ١٨٥

[٤٢٢] – أل عمران ٩٦ – ٩٧

إلى عسر فعليه الصبر وتذكر قول الله تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا}[٤٢٣] وتعريف (العسر) في الآيتين، يدل على أنه واحد، وتنكير (اليسر) يدل على تكراره، وقول الله جل جلاله هنا بشارة عظيمة، أنه كلما وجد عسر وصعوبة، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه، ويتغلب عليه بإذن الله تبارك وتعالى، فحتى لو دخل العسر في بيت نحل صغير لدخل عليه اليسر فأخرجه، كما قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}[٤٢٤]. ويرتبط مع اليسر العمل الصالح، إذ يقول تعالى: {وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا}[٤٢٥] فمن صدق بالله ووحده ثم عمل صالحا فجزاؤه عند الله تبارك وتعالى الحسنى، وهي الجنة التي جعلها الله تعالى لعباده ثوابا على إيمانهم وطاعتهم له.

١١ . من مظاهر رأفته الدعوة إلى سبيله بطريقة لينة:

إن أول وظيفة نلحظها من وظائف أي رسول من رسل الله عليهم الصلاة والسلام هي وظيفة تبليغ رسالات الله لخلقه، وهذا التبليغ يتطلب أسلوبا واعيا ومتقنا في كيفية التعامل مع مختلف المعتقدات والأفكار التي يحملها الخلق، وكيفية تذويبها وحلها وإدخال بدلا عنها دعوة الله تبارك وتعالى، فالرسول في قومه معلم ومصلح، يقوم بوظيفة إنسانية تربوية أخلاقية وتعليمية من أجل الرفعة بمكارم الخلاق، ومن بين هذه الأساليب القول اللين، لأجل إتباع القدوة الحسنة، إذ يقول تعالى: {اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى}[٤٢٦]، هنا يرسم البارئ جل جلاله طريق الدعوة التي يريدها مع فرعون رغم جبروته وتعنته، والطريقة هي أن يقولا له قولا : سهلا لطيفا، برفق ولين وأدب في اللفظ

---

[٤٢٣] – الشرح ٤ – ٦

[٤٢٤] – الطلاق ٧

[٤٢٥] – الكهف ٨٨

[٤٢٦] – طه ٤٠– ٤٦

من دون فحش ولا صلف، ولا غلظة في المقال، أو فظاعة في الأفعال، لعل القول اللين ينفعه فيأخذ بالدعوة التي تنقذه من عذاب الله تبارك وتعالى، فإن القول اللين داع لذلك، والقول الفظ منفر عن صاحبه، وفي قصة موسى عليه الصلاة والسلام مع قومه نلمس ذلك من خلال تقديم هارون على موسى على لسان السحرة، إذ يقول تعالى: {فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى}[٤٢٧] لقد قدم السحرة هارون على موسى لعدة اعتبارات منها:

١ . إن هارون عاش بينهم وموسى عاش في بيت فرعون، ولذا لم يكن في الغربة عنهم.

١ . إن هارون كان أكبر سن من موسى عليه الصلاة والسلام.

٢ . إن هارون كان أكثر لينا معهم.

ولاحظ الفرق بين موقف موسى وموقف هارون في بني إسرائيل بعدما اتخذوا العجل إلها، فكان موسى معهم على الحق متينا، وكان هارون بين قومه والدين في حيرة إما أن يشدهم إليه، وإما أن يتخذ دون ذلك سبيلا، إلى أن عاد موسى إليهم وهو للحق نصيرا، قال تعالى: {فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فَأخرج لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي}[٤٢٨] حتى غضب موسى على هارون فأخذ بلحيته ورأسه، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي}[٤٢٩]، ولهذا كان اليهود يستضعفون دوره في الرسالة، {وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي

---

[٤٢٧] – طه ٧٠

[٤٢٨] –طه ٨٦ – ٩٠

[٤٢٩] – طه ٩٤

مِنْ بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[٤٣٠] ولأن بني إسرائيل كانوا إلى هارون أميل من موسى قبل أن يؤمنوا، وذلك لأن هارون عاش بينهم وموسى عاش في بيت فرعون. ومن أجل هذا طلب موسى من ربه أن يجعل معه هارون يشدد به أزره، فقال: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}[٤٣١].

ولما كانت أساليب الشدة والعنف في تربية الناس منفرة لنفوسهم، عقيمة الإنتاج فقد أرشد الله تبارك وتعالى رسله إلى اتخاذ أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن في توجيهها وتعليمها وتأديبها ثم التدرج بهم إلى كل ما من شأنه أن يحق الحق ويزهق الباطل ولو كره المجرمون، لذلك نلحظ أن الله جل وعلا أمر رسله عليهم الصلاة والسلام باتخاذ الحكمة في دعوتهم ومنهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وكل داع إلى سبيل ربه من بعده أن يدعوا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادل الناس بالتي هي أحسن، قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٤٣٢]. هنا طريق الدعوة سلك مسلكا بعيدا عن العنف أو التعصب أو الجبر إذ أنه سلك مسلك الحكمة التي تعامل الخلق على حسب حالهم وفهمهم وقولهم، ومن الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل فهو الطريق البيِّن الذي يحرك العقول ويقنعها ويثبت الأمر المراد تثبيته، وتكون الدعوة بالأهم فألاهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم، وبالرفق واللين، فإن انقاد بالحكمة، وإلا فينتقل معه بالدعوة بالموعظة الحسنة، وهو الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب بالحق دون أي إكراه، حيث لا إكراه في

---

[٤٣٠] – الأعراف ١٥٠

[٤٣١] – ٢٩ – ٣٦

[٤٣٢] – النحل ١٢٥

الدين. والترغيب والترهيب عملية عرض للمنافع والمضار التي يكون عليها من قبل أو رفض الدعوة وهي طريقة اختيارية تتسم بالحرية الكامنة المقرونة بالأدلة المثبتة للنفع والضر في حالتي القبول والرفض.

ووردت اللينة مع الرسول عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[٤٣٣] فالقوم لما انهزموا عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد ثم عادوا لم يخاطبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالتغليظ والتشديد، وإنما خاطبهم بالكلام اللين، ثم إنه سبحانه وتعالى لما أرشدهم في الآيات المتقدمة إلى ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، وكان من جملة ذلك أن عفا عنهم، وزاد في الفضل والإحسان بأن مدح الرسول صلى الله عليه وسلم على عفوه عنهم، وتركه التغليظ عليهم فقال: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ الله لِنتَ لَهُمْ). فضلا عن ذلك أن اللينة هي من شمائل النبي محمد صلى الله عله وسلم التي وهبها الله تبارك وتعالى له فكانت إحدى أدوات الدعوة والتي ساهمت بشكل كبير في نشر الدين الإسلامي وتثبيته، قال تعالى: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}[٤٣٤]. منّ الله تبارك وتعالى على عباده أن أرسل لهم النبي محمد صلى الله عيه وسلم الحريص عليهم، والحرص هنا يتجلى في حب الخير وإيصاله لهم، كذلك حرصه على هدايتهم نحو الإيمان وكرّه الشر لهم، ويسعى بكل جهده في تنفيرهم عنه، لأنه شديد الرحمة بهم، وهو رءوف بهم وبأحوالهم كما أن الله تعالى رءوفا به وبهم.

وعليه فالخليفة هو من يستمد الرأفة على العباد من الرؤوف الرحيم، ولهذا فمن خصائص الدعاة الكلمة اللينة في الدعوة، والدعوة إلى جانب كونها الدعوة إلى عبادة الله سبحانه وتعالى

---

[٤٣٣] - أل عمران ١٥٩

[٤٣٤] - التوبة ١٢٨ - ١٢٩

فهي طريقة التعامل مع المستخلفين وبينهم في شتى نواحي الحياة، فالأسرة هي عماد المجتمع، والتعامل باللين مع عناصرها يسهم في تقوية الروابط الأسرية ومنحها الثقة الكاملة التي تعزز دورها في بناء مجتمع صالح يريده الله تبارك وتعالى. وكذلك إن الدعوة إلى الله تبارك وتعالى لا تكون بالغلظة والفظاظة، بل بالقدوة الحسنة.

١٢- من مظاهر رأفته خلق الإنسان في أحسن تقويم:

خلق الله تبارك وتعالى كل شيء وفق معايير أرادها سبحانه وكلها تتسم بالإتقان والجمال والروعة، فصورة الكون تتسم جميعها بالجمال، ومن بين ما خلق الله تبارك وتعالى الإنسان، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخر فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٤٣٥]. هكذا خلق الله الإنسان وفق أطوار متتابعة أفضت إلى أن تكون بالصورة التي أرادها الله تبارك وتعالى، وهي من ميادين البارئ عز وجل لبيان عظيم صنعه وجماله، والإنسان فيه يتعدد الجمال كما هو آتي:

١ . في روحه الجمال.

٢ . في نفسه الجمال.

٣ . في قوامه وصورته الجمال.

٤ . في علمه وإيمانه وتوحيده الجمال.

٥ . في ذوقه الراقي الجمال.

٦ . في عقله الجمال.

٧ . في تفكُّره الجمال.

٨ . في تذكُّره الجمال.

٩ . في بصره وبصيرته الجمال.

---

[٤٣٥] – المؤمنون ١٢ – ١٤

١٠ . في إنصاته وسمعه الجمال.

١١ . في ما يشاهد ويلحظ الجمال.

١٢ . في إصلاحه وفلاحه الجمال.

وعليه، فالجمال من أبرز سمات الإنسان التي نوه بها القرآن الكريم ، للدلالة على قدرة الله تعالى وإبداعه، يمتن الله به على عباده، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٤٣٦] وقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[٤٣٧] فالإنسان صوره الله تبارك وتعالى في أحسن صورة فهو ليس من جنس الحيوانات، بل هو جنس خاص أراده الله تبارك وتعالى ليكون في أوضح صورة وأحسنها، فمن ناحية الشكل جعل الله تبارك وتعالى أجزاءه وفق ترتيب بديع فكلها متناسقة، ولا يمكن وضع جزء مكان جزء آخر، منتصب القامة، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهرًا أو باطنًا شيئًا، ومن ناحية أخرى تجد فيه أسمى ما خلق الله جل جلاله ألا وهو العقل، فضلا عن ذلك الإيمان والمحبة والمعرفة التي هي أحسن الأخلاق المناسبة لأجمل الصور، إذ يقول تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }[٤٣٨]، ومع هذه النعم العظيمة، التي ينبغي منه القيام بشكرها، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}[٤٣٩] خطاب الله تبارك وتعالى فيه عملية قلب، لم يتحدث في البداية عن الخلق مع انه اسبق من الاغترار، بل تحدث في البداية عن الاغترار بوصفه صفة سيئة لا تليق بالعابد إذا ما نظر في المرآة ورأى صورته كيف صورها الله جل وعلا والتي تدلل على عظمة صنعه

---

[٤٣٦] – غافر ٦٤، ٦٥

[٤٣٧] – التغابن ٣

[٤٣٨] – التين ٤

[٤٣٩] – الانفطار ٦ – ٨

وإتقانه، قال تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}[٤٤٠] أما التسوية فهي، النقطة الأساسية، التي ينطلق منها جمال الإنسان، لأن عدم الخلل والنقص في بنيته، دليل على جماله وقد خلق الله الإنسان فبلغ به من الإحسان والإتقان ما بلغه، ولهذا استخلفه على الجمال لا على القبح، على الطاعة والهداية لا على الكفر والضلال، فمن اهتدى فإنما اهتدى لنفسه ومن ضل فقد ضل عنها وما ربك بظلام للعبيد.

١٣- من مظاهر رأفته بيَّن لنا الحق من الباطل:

إن معرفة الحق من الباطل من الأمور المهمة في تثبيت الصورة التي يجب أن يكون عليها الخليفة، وذلك من أجل مرضاة الله تبارك وتعالى ومحبته التي هي مطلب لكل المستخلفين، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٤٤١]، والإتباع لابد له من معرفة الحق من الباطل من أجل تصحيح كثير من العقائد الخاطئة والتصورات البالية.

وأصل الحق المطابقة والموافقة ويقال على أوجه:

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق، قال الله تعالى: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}[٤٤٢]، وقال تعالى: {فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}[٤٤٣].

الثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال فعل الله كله حق، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ

---

[٤٤٠] – النمل ٨٨

[٤٤١] – أل عمران ٣١

[٤٤٢] – الأنعام ٦٢

[٤٤٣] – يونس ٣٢

ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[٤٤٤]، وقال في القيامة: {وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ}[٤٤٥]، وقال تعالى: {الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[٤٤٦].

الثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه كقولنا اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنة والنار حق، قال الله تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٤٤٧].

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب كقولنا فعلك حق وقولك حق، قال الله تعالى: {كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}[٤٤٨]، وقال تعالى: {وَلَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ}[٤٤٩]، وقال عز وجل: {وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السماوات وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ}.

أما الباطل فهو نقيض الحق وهو مالا ثبات له عند الفحص عنه، قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٥٠].

إن معرفة الحق من الباطل نعمة أسبغها رب العزة على المستخلفين فهي من باب الرأفة الذي ينشده تبارك وتعالى معهم، والحق والباطل نقيضان لا يمكن لهما الالتقاء تحت أي سقف إلا

---

[٤٤٤] – يونس ٥

[٤٤٥] – يونس ٥٣

[٤٤٦] – البقرة ١٤٧

[٤٤٧] – البقرة ٢١٣

[٤٤٨] – يونس ٣٣

[٤٤٩] – السجدة ١٣

[٤٥٠] – الحج ٦

في المعركة بين ما يجب وما لا يجب، قال تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}[٤٥١]. يبين البارئ عز وجل أنه تكفَّل بإحقاق الحق وإزهاق الباطل، أما الباطل فإن الله ينزل من الحق والعلم والبيان، ما يدمغه، فيضمحل، ويتبين لكل أحد بطلانه، وان معرفة الحق والباطل أمر أساسي في سبيل أن تجري الحياة وفق نظام واضح جلي لا لبس فيه، والمستخلفون واجب عليهم جميعا التناصح والتفاهم في معرفة الحق بدليله، مع بقاء المحبة والصفاء والأخوة الإيمانية. قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[٤٥٢].

١٤- من مظاهر رأفته تكريم الله لخلقه:

الكرم إذا وصف به الله تعالى فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر، قال تعالى: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[٤٥٣]، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه. والإكرام والتكريم أن يوصل إلى الإنسان إكرام أي نفع لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل مايو صل إليه شيئا كريما وشريفا على الفضائل، قال تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ}[٤٥٤].

والتكريم بدأ منذ أن خلق الله تبارك وتعالى آدم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[٤٥٥]، فمن خلال هذه الآيات

---

[٤٥١] – الأنبياء ١٨

[٤٥٢] – يوسف ١٠٨

[٤٥٣] – النمل ٤٠

[٤٥٤] – الذاريات ٢٤

[٤٥٥] – ص ٧١ – ٧٤

الكريمة نلتمس أن الله تبارك وتعالى جاعل الرقي في منزلة هذا المخلوق بين سائر خلق الله، وهذا التكريم لم يقتصر على بداية النشأة فقط بل استمر حتى بعد نزول آدم عليه الصلاة والسلام إلى الأرض، قال تعالى:{وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدم وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[456]، والتكريم هو منة من الله تبارك وتعالى يمن بها على عباده المخلصين والمستخلفين فيها، وقد جمعت الآية خمس مِنن هي:

١ . التكريم.

٢ . تسخير المراكب في البر.

٣ . تسخير المراكب في البحر.

٤ . الرزق من الطيبات.

٥ . التفضيل على كثير من المخلوقات.

فأما منة التكريم فهي مزية خص بها الله بني آدم من بين سائر المخلوقات الأرضية. وقد يتبادر إلى الذهن سؤال: لماذا التكريم يدخل ضمن باب الرأفة ؟. إن الإجابة على هذا السؤال تدعونا إلى المواضع التي كرم الله تبارك وتعالى فيها بني آدم ومن بين هذه المواضع قوله تعالى: (وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ) نلتمس أن التكريم جاء في أمور عظام بمعنى أن بني آدم بنيته ضعيفة لا يستطيع قهر البحار إلا أن من كرم الله تبارك وتعالى تم تسهيل له هذه الصعاب. وأما الرزق من الطيبات فلأن الله تعالى ألهم الإنسان أن يطعَم ما يشاء مما يروق له، وجعل في الطعوم أمارات على النفع، وجعل ما يتناوله الإنسان من الطعومات أكثر جداً مما يتناوله غيره.

والتكريم جعل الخليفة كريماً، أي نفيساً غير مبذول ولا ذليل في صورته ولا في حركة مشيه وفي بشرته، فإن جميع الحيوانات لا تعرف النظافة ولا اللباس ولا ترفيه المضجع والمأكل ولا

[456] – الإسراء ٧٠

حسن كيفية تناول الطعام والشراب ولا الاستعداد لما ينفعه ودفع ما يضره ولا شعوره بما في ذاته وعقله من المحاسن فيستزيد منها والقبائح فيسترها ويدفعها.

وأما التفضيل على كثير من المخلوقات، فالمراد به التفضيل المشاهد لأنه موضع الامتنان. وذلك الذي جُماعه تمكين الإنسان من التسلط على جميع المخلوقات الأرضية برأيه وحسن تفكيره وبصيرته وحسن إدارته للأمور، وكفى بذلك تفضيلاً على البقية.

ومما تقدم يتبين من كرمه عليهم وإحسانه الذي لا يقدر قدره حيث كرم بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم والعقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة. ومما يستدرك في ذلك قول الذي دخل الجنة فوصف نفسه فجعله الله تبارك وتعالى من المكرمين، قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِنِّي آَمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُون بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ}[٤٥٧].

١٥ . من مظاهر رأفته القصاص:

قد يتبادر إلى الذهن سؤال مفاده: ما علاقة القصاص بالرأفة؟. وكيف تكون فيه رأفة وقد يصل فيه الحد في بعض الأحيان إلى القتل؟، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٤٥٨]، هذه الأسئلة يرد عليها القرآن الكريم، بقوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي

---

[٤٥٧] – يس ٢٠ – ٢٦

[٤٥٨] – البقرة ١٧٨

الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٤٥٩]. فالحياة لابد أن يسودها الأمن والأمان من أجل يعيش الناس حياة طبيعية يأمنون فيها على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، وهذه الأمور لا تتحقق إلا إذا نفذ القصاص بالخارجين عن القانون بغير حق، ففي القصاص ارتداع للناس عن قتل النفوس، فلو أهمل حكم القصاص لما ارتدع الناس؛ لأن أشدَّ ما تتوقاه نفوس البشر من الحوادث هو الموت، فلو علم القاتل أنه يَسلم من الموت لأقدم على القتل مستخفاً بالعقوبات فتحقن بذلك الدماء، وتتقمع به الأشقياء، لأن من عرف أنه مقتول إذا قتل، لا يكاد يصدر منه القتل، وإذا رئي القاتل مقتولا انذعر بذلك غيره وانزجر، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار، ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكَّر الحياة "لإفادة التعظيم والتكثير.

ولما كان هذا الحكم، لا يعرف حقيقته، إلا أهل العقول والألباب الثقيلة، خصهم بالخطاب دون غيرهم، وهذا يدل على أن الله تعالى، يحب من عباده، أن يعملوا بأفكارهم وعقولهم، في تدبر ما في أحكامه من الحكم، والمصالح الدالة على كماله، وكمال حكمته وحمده، وعدله ورحمته الواسعة، وأن من كان بهذه المثابة فقد استحق المدح بأنه من المستخلفين في الأرض لأجل الإصلاح فيها، وهم ذوي الألباب الذين وجه إليهم الخطاب، وناداهم رب الأرباب، وكفى بذلك فضلا وشرفا لقوم يعقلون.

ولأن الله جل جلاله رءوف رحيم كان سميعا بصيرا، وعليما حكيما، وحفيظا ودودا، وكان قريبا مجيبا لدعوة الداعي إذا دعاه، ليفكَّ عنه كل غم وهم.

اللهمَّ يا الرؤوف برأفتك أن تفك عنَّا كل هم وغم وتفتح علينا أبواب الخير لطاعتك وللعمل الذي ترضى به عنَّا، ووفقنا يا الرؤوف بما يغنينا عن سواك، اللهمَّ يا الرؤوف بحالنا أصلح أحوالنا ولا تشمِّت أحداً فينا، واحفظنا من الخائنين والحاسدين والضالين، عليك توكلنا يا رب العالمين. إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك، اللهم يا الرؤوف اجعلنا من المصلحين في الأرض واجعلنا

---

[٤٥٩] – البقرة ١٧٩

من الوارثين في الدارين واجعل الرأفة تملأ قلوبنا بالرحمة والمغفرة واجعلنا من المتوكلين عليك في حركتنا ومعاشنا وسكوننا وراحتنا، إنك قريب سميع مجيب الدعاء والحمد لله رب العالمين.

اللهم يا الرؤوف كن بأحوالنا وأحوال آبائنا وزوجاتنا وأولادنا رؤوفاً رحيماً، وكن بأمتنا رؤوفاً حتى تكون بحق خيرَ أمةٍ أخرجت للناس، تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُ بِك واحداً أحداً لا شريك لك، اللهم يا الرؤوف إننا نسألك أن ترأف بنا وترحمنا، ونسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، اللهم يا الرؤوف كن بنا رؤوفاً وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا وَكن بنا رؤوفاً فلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِين.

َاللهم أسألك أن تحفظنا برأفتك من بين أيدينا ومن خلفنا وعن يميننا وعن شمالنا ومن فوقنا ومن تحتنا، وإننا نعوذ بكلماتك التامة من شر خلقك، اللهم أسألك باسمك الرؤوف ألَّا تنزع عنا سترك، ولا تُنسنا ذكرك، ولا تجعلنا من الغافلين، اللهم يا الرؤوف أنت ربنا سبحانك لا إله إلا أنت خلقتنا ونحن عبادك ونحن على عهدك ووعدك ما استطعنا، اللهم أنت الرؤوف وسعت كل شيء رأفةً ورحمةً، اللهم إننا نلتجئ إليك من التجرؤ عليك، ونعتصم بك من تحليل حرام أو تحريم حلالٍ، يا ذا العفو والأفضال والعظمة والجلال، يا الرؤوف يا الرحيم يا الله.

مالك الملك

مالك الملك "هو المتصرف بفعله وأمره"[٤٦٠] وهو الذي ينفذ مشيئته في ملكه كيف شاء وكما شاء إيجادا وعدماً وإبقاءً وإفناءً والملك هنا بمعنى المملكة والمالك بمعنى القادر التام القدرة، والموجودات كلها مملكة واحدة وهو مالكها وقاهرها وإنما كانت الموجودات كلها مملكة واحدة لأنها مرتبطة بعضها ببعض فإنها وإن كانت كثيرة من وجه فلها وحدة من وجه ومثاله بدن الإنسان فإنه مملكة لحقيقة الإنسان وهي أعضاء كثيرة مختلفة ولكنها كالمتعاونة على تحقيق غرض مدبر واحد فكانت مملكة واحدة فكذلك العالم كله كشخص واحد وأجزاء العالم كأعضائه وهي متعاونة على مقصود واحد وهو إتمام غاية الخير الممكن وجوده على ما اقتضاه الجود الإلهي ولأجل انتظامها على ترتيب متسق وارتباطها برابطة واحدة كانت مملكة واحدة والله تعالى مالكها فقط ، ومملكة كل عبد بدنه خاصة فإذا نفذت مشيئته في صفات قلبه وجوارحه فهو مالك مملكة نفسه بقدر ما أعطي من القدرة عليها[٤٦١].

مالك الملك "هو المتصرف بفعله وأمره"[٤٦٢].

مالك الملك: "منْ له مُلك الدنيا والآخرة خالصًا دون وغيره"[٤٦٣]

مالك الملك الله تعالى يملك الملك يعطيه من يشاء وهو مالك الملوك والأملاك يصرفهم تحت أمره ونهيه، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع[٤٦٤].

---

[٤٦٠] أسماء الله الحسنى، ج ١٠، ص ١١.

[٤٦١] الغزالي، المقصد الأسنى، ص ١٤١.

[٤٦٢] أسماء الله الحسنى – ج ١٠ ، ص ١١.

[٤٦٣] تفسير الطبري – ج ٦ ، ص ٢٩٩.

[٤٦٤] الزجاج ، تفسير أسماء الله الحسنى، ٦٢.

مالك الملك من أسماء الله الحسنى وصفة من صفاته يوحي بالقدرة والعظمة والتملك المطلق، لم يرد هذا الاسم إلا مرة واحدة في القرآن الكريم، إلا أن دلالته تشتمل على كل ما جاء في القرآن الكريم، وكل ما جاء يمثل ملك الله تبارك وتعالى سواء كان الملك ماديا أم معنويا، والاسم يدور في فلك إدراك العقل البشري ولا يتجاوزه، فهو في ذاته مطلق ولا يدركه إلا الله تعالى، أما العقل البشري فهو يدرك (مالك الملك) من خلال ما تقع عليه عينه، وهو لا يمثل إلا جزءا يسيرا من ملك الله تعالى.

إن هذا التشكل للاسم يوحي بالعظمة والرهبة والانفراد والجلال، فإضافة مالك إلى الملك رسمت معلما من معالم تفرد الله تبارك وتعالى في هذا الملك العظيم في جميع خواصه وأشكاله وصوره، فالإضافة هنا أغلقت كل المنافذ التي يمكن من خلالها تقييد ملك الله تبارك وتعالى وجعله ضمن أطر ضيقة يمكن تحديدها أو رسم صورتها أو الاقتصار على صفة واحدة تكون الأبرز بين باقي الصفات، فلو قال مالك الرحمة أو مالك المغفرة أو مالك السموات والأرض، لكان الاسم لا يعبر إلا عن جانب واحد من جوانب عظمة وقدرة وجلال الله تبارك وتعالى. إلا أن وروده في قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[٤٦٥] يتسم بالخصوصية الشديدة لهذا اليوم، وهو يوم القيامة، لان في هذا اليوم تتجلى فيه صورة المالك العظيم من خلال ما يحدث يوم القيامة من وقوف الخلائق وحضور الملائكة والأنبياء وحصول عملية الحساب بكل تفاصيلها، ففي هذا اليوم يظهر للخلائق كمال ملكه ودوامه وعدله وحكمته، وذهاب كل الأملاك وبقاء ملكه العظيم، فإضافة مالك إلى يوم الدين اتسمت بأبعاد عديدة لم تقتصر على جانب واحد بل على جوانب متنوعة ومتعددة، وهذه الجوانب كلها تتعلق بإظهار (مالك الملك). فضلا عن ذلك أن الإضافة فيها تخصيص لا يستطيع أي معاند أن يجادل فيه، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٤٦٦]. ففي يوم القيامة لم يعد

[٤٦٥] – الفاتحة ٤

[٤٦٦] – غافر ١٦

هناك مجال لإنكار ملك الله تبارك وتعالى أو التغاضي عن ذلك، لان الإنسان حينها يكون مسلوب الإرادة، وأمام أهوال لا يستطيع فعل شيء تجاهها، بينما لو كانت الإضافة بأمر دنيوي حاصل في هذه الحياة لاستطاع المعاند المجادل أن يجادل مراء كما جادل النمرود إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الإحياء والإماتة مع أن ظاهر الأمر أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يرد بالإحياء والإماتة ما عناه النمرود القتل أو عدم القتل، إنما أراد وهب الحياة من الأساس أو سلبها.

ويوضع مالك الملك ضمن الصفات التي تتحقق فيها صفة القدرة لله تعالى وهي (القوي، والمتين، والقادر ، والمقتدر ، والواجد، والعزيز ، والمقيت، والملك، والوارث).

ويرد اسم (مالك الملك) في كتب اللغة مظهرا جوانب عدة تتمحور حول عدة معاني تثير في تشكيلاتها ملكية الله تعالى العظيمة، ضمن اطر معرفية تقول أن الملك الأول عام والثاني خاص[٤٦٧]. لأنه لا يكون مالكا للشيء، إلا وهو يملكه، وقد يكون ملكا للشيء ولا يملكه، كما يقال: ملك العرب. وملك الروم، وإن كان لا يملكهم وقد يدخل في المالك ما لا يصح دخوله في ملك. يقال: فلان مالك الدراهم، ولا يقال: ملك الدراهم. فالوصف بالمالك أعم من الوصف بالملك. والله تعالى مالك كل شيء وقد وصف نفسه بأنه: (مالك الملك) يؤتي الملك من يشاء. فكل ملك مالك، وكل مالك ليس ملكا، وإنما قال تعالى (مالك الملك)، لأنه تعالى يملك ملوك الدنيا وما ملكوا إلى جانب ما يملك بالمطلق سبحانه جل جلاله، ولذا فهو يؤتي الملك فيها من يشاء. فأما يوم الدين، فليس إلا ملكه، وهو ملك الملوك يملكهم كلهم: "وقد يستعمل هذا في الناس، يقال: فلان ملك الملوك، وأمير الأمراء، يريد بذلك، أن من دونه ملوكا وأمراء، ولا يقال: ملك الملك، ولا أمير الإمارة، لان (أميرا) و (ملكا) صفة غير جارية على فعل، فلا معنى لأضافتهما إلى المصدر"[٤٦٨].

---

[٤٦٧] – مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ج ١ ص ٢٥٠

[٤٦٨] – الفروق اللغوية ج ١ ص ٤٧٤

إن أسلوبية العام والخاص في هذا الاسم ترسم عظمة وسلطان الله تعالى من خلال جمع الاسم (مالك) الذي لا يمكن استعماله كصفة من صفات البشر مع لفظة (الملك) التي هي الحق الدائم لله تعالى[٤٦٩]، فلذلك قال الله تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٧٠] فالملك ضبط الشيء المتصرف فيه بالحكم، والمِلكُ كالجنس للمُلكِ فكل مُلْك مِلْكٌ وليس كلُّ مِلْك مُلْكاً. قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}[٤٧١]، وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}[٤٧٢]، وقوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٤٧٣].

يتصل اسم الله تعالى (مالك الملك) بجانب مهم من جوانب التوحيد الخمسة التي تشمل كل أبواب التوحيد في القرآن الكريم وهي:

الجانب الأول: إفراد الله تعالى في الخلق بمعنى أن الله وحده هو الذي خلق كل ما نعلم وما لا نعلم، إذ يقول تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}[٤٧٤] وكل شيء هنا تشمل الإنسان والسموات والأرض والأنعام والغيث والزرع والرياح

---

[٤٦٩] – المفردات في غريب القرآن ص ٤٧٥

[٤٧٠] – التغابن ١

[٤٧١] – الفرقان ٣

[٤٧٢] – يونس ٣١

[٤٧٣] – الأعراف ١٨٨

[٤٧٤] – الرعد ١٦

وغير ذلك كثير فلا يحصى. إذ ورد الخلق في آيات عدّه منها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٤٧٥] وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٤٧٦].

الجانب الثاني: إفراده تبارك وتعالى في الملك بمعنى أن الله تعالى هو المالك الحقيقي لخلقه، إنه القول الحق، وهذا الجانب الذي يتصل باسم الله تعالى (مالك الملك) مبني على الجانب الأول، فطالما أن الله تعالى هو الخالق إذن هو المالك، ولا يصح ملك غيره، ولنتدبر هذه الآيات الكريمة، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٤٧٧]، وقوله تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}[٤٧٨]، وقوله تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ}[٤٧٩]. وأما ما يملكه غير الله تعالى في الظاهر، فهو أولا لا يخرج عن ملك الله تعالى، لان لله ما في السموات وما في الأرض، فالمالك هذا في حقيقته مملوك لله، ثم أن هذا الملك الذي بيدي الخليفة هو إنما جاء بأمر الله تعالى وتسخيره وتخويله، يقول تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٤٨٠]، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ

---

[٤٧٥] – البقرة ٢٩

[٤٧٦] – البقرة ١٦٤

[٤٧٧] – المائدة ١٢٠

[٤٧٨] – الفرقان ٢

[٤٧٩] – فاطر ١٣

[٤٨٠] – الجاثية ١٣

ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}[٤٨١]. وأما المعاند لهذه الحقيقة، حقيقة ملك الله تعالى لكل شيء، وان ملك الخليفة في هذه الأرض إنما هو بأمر الله تعالى وتسخير منه، فسينكشف ضلاله يوم القيامة يوم يقول الله تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٤٨٢] وملك الله سبحانه وتعالى لكل ما في السموات والأرض يترتب عليه الجانب الثالث والرابع من جوانب التوحيد وهما:

الجانب الثالث: إفراد الله تعالى في الحكم والتشريع والأمر والنهي، لأنه هو المالك الخالق ومن يخلق بالتأكيد يملكن ومن يملك لاشك انه هو الذي يحكم ويتحكم، فهذا الجانب قائم على الجانبين الأولين، فلا يحق لأحد غير الله تعالى أن يحكم ويتحكم، خلق الله تعالى الذين يملكهم وكل شيء يحيط بهم، قال تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٤٨٣]، وهنا نحن مع يوسف عليه الصلاة والسلام حين يضرب ضربته الأخيرة الحاسمة فيبين لصاحبيه في السجن لمن ينبغي أن يكون السلطان، ولمن ينبغي أن يكون الحكم، ولمن ينبغي أن تكون الطاعة، هل هي للخليفة أم للذي خلق الخليفة وأوكل له مهمة تنفيذ الأحكام في الأرض بأمر الله تعالى؟ وهذا يترتب عليه الجانب الرابع.

الجانب الرابع: إفراد الله تعالى بالعبادة والمقصود الامتثال الكامل لحكم الله تعالى وأمره وهذا الجانب هو ثمرة الجانب الذي قبله، فبما أن الله تعالى هو الخالق خلق كل شيء، وهو المالك ملك كل شيء، وهو الحاكم الذي حكم كل شيء، فلمن أن تكون العبادة بعد ذلك أيجوز أن تكون لغير الخالق والحاكم والمالك؟ ، فهذا خلاف المنطق والعقل قبل أن يكون خلاف التشريع والقرآن الكريم، إذ يقول تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا

---

[٤٨١] – الأنعام ٩٤

[٤٨٢] – غافر ١٦

[٤٨٣] – يوسف ٤٠

فَاعْبُدُونِ}[٤٨٤]، وقوله تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[٤٨٥] ويكفي أن نعلم أن هذا الجانب اعتبره القرآن الكريم غاية الخلق فقال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[٤٨٦] .

الجانب الخامس: إفراد الله تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك لله تعالى في أسمائه ولا في صفاته ولا في أفعاله، فلا يجوز أن نصف أو نسمي غير الله تعالى باسم من أسمائه أو صفة من صفاته على وجه الحقيقة، إذ يقول تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٤٨٧]، ولذا (مالك الملك) اسم وصفة في الوقت نفسه، لكن الصفات في القرآن الكريم على أقسام عدة لا نستطيع فهم (مالك الملك) إلا بالتعريج على نوعين من الصفات:

أ . صفات اقترنت بأسمائه تعالى وهي الأسماء الحسنى التي تدل على صفات معينة لله تعالى، فالأسماء التي تدل على الربوبية والخلق والعلم والقدرة والرحمة والعظمة كلها أسماء اشتقت من الوصف فهي أسماء وصفات.

ب . صفات تحمل معاني الصفات المتقدمة غير أنها لم تأت بصيغة الاسم وكأنها جاءت مؤكدة لهذه الأسماء كالأسماء التي تدل على الربوبية والخلق مثل (رب العالمين) و (الخلاق) والاسم الذي نحن بصدده (مالك الملك)، فهذه الأسماء جاءت معانيها في صيغ أخرى، يقول تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٤٨٨]، وقوله تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ

---

[٤٨٤] – الأنبياء ٢٥

[٤٨٥] – النساء ٣٦

[٤٨٦] – الذاريات ٥٦

[٤٨٧] – الأعراف ١٨٠

[٤٨٨] – البقرة ٢٩

مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}[٤٨٩]، وقوله تعالى: {الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ}[٤٩٠]، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[٤٩١].

ورد أسم (مالك الملك) في قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٤٩٢] إن ورود هذا الاسم في هذه الآية العظيمة رسم ملمحا معرفيا يرتكز ضمن تشكيلات عديدة اشتملت عليها الآية، إذ يمكن أن نستعرض ما ورد في هذه الآية وفق معطيات عديدة تنم عن جوانب عديدة إلا أنها تلتقي في منعطف واحد هو تجليات الملك الذي تشربت به الآية الكريمة، فضلا عن ذلك أن اسم الله (مالك الملك) جاء في بداية الآية ثم تبعه بعد ذلك نسق معرفي اشتمل على كل الخصائص والصفات التي تحيل عليه، وهذا النسق اشتمل على عرض قدرة الله تبارك وتعالى، فلو تدبرنا الحديث بعد اسم الله تعالى (مالك الملك) لوجدنا أنه يرتكز على الحركة التضادية أو الفعل ورد الفعل، فكل حدث يجسده فعل أو اسم مرتبط بفعل يعقبه فعل أو اسم مرتبط بفعل يخالف الأول مما شكل مجموعة من الثنائيات التضادية تتمحور حول عدة نقاط منها:

١- الملك – العدم:

أول ثنائية تشكل سياق (مالك الملك) في هذه الآيات تتعلق بصفة قريبة جدا من اسم الله تعالى (مالك الملك)، وهو المُلك الذي هو في حقيقته موضع مُلك الله تعالى في السموات والأرض

---

[٤٨٩] – البقرة ١٠٧

[٤٩٠] – الحج ٥٦

[٤٩١] – أل عمران ١٥٦

[٤٩٢] – أل عمران ٢٦ – ٢٧

وكل الكون، وهو بأمر الله تعالى يهبه لمن يشاء ويمنعه عن من يشاء، لكن السؤال هنا هل الملك الذي يهبه الله تعالى للخليفة مساويا أو مشابها لملك الله؟ والحقيقة أنما هو ملك ظاهر يتصرف فيه الخليفة عن ضوء أمر الله تعالى، وليس له أن يتصرف به كتصرف الله تعالى، وهنا نتذكر قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام مع الملك النمرود حينما حاول الملك النمرود أن ينازع الله تعالى في ملكه حين حاجه النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام بأول صفة من صفات المالك وهي الإحياء والإماتة، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[٤٩٣] هنا يرتسم لنا مشهد من مشاهد الجرأة والتجاهل والعناد والمحاج'، بطله ملك طغى وبغى مما حمله على أن حاج إبراهيم عليه الصلاة والسلام في ربوبية الله تعالى، فزعم انه يفعل كما يفعل الله تعالى، فقال إبراهيم (ربي الذي يحيي ويميت) أي: هو المنفرد بأنواع التصرف، وخص منه الإحياء والإماتة لكونهما أعظم أنواع التدابير، ولأن الإحياء مبدأ الحياة الدنيا والإماتة مبدأ ما يكون إلى الآخرة، فقال ذلك المحاج: (أنا أحيي وأميت) ولم يقل أنا الذي أحيي وأميت، لأنه لم يدع الاستقلال بالتصرف، وإنما زعم أنه يفعل كفعل الله ويصنع صنعه، فزعم أنه يقتل شخصا فيكون قد أماته، ويستبقي شخصا فيكون قد أحياه، فلما رآه إبراهيم عليه الصلاة والسلام يغالط في مجادلته ويتكلم بشيء لا يصلح أن يكون شبهة فضلا عن كونه حجة، اطرد معه في الدليل فقال إبراهيم: (فإن الله يأتي بالشمس من المشرق) أي: عيانا يقر به كل أحد حتى ذلك الكافر (فأت بها من المغرب) وهذا إلزام له بطرد دليله إن كان صادقا في دعواه، فلما قال له أمرا لا قوة له في شبهة تشوش دليله، ولا قادحا يقدح في سبيله (بهت الذي كفر) أي: تحير فلم يرجع إليه جوابا وانقطعت حجته وسقطت شبهته، وهذه حالة المبطل المعاند الذي يريد أن يقاوم الحق ويغالبه، فإنه مغلوب مقهور، فلذلك قال تعالى: {والله لا يهدي

---

[٤٩٣] - البقرة ٢٥٨

القوم الظالمين} بل يبقيهم على كفرهم وضلالهم، وهم الذين اختاروا لأنفسهم ذلك، وإلا فلو كان قصدهم الحق والهداية لهداهم إليه ويسر لهم أسباب الوصول إليه، ففي هذه الآية برهان قاطع على تفرد الرب بالخلق والتدبير، ويلزم من ذلك أن يفرد بالعبادة والإنابة والتوكل عليه في جميع الأحوال.[٤٩٤] نحن هنا أمام وقفة عميقة إذ أن هذا الإنسان أعطاه الله تعالى الملك أي وهبه من نعمه فما كان تصرفه، هل ارتقى إلى مرتبة الخلافة أم نزل إلى درجة الكفر؟، إذ ادعى انه يستطيع الإحياء والإماتة، وقد علم سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أن هذا الملك الظاهري إنما يجادل مراء فلم يلتفت إلى قوله أنا احي وأميت، إنما أتى له بصفة من صفات (مالك الملك) التي لا يستطيع ردها وهي حركة الشمس بين المشرق والمغرب التي قال عنها الله تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٤٩٥] وهنا بهت الملك وظهر زيف ملكه القاصر عن تحريك أي جزء في هذا الكون، إنما هو ملك بحسب ما يسخره الله تعالى له وليس ملكا حقيقيا أو مطلقا.

وإتيان الملك ونزعه لا يملكه إلا الله تعالى فعلى مر الزمن يتبدل الملوك ويتغيرون ويأتي غيرهم وكل هذه التقلبات تكون وفق مشيئته تعالى، فهو الذي يملك الإتيان والنزع، فمن ذلك قوله تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}[٤٩٦] فترك وأورث يدلان على التغيير والتبديل مما يعزز فكرة عدم الاستمرار التي يظن كثير من الملوك أنها تدوم لهم، فمن ذلك قول فرعون، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا

---

[٤٩٤] – تفسير السعدي ج ١ ص ١١١

[٤٩٥] – يس ٣٨ – ٤٠

[٤٩٦] – الدخان ٢٥ – ٢٩

يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا آَسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآَخِرِينَ}[٤٩٧] في هذه الآيات ترسم صورة فرعون المتمرد المعاند الكافر، فقد تبجح بافتخاره بأنه ملك مصر وأن الأنهار تجري من تحته في صورة مملوءة بالطغيان والتكبر، فكانت نهايته غرقه في أحد الأنهار التي ذكرها، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}[٤٩٨] فقصة فرعون تمثل أنموذجا واضحا لـ(مالك الملك) في الإتيان والنزع، فقد تخلل هذه القصة عرض لقدرة وعظمة الله تبارك وتعالى التي كانت واضحة في كل تفاصيلها.

٢- العزة – الذل:

والسؤال الذي يطرح نفسه ما علاقة (مالك الملك) بالعز والذل؟ وتبدو الإجابة يسيرة، لان من بيده كل شيء يستطيع أن يعطي من يشاء بغير حساب مما يجعله عزيزا، أو يستطيع أن يمنعه من ملكه أو من شيء من ملكه فيكون ذليلا، ولاحظ كيف أن الصيغة أتت فعلية مضارعة (وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ) للدلالة على اختلاف الناس بين العز والذل، إذ يقول تعالى: {إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}[٤٩٩] وقوله تعالى: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[٥٠٠] أما قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ

---

[٤٩٧] - الزخرف ٥١ – ٥٦

[٤٩٨] - يونس ٩٠ – ٩٢

[٤٩٩] - أل عمران ١٤٠

[٥٠٠] - النحل ١١٢

عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[٥٠١] هنا القرآن الكريم يقص أخبار المهلكين والمعاقبين في صورة تتمحور على تشكيلات متعددة لكن أبرز ما يسمها أنها تتكئ على آثار واضحة المعالم ترى بالعين، فتكون للتصديق والموعظة أقرب، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ) والآية التي وردت في النص القرآني يستنطق فيها ما أدرَّ اللّه عليهم من النعم، وصرف عنهم من النقم، الذي يقتضي ذلك منهم، أن يعبدوا اللّه ويشكروه، والنعمة التي كانوا عليها تتمثل في جنتين، جنة عن اليمين وأخرى عن الشمال، والثمار تمثل أقواتهم، فضلا عن ذلك أن اللّه جعل بلدهم، بلدة طيبة، لحسن هوائها، وقلة وخمها، وحصول الرزق الرغد فيها، والأمن الدائم الذي يتمتعون به مما جعل تجارتهم رائجة وعامرة. إن هذه النعمة لم تتوفر لعدد كثير من الناس في وقتهم، إلا أن هذه النعمة لم تدم لان أسباب الدوام فقدت فلابد لها من الزوال بأمر الله تعالى، ذلك أنهم أعرضوا عن المنعم وعن عبادته ووصل الأمر بهم إلى التمني بأن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى، التي كان السير فيها متيسرا. (وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ) بكفرهم باللّه وبنعمته، فعاقبهم اللّه تعالى بهذه النعمة، التي أطغتهم، فأبادها عليهم، فأرسل عليها سيل العرم. الذي حول النعمة التي كانوا عليها إلى تلف وخراب في صورة تنطق بعدالة رب العالمين تجاه هؤلاء الكفرة الجاحدين لنعمته.

ولا نتصور أن العز والذل اللذان هما بيد (مالك الملك) مقصوران على الأمور الحسية المادية كما ذكرنا قبل قليل، بل أن العزة والذل يكون بالإيمان والكفر، فالمؤمن عزيز وان كان فقيرا، والكافر ذليل وان كان غنيا ،إذ يقول تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ

---

[٥٠١] – سبأ ١٥ – ١٩

مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[٥٠٢]، وهذه الآية نزلت في مكة والمسلمون بأضعف حال وأشد عازة، فأين العزة إذن إنها عزة الإيمان وتوحيد الله تعالى والثبات على القيم والمبادئ، ولاحظ كيف أن الله تعالى يعلمنا أن نكون أذلاء مع بعضنا البعض أي الخليفة مع الخليفة الآخر بينما يكون عزيزا مع الكافر والمشرك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٥٠٣].

٣- الليل – النهار:

أول ما يتبادر إلى الذهن ما علاقة اختلاف الليل والنهار ودخول أحدهما بالآخر باسم الله تعالى (مالك الملك)؟ وتبدو الإجابة مرتبطة بأشكال التوحيد التي ذكرناها وقلنا فيها أن الله تعالى هو الخالق جل جلاله، والخالق يكون هو المالك، وعليه فالتصرف في كل الكون يكون بيده، ومن أشكال التصرف في الكون مظاهر الحياة المختلفة التي تدل على ملكه لكل شيء، ولنتدبر هذه الآيات من سورة يس، إذ يقول تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٥٠٤] فكل هذه الحوادث الكونية تشير إلى ملك الله تعالى لكل ما في الكون، لأنها تتحرك بحسب أمره تعالى، ويتكرر ذكر الليل والنهار لان المشاهدة لهما تحدث يوميا، وهذه الثنائية ترتبط بالثنائية التي بعدها.

---

[٥٠٢] – المنافقون ٨

[٥٠٣] – المائدة ٥٤

[٥٠٤] – يس ٣٦ – ٤٠

٤- الحي – الميت:

قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[٥٠٥]، النواة أو الحبة بعدما تزرع أو تغرس في البيئة الصالحة للحياة تنفلق في موتها فتخرج منها النبتة دليل الحياة القابلة للمشاهدة والملاحظة، ومن بعد حياة النبتة، لا بد لها من الموت حيث لكل بداية نهاية، وهنا يخرج الميت من الحي، أي لو لم يكن الحي ما كان الموت، ولأن الموت فعل متحقق بالقوة، فالبعث من بعدها حياة دائمة.

وهنا صورة قرآنية يجسدها مصطلح (الخروج) تعتمد تقابل التضاد المتمثل في مشهد خروج الميت من الحي وما يضاده من خروج الحي من الميت، هذا الخروج الدال على قدرة إلهية مطلقة على الشيء وضده فالحياة والموت "يدب أحدهما في الآخر في بطء وتدرج، كل لحظة تمر على الحي يدب فيه الموت إلى جانب الحياة، ويأكل منه الموت وتبنى فيه الحياة! خلايا حية منه تموت وتذهب، وخلايا جديدة فيه تنشأ وتعمل"[٥٠٦]. كما أن الطبيعة بما فيها من صور خروج الحياة من الموت، وخروج الموت من وسط الحياة خير تمثيل لدلالة الخروج هنا، يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[٥٠٧]، وقوله تعالى: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}[٥٠٨].

وفي مجال أخر بعيد عن المحسوسات تنسحب دلالة مصطلح الخروج إلى مجال المعنويات، في إطار التدليل على عمل الله تعالى في بعث الحياة المتمثلة بالإيمان وهو الأرفع والأسمى من الحياة الحسية، وأخرج الإنسان من الموت المتمثل بالكفر، يقول تعالى: {اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

---

[٥٠٥] – الأنعام ٩٥

[٥٠٦] – في ظلال القرآن ج ١ ص ٣٥٥

[٥٠٧] – الأنعام ٩٥

[٥٠٨] – يونس ٣١

آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٥٠٩] فمصطلح الخروج هنا دار في إطار بعث الحياة المعنوية الإيمانية، والانتقال بالإنسان من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان بأذن الله تعالى، فهو حياة من نوع آخر، وبالدلالة نفسها قوله تعالى: {يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٥١٠] وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآَيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[٥١١]وقوله تعالى: {رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آَيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا}[٥١٢].

إذ إن إخراج الحي من الميت أو إخراج الميت من الحي، بمعنى إعطاء الحياة لمن يشاء وسلبها عن من شاء، لا تكون إلا لمن بيده مقاليد الأمور الذي يستطيع أن يجعل لكل اجل كتاب، ولا يكون ذلك إلا لمن يملك كل شيء، وليس كل شيء ظاهريا بل جواهر الأشياء وحقائقها التي تحيلها أمواتا أو تبقيها أحياءا، فالتراب مثلا أو الأرض يمكن أن تكون للخليفة كما نرى في حياتنا اليومية، لكن لماذا لا يستطيع الخليفة أن يخلق من الخليفة كائنا حيا أو ينبت شيئا من غير أمر الله تعالى؟ ذلك أن ملك الخليفة للأرض ملك ظاهر يتعلق بسطح الأرض، أما جوهر وظيفة الأرض في هذا الكون وهي إمداد الحياة بعوامل البقاء فلا يملكها إلا الله تعالى، ولذلك يستطيع أن يجعلها حية أو ميتة، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}[٥١٣] وقوله تعالى:

---

[٥٠٩] – البقرة ٢٥٧

[٥١٠] – المائدة ١٦

[٥١١] – إبراهيم ٥

[٥١٢] – الطلاق ١١

[٥١٣] – السجدة ٢٧

{الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[٥١٤] وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٥١٥].

أما (خرج) في القرآن الكريم نجد أنها تدور في إطار التدليل على تشكيل الحياة وبعثها في محاور متباينة ومتكاملة معا، بحيث يفضل في النهاية إلى تأكيد قضية القدرة الخالقية من كل الجوانب وعلى كل المستويات.

ففي مجال بعث الحياة البشرية، يقول تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٥١٦]، فالإخراج هنا جاء للتدليل على بعث الحياة في مجال بشري، إذ أن دلالة (أخرجكم) تتجه نحو الولادة التي تمثل بعثا جديدا للحياة وتشكيلا مستمرا لمفرداتها. وبالدلالة نفسها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ}[٥١٧] وقوله تعالى: {يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ}[٥١٨] وفي مجال التدليل على قدرة الله على بعث الحياة في الطبيعة متمثلة بالنبات النامي، يقول تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ

---

[٥١٤] – البقرة ٢٢

[٥١٥] – البقرة ١٦٤

[٥١٦] – النحل ٧٨

[٥١٧] – غافر ٦٧

[٥١٨] – الطارق ٧

مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٥١٩] نلاحظ تكرار مادة (خرج) ثلاث مرات (فأخرجنا) مرتين و (نخرج) مرة واحدة، بدلالة بدء جديدة لحياة متجددة في نبات ينمو ويثمر ويتكاثر، مع ملاحظة استخدام أسلوب الالتفات في (أخرجنا) من الغيبة إلى التكلم، للتنبيه على عظمة الفعل وتأكيد اختصاصه بالله تعالى. كما أن هذا التنوع في صيغ مادة (خرج) فيها إشارة إلى تنوع وتلون أشكال النباتات النامية.

٥- الثنائية المتفرقة:

ثنائية واحدة في هذا السياق وردت بشكل منفصل، فهي تتشكل من قوله تعالى: {بِيَدِكَ الْخَيْرُ}[٥٢٠]، و{وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٥٢١]، وعلى الرغم من أن هذه الثنائية غير مرتبطة من حيث السياق الخاص، إذ الخير بمعناه العام هو كل رزق الإنسان، وبما أنه بيد الله تعالى فشيء طبيعي أن يكون الرزق بيد الله تعالى، وأن الخير بيده من الأساس، ولهذا قال: {وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}.

وترد لفظة البقاء في حديثنا عن (مالك الملك)، فالبقاء دال على حياة بلا فناء، ولا يوجد كائن حي في الكون كله لا يعرف الفناء، فدلالة البقاء في حقيقتها تشير إلى الموت من وجه أخر، إذ يقول تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٥٢٢]، فالآية تقرر صراحة أن الفناء جزء من كيان كل كائن حي، وان البقاء لله وحده، الحي الذي لا يموت، وكل شيء يتعلق بالذات الإلهية يتصف بالحياة الباقية التي لا تعرف الفناء، يقول تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٥٢٣]، فالآية الكريمة حققت المفارقة بين كل ما عند البشر وما في الكون كله، وبين ما عند الله، فما عند البشر

[٥١٩] – الأنعام ٩٩

[٥٢٠] آل عمران ٢٦.

[٥٢١] آل عمران ٢٧.

[٥٢٢] – الرحمن ٢٦ – ٢٧

[٥٢٣] – النحل ٩٦

مصيره الفناء بعد الحياة، وما عند الله باق إلى أن يشاء الله تعالى، فرزق الله يصفه القرآن الكريم بالبقاء، يقول تعالى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[٥٢٤]، والحياة الآخرة عند الله هي الباقية، يقول تعالى: {وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[٥٢٥]، وحتى عذاب الآخرة يستمد بقاؤه من بقاء الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآَيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى}[٥٢٦]، وفي سياق يجمع القرآن الكريم بين الحياة الفانية، وبين الحياة الآخرة الباقية، فيقول تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[٥٢٧]، فكل سبب من أسباب الدنيا يحمل الفناء في داخله ولا بقاء له، وكل ما يتعلق بالآخرة يحمل البقاء في وجوده، لاتصاله بالله تعالى، الباقي بعد فناء الخلق كلهم، فالآية الكريمة حققت المقابلة بين دلالة الفناء متمثلا بالحياة الدنيا ودلالة البقاء متمثلا بما عند الله تعالى من حياة، فالبقاء في الدنيا محال، فهو وان دل على الحياة فانه يدل على الموت من وجه أخر.

أما دلالة اسم الله تعالى (مالك الملك) فإنها توحي بالبقاء الدائم، من ذلك أن الأملاك في الدنيا تقترن بأصحابها، لكنها لا تدوم لان أصحابها في عداد الأموات، لأنهم أنفس وكل نفس نهايتها الموت، إذ يقول تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[٥٢٨] وقوله تعالى: {إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ}[٥٢٩] فدلالة الموت توحي أن كل ما هو موجود على الأرض سوف يذهب ويتلاشى ولا يبقى منه شيء، وهذا ما سيتحقق في يوم القيامة، إذ يقول تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى

---

[٥٢٤] – طه ١٣١

[٥٢٥] – الأعلى ١٧

[٥٢٦] – طه ١٢٧

[٥٢٧] – القصص ٦٠

[٥٢٨] – أل عمران ١٨٥

[٥٢٩] – الزمر ٣٠

عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٥٣٠] هذا مشهد من مشاهد الآخرة العظيمة، فبعد أن يجتمع الناس جميعا في صعيد واحد، لا يخفى منهم شيء، يقول الله تعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} من هو المالك لذلك اليوم العظيم الجامع للأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، الذي انقطعت فيه الشركة في الملك، وتقطعت الأسباب، ولم يبق إلا الأعمال الصالحة أو السيئة، الملك {لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} إنها الإجابة القاطعة من قالها قال الحق المطلق، فالله الواحد القهار، هو المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له في شيء منها بوجه من الوجوه. {الْقَهَّارِ} لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم، يومئذ لا تَكَلَّمُ نفس إلا بإذنه. فخطاب (مالك الملك) اتسم بنبرة التحدي للأصوات التي علت في الدنيا وتفاخرت بما ملكت ونسيت (مالك الملك) وأصرت على الكفر والعناد، فكل الأملاك تزول ويبقى ملكه العظيم الدائم سبحانه جل جلاله لا إله إلا هو كل شيء هالك ويبقى وجهه ذو الجلال والإكرام.

إن القراءة للتاريخ البشري تمدنا بسلسلة طويلة ممن أنعم الله تعالى عليهم من ملكه، ومن بينهم النبي سليمان عليه الصلاة والسلام الذي انفرد عن غيره من الأنبياء بما أعطاه الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ}[٥٣١] يتجلى هنا كرم الباري عز وجل في منح النبي سليمان عليه الصلاة والسلام ملكا لم يحصل عليه احد، إذ يدلل هذا الملك على عظمة وجلال صاحبه، فالعطاء هنا ليس طبيعيا متعارفا عليه من قبل بني البشر، فهو يمثل حالة

---

[٥٣٠] – غافر ١٦

[٥٣١] – ص ٣٤ – ٤٠

خاصة أرادها تعالى أن تكون للنبي سليمان عليه الصلاة والسلام، وقوله تعالى: (وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ) صورة واضحة لكن الشخصيات فيها غيبية مما تحمل دلالات كثيرة في إعطاء صورة مهيبة لهذه المكرمة، فالشيطان صورة غيبية لا يمكن تصورها، إلا إنها وردت في القرآن الكريم من باب بث الرعب في نفوس المخاطبين، إذ يقول تعالى: {أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ}[٥٣٢]. وهذه المكرمة استمرت حتى على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد ورد في الحديث النبوي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إِنَّ عِفْرِيتًا مِنْ الْجِنِّ جَعَلَ يَفْتِكُ عَلَيَّ الْبَارِحَةَ لِيَقْطَعَ عَلَيَّ الصَّلَاةَ وَإِنَّ اللَّهَ أَمْكَنَنِي مِنْهُ فَذَعَتُّهُ فَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَرْبِطَهُ إِلَى جَنْبِ سَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ حَتَّى تُصْبِحُوا تَنْظُرُونَ إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ أَوْ كُلُّكُمْ ثُمَّ ذَكَرْتُ قَوْلَ أَخِي سُلَيْمَانَ {رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي} فَرَدَّهُ اللَّهُ خَاسِئًا[٥٣٣].

أما المتجبرون والطغاة فكان لهم نصيب وافر من ملك الله تعالى، لكن هذا الملك سرعان ما يزول نتيجة أفكارهم وأعمالهم التي حولت ملكهم إلى ذكرى من ذكريات التاريخ، فمن هؤلاء قارون، إذ يقول تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ

[٥٣٢] – الصافات ٦٢ – ٦٨

[٥٣٣] – صحيح مسلم ج٣ ص ١٤٧

لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[٥٣٤]، هذه الآية تتحدث عن شخصية مهمة من شخصيات التاريخ، حتى أصبحت مضربا للمثل بما أوتي من مال، فقارون من بني إسرائيل الذين فضلوا على العالمين، وامتن الله تعالى عليهم بما أمنن به، فكانت حالتهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا بغى على قومه وطغى، بما أوتي من الأموال العظيمة، إلا أن القرآن الكريم ذكر الأموال العظيمة ثم ذكر بعدها مفاتيح خزائنه في صورة توحي بعظمة الأموال التي كان يملكها، فإذا كان حال المفاتيح بهذا الثقل فكيف تكون خزائنه؟ أما موقف قومه فلم يكن موقف المتفرج بل كان موقف الناصح والمحذر له، إذ بينوا له أن هذه الأموال هي من الطرق الموصلة إلى الآخرة (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ) وان هذه الأموال ليس كلها تتصدق بها، بل استمتع بدنياك بما يرضي الله تعالى (وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) وابتعد عن التكبر وارتكاب المعاصي (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة. ثم كانت العقوبة وهي الخسف، فقد اختص هذا الشكل من الموت في القرآن الكريم بقارون المتكبر لترابط واضح بين تكبره وتعاليه ودلالة الخسف، وخَسَفَ اللّه به الأَرضَ خَسْفاً أَي غابَ فيها[٥٣٥]، والخسف يشبه الزلزال العظيم الذي يضرب الأرض ثم يحدث فيها شق كبير فيسقط فيه كل ما هو موجود على سطح الأرض، فيموت كل ما دخل فيه إلا ما شاء الله، فعقاب قارون كان متناسبا مع جرمه.

---

[٥٣٤] – القصص ٧٦ – ٨٢

[٥٣٥] – لسان العرب ج ٩ ص ٦٧

ولقد هدد الله تعالى في كتابه العزيز الظالمين بعقوبة الخسف، فقال تعالى: {أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا}[٥٣٦]، فالسياق في إثبات قدرة الله تعالى المطلقة على إهلاك الظالمين سواء في البر أو البحر، لكن لما كان البر أكثر إشعارا بالأمان من الماء واستبعادا للهلاك ذكره تعالى تأكيدا لقدرته على إهلاك الظالمين في أي جانب كان البر أو البحر فهما على السواء بالنسبة لقدرته تعالى، وفي قوله تعالى: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ}[٥٣٧]، يلحظ في هذه الآية الكريمة مقابلة بين السماء والأرض، أظهرت قدرت الله تعالى العظيمة، فمن في السماء هو الله تعالى يقابله من في الأرض، وفي هذا إشارة إلى عظيم القدرة إذ لا يحتاج تعالى أن يكون في موضع الإهلاك ليكون قادرا على الإهلاك كعادة الناس، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون بلا أسباب موصلة لذلك إن شاء.

ويلحظ دقة استعمال الخطاب القرآني للصيغ الفعلية في سياقات الخسف، إذ ورد الفعل الماضي في مواضع تتحدث عن خسف حدث وانتهى كقوله تعالى عن قارون: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}[٥٣٨]. أما الصيغ الفعلية للمضارعة فجاءت في مواضع تتحدث عن حكم عام له تعالى متجدد في كل زمان كما قال تعالى: {أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}[٥٣٩] فالفعل المضارع (يخسف) يعطي دلالة التجدد في هذا الحكم والاستمرارية له .

---

[٥٣٦] – الإسراء ٦٨

[٥٣٧] – الملك ١٦

[٥٣٨] – القصص ٨١

[٥٣٩] – النحل ٤٥

أما الغرق فكان مع فرعون، إذ يمثل هذا الشكل صنفا من أصناف الموت صورة العقاب والهلاك الجماعي لأمة كاملة، ذلك أنه جاء في الخطاب القرآني عقابا لقوم نوح عليه الصلاة السلام وقوم فرعون، ويمثل كل منهما أمة كافرة بذاتها.

والغرق في اللغة: "الغَرَقُ الرُّسُوب في الماء ويشبّه الذي ركبه الدَّيْن وغمرَتْه البَلايا يقال رجل غَرِق وغَريق وقد غَرِقَ غَرَقاً وهو غارِقٌ"[٥٤٠] ورد هذا الشكل من أشكال الموت في القرآن الكريم اثنتين وعشرين مرة في اثنين وعشرين موضعا، ودلالته في هذه المواضع "كلها على اختلاف صيغها، فعلا ومصدرا واسم مفعول. ومن الغرق بمعناه الأول القريب، بصريح سياقها في اليم والبحر والموج، أو في قوم موسى والكفار من قوم نوح"[٥٤١] قال تعالى: {وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آَيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا}[٥٤٢].

الغرق هو البلاغ في الشيء إلى غايته بحسبه، فإن كان في الهلاك فهو غاية وظهر معناه في الماء والبحر لبُعد قعره، وهو في الماء بمنزلة الخسف في الأرض[٥٤٣]، ويلاحظ أن هنالك ربطا بين الغرق والخسف وذلك لان كليهما موت بالاختناق وانقطاع النفس بسبب الغور في باطن البحر أو الأرض.

والآيات السابقة كما نلاحظ تربط بين هلاك فرعون وقومه وقوم نوح عليه الصلاة والسلام "فلما أخبر الله تعالى أنه دمر آل فرعون تدميرا أخبر بأنه أغرق قوم نوح، وكل من الفعلين (دمر) و(أغرق) يُعين الآخر في بيان هول العقوبة ونوعها، فأما (دمرناهم) فإعلام بعقوبة الفناء التام

---

٥٤٠ – لسان العرب ج ١٠ ص ٢٨٣

٥٤١ – التفسير البياني ج ١ ص ١١٠

٥٤٢ – الفرقان ٣٥ – ٣٧

٥٤٣ – ألبقاعي ج ١ ص ٩٠

العام لفرعون وجنوده، وأما (أغرقناهم) فإخبار بنوع العقوبة وتخصيصها وهي الغرق، وكلا الفئتين أبيدت غرقا، فتماثلت العقوبتان باتحاد الذنب وهو تكذيب الآيات والرسل"[٥٤٤].

ففائدة الفعل (أغرقناهم) هو تكرار معنى الإهلاك بالتدمير وبيان نوعه. ويلاحظ أن الآيات السابقة ولأنها جاءت لإثبات قدرة الله تعالى المطلقة على إهلاك الظالمين، عمد الخطاب القرآني إلى حذف كثير من تفاصيل القصتين اللتين تتحدثان عنهما موجها السياق نحو شكلية الإهلاك وقوته، كما نلاحظ ذلك من قوله تعالى: {فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا}[٥٤٥] إذ حذف من السياق دعوة موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام لقومهما، والأحداث التي جرت بينهما وبين فرعون، ووجه السياق مباشرة بعطفه بالفاء الدالة على التعقب السريع إلى النتيجة النهائية وهي التدمير غرقا، وهو غرق السياق الأول لإثبات قدرة الله تعالى المطلقة في إهلاك الكافرين. وبالمعنى نفسه ورد قوله تعالى: {وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آَيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}[٥٤٦].

إن استعمال (الغرق) بصيغة المصدر الدال على الثبات المطلق والحدث المجرد يرسم لنا صورة مخيفة لعظم الماء الذي غمر فرعون وجنوده، وكان هذا الغرق راسخ لفرعون وجنوده وهو نوع خاص بهم عقوبة لهم على كفرهم، وعمَّق هذه الصورة مجيء الفعل أدرك قبل فعل الغرق والذي يدل على بلوغ أقصى الشيء. وهو يؤذن بأن الغرق دنا منه تدريجياً بهول البحر ومصارعته الموج، وهو يأمل النجاة منه، وأنه لم يُظهر الإيمان حتى أيس من النجاة وأيقن بالموت، وذلك لتصلبه في الكفر[٥٤٧]. ومعنى هذا الكلام أن الله تعالى لم يقبل توبته لأنه قالها

---

[٥٤٤] – أساليب التوكيد من خلال القرآن الكريم ص ١٩

[٥٤٥] – الفرقان ٣٦

[٥٤٦] – الفرقان ٣٧ – ٤٠

[٥٤٧] – التحرير والتنوير ج ٧ ص ٦٠

بعد أن غرق وكأنه قالها في نفسه تحت الماء، ولعلنا نلمح من لفظ أدرك تشخيصا للغرق، وكأنه وحش مخيف يجري وراء فرعون وهو يحاول الخلاص منه!!.

وبعد الغرق وذهاب فرعون ومن على شاكلته تتجلى صورة (مالك الملك) الدائم الباقي، إذ يقول تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آَخَرِينَ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}[٥٤٨] فترك وأورث يدلان على التغيير والتبديل مما يعزز فكرة عدم الاستمرار التي يظن كثير من الملوك أنها تدوم لهم، فمن ذلك قول فرعون، إذ يقول تعالى: {وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ فَلَمَّا آَسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآَخِرِينَ}[٥٤٩] في هذه الآيات ترسم صورة فرعون المتمرد المعاند الكافر، فقد تبجح بافتخاره بأنه ملك مصر، وأن الأنهار تجري من تحته في صورة مملوءة بالطغيان والتكبر، فكانت نهايته غرقه في أحد الأنهار التي ذكرها، قال تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}[٥٥٠] فقصة فرعون تمثل أنموذجا واضحا لـ(مالك الملك) في الإتيان والنزع، فقد تخلل هذه القصة عرض لقدرة وعظمة الله تبارك وتعالى التي كانت واضحة في كل تفاصيلها.

---

[٥٤٨] – الدخان ٢٥ – ٢٩

[٥٤٩] – الزخرف ٥١ – ٥٦

[٥٥٠] – يونس ٩٠ – ٩٢

ومالك الملك، هو الذي تنفذ مشيئته في ملكه كيف يشاء، ومتى ما شاء فلا مرد لقضائه، ولا يكون ذلك إلا من كمال القوة والمتانة والقدرة والعزة والغنى. وقد تجلى ذلك في عقاب الأمم السابقة،إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ}[٥٥١]. هذه الآيات تعرض أمر الله تعالى النافذ في قوم لوط، فقد كانت البداية بالمرور بإبراهيم الحليم عليه الصلاة والسلام، فكان محاورا للملائكة من أجل تأخير أو إسقاط العقوبة عن قوم لوط لأن فيها بعض المؤمنين، فضلا عن ذلك صفة الحلم التي يتمتع بها النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فالأمر أصبح واجب التنفيذ، لان أمره تعالى لا يرده أحد، يقول تعالى: {يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ}[٥٥٢] هذا العذاب الذي صرح به هنا بأنه آت قوم لوط، لا محالة وأنه لا مرد له، إذ بينه تعالى في مواضع عديدة رسم فيها صورة العذاب المتحقق عليهم بطريق تتلاءم مع ذنوبهم الفاحشة، يقول تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}[٥٥٣]، وقوله تعالى: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ}[٥٥٤]. أما قوم يونس عليه

[٥٥١] – هود ٧٤ – ٨١

[٥٥٢] – هود ٧٦

[٥٥٣] – هود ٨٢ – ٨٣

[٥٥٤] – الحجر ٧٤ – ٧٥

الصلاة والسلام فقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم لكن بصورة مغايرة عن قوم لوط، إذ يقول تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آَمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آَمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[٥٥٥] إن قوم يونس كانوا بنينوى من أرض الموصل، فلما فقدوا نبيهم عليه الصلاة والسلام قذف الله تعالى في قلوبهم التوبة فلبسوا المسوح، وأخرجوا المواشي، وفرقوا بين كل بهيمة وولدها، فعجوا إلى الله أربعين صباحاً ، فلما عرف الله الصدق من قلوبهم والتوبة والندامة على ما مضى منهم، كشف عنهم العذاب بعد ما تدلى عليهم لم يكن بينهم وبين العذاب إلا ميل.[٥٥٦] فصورة العذاب المتحققة في قوم لوط تقابلها صورة العذاب غير المتحققة عند قوم يونس، مما يدلل في كلا الأمرين أن أمر الله تعالى نافذ كما يشاء في تحقيق العذاب وعدمه، ولا يكون ذلك إلا له جل جلاله.

تستعمل لفظة (الملك) بين المستخلفين ضمن إطار حفظ الحقوق، ولهذا أن توزيع الميراث الذي ورد في القرآن الكريم استند إلى ما يملكه الميت، قال تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا}[٥٥٧] وقوله تعالى: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا}[٥٥٨] إلا أن ما يملكه الميت هو من باب ما شرعه الله تعالى للكل، بان لهم الحق في

---

[٥٥٥] – يونس ٩٨

[٥٥٦] – الدر المنثور ج ٥ ص ٢٦٩

[٥٥٧] – النساء ٨ – ١١

[٥٥٨] – الفجر ١٩

الأملاك، إلا أن كل ما يملكونه هو ملك وقتي ولابد له من زوال، إما ملك الله تعالى فهو دائم لا يزول، إذ تتضح الصورة العظيمة التي يرتسم فيها ملكه الدائم بعد زوال الدنيا وما فيها ولا يبقى إلا هو (مالك الملك) جل حلاله، يقول تعالى:{يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٥٥٩].

أما الحديث عن الوراثة من باب أن الله تعالى جعل الخليفة يرثه في الأرض، فهذا يدخل من باب الاستخلاف الذي أراده الله تعالى للخليفة، إذ يقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}[٥٦٠]. هذه من وعود الله تعالى لعباده الصادقين المخلصين بأن يستخلفهم في الأرض، فيكونون هم الخلفاء فيها ومن المتصرفين في تدبيرها، والتصرف يكون بإقامة شرع الله تعالى في أنفسهم وفي غيرهم، وهذا يدخل ضمن نطاق الأمانة التي قال عنها تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٥٦١].

أما من ناحية الحاجة فان كل المخلوقات بحاجة إلى ملك الله تعالى، وهذا الملك يتمثل في كل شيء يكون السبب في دوام الحياة، من ذلك الهواء فهو سر من أسرار استمرار الحياة وبدونه لا يمكن للكائنات أن تعيش، فضلا عن ذلك فهو يعد سببا رئيسيا للحركة والتنقل، فالطائرات لا يمكنها الطيران بدون الهواء وكذلك الطيور بكل أنواعها لا يمكن لها التحليق دون وجود الهواء، أما الماء فهذا سر عجيب، فهو أصل الحياة، إذ يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ وَجَعَلْنَا فِي

---

[٥٥٩] – غافر ١٦

[٥٦٠] – النور ٥٥

[٥٦١] – الأحزاب ٧٢

الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ}[٥٦٢] وبالماء يحي الله تعالى الأرض، فيسوق إليها المطر، يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ}[٥٦٣]. فضلا عن ذلك أن كثير من الحيوانات لا تستطيع أن تعيش خارج الماء، فهو المكان الوحيد الذي تعيش فيه، فهي بحاجة له من اجل الاستمرار في الحياة.

مالك الملك، يملك مالكي الملك والملك، ويتضح الأمر هذا من خلال عملية الخلق، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٥٦٤]، وقوله: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[٥٦٥] والخلق يستدل به على المالك، فالله تعالى هو الخالق ومن يكن الخالق يكن المالك، فالأنفس كلها هي ملك لله تعالى، فضلا عن ذلك أن الله تعالى يملك ما تملكه هذه الأنفس سواء أكان الملك ماديا أم معنويا، لان أصل ما يملكونه هو من عند الله تعالى (مالك الملك)، وبذلك يتأطر هذا الأمر وفق صورة الجلال والعظمة التي رسمتها صفة (مالك الملك) بكل أبعادها وحيثياتها. إذ يتمثل ذلك بالفرضية التي وردت في قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}[٥٦٦] هنا الحديث للكافرين في بيان العذاب الذي ينتظرهم بما فيه من شدة وهول، فالخطاب هنا على سبيل الفرض والتقدير، لو كان لهم ما في الأرض جميعا، أي لو تحققت الملكية الحقيقية الكاملة لهم في الدنيا بما في الأرض من

---

[٥٦٢] – الأنبياء ٣٠ – ٣١

[٥٦٣] – السجدة ٢٧

[٥٦٤] – البقرة ٢١

[٥٦٥] – فطر ١١

[٥٦٦] – الزمر ٤٧ – ٤٨

ذهب وفضة ولؤلؤ وحيوانات وأشجار وقصور وغير ذلك من أملاك الأرض، ثم بذلوه يوم القيامة ليفتدوا به من العذاب، ما قبل منهم، يقول تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ}[٥٦٧] فهنا المعادلة المفترضة لم تتحقق، يملك في الدنيا ولا يملك في الآخرة، والله تعالى يملكهم ويملك ما يملكونه ويملك مالا يملكون، وهنا نرجع إلى قوله تعالى: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}[٥٦٨] الذي يرسم صورة واضحة المعالم لا تحيل إلى أي مرجعيات، إلا إلى مرجعية واحدة هي أن ملك الله تعالى ليس له حدود وليس له إطار إنما هو مطلق يشمل الدنيا والآخرة.

إن لفظة (المُلك) التي يبنى عليها اسم (مالك الملك) تتسم بالإطلاق غير المقيد، فهي تحيل إلى رسم صورة عظيمة، يجمع ما يدور فيها من ملك الله تعالى بحسب ما يمليه التفكير البشري القاصر عن إدراك حجم وعظمة ملك الله تعالى، فهي لم تقتصر على الجانب المادي بل كان للجانب المعنوي المكانة الواضحة في هذا الملك، ومن بين مظاهر (مالك الملك) الآتي:

١- الرزق:

هذه المفردة تكررت في النص القرآني ضمن سياقات كثيرة تدلل بمجملها أن الرزق هو بيد الله تبارك وتعالى يتصرف به كما يشاء، ومن خلال هذا التصرف تتجسم الملكية المتحققة في ذات الله تعالى، فمن المواضع التي ورد فيها الرزق قوله تعالى: {فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٥٦٩] تشكلت هذه الآيات في بدايتها من عنصر مهم يمثل أحد الأماكن المهمة في مزاولة العبادة ألا وهو المسجد، ثم بعد ذلك جاء

---

[٥٦٧] – الشعراء ٨٨ – ٨٩

[٥٦٨] – الفاتحة ٤

[٥٦٩] – النور ٣٦

ذكر الزمن المتمثل فيه وقت العبادة، وقد خص الله تبارك وتعالى هذين الوقتين لشرفهما، ولهذا نجد أن أذكار الصباح والمساء تقدم ذكرهما على باقي الأوقات في ذكر الله تعالى، وهذه الأعمال لا يقوم بها إلا رجال اتسموا بخصائص وصفات مهمة فهم(لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ) وهذه الأعمال رغم كل ما فيها فهي لا تشغلهم عن عبادة الله تبارك وتعالى من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بل جعلوا طاعة الله وعبادته غاية مرادهم، ونهاية مقصدهم، فما حال بينهم وبينها رفضوه، نجد أن نسق الآية الكريمة كله اشتمل على وصف لعباد الله اتسموا بصفات يريدها الله تبارك وتعالى ويحث عليها، فكان ختام الآية بالرزق (وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) فالرزق هنا مفتوح غير مقيد ففيه زيادة عن الاستحقاق، وهذا الأمر يتعلق بكمال قدرة الله تبارك وتعالى، ونفاذ مشيئته في توزيع الرزق بين العباد. هذه صور من صور الرزق التي بينها الله تعالى جاءت بعد وصف للعباد بصفات لا تليق إلا بالعابد الطائع، بينما هناك صورة أخرى مغايرة رسمتها آية كريمة وانتهت أيضا بان الله تعالى بيده الرزق، إذ يقول تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٥٧٠] هذه الآية رسمت صورة واضحة عن الذين كفروا بالله وبآياته ورسله، وبرغم كل الصفات التي اتسم بها هؤلاء تبقى قضية الرزق فيها إطلاق، بمعنى أنها لا تقتصر على أحد من الخلق فهي لهم جميعا وهذا بطبيعة الرزق الدنيوي فهو للمؤمن وللكافر، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}[٥٧١]. أما الرزق الأخر المتمثل برزق القلوب من العلم والإيمان والمحبة، والتعلق بالله ومحبته والخشية منه، فالله تعالى يعطيها إلا لمن أحبه. ومن أحبه الله دخل في رضوانه الذي هو مبلغ عظيم.

الرزق هو بمثابة الحياة والموت لكل الخلق، ومن يملك الرزق يملك الحياة والموت، إلا أن الله تعالى لم يقطع الرزق عن العاصين والكافرين، بل جعل رزقهم كرزق الذين أمنوا من أجل

---

[٥٧٠] – البقرة ٢١٢

[٥٧١] – الإسراء ٢٠

إعطائهم فرصة للتدبر والتفكر، فضلا عن ذلك يكون شاهدا عليهم ولتسقط كل الحجج الواهية التي يتمسكون بها في الكفر والعصيان.

إن إحدى صور الرزق تتمثل من خلال عملية الزرع بما تمر فيها من أطوار ابتدأت من وضع الحبة في الأرض إلى الحصول على الثمر، إن هذه العملية لا يملكها الخليفة وان ملك الأرض وما عليها، فهي من ملك الله تبارك وتعالى، فهو الذي ينبت الحبة حتى تصبح ثمرا يستفاد منه، ومالك الإنبات يعرض قصة تتحدث عن عظمته في العطاء، إذ يقول: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا}[٥٧٢] ضرب الله تعالى للمشركين المستكبرين مثلا برجلين جعل لأحدهما بستانين من أعناب محفوفتين بالنخل وفي خلالهما الزر وع، وكل ما فيهما مثمر، فضلا عن ذلك أن الأنهار تخترقهما، بعد عرض ما في الجنتين يبدأ حوار بين الرجلين، إذ يقول صاحب الجنتين وهو في حالة الافتخار والجدال: (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا) هنا بداية الكفر والتمرد والتجبر، فهو يرى أن ما أمامه من خير ونعمة هي دائمة لا تزول، وان هذا الملك دائم له، وهنا تجلى فيه الغرور الذي يقوده إلى الهلاك، ففكره متقوقع

---

[٥٧٢] – الكهف ٣٢ – ٤٢

على فكرة الدوام وهي محالة لان كل ما في الكون هو ملك لله تعالى، فهو بيده كل شيء يعطي ويأخذ وينبت ويهلك ويتلف.

ويتأرجح الرزق بين ثنائية البسط والقدر، وهذا التأرجح نابع من مشيئة الله تعالى "والبسط: مستعار للكثرة وللدوام. والقَدْر: كناية عن القلة"[٥٧٣]. ومن ذلك قوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[٥٧٤]، وقوله تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٥٧٥]، وقوله تعالى: {قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}[٥٧٦] إن آلية التوزيع هذه تنم عن التملك القائم لله تعالى الموحي بالملك الطلق، فضلا عن ذلك أن هذا التوزيع يتبعه الصلاح الذي يريده تعالى وهذا بطبيعة الحال يكون وفقا لعلمه العظيم.

٢- الإتيان بخلق جديد:

الخلق صورة من الصور الدالة على (مالك الملك)، إلا انه لا يتسم بالثبات بمعنى أن الخلق يمرون بأطوار حددها الباري جل جلاله، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[٥٧٧]. هذا هو التدرج الطبيعي للخلق من البداية إلى النهاية المتحققة بالموت، إلا أن الله تبارك وتعالى عمد في خطابه إلى المؤمنين إلى استعمال صيغة الخلق ضمن الاختيار الأمثل للخلق المطيعين له، إذ وصفهم بخلق جديد

[٥٧٣] – التحرير والتنوير ج ٧ ص ٣٦٩

[٥٧٤] – الرعد ٢٦

[٥٧٥] – العنكبوت ٦٢

[٥٧٦] – سبا ٣٦

[٥٧٧] – الحج ٥

يحبهم ويحبونه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٥٧٨] هذه الآية ترسم ملمحا معرفيا يتصل بصفة من صفات الله تعالى وهي انه تعالى غني عن العالمين، ذلك أن الارتداد عن دين الله لن يضر إلا من يرتد، وبذلك ينحصر الضر بالمرتد، وهذا يدخل ضمن إطار الضعف الذي يتسم به بني ادم، لان عملية الارتداد تنبع من أصل فكري محدود مما يضع صاحبها في نهاية تتناسب مع فعل الارتداد. وتتجلى قدرة الله تعالى في الإتيان بقوم فيهم صفة تسمو على كل الصفات إلا أن اجل صفة فيهم أن الله تعالى (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وتصل درجة الحب مرتبة عظيمة، فعن عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "إِنَّ اللَّهَ قَال مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ"[٥٧٩] فضلا عن ذلك أنهم (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) فهم للمؤمنين أذلة من محبتهم لهم، ونصحهم لهم، ولينهم ورفقهم ورأفتهم، ورحمتهم بهم وسهولة جانبهم، وقرب الشيء الذي يطلب منهم وعلى الكافرين بالله، المعاندين لآياته، المكذبين لرسله (أعزة)، قد اجتمعت هممهم وعزائمهم على معاداتهم، وبذلوا جهدهم في كل سبب يحصل به الانتصار عليهم، قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا

---

[٥٧٨] – المائدة ٥٤

[٥٧٩] – صحيح البخاري ج ٢٠ ص ١٥٨

تُظْلَمُونَ}[٥٨٠] وقال تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [٥٨١]، فالغلظة والشدة على أعداء الله مما يقرب العبد إلى الله، فهنا تتأصل المحبة التي يريدها الله تبارك وتعالى من خلال الغلظة والشدة، فضلا عن اللين الذين يكون في الدعوة إلى الله تعالى، وكلا الأمرين يتسمان بمحبة الله تعالى. إن فعل القدرة هذا لا يستطيع أحد أن يفعله إلا ملك الملوك، فالإتيان بالأقوام يتسم بالتحدي والتهديد لكل العاصين، وهو باب ينم عن جلال الله تعالى وقدرته وعظمته في ملكه.

٣- الضر والنفع:

الضر والنفع من الثنائيات التي وردت في النص القرآني في كثير من المواضع، يقول تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٥٨٢]، وقوله تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}[٥٨٣] السياق في هذه الآيات يدور حول الإنسان في قضية مهمة تحدد توجهه العقائدي، فبعد تعرضه إلى ضر لا يفكر في أي شيء إلا الله تعالى داعيا له ليكشف ما به من ضر، وبعد كشف العذاب نسي ما كان فيه من الشدة والبلاء، وترك الشكر لربه الذي فرَّج عنه ما كان قد نزل به من البلاء، كما زُيِّن لهذا الإنسان استمراره على جحوده وعناده بعد كشف الله عنه ما كان فيه من الضر، زُيِّن للذين أسرفوا في الكذب على الله وعلى أنبيائه ما

---

[٥٨٠] – الأنفال ٦٠

[٥٨١] – الفتح ٢٩

[٥٨٢] – يونس ١٢

[٥٨٣] – النحل ٥٣ – ٥٤

كانوا يعملون من معاصي الله والشرك به. وهنا اتضحت ثنائية الضر والنفع من خلال وجود الضر ورفعه، فلا يستطيع أحد أن يرفع الضر إلا مالك الملك، فهو بيده الضر والنفع، ومن الأمثلة الشاخصة في هذا المضمار قصة سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}[٥٨٤]. إن النبي أيوب عليه الصلاة والسلام كان ذا ثروة واسعة وعائلة صالحة متواصلة، ثم ابتلي بإصابات لحقت أمواله متتابعة فأتت عليها، وفقد أبناءه السبعة وبناته الثلاثَ في يوم واحد، فتلقى ذلك بالصبر والتسليم. ثم ابتلي بإصابة قروح في جسده وتلقى ذلك كله بصبر وحكمة وهو يبْتهل إلى الله بالتمجيد والدعاء بكشف الضر. وتلقى رثاءَ أصحابه لحاله بكلام عزيز الحكمة والمعرفة بالله، وأوحى الله إليه بمواعظ. ثم أعاد عليه صحته وأخلفه مالاً أكثر من ماله وولدت له زوجه أولاداً وبنات بعدد من هَلكوا له من قبلُ[٥٨٥]. إن هذه القصة رسمت بريشة عكف صاحبها على الانتظار ليرى ما يفعله صاحب الضر وان كان نبيا، فكانت النتيجة أنه صبر صبرا صار مضربا للمثل عليه الصلاة والسلام، فبعد دعائه كشف الله تعالى عنه الضر وأعطاه أكثر مما كان عنده.

ويأتي الحديث عن الضر والنفع من خلال إفراد الله تعالى بالعبادة وعدم عبادة غيره، إذ يقول تعالى: {قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[٥٨٦]، ومعنى (لا يملك ضَرّاً) لا يقدر عليه، وحقيقة معنى الملك التمكّن من التّصرف بدون معارض، ثم أطلق على استطاعة التّصرّف في الأشياء بدون عَجز[٥٨٧] والضر والنفع يكون وفق مشيئة الله تعالى وإرادته، فضلا عن ذلك انه يدخل في الأمور الغيبية، إذ يقول تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ

---

[٥٨٤] – الأنبياء ٨٣ – ٨٤

[٥٨٥] – التحرير والتنوير ج ٩ ص ١٩٥

[٥٨٦] – المائدة ٧٦

[٥٨٧] – تفسير التحرير والتنوير ج ٤ ص ٢٦٣

السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٥٨٨] هذه الآية تؤكد ملكية الله تعالى لهذا الأمر بوصفه أمرا يدخل ضمن الأمور الغيبة التي لا يعلمها إلا هو جل جلاله، لذلك ورد في سياقات عديدة في النص القرآني منها قوله تعالى: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[٥٨٩]، وقوله:{ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}[٥٩٠].

٤-الرياح:

الرِّيحُ نَسِيم الهواء وكذلك نَسيم كل شيء وهي مؤنثة وجمعها رِياحٌ[٥٩١]، وفي التنزيل يقول تعالى: {مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٥٩٢] وتمثل الرياح صورة من صور ملك الله تعالى، وهذا الملك هو بيده ويصرفه كيفما يشاء فهو مالكه، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٥٩٣]وقوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٥٩٤] تمثل الرياح علامة من علامات رحمة الله تبارك وتعالى، فحركة الرياح تمثل البشارة بسقوط المطر فهي تثير السحاب وتجمعه ثم بعد ذلك يبدأ المطر بالنزول، إن هذه العملية بكل تفاصيلها بدأ من حركة الرياح إلى نزول المطر، تمثل دليلا واضحا على المتصرف العظيم في هذه الرياح، وكيف يسيّرها كيفما يشاء إلى أي جهة شمال جنوب شرق غرب، يختار المكان

---

[٥٨٨] – الأعراف ١٨٨

[٥٨٩] – يونس ٤٩

[٥٩٠] – الجن ٢١

[٥٩١] – لسان العرب ج٢ ص ٤٥٥

[٥٩٢] – أل عمران ١١٧

[٥٩٣] – الأعراف ٥٧

[٥٩٤] – الروم ٤٦

الذي يريده لغاية هو يعلمها، فتكون الرياح طوع أمره، وتكون هي السبب في الحياة على الأرض، يقول تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى آَثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٥٩٥]، ترسم هذه الآيات العظام صورة الحياة التي أوجدها الله تعالى من خلال مراحل متتابعة كل واحدة تفضي إلى الأخرى، فتكون النتيجة هي الحياة للأرض وكل ذلك يحققه (مالك الملك)، البداية تكون بإرسال الرياح التي تثير السحاب الذي يمده ويوسعه الله تعالى كيفما يشاء، ثم يتحول ذلك السحاب إلى كسفا ثخينا قد طبق بعضه فوق بعض، فيكون السحاب نقطا صغيرة متفرقة، لا تنزل جميعا فتفسد ما أتت عليه، فبعد رؤية هذه الصورة المشاهدة يبشر العباد بعضهم بعضا بنزوله وذلك لشدة حاجتهم إليه، فهو ضرورة مهمة لاستمرار الحياة، وبشرتهم هذه جاءت بعد يأسهم لتأخر وقت مجيئه. وبعد نزول المطر تكون الأرض متسمة بالحياة، فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج كريم.

هذه الصورة المتحققة أمام عين العباد هي من قدرة الخالق جل جلاله، والتي تحيل إلى صورة أخرى ترددت في النص القرآني وهي إحياء الله تعالى للأموات، إذ يقول تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ}[٥٩٦]، وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٥٩٧].

٥- إرسال الرسل:

---

[٥٩٥] - الروم ٤٨ - ٥٠

[٥٩٦] - يس ١٢

[٥٩٧] - الأحقاف ٣٣

إن إرسال الرسل يمثل مظهرا مهما من مظاهر تملك الملك لله تبارك وتعالى، وتمثل الإرسال في القرآن الكريم من خلال لفظة (أرسلنا) التي شغلت حيزا كبيرا في خطاب الله تعالى للكافرين والمكذبين، إذ يقول تعالى: {كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ}[٥٩٨]، وقوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}[٥٩٩]. النص القرآني هنا يحمل في طياته كثيراً من الأمور التي تنم عن جوانب مهمة تمثل ما يملكه الله تعالى إلى جانب امتلاكه إرسال الرسل وكل ما يملك مما نعلم وما لا نعلم، ومنها الرأفة والرحمة والغفران والعفو، ومالك الملك تجلى في هذا الأمر الذي تشكل فيه مظهران:

المظهر الأول: إن إرسال الرسل لا يكون إلا من الله تعالى فهو يملك هذا الأمر ولا يملكه غيره.

أما المظهر الثاني: فإن إرسال الرسل يتضمن أمورا لا يمتلكها إلا الله تعالى في محاسبته لعباده وهي الرحمة والعفو والغفران، فهو ملك داخل ملك، ولا يملكهما إلا الله تبارك وتعالى.

وإرسال الرسل شمل الأقوام التي كفرت بالله تعالى، إذ يقول تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٦٠٠]، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[٦٠١]، وقوله تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا

---

[٥٩٨] – البقرة ١٥١

[٥٩٩] – النساء ٦٤

[٦٠٠] – الأعراف ٥٩ – ٦٢

[٦٠١] – إبراهيم ٥

بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ}[٦٠٢].

إن إرسال الرسل لم يتوقف طول الفترة الزمنية المتصلة من خلق آدم عليه الصلاة والسلام إلى مبعث نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فبرغم تكذيب الرسل وقتلهم في بعض الأحيان كما فعل اليهود مع يحيى عليه الصلاة والسلام، إلا أن إرسال الرسل لم يتوقف بل استمر من أجل إصلاح الأرض الذي هو الهدف المنشود من إرسال الرسل في الحياة الدنيا.

ولعل إرسال الرسل خلق قصصا مختلفة تتحدث كل واحدة عن سمات وخصائص الأقوام المختلفة، من حيث ذنوبهم المختلفة، وصورة العقوبة التي كانت لهم، فدلالة (مالك الملك) أيضا تجلت في العقوبة التي وقعت على الأقوام الذين رفضوا دعوة أنبيائهم، فلا أحد يملك العقوبة إلا الله تعالى، فتحديد العقوبة وتنفيذها لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى، إذ يقول: {وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[٦٠٣].

فلم يكن هذا العذاب إلا بعد أن استنفد الرسل عليهم الصلاة والسلام كل الوسائل في سبيل إقناع هؤلاء الكفار الجاحدين، فلا يبقى لهم أي حجة على الله تعالى يوم القيامة، لان الحجج والبراهين الدامغة كانت أمامهم على أيدي رسل الله تعالى، ولهذا نجد أن الخطاب الموجه لهم في الآخرة يبنى على ما كان في الدنيا، إذ يقول تعالى: {أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ

---

[٦٠٢] – المؤمنون ٤٤ – ٤٨

[٦٠٣] – العنكبوت ٣٨ – ٤٠

قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ}[٦٠٤]. هذا الخطاب تقريع من الله تعالى لأهل النار وتوبيخ لهم على ما ارتكبوا من الكفر والمآثم والمحارم، كيف تفعلون ذلك وقد أرسلت لكم الرسل، ومعهم كتبي وقد بينت فيها لكم الحلال من الحرام كالشمس الساطعة، فتسقط هنا كل الحجج، لان الله تعالى قال: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[٦٠٥] فضلا عن ذلك أن طلب العودة إلى الدنيا معناه الاعتراف بذنوبهم التي ارتكبوها، ويتردد مثل هذا الخطاب في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِين وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ}.

٦- الأمر والنهي:

الأمر والنهي من الأسس التي بني عليها هذا الكون من آدم عليه الصلاة والسلام إلى قيام الساعة، وبعد قيام الساعة ينتهي العمل بهما وتبدأ مرحلة جديدة، وهي مرحلة الحساب التي

---

[٦٠٤] – المؤمنون ١٠٥ – ١١١

[٦٠٥] – النساء ١٦٤ – ١٦٥

وعد الله تبارك وتعالى خلقه من خلال رسله والكتب التي أنزلها، والحساب يكون وفق للأسس التي وضعت في الدنيا، وهنا نبدأ من النهاية وليس من البداية، فالنهاية هي عملية الحساب المتحققة والتي يرسم من خلالها نهاية الخلق إما إلى الجنة، حيث يقول تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٦٠٦]، وإما إلى النار، حيث يقول تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٦٠٧] وهذا الحساب المتحقق يبنى وفق مرجعيات متحققة في الدنيا، وهي إرسال الرسل والكتب التي أنزلت معهم، وعملية الحساب هذه لا يملكها إلا الله تبارك وتعالى، ومن يملك الحساب لابد وأن يملك أسسه التي يستند عليها في المحاسبة، ولهذا نجد أن حساب الآخرة يتسم بصيغ تحيل إلى الدنيا، قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ}[٦٠٨]، وقوله تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ}[٦٠٩]. فضلا عن ذلك أن الأمر والنهي ينظم الأمور الدنيوية والأخروية وهو ما يعرف بالحدود التي أوجدها الله تبارك وتعالى في أحكامه، والحَدُّ الفصل بين الشيئين لئلا يختلط أَحدهما بالآخر أَو لئلا يتعدى أَحدهما على الآخر وجمعه حُدود[٦١٠]. والحدود وردت في سياق الأحكام الشريعة

---

[٦٠٦] – البقرة ٨٢

[٦٠٧] – البقرة ٣٩

[٦٠٨] – الأنعام ١٣٠

[٦٠٩] – يس ٦٠ – ٦٨

[٦١٠] – لسان العرب ج ٣ ص ١٤٠

التي تنظم حياة الخلق وتوجهها توجها صحيحا يتسم بالعدل والحق، فمن القضايا المهمة قضية توزيع الميراث، وهي من الأمور الشائكة التي يتخللها كثير من التفرعات، إلا أن القرآن الكريم أدارها بطريقة واضحة تعطي كل ذي حق حقه، من ذلك قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}[٦١١] هذا التنظيم لمال الميت والعمل به يدخل ضمن الطاعة والعصيان لله تعالى، مما يترتب على ذلك الثواب والعقاب، فمن أدى الأوامر واجتنب النواهي فلا بد له من دخول الجنة والنجاة من النار. (وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) الذي حصل به النجاة من سخطه وعذابه، والفوز بثوابه ورضوانه بالنعيم المقيم الذي لا يصفه الواصفون. (وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ) ويدخل في اسم المعصية الكفر فما دونه من المعاصي، فقد رتب الله تعالى دخول الجنة على طاعته وطاعة رسوله. ورتب دخول النار على معصيته ومعصية رسوله، فمن أطاعه طاعة تامة دخل الجنة بلا عذاب. ومن عصى الله ورسوله معصية تامة يدخل فيها الشرك فما دونه، دخل النار وخلد

---

[٦١١] – النساء ١١ – ١٤

فيها، ومن اجتمع فيه معصية وطاعة، كان فيه من موجب الثواب والعقاب بحسب ما فيه من الطاعة والمعصية. وقد دلت النصوص المتواترة على أن الموحدين الذين معهم طاعة التوحيد، غير مخلدين في النار، فما معهم من التوحيد مانع لهم من الخلود فيها[٦١٢].

والحدود تحدد قبول الفرض أو عدمه من خلال الالتزام بشروط معينة، ومن هذه الحدود قوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآَنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آَيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٦١٣]. هذه الآيات الكريمة تحدثت عن أحد أركان الإسلام وهو صوم شهر رمضان، هذا الركن يمثل أحد العبادات التي تقرب العبد إلى الله، وطبيعة العبادات أنها تتسم بضوابط تحدد من قبل الله تعالى، والتي يكون على أساسها قبول العبادة أو رفضها مما يترتب على ذلك الثواب أو عدمه، فكانت الحدود هنا هي تحريم الأكل والشرب والجماع ونحوه من المفطرات في الصيام وتحريم الفطر على غير المعذور، وتحريم الوطء على المعتكف، ونحو ذلك من المحرمات، فكان النهي هنا في قوله تعالى: (فَلَا تَقْرَبُوهَا) الذي هو أبلغ من قوله: "فلا تفعلوها " لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه، فضلا عن ذلك أن كفارة الفطر أيضا تكون ضمن الحدود التي حددها الله تعالى.

الأمر والنهي من المفردات المهمة في قاموس الخليفة، فبهما يحاول زرع الخير في الأرض من خلال تبصير الخلق بأحكام الله تعالى، فضلا عن ذلك أنه يرتكز على قول رسول الله صلى

---

٦١٢ – تفسير السعدي ج ١ ص ١٧٠

٦١٣ – البقرة ١٨٧

الله عليه وسلم: "مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ"[٦١٤].

٧- العدل:

العدل من الأحكام المهمة التي مثلت الشغل الشاغل لكل الأنبياء الذين بعثهم الله تبارك وتعالى، فبه تستقيم الحياة ويأخذ كل ذي حق حقه، إذ يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٦١٥]، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٦١٦]، والعدل من صفات (مالك الملك)، والعدل، هو ما فرضه الله عليهم في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأمرهم بسلوكه، ومن العدل في المعاملات أن تعامل الخلق في عقود البيع والشراء وسائر المعاملات، بإيفاء جميع ما عليك فلا تبخس لهم حقا ولا تغشهم ولا تخدعهم وتظلمهم. فالعدل واجب، والإحسان فضيلة مستحبة وذلك كنفع الناس بالمال والبدن والعلم، وغير ذلك من أنواع النفع حتى إنه يدخل فيه الإحسان إلى الحيوان البهيم المأكول وغيره. وإقامة العدل يعد من الأمور المهمة التي لا يقبل فيها أي استثناء فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ

---

[٦١٤] – صحيح مسلم ج ١ ص ١٦٧

[٦١٥] – النساء ٥٨

[٦١٦] – النحل ٩٠

سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا"[٦١٧]. يتشكل هذا الحديث والآيات التي سبقته ضمن دائرة العدالة التي أراها الله تعالى فهي ترسم الطريق الحق للمسلمين بغية الحصول على مرضاة الله تعالى.

العدل الذي أمر الله به يشمل العدل في حقه وفي حق عباده، فالعدل في ذلك أداء الحقوق كاملة موفورة بأن يؤدي العبد ما أوجب الله عليه من الحقوق المالية والبدنية والمركبة منهما في حقه وحق عباده، ويعامل الخلق بالعدل التام. أما قوله تعالى: {لِلَّـهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[٦١٨] يعطي الله تعالى من يشاء ذرية من الزوجين الذكور والإناث، ويجعل من يشاء عقيما بلا نسل، وهنا تتضح أمور في غاية الأهمية هي أن الله تعالى قادر على أن يعطي الجميع ذكورا وإناثا إلا أن المنع هنا بالعطاء يعود إلى أمرين الأول علمه والثاني قدرته، والعلم والقدرة لا احد يتدخل بهما إلا هو تعالى إذ يمكن القول انه تعالى عليم بمن يستحق كل نوع من هذه الأنواع قدير على ما يريد أن يخلق، وفي كل الحالات لابد من قول ما قالته مريم عليها السلام في قوله تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٦١٩].

ويدخل العدل ضمن الأمور المهمة التي تعد من الركائز الأساسية للدين الإسلامي، فقد أمر الله تعالى بالعدل مع العدو والصديق إحقاقا للحق، وحرّم الظلم على نفسه، وجعله محرما بين عباده وأمر بالأمانة والصدق، وحرم الخيانة، وأمر ببر الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الفقراء، والمشاركة في الأعمال الخيرية، وأمر بالإحسان إلى كل شيء حتى الحيوان، فقد حرم الله تعذيبه، وأمر بالإحسان إليه.

---

[٦١٧] – صحيح البخاري ج ١١ ص ٢٩٤

[٦١٨] – الشورى ٤٩ – ٥٠

[٦١٩] – أل عمران ٣٧

اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير وبالإجابة جدير، وأنت ربنا المجير، نسألك أن تجيرنا من عذاب السعير، اللهم يا مالك أنفسنا نسألك أن تؤتي نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، فالحمد لك يا مالك الملك يا من تواضع كل شيء لعظمته وملكه، وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء لملكه واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل شيء بحكمته وتصاغر كل شيء لكبريائه، اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه نشهد أنه لا إله إلا أنت ونعوذ بك من شرور أنفسنا ومن شرور شيطان الجن والإنس، اللهم أنت مالك الملك وخالق الخلق وباسط الرزق، ما من شيء إلا وأنت آخذ بناصيته، فنسألك أن تأخذ بنواصينا التي تملكها إلى الخير، وتُملِكُنا نفوسنا وجوارحنا بكل خير، اللهم أنت مالك الملك، فإننا وجهنا وجوهنا إليك، وفوضا أمورنا إليك، وألجأنا أنفسنا إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنا بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، لا إله إلا أنت سبحانك إنا كنا من الظالمين، اللهم لا تملّك علينا من لا يخافك ولا يرحمنا يا الله يا مالك الملك.

ذو الجلال والإكرام

ذو الجلال والإكرام من أسماء الله الحسنى، وهو ذو العظمة والكبرياء والمجد، الذي يُعَظَّمُ ويُبَجَّلُ ويُجَلُّ لأجله، والإكرام الذي هو سعة الفضل والجود، والداعي لأن يُكرِمَ أولياءه وخواص خلقه بأنواع الإكرام، وهو الذي يكرِّمه أولياؤه ويجلُّونه، ويعظمونه ويحبونه، وينيبون إليه

ويعبدون، ولم يرد الاسم بلفظ الجليل ولا بلفظ الكريم وهما من صيغ المبالغة، بل جاءا بصيغة المصدر، فالجلال أصل الجلالة والإكرام أصل الكرم، فصياغة هذا الاسم تدلل على عظمته وكرمه حيث لا تصل إليه أي عظمة أو مكرمة.

ذو الجلال والإكرام "ذو العظمة والكبرياء، وذو الرحمة، والجود، والإحسان العام والخاص. المكرم لأوليائه وأصفيائه، الذين يجلونه، ويعظمونه، ويحبونه"[٦٢٠].

ذو الجلال والإكرام "هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه فالجلال له في ذاته والكرامة فائضة منه على خلقه وفنون إكرامه خلقه لا تكاد تنحصر وتتناهى"[٦٢١]

اللهُ الجَليلُ سبحانه ذو الجَلال والإكرام، وجَلالُ الله عظمتُه ولا يقال الجَلال إلا لله، وهو سبحانه وتعالى الجَلِيلُ الموصوف بنعوت الجَلال والحاوي لها جميعاً هو الجَلِيلُ المُطْلَق وهو راجع إِلى كمال الصفات كما أَن الكبير راجع إِلى كمال الذات والعظيم راجع إِلى كمال الذات والصفات[٦٢٢].

هذا الاسم يكوّن مع مجموعة أسماء أخرى لله تعالى وحدة دلالية واحدة تضم (الجلال والجبروت والكبرياء والعظمة والمجد) قال تعالى: {وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٦٢٣] والكبرياء من لوازم الجلال، لأن من كان ذا جلال أي عظمة لا منتهى لها لابد أن يكون له كبرياء في السماوات والأرض، وهذا نهي عن التكبر في الإسلام لأنها صفة لا تليق إلا بالعلي الكبير ذو الجلال والإكرام، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لَا يَدْخُلُ

---

[٦٢٠] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٨٨.

[٦٢١] المقصد الأسنى ، ج ١، ص ١٤١ .

[٦٢٢] لسان العرب – ج ١١ ، ص ١١٦

[٦٢٣] – الجاثية ٣٧

النَّارَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ وَلَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ أَحَدٌ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرِيَاءَ)[٦٢٤].

ويشترك الجلال في الصفة مع القدسية والسلام والإيمان والهيمنة والعزة والجبروت والتكبر، إذ يقول تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٦٢٥] فالجلالة والجليل عزيز بذاته جبار بقوته متكبر بصفاته، ولهذا يكون جليلا لأن كل ما يتعلق به في منتهى الوصف، قال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعلى الْعَظِيمُ}[٦٢٦] وقوله تعالى:{ فَسَبِّحْ بِاسم رَبِّكَ الْعَظِيمِ}[٦٢٧] وقد ورد في الحديث أن النبي عليه الصلاة والسلام كان إِذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وَقَال: (اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلَامُ وَمِنْكَ السَّلَامُ تَبَارَكْتَ يا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)[٦٢٨] ذلك لأن إتمام الصلاة من أكمل النعم التي يمن الله تعالى بها على عباده، وهي أكثر الفرائض دلالية على العبودية لله تعالى فلا يليق بها إلا منتهى الوصف، وكما ورد في حديث الشفاعة حين يدعو النبي محمد صلى الله عليه وسلم ربه لأمته، فيقول البارئ عز وجل: "وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لَأخرجنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ"[٦٢٩] فالله سبحانه وتعالى يقسم بأعظم صفاته هنا وأسمائه العُلَى على أمر فيه منتهى الرحمة لكل عبد ذكر الله تعالى ولو مرة في حياته.

---

[٦٢٤] – صحيح مسلم ج ٣ ص ٢٥٤
[٦٢٥] – الحشر ٢٣
[٦٢٦] – البقرة ٢٥٥
[٦٢٧] – الواقعة ٧٤
[٦٢٨] – صحيح مسلم ج٣ ص ٢٥٤
[٦٢٩] – صحيح البخاري ج ٢٣ ص ٣٠

وقد ورد أن هذا الاسم، هو اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أجاب، فقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حلقة ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد تشهد ودعا فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى"[٦٣٠]، وفي هذا الأمر أقول أن اسم الله الأعظم هو (الله) الذي دعي بصفته العظيمة (ذو الجلال والإكرام) أي أن الصفة العظيمة هي اسم الله الأعظم جل جلاله، وبالتالي فإن الرجل المؤمن الذي قام للصلاة ودعا ربه (الله) بصفته الحسنى الجامعة للهيبة والمكارم (ذو الجلال والإكرام)، ولأنه دعا ربه (الله) فهو الاسم الأعظم، أي لا وجود لذي الجلال والإكرام بالمطلق إلا الله جل جلاله.

(ذو الجلال والإكرام) تشكل الاسم من صفتين كل واحدة مرتبطة بالأخرى من حيث التشكل السلطوي الذي يُبنى وفق معايير القدرة والقوة والعطاء والكرم، فيرسم بشكل مدرج يعبر من خلاله الارتباط بين هاتين الصفتين، فيكون الجلال في الدرجة الأولى، ثم يتبعه بعد ذلك الإكرام ، هذا الترتيب يستمد منه أن الإكرام لا يأتي ممن لا جلال له، بمعنى أن الإكرام ليس بالأمر الهين، فلابد أن يكون صاحبه ذو سلطان وكبرياء وعظمة وقدرة حتى يتأتى له أن يكون كريما مع من يريد، فلا يكون كريما وهو لا يملك أي من هذه الصفات السابقة.

يتميز هذا الاسم بخاصية الحسنى كما تتميز كل صفة أخرى بخاصيتها الحسنى، وهناك تشابه في الصفات وتداخل دقيق بين كل الصفات إلا أن صفة (ذو الجلال والإكرام) تتشابه مع البعض الآخر من الصفات من حيث التركيب كصفة (مالك الملك)، هذه الخاصية تتمثل في التركيب الثنائي للدلالة الاسمية المتشكلة من كلمتين إحداهما مركبة (ذو الجلال)، والأخرى منفردة (الإكرام)، مع وجود حرف الواو العاطف بين الكلمة الأولى والثانية، وهذه الخاصية

---

[٦٣٠] – الأسماء والصفات ج ١ ص ٢٦٠

اللغوية المتمثلة بالعطف لا تتوفر إلا في هذا الاسم دون بقية أسماء الله الحسنى، هذا التركيب يطرح عدة استنتاجات أولية نستطيع اكتشافها من خلال تفكيك هذا التركيب دلاليا ولغويا، ويمكن وضع هذه الخصائص بالشكل الأتي:

١ . الكلمة الأولى في هذا الاسم صيغة ثنائية متكونة من (ذي) التي هي من الأسماء الستة، وتعني صاحب أي المتعلقة الصفة به، ولفظ (الجلال) لتنتج لنا دلالة تعني (صاحب الجلالة).

٢ . الكلمة الثانية في التركيب الثنائي مفردة (الإكرام)، إن لغة الغياب هنا تقتضي وجود الاسم (ذو) مرة أخرى إلا أن حضوره في الصيغة الأولى أغنى عن حضوره هنا، لأن كتابة الاسم بشكلية (ذي الجلال وذي الإكرام) الافتراضية يجعل النطق بها من الصعوبة بمكان، فضلا عن التكرار الذي لا داعي له هنا، وتتكره لغة العرب إذا لم يكن له سبب مقنع.

٣ . وجود حرف العطف الواو بين الكلمتين يقتضي التغاير، لأن الواو من حروف العطف التي تعطف الشيء على غيره وليس على مثله، مثل قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عليمٌ حَكِيمٌ}[٦٣١] فهذه الآية يستدل بها العلماء على تغاير النبوة عن الرسالة من حيث الخصوص والعموم، فإذا طبقنا هذه القاعدة الدلالية للواو على اسم الله تعالى (ذو الجلال والإكرام)، فإن ذلك يقتضي أن الجلال غير الإكرام على الرغم من اتحادهما بصيغة اسمية واحدة، إلا أن هذا التغاير لا يلغي تماما الوحدة الدلالية الشمولية التي ينبغي أن تتوافر بين عنصري الجلال والإكرام، إذ من غير الممكن أن يكون اسم الله تعالى ذي صورة كتابية موحدة، يتكون من جزأين لا اتصال بينهما البتة، فما هذا التغاير؟ وما هذا الاتصال بين الصيغتين (الجلال والإكرام)؟ أما الاتصال فيتحقق من أن هذا الوصف أي (الجلال والإكرام)

---

[٦٣١] – الحج ٥٢

قد وصف الله تعالى ذاته بها مرتين في سورة واحدة هي (الرحمن)، مرة جاء وصفا لوجه الله تعالى، إذ يقول تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٣٢] ومرة أخرى جاء وصفا لاسم الله تعالى في قوله: {تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٣٣] وهذا يعطينا إشارة أولية أن هذين الوصفين المعطوف احدهما على الآخر يقتضيان فعلا واحدا ونتيجة واحدة، تستنتج من معنى الجلالة والكرم بدمجهما ببعضهما، بمعنى أن الجلال وحده يمكن أن يفترق عن الإكرام وحده، كما سنناقش ذلك في التغاير، إلا أن النظر الكلي للصيغتين معا يُعدّهما اسما واحدا ذا تركيب ثنائي يعطينا دلالة العظمة المنبعثة من كلا الصيغتين، إذ أن الجلالة عظم القدر والتناهي فيه، والإكرام تدل على منتهى الكرم وليس مجرد الكرم، وهذا ينتج لنا أن المراد من الصيغتين هو منتهى الأشياء، بمعنى أن الله تعالى تناهى في العظمة وتناهى في الإكرام.

العظمة التي تدل عليها آلاء خلقه وإبداعه في الكون كله، والإكرام الذي تناهى فيه بما سخر لعباده وأعطاهم من المكرمات التي لا تعد ولا تحصى، يقول تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٦٣٤]، ولهذا لا نستغرب إذا تكرر هذا الاسم في سورة اسمها (الرحمن) وهي صيغة مبالغة من الرحمة، وهي سورة مخصصة لتعداد نعم الله تعالى في الخلق وفي البحر والبر وفي الدنيا والآخرة، وهكذا نفهم لماذا تكرر قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٦٣٥]سبعا وعشرين مرة في هذه السورة القصيرة بعد كل نعمة يذكرها الله تبارك وتعالى، ذلك أن هذه السورة جاءت لوصف التناهي في صفات الله وأسمائه وأفعاله، فلا يدانيه في ذلك أي خلقٍ أو إبداعٍ أو صفات يمكن أن تماثل صنعه وخلقه وصفاته.

---

[٦٣٢] – الرحمن ٢٧

[٦٣٣] – الرحمن ٧٨

[٦٣٤] – النحل ١٨

[٦٣٥] – الرحمن ١٣

٤- التغاير، التغاير في استخدام الصيغة الثنائية (ذي الجلال والإكرام)، فيمكن أن نفترض أن التناهي في القدر والعظمة مقصود به إرهاب الكافرين، بينما الإكرام قد خُصَّ به المؤمنون بالتناهي في إعطائهم من المكرمات التي لا حدود لها في الدنيا والآخرة، وهنا نعود إلى سورة الرحمن لنتأكد من هذه الفرضية، نجد أن الله تعالى قد أخاف الكافرين فيها بصورة متناهية في الإثارة الحركية بقوله: {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُرْسَلُ عليكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَان يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٦٣٦]على حين أن باقي السورة تتحدث عن نعم الله على عباده المؤمنين، من أمور بلغة النهاية في إكرامهم بصورة تدريجية من الكرم إلى الأكرم إلى الإكرام، وهذا نجده في عرض صورتي الجنة في سورة الرحمن، إذ أننا أمام صورتين إحداهما للكرم والثانية للإكرام، إذ يقول تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}[٦٣٧] ثم يبدأ بتعداد صفات هاتين الجنتين التي نستنتج من خلالها أنها لا تبلغ نهاية الكرم من خلال توافر صفات ليست هي مبلغ الكمال في الأشياء، إذ يقول تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٦٣٨] ثم يبتدئ بعدها بوصف صورة

---

[٦٣٦] – الرحمن ٣٤ – ٤٥

[٦٣٧] – الرحمن ٤٦

[٦٣٨] – الرحمن ٤٦ – ٦١

أخرى لجنتين أخريين فيهما من الصفات ما يبلغ فيه الكمال في الأشياء، وبذلك تفترق عن الجنة الأولى بأن هاتين الجنتين فيهما منتهى الإكرام، يقول تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٦٣٩].

ثم يعقب وصف الجنتين بذكر اسم الله (ذي الجلال والإكرام) حين يقول: {تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٤٠] دلالة على أن هذه الجنة قد بلغت من الكمال ما يستحق أن يوصف بها الله تعالى، انه المنتهى في عظمة وجلالة الأكرم.

ومن الصفات السابقة (العظمة)، والتي لها دور كبير في رسم ملامح اسم الله (ذي الجلال والإكرام) من خلال ارتباط هذا الاسم بين الله تبارك وتعالى وخلقه، هذا الارتباط قائم على مبدأ التعظيم بين الطرفين، فالله تبارك وتعالى عظمهم فعظموه، عظمهم بما أغدق عليهم من نعمه ظاهرة وباطنه، فقد ميزهم عن كثير ممن خلق وفضلهم تفضيلا، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدم وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[٦٤١] وتقديم الأمر للملائكة بالسجود لآدم عليه السلام توطئة لهذه الآية أدل دليل على هذا، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[٦٤٢] وتعظيمهم لله تعالى اتباع أوامره واجتناب نواهيه. ومن أوامره إقامة الصلاة، والصلاة من أركان الإسلام التي تكرر ذكرها في القرآن الكريم كثيرا مما يدلل على أهميتها، إذ

---

[٦٣٩] – الرحمن ٦٢ – ٧٧

[٦٤٠] – الرحمن ٧٨

[٦٤١] – الإسراء ٧٠

[٦٤٢] – البقرة ٣٤

يقول تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}[٦٤٣]وقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[٦٤٤] والصلاة تختلف عن باقي العبادات، فهي تتكرر يوميا، وتمثل جانبا كبيرا من جوانب تعظيم الله تبارك وتعالى فإلى جانب النية وصفائها، كذلك الركوع والسجود من الأركان الرئيسية فيها، وهذه الحركات لها أبعاد عظيمة يتجسد فيها تعظيم البارئ عز وجل والخضوع له، فملامسة الجبهة للأرض ترسم ملمحا كبيرا يظهر فيه مدى تعظيم الخليفة للباري تبارك وتعالى. كما أن القراءة أثناء الصلاة ترسم بعدا معرفيا وسيكولوجيا، فمعرفيا تتضح العلاقة بين الخالق والمخلوق من خلال سورة الفاتحة، هذه السورة العظيمة التي أوضحت طبيعة العلاقة بين الله تبارك وتعالى وعباده، فقوله تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[٦٤٥] بمعنى نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، والتقديم هنا من باب التخصيص فهو ابلغ من القول نعبدك ونستعينك، حتى أن الخطاب هنا جاء بطريقة الالتفات لبيان أهمية العبادة والاستعانة فهي من ركائز التوحيد .

أما سيكولوجيا فإن نفس الخليفة تطمئن دائما بذكر الله والركوع والسجود إليه والركون والاعتماد في حياتها على الله تبارك وتعالى، بوصفه المنقذ لها في كل الأزمات والصعاب والمحن، والركون والاعتماد لا يكون إلا على صاحب الجلالة الذي ترتسم جلاليته بالاستجابة من خلال فرج الكرب وكشف المحن، وذلك من خلال كرمه المنبثق من جلاله العظيم.

وذو الجلال والإكرام يرسم لنا صورة معبرة وموحية من خلال اسمه تبارك وتعظم، فالجلال والكمال له وحده، ولا كرامة ولا مَكْرُمَةً إلا وهي صادرة منه، فالجلال له في ذاته والكرامة فائضة منه على خلقه. وفي تقديم لفظ الجلال على لفظ الإكرام، إذ أن الجلال يشير إلى التنزيه أما الإكرام فإضافة فلابد له من مضافين.

---

[٦٤٣] – البقرة ٤٣

[٦٤٤] – البقرة ١١٠

[٦٤٥] – الفاتحة ٥

وفي اللغة "جَلَّ جَلالاً وجَلالَةً: عَظُمَ قَدْرُه فهو جَلِيلٌ قال الراغِبُ: الجَلالَةُ: عِظَمُ القَدْرِ والجَلالُ: التَّناهِي في ذلك وخُصَّ بوَصْفِ اللّهِ تعالى فقِيل: ذو الجَلالِ والإكرام ولم يُستَعْمَل في غيرِه والجَلِيلُ : العَظِيمُ القَدْرِ وليس خاصّاً به ووَصْفُه تعالى بذلِكَ إمّا لخَلْقِه الأَشْياءَ العَظِيمَةَ المُسْتَدَلَّ بها عليه، أو لأنه يَجِلُّ عن الإحاطَةِ به أو لأنه يَجِل أن يُدْرَكَ بالحَواسّ"[٦٤٦]،

ورد هذا الاسم مرتين في القرآن الكريم في سورة الرحمن، يقول تعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٤٧]وقوله تعالى: {تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٤٨]. وسورة الرحمن سورة مكية اشتملت على عرض كرم البارئ عز وجل، فكانت البداية {الرَّحْمَنُ} الدال على سعة رحمته، وعموم إحسانه، وجزيل بره، وواسع فضله. ثم ذكر بعد ذلك أنه (عَلَّمَ القرآن) علم عباده ألفاظه ومعانيه، ويسرها على عباده، وهذه أعظم مِنَّةٍ ورحمة رحم بها عباده، حيث أنزل عليهم قرآنا عربيا بأحسن ألفاظ، وأحسن تفسير، مشتملاً على كل خير، زاجراً عن كل شر. ثم يستمر سياق الآيات بالتتابع مستعرضا نعم الله تبارك وتعالى على عباده، ومن خلال هذا الاستعراض تتردد آية وُسِمَتْ بها سورة الرحمن وهي قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٦٤٩] الدالة على التذكير المستمر بنعم الله الدينية والدنيوية. والسورة الكريمة تستعرض آلاء الله تبارك وتعالى الواضحة أمام الناظر، الشمسَ والقمرَ، والنجمَ والشجرَ، والسماءَ المرفوعة، والأرض وما فيها من فاكهةٍ ونخلٍ وحبٍ وريحانٍ، والجن والإنس، والمشرقين والمغربين. والبحرين بينهما برزخ لا يبغيان، وما يخرج منهما وما يجري فيهما، إذ يقول تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأنامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ خَلَقَ الإنسان مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ

---

[٦٤٦] – تاج العروس ج١ ص ٦٩٣٩

[٦٤٧] – الرحمن ٢٧

[٦٤٨] – الرحمن ٧٨

[٦٤٩] – الرحمن ١٣

مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآَتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٦٥٠] ثم بعد ذلك يعرض يوم القيامة في مشهد يرتسم فيه المجرمون بالعجز والضعف الذي يتقابل مع كمال الله تعالى وسلطانه ونفوذ مشيئته وقدرته، إذ يقول تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإنس إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}[٦٥١] وتنتهي السورة الكريمة بقوله تعالى: {تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [٦٥٢] نجد أن سورة الرحمن تستعرض عملية الخلق من بدايتها إلى نهايتها أي أنها اشتملت على كل العناصر التي تمثل أساس الوجود، وذلك من خلال عرض هذه العناصر ضمن سياق آلاء الله تبارك وتعالى، ثم بعد ذلك يأتي يوم القيامة الذي يشغل حيزا صغيرا من السورة الكريمة، إذ يقول تعالى: {يُرْسَلُ عليكما شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آَنٍ}[٦٥٣] أما الجنة فكان لها الحيز الكبير في هذه السورة الكريمة، إذ يمكن القول أن هذا من باب بيان رحمة الرحمن لعباده، فضلا عن ذلك هو من باب الرغبة الذي يفتحه الله تبارك وتعالى لعبده من أجل النظر إلى رحمته ووعده لعباده بالمكان الذي يستحقونه في حالة الإطاعة، إذ يقول تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ

---

[٦٥٠] – الرحمن ٥ – ٢٥

[٦٥١] – الرحمن ٣٣

[٦٥٢] – الرحمن ٧٨

[٦٥٣] – الرحمن ٣٥ – ٤٤

عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَان فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُدْهَامَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٦٥٤] وتختتم هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: {تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٥٥] وعلى هذا تنقسم السورة على قسمين القسم الأول الذي استعرض تبارك وتعالى به نعم الدنيا الزائلة بقوله: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٥٦] وختم نعم الآخرة بقوله تعالى: {تَبَارَكَ اسم رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٥٧] وعلى هذا فإن سورة الرحمن تمثل الدنيا والآخرة، والدنيا والآخرة تمثلان قدرة وسلطان وعظمة الله تبارك وتعالى، وهي تمثل بمجموعها جلاله العظيم الذي انبثق من عنده إكرامه لخلقه الضعفاء.

أما لفظة البقاء الواردة في قوله تبارك وتعالى: {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}[٦٥٨] فهي مرتبطة بقضية مهمة ترددت في النص القرآني وهي قضية الهلاك، إذ يقول تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٦٥٩] فلا يبقى غير وجه الله تبارك وتعالى، أما ما عداه فهو هالك، والهلاك ارتبط مع الخلق من بداية النشأة

[٦٥٤] – الرحمن ٤٦ – ٧٧

[٦٥٥] – الرحمن ٧٨

[٦٥٦] – الرحمن ٢٧

[٦٥٧] – الرحمن ٧٨

[٦٥٨] – الرحمن ٢٧

[٦٥٩] – القصص ٨٨

إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فحديثنا عن الهلاك والاستطراد فيه يمثل مرتكزا وزيادة في وعينا لرسم صورة البقاء التي أخبر عنها القرآن الكريم، فقد ورد الهلاك في القرآن الكريم ثماني وستين مرة، ومن خلال استقراء السياقات التي ورد فيها الهلاك بكل صيغه يمكن أن نرى الدلالات الآتية:

١ . يأتي الهلاك بمعنى الموت الحقيقي في معظم مواضعه، مع ملاحظة أسلوب الذم والعنف والتعذيب في هذه المواضع ولننظر إلى هذه الآية، إذ يقول تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ}[٦٦٠] والكلام عن قارون المتكبر وإهلاك من هو أقوى منه، وأكثر جندا، فقد تكرر الحديث في القرآن الكريم عن إهلاك الأقوام والقرى الظالمة التي كذبت الرسل وكان عقابهم الهلاك الجماعي، فإهلاك القرى في مثل قوله: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ}[٦٦١] والفرق بين إهلاك الأقوام وإهلاك القرى، أن إهلاك القرى يعني إبادة أهلها وتخريبها، وإهلاك الأقوام يعني إبادتهم هم فقط فإهلاك القرى شامل لإبادة سكانها وعمرانها، فهو أشد نكالا بالظالمين والكافرين، يقول تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عليهمْ آَيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ}[٦٦٢] والمراد بإهلاك القرى إهلاك أهلها. وإنما علق الإهلاك بالقرى للإشارة إلى أن شدة الإهلاك بحيث يأتي على الأمة وأهلها وهو الإهلاك بالحوادث التي لا تستقر معها الديار بخلاف إهلاك الأمة فقد يكون بطاعون ونحوه فلا يترك أثراً في القرى[٦٦٣]. ولعل جرس مفردة الهلاك ذات الأحرف الشديدة التي تقترب أصواتها من التأوهات الخارجة من أعماق الصدر، فالهاء واللام والألف والكاف حروف تصعق السمع حين تجمع فتبدو مفردة

---

[٦٦٠] –القصص ٧٨

[٦٦١] – الأعراف ١٦٤

[٦٦٢] – القصص ٥٩

[٦٦٣] – التحرير والتنوير ج ١٠ ص ٤١٨

الهلاك أشد وأفزع من مفردة الموت، لعل هذا الجرس هو الذي سوغ استعمالها في سياقات العذاب الجماعي بالموت.

ولم يستعمل الخطاب القرآني الهلاك، إذ لم يقصد الذم إلا في موضعين:

الأول: قوله تعالى: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عليمٌ}[٦٦٤] وهذه الآية تسمى آية الكلالة. وتطلق على الميت الذي لم يخلف ولدا ولا والداً.

وفي الثانية: يقول تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}[٦٦٥] فالصورة التي يرسمها القرآن الكريم للقرية بعد إهلاكها، إذ لم يبق فيها أحد من سكانها، تغني عن القول أنهم أهلكوا إبادة وانقرضوا فلم يعد أحد يسكن ديارهم، لقد دمر الله عليهم وخرب ديارهم فتلك مساكنهم خاوية لم تسكن من بعدهم إلا للمارة يوما أو بعضه. وفي موضع آخر رسم القرآن الكريم لنا صورة أشد وقعا وإيحاءا لانقراض الظالمين، فقال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا}[٦٦٦]، النص القرآني هنا رسم لنا صورة معبرة عن مصارع القرون الماضية، فبعد أن كانت الشخوص تدب وتتحرك، والحياة التي كانت تنبض وتمرح، ثم بعد ذلك يأتي الصمت يخيم والموت يجثم، ولم يبق كائن كامل الخلقة إلا عبارة عن أشلاء متناثرة هنا وهناك تفوح منها رائحة الموت، ثم يكون بعد ذلك الصمت الرهيب. وفي الموضعين اللذين استعمل فيهما القرآن الكريم الهلاك بغير الذم، جاء الهلاك دلالة على قطع العقب والذرية، فيوسف عليه الصلاة والسلام لم يكن له ولد، وكذلك صاحب الكلالة .

---

[٦٦٤] – النساء ١٧٦

[٦٦٥] – القصص ٥٨

[٦٦٦] – مريم ٩٨

٢ . جاء الهلاك بدلالته المجازية الدالة على الهلاك المعنوي الدال على سوء الحال والضر الشديد من كفر وشرك وضلال، قال تعالى: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عليمٌ}[٦٦٧] وقال تعالى: {وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ}[٦٦٨] وأصل الهلاك الموت. ويطلق على المضرّة الشديدة لأن الشائع بين الناس أنّ الموت أشدّ الضرّ. فالمراد بالهلاك هنا ما يلقونه في الدنيا من القتل والمذلّة عند نصر الإسلام وفي الآخرة من العذاب[٦٦٩].

ويلاحظ على سياقات الإهلاك أسلوبيا غلبة الصيغ الفعلية الماضية والمضارعة، وهذا ملمح أسلوبي مطابق للواقع، إذ أن الهلاك فعل حدث ويحدث وسيحدث مستقبلا، فطبيعته متحركة لا ساكنة عبرت عنها السياقات التي ورد فيها. إلا أن صيغ اسمية كان لها حضور في مواضع استدعتها سياقاتها، كقوله تعالى: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخر لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٦٧٠] إذ استعمل الأسلوب القرآني اسم الفاعل – هالك – الدال على الثبات والدوام، بمعنى أن كل شيء سيهلك أو هلك حتما ماضيا أو مستقبلا، فالهلاك جزء من كيان كل حي إلا الله الحي الدائم الذي لا يموت. كما جاء اسم الفاعل في موضع آخر للدلالة على حكم عام لا يعدل عنه الله، إذ قال تعالى: {ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ}[٦٧١] فمن سنة الله تعالى في قانون الإهلاك أن الله تبارك وتعالى لا يهلك أحدا بظلمه حتى يبعث إليه رسولا يبشره وينذره حتى لا تكون له على الله حجة، هذا ما أفاده اسم الفاعل – مهلك – في هذه الآية الكريمة. والموضع الآخر قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا

[٦٦٧] – الأنفال ٤٢

[٦٦٨] – الأنعام ٢٦

[٦٦٩] – التحرير والتنوير ج ٤ ص ٣٩٨

[٦٧٠] – القصص ٨٨

[٦٧١] – الأنعام ١٣١

نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا}[٦٧٢] هذا إخبار من الله تبارك وتعالى، انه ما من قرية يتمرد أهلها على نبيهم إلا ويبيدهم ذو الجلال والإكرام جل جلاله، أو ينزل عليهم العذاب الشديد الذي يستحقونه، وهذا الأمر لا يتعلق بزمان أو مكان بل هو يشمل جميع الأزمنة والأمكنة، وفي جميع الأمم الظالمة إنه فعَّال لما يريد وهو على كل شيء قدير.

إن البقاء والهلاك يمثلان وجها من وجوه الوقوف على صورة جلالة الله تعالى. فالهلاك يدل على بقاء الله تبارك وتعالى، فمن خلال التاريخ الطويل للأقوام التي وجدت على الأرض نلتمس بقاء الله جل جلاله، فعند الوقوف على آثار هؤلاء الأقوام نرى صورتهم ولكن من خلال رسم متخيل رسمه لنا القرآن الكريم، فهم لا وجود لهم، أما الله تبارك وتعالى فهو الباقي، إذ نلتمس ذلك من خلال دلائل قدرته وصور عظمته الواضحة أمام من يبصر، فالشمس والقمر والأرض وهذا الكون الفسيح ك ذلك دلائل تشير إلى بقائه، فضلا عن أن الألوهية تنفي الهلاك، إذ لا يصح لله تعالى أن يهلك فلابد له من البقاء وهذا ما لا يترتب على الأصنام وغيرها فهي تنساق ضمن انتفاء الألوهية عنها لأنها تهلك ولا تبقى، إنه الخالق الحق وهي المخلوقة بغير حق، إنها من صنع المشركين الذين حادوا عن الحق بما يفترون. أما صورة البقاء التي رسمها لنا القرآن الكريم في قوله تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[٦٧٣]. هنا النص القرآني يفتح شفرات البقاء من خلال سؤال وجواب، فيرسم صورة البقاء التي تتحقق في يوم القيامة، فبعد النفخ وموت جميع الخلائق يحصل السكون وتخفى الأصوات التي كانت تتكبر وتتعاظم في الدنيا وتدعي البقاء والخلود، فيقول الرب تبارك وتعالى: {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ} فهل هناك من مجيب؟ لا مجيب إلا من عرف الحق بقوله (للَّهِ الواحد الْقَهَّارِ) المنفرد في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا شريك له.

---

[٦٧٢] – الإسراء ٥٨

[٦٧٣] – غافر ١٦

(الْقَهَّارِ) لجميع المخلوقات، الذي دانت له المخلوقات وذلت وخضعت، خصوصًا في ذلك اليوم الذي عنت فيه الوجوه للحي القيوم.

ومن مظاهر جلاله الآتي:

أولا: التوحيد:

وللتوحيد أنواع ثلاثة: وهو توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات.

١- توحيد الربوبية: وهو توحيد الله بأفعاله – سبحانه – مثل الخلق والرزق وتدبير الأمور والإحياء والإماتة ونحو ذلك.

فلا خالق إلا الله، كما قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}[٦٧٤].

ولا رازق إلا الله، كما قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٦٧٥] .

ولا مدبِّر إلا الله، كما قال تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}[٦٧٦]

ولا محيي ولا مميت إلا الله، كما قال تعالى: {هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٦٧٧].

وهذا النوع قد أقر به الكفار على زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يدخلهم في الإسلام، كما قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[٦٧٨].

٢- توحيد الألوهية: وهو توحيد الله بأفعال العباد التي أمرهم بها. فتصرف جميع أنواع العبادة لله وحده لا شريك له، مثل الدعاء والخوف والتوكل والاستعانة والاستعاذة وغير ذلك.

---

[٦٧٤] – الزمر ٦٢

[٦٧٥] – هود ٦

[٦٧٦] – السجدة ٥

[٦٧٧] – يونس ٥٦

[٦٧٨] – لقمان ٢٥

فلا ندعو إلا الله، كما قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخرين}[٦٧٩]. في هذه الآية الكريمة يقين مطلق وهو المستجيب الله ذو الجلال والإكرام، وعلى هذا اليقين يقينان:

أ . يقين قول الله الحق بأنه المتحقق، دون شك بأنه إذا دعي من مؤمن كانت منه الاستجابة، أي كانت الاستجابة من الله لعباده الصالحين.

ب . يقين إيماني بأن المؤمن لا يراوده شك في أن الله مجيب وستكون الإجابة له يقينا، أي ستكون الإجابة آتية إلى المؤمن دون أي شك والحمد لله رب العالمين.

وعليه يزداد الخليفة قوة بمخافته الله في كل قول وفعل وعمل؛ ولهذا فإنه في مخافة الله، كما قال تعالى: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[٦٨٠].

وأيضا الخليفة لا يتوكل إلا على الله، كما قال تعالى: {قَالَ رَجُلان مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عليهمَا ادْخُلُوا عليهمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[٦٨١].

والخليفة لا يستعين إلا بالله، كما قال تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}[٦٨٢] .

وهو كذلك لا يستعيذ إلا بالله، كما قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ من شر ما خلق}[٦٨٣] وقوله تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ملك الناس إله الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس} [٦٨٤].

---

[٦٧٩] – غافر ٦٠

[٦٨٠] – أل عمران ١٧٥

[٦٨١] – المائدة ٢٣

[٦٨٢] – الفاتحة ٥

[٦٨٣] – الفلق ١

[٦٨٤] – الناس ١ ـ ٦.

وهذا النوع من التوحيد هو الذي جاءت به الرسل عليهم الصلاة السلام، حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عليه الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}[٦٨٥].

وهذا النوع من التوحيد هو الذي أنكره الكفار قديما وحديثا، إذ يقول تعالى على لسانهم: {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ }[٦٨٦].

وتوحيد الله تبارك وتعالى هو: الإقرار بأنه ثابت موجود، وإله واحد فرد معبود، ليس كمثله شيء على ما قرر به قوله تعالى: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ}[٦٨٧] وقوله تعالى: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الأنعام أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[٦٨٨].

كل ما تقدم من توحيد البارئ جل جلاله يوحي لنا بالجلال الذي يتسم به تعالى، وجلاله ندركه من خلال ما تقدم فلا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا محي ولا مميت إلا هو، فضلا عن ذلك أن الدعاء لا يكون إلا لله تبارك وتعالى، والخوف لا يكون إلا منه، والتوكل لا يكون إلا عليه، والاستعانة لا تكون إلا به. وهذا كله يرسم مدى جلال الله تبارك وتعالى وعظمته وكبريائه.

ثانيا: حمل الأمانة:

الأمانة أمر مطلق في كل شيء أمر به الله تبارك وتعالى، وهي لم تعرض على الإنسان بداية بل عرضت على السماوات والأرض، إذ يقول تعالى :{إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٦٨٩] فالأمانة أمر عظيم فهي (الخلافة) عرضت على السماوات والأرض فامتنعت عن قبولها، ففي

---

[٦٨٥] – النحل ٣٦

[٦٨٦] – ص ٥

[٦٨٧] – البقرة ١٦٣

[٦٨٨] – الشورى ١١

[٦٨٩] – الأحزاب ٧٢

هذه الآية بيَّن الله تبارك وتعالى عظم شأن التكليف الشرعي وصعوبة أمره، فقد حمل هذه الأمانة الإنسان بإشفاق من البارئ عز وجل، أنه كان ظلوما إذ لم يف بها ولم يراع حقها وجهولا بكنه عاقبتها، فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه على أربعة أقسام:

أ . كافرون: ممتنعون بالكامل وهم يرفضون قبولها.

ب . مشركون: جاءتهم بيِّنة كاملة فتركوها مجزأة.

ج . منافقون: أظهروا أنهم قاموا بها ظاهرًا وهم منكرون باطنا (يقولون ما لا يفعلون).

ج . مؤمنون، قائمون بها ظاهرًا وباطنًا.

فذكر اللّه تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الأربعة، وما لهم من الثواب والعقاب فقال: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} [٦٩٠]، ختم هذه الآية بهذين الاسمين الكريمين {غَفُورًا رَحِيمًا} الدالين على تمام مغفرة اللّه، وسعة رحمته، وعموم جوده، مع أن المحكوم عليهم، كثير منهم، لا يستحق المغفرة والرحمة، لنفاقه وشركه، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخرةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ}[٦٩١].

ومن الأمانة غض البصر، إذ يقول تعالى: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ

---

[٦٩٠] – الأحزاب ٧٣

[٦٩١] آل عمران ٢١، ٢٢.

زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٦٩٢]. ومنه أن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[٦٩٣].

ومن الأمانة أيضا رد الأمانات إلى أصحابها، يقول تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٦٩٤].

وحظ الخليفة من الأمانة كبير جدا وعظيم، فيجب عليه أن يأتمر بما أمره الله تبارك وتعالى وأن يجتنب كل ما نهى عنه تعالى، ويترجم هذه الأوامر والنواهي في حياته إلى واقع وعمل حتى يكون قدوة حسنة في القول والفعل والسلوك، أخلاقه تؤسس على ما يجعله على هيبة واعتبار، إذ يقول تعالى: {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ}[٦٩٥].

من الأمانة اعتماد الأخلاق معاملة مع العباد، لأن أساس الدين ليس فقط العبادات، مثلا أن تسمع المؤذن يؤذن لفرض من الفروض، فتذهب بكل خشوع وتؤدي الصلاة كما أريد لها، والذي يصلي بجانبك له في ذمتك مبلغ من المال، كلما طلبها منك تذرعت بكل الحجج من أجل عدم الدفع وفي إمكانيتك دفع المال له، هل هذا من الأمانة أن لا ترد الدين؟ اندونيسيا بلد مسلم عدد سكانها يزيد عن مائتي مليون مسلم عندما تسألهم كيف وصل لكم الدين الإسلامي؟ هل وصل عن طريق الفتح الإسلامي؟ يقولون لك لا وصل عن طريق التجار المسلمين رأينا

[٦٩٢] النور، ٣٠ – ٣١

[٦٩٣] – الحجرات ١٢

[٦٩٤] –النساء ٥٨

[٦٩٥] – لقمان ١٨ – ١٩

أمانتهم فأسلمنا، هذا الكلام ليس في اندونيسيا فقط بل في كثير من البلدان التي وصل إليها الإسلام على أيدي المستخلفين فيها.

أما الأمانة بمعناها العام الذي تحدثنا عنه من غض البصر وصون اللسان والفرج وغيره، فهي تمثل صورة الدين الإسلامي التي يريدها البارئ عز وجل، لأن كل العبادات والأحكام الشرعية هي صورة للأمانة التي أرادها تعالى.

ثالثا: أجلهم بالعقل:

من نعم الله تبارك وتعالى على بني آدم العقل، فهو الذي به يميز بين الخير والشر، والحق الباطل، والإقدام على ما يجب والابتعاد عما لا يجب، ولأهمية العقل فقد كان محور الخطاب القرآني يدور حوله بوصفه الأداة المهمة الموجودة عند المشركين والعاصين، إذ يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٦٩٦] الآية الكريمة تتحدث عن أمور عظيمة تدلل على عظمة البارئ عز وجل، والاستدلال على العظمة يأتي من خلال العقل الذي وهبه سبحانه، فعلى الناظرين أن ينظروا بعيون عقولهم ويعتبروا، لأنها دلائل على عظيم القدرة وباهر الحكمة. ومن ذلك أيضا قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[٦٩٧] .

والخطاب القرآني لم يقصر العقل على المشرك أو العاصي بل أشار به إلى عباد الله المطيعين المتفكرين، إذ يقول تعالى:{إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ

---

[٦٩٦] – البقرة ١٦٤

[٦٩٧] – المؤمنون ٨٠

رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[٦٩٨] خص الله بالآيات أولي الألباب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم، ثم وصف أولي الألباب بأنهم (يذكرون الله) في جميع أحوالهم: (قياما وقعودا وعلى جنوبهم) وهذا يشمل جميع أنواع الذكر بالقول والقلب، ويدخل في ذلك الصلاة قائما، فإن لم يستطع فقاعدا، فإن لم يستطع فعلى جنب، وأنهم (يتفكرون في خلق السماوات والأرض) ليستدلوا بها على المقصود منها، ودل هذا على أن التفكر عبادة من صفات أولياء الله العارفين، فإذا تفكروا بها، عرفوا أن الله لم يخلقها عبثا، فيقولون: (ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) عن كل ما لا يليق بجلالك، بل خلقتها بالحق وللحق، مشتملة على الحق والعقل نعمة من نعم الله تبارك وتعالى التي لا تعد، إذ يقول تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسان لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[٦٩٩]، وقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٠٠]، ونعمة العقل تتجلى عند الخليفة من خلال حواره ومخاطبته مع الآخرين في سبيل الدعوة الإسلامية، إذ يقول تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٧٠١] والمراد من الحكمة هنا هي الدعوة بالعلم والبداية تكون بالأهم فالأهم، فضلا عن ذلك من وسائل الترغيب والترهيب، وهذا الأمر كله لا يقوم به إلا عاقل، النعمة التي وهبها الله تعالى له بالعقل فبها يهتدي وبها يدعو ويحمل الأمانة دون مخافة.

رابعا: أجلهم بالرأفة فيما بينهم:

الرأفة باب كبير من أبواب الله تبارك وتعالى خص بها عباده المستخلفين، وتتجلى صورتها منذ بداية الخليقة من خلال تنظيم البشر وفق نظام يتسم بالدقة والترتيب، إذ يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا

---

[٦٩٨] – أل عمران ١٩٠ – ١٩١

[٦٩٩] – إبراهيم ٣٤

[٧٠٠] – النحل ١٨

[٧٠١] – النحل ١٢٥

النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عليم خَبِيرٌ}[٧٠٢] هذا التقسيم يتيح لجميع الخلق المواصلة والتعرف ويقرب المسافات بينهم، ومن الشعوب والقبائل إلى نظام الأسرة الصغيرة، يقول تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٧٠٣]، فالزواج أحد محاور الدين الإسلامي بما يشتمل عليه من نظام الأبوة والأمومة التي تتمثل فيها الرأفة بأبهى صورها رعاية وعناية ورحمة، إذ يقول تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}[٧٠٤] وقوله تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ على وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}[٧٠٥] والأبوة والأمومة تبدأ من تلقيح البويضة مرورا بالمراحل التي يمر بها الجنين داخل بطن أمه ثم بعد ذلك يخرج إلى الدنيا فتبدأ مرحلة جديدة من مراحل الأبوة والأمومة وهي الرضاعة والعناية، ثم بعد ذلك يصبح ذكرا كان أو أنثى فاعلا في أسرته وبني قومه وجنسه والمستخلفين معه رحمة في الأرض يصلح ولا يفسد فيها ولا يسفك دما بغير حق، إن تصوير هذا الأمر ليس بهذه السهولة، فالرأفة التي أسكنها الله تبارك وتعالى في عاطفة الأبوة والأمومة لها الفضل الكبير في استمرار البشرية والتكاثر بهذه الطريقة الصعبة والمعقدة، فلو كانت الأسرة من تخصصها أنها تربي أي طفل لما كانت هناك أي مشكلة في تربية الأطفال، فيصبح الأمر كأي وظيفة من الوظائف، وبهذا تكون الأبوة والأمومة فاقدة للرأفة التي تتحقق فيها، فقد قص علينا القرآن الكريم قصة موسى عليه الصلاة والسلام المتضمنة تأصيل الأمومة، إذ يقول

---

[٧٠٢] – الحجرات ١٣

[٧٠٣] – الروم ٢١

[٧٠٤] – لقمان ١٤

[٧٠٥] – الأحقاف ١٥

تعالى: {وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ وَحَرَّمْنَا عليه الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[٧٠٦] هنا تتمثل لنا صورة من صور الأمومة التي أراد الله تبارك وتعالى بيانها للخلق كافة، فعلاقة موسى مع أمه تبين صورة الرأفة التي منحها تعالى للأم، فهذا التعلق الغريب بين الطرفين يؤكد أن العلاقة بينهم ليست عادية وغير ممكن أن تقام بين طرفين مجهولين دون وجود رابطة الأمومة الحقيقية بينهم، وهذا هو سر استمرار الوجود إلى هذه الساعة .

ومن رأفته أنه سهل أمور دينه لعباده من ذلك الإفطار أثناء السفر، تيسيرا لا تعسيرا، إذ يقول تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ آخر يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٧٠٧]، وهذه الرخصة من رأفته تعالى لعباده في سبيل تسهيل أمورهم التعبدية.

ومن رأفته خلق الأنعام ففيها منافع كثيرة، يقول تعالى: {وَالأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ}[٧٠٨]، وهذه المنافع مختلفة تتجلى كلها في خدمة المستخلفين، وهي باب من أبواب الرأفة التي فتحها الله تبارك وتعالى لهم، وتشتمل الرأفة كل ما سخره الله تبارك وتعالى في هذا الكون من أجل الخليفة، إذ يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ

---

[٧٠٦] – القصص ١٠ – ١٣

[٧٠٧] – البقرة ١٨٥

[٧٠٨] – النحل ٥ – ٦

وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٧٠٩]. هذه الآية الكريمة تعرض المخلوقات العظيمة الدالة على وحدانية الله تبارك وتعالى وعظيم سلطانه ورحمته، لكنها لمن، إنها (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) فالسماوات والأرض في ارتفاعهما واتساعهما، وإحكامهما، وإتقانهما، وما جعل الله فيها من الشمس والقمر، والنجوم، وتنظيمها لمصالح العباد، وفي الأرض مهاد للخلق، يمكنهم القرار عليها والانتفاع بما عليها، أما الليل والنهار، فإنهما يتعاقبان على الدوام إذا ذهب أحدهما، خلفه الآخر، وفي اختلافهما في الحر، والبرد، والتوسط، وفي الطول، والقصر، وما ينشأ عن ذلك من الفصول، التي بها انتظام مصالح بني آدم وحيواناتهم، وجميع ما على وجه الأرض، وكل ذلك يسير وفق نظام عجيب لا يتقدم فيه شيء ولا يتأخر، مما يدل على تدبير الله تعالى وعظمته، وعظمة ملكه وسلطانه. أما السفن والمراكب فهي مما ألهم الله تعالى عباده صنعتها، ثم سخر لها البحر والرياح لتحركها وفق ما يريد العبد أن يستفيد من نقل البضائع والركاب بما يخدم العباد عامة.

أما المطر النازل من السحاب فهو سر من أسرار الله تعالى يكمن وراء الحياة الموجودة على الأرض، إذ يقول تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[٧١٠] فنزول المطر يحي الأرض بعد موتها، فيخرج منها ما يكون أقواتا للخلائق جميعا، وهذا دليل من دلائل رأفة الله تعالى بعباده أن هيأ لهم رزقهم الذي يعينهم على الحياة التي يعيشون فيها.

أما الدواب فهي نعمة جليلة من نعم الله على عباده، فالانتفاع فيها يكون بوجوه متعددة، فلحمها يؤكل، وحليبها يشرب، وصوفها يتدفأ به، فضلا عن ذلك أنها واسطة نقل تنقلهم إلى أي مكان يريدونه. أما الرياح فهي تمثل إحدى دلائل قدرة الله تبارك وتعالى، فهي تثير السحاب وتنقله،

---

[٧٠٩] – البقرة ١٦٤

[٧١٠] – الأنبياء ٣٠

وتقوم بالتلقيح، تارة تكون حارة وتارة تكون باردة، متعددة الوظائف تمثل محورا مهما من محاور سلطان الله تعالى وعظمته إنه ذو الجلال والإكرام.

خامسا: لا يرث المسلم إلا المسلم:

الإيراث: الإبقاءُ للشّيء. يُورِثُ، أي: يُبقي ميراثاً[٧١١]. والميراث حق، واجب التقيد به، لا يوزع إلا في وجوهه، وورد في القرآن الكريم بقوله تعالى: {وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا}[٧١٢] (وَتَأْكُلُونَ التراث) الميراث وأصله وراث. (أَكْلاً لَّمّاً) أكلا شديدا لا تبقون منه شيئا فقد جمع بين الحلال والحرام فإنهم كانوا لا يورثون النساء والصبيان ويأكلون نصيبهم، أو يأكلون ما جمعه المورث من حلال وحرام عالمين بذلك[٧١٣] فالميراث من التشريعات التي جاء بها الدين الإسلامي الحنيف من أجل حفظ الحقوق المادية للورثة، وتوزيعها عليهم بما أمر به الله تعالى في كتابه العزيز، إذ يقول تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عليهمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا}[٧١٤]، وهذا التوزيع يختص بالمسلم فلا يكون لغير المسلم فيه نصيب لقوله عليه الصلاة والسلام (لَا يَرِثُ الْمُؤْمِنُ الْكَافِرَ وَلَا يَرِثُ الْكَافِرُ الْمُؤْمِنَ)[٧١٥] وقال تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ}[٧١٦] يتبين هنا قيمة المؤمن عند الله تبارك وتعالى وعلو منزلته التي أرادها له. إذ يتشكل ذلك من خلال بيان مكانة المسلم إلى باقي الأديان أو المعتقدات الأخرى، فمنزلة المسلم تتسم بالعلو والرفعة والتقديس،

[٧١١] – العين ج٢ ص ١٦٤

[٧١٢] – الفجر ١٩

[٧١٣] – تفسير البيضاوي ج ٥ ص ٣٩٧

[٧١٤] – النساء ٧ – ٩

[٧١٥] – صحيح البخاري ج ١٣ ص ١٧٨

[٧١٦] النساء ١١.

فضلا عن ذلك أن الميراث لا يمثله الجانب المادي فقط بل يمثله الجانب المعنوي أيضا، فإن سمح للكافر أن يرث المسلم على سبيل المثال تصبح الأمور فوضى وتختلط وتهدر حقوق وتضيع قيمة المسلم ويصبح بلا شأن ودون أي مزية، وهذا أمر يرفضه الشرع تماما.

سادسا: خلق عباده في أحسن تقويم:

خلق الله تبارك وتعالى الكون وما فيه ضمن إبداع أراده سبحانه، ومن بين ما خلق جل وعلا ذو الجلال والإكرام خلق الإنسان، هذا الكائن الذي قال عنه الله تبارك وتعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٧١٧]، وأحسن تقويم يعود إلى أمرين:

الأمر الأول: ظاهر وهو أن الله تعالى خلق الإنسان سوي القامة، وغيره مكب على وجهه، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ}[٧١٨]. وعليه فالظاهر هو المشاهد، إنه الصورة التي خُلق الإنسان عليها في أحسن تقويم، قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[٧١٩]، ولأن المشاهد ظاهر، فالظاهر هو: ما ليس بكامنٍ ما يجعله خاضعا للملاحظة والمشاهدة والتعرف عليه بشكل مباشر أو غير مباشر. ولذا فالمعلومة الظاهرة تُسهم في تحليل ظواهر من بعدها، وهكذا تُحلل المعلومات وفق البيانات المشاهدة، والملاحظة والمحسوسة، سواء كانت سلوكا، أو شكلا، أو كما، أو فعلا؛ والظاهر هو الذي يتم التوقف عنده من أجل التعرف عليه، ومع ذلك ليس كل ظاهر واضح، بل معظم الظواهر تحتاج إلى توضيح، سواء كانت ظواهر طبيعية أو اجتماعية. والتوضيح هو تبيان ذلك الظاهر بما ظهر به عن الكامن، وبما ظهر عنه من أفعال، أو أقوال، أو إنتاج، فالإنسان قيمة كامنة في الإنسان الشكل، وهكذا السلوك تصرف ظاهر من الشكل الذي له كامن.

---

[٧١٧] – التين ٤

[٧١٨] – الأنعام ٣٨

[٧١٩] التين ٤.

الظاهر هو الذي لم يعد مخفيا عن المشاهدة والملاحظة ما يجعله بيّن للمعاملة والتعامل الموضوعي، وهو الذي من وراء ظهوره غاية، ما يجعله قابلاً للامتداد والحركة ويتجسّد في السلوك والفعل بالنسبة لِما يتعلق بالحياة البشرية.

الظاهر ما ليس بكامن، فالعلاقة بينهما كالعلاقة بين النية والفعل، فالنية ساكنة كامنة إلى حين تتوفر معطياتها فتمتد من حيز سكونها إلى الظهور في الفعل والسلوك. ومثل النواة التي فيها تكمن النخلة وعندما تغرس النواة في التربة المناسبة لنموها تظهر النخلة منها للمشاهدة والملاحظة وتنتهي النواة وتصبح هي الأخرى محمولة (كامنة) في النخلة عندما تثمر.

وعليه، فالإنسان كشكل ظاهر يصعب الحكم عليه بأنه خير أو شرير إلا بعد التعرف عليه عن قرب بالمشاهدة والملاحظة والمشاركة.

وكثيرا ما يكون الظاهر نتيجة للكامن، ووسيلة للتعرف عليه. ففي التحليل النفسي يكون الظاهر وسيلة للتعرف على الكامن، ويكون الكامن غاية لإصلاح الظاهر. ولهذا يتم التعرف على الكامن بالظاهر ويتم إصلاح الظاهر بإصلاح الكامن. فالسلوك كظاهر، قد يكون أمام المشاهد سويا، أو مثالا أو فيه القدوة، ولكنه في الواقع، قد يكون غير ذلك، فالابن، أو الابنة كثيرا ما يكونا أمام أسرتهما، وخاصة الوالدين، على خلق والتزام وأدب، ولكنهما في حقيقة الأمر يكونا غير ذلك من ورائهما، فمن خلفهما قد يقومان بأكبر الانحرافات السلوكية، وعندما يتم إبلاغهما (إبلاغ الأبوين) بأن أحد أبنائهما منحرف مع الاتجاهات السلبية، فإنهما قد يفوران رافضين وبغضب هذا الادعاء، مع أنه الحقيقة، ولذلك الحكم بالظاهر على الظاهر قد لا يؤدي إلى الصواب، والظاهر قد يكون شكلاً وصورةً، وقد يكون قولا أو سلوكا، ولكل منها خطوات ينبغي أن تراعى في تقصي الحقائق. في العلوم الطبية، والتحليل النفسي، لا يتوقف الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي عند المشاهد والظاهر، إلا باعتباره نقطة الانطلاق لبداية الدراسة، أو التشخيص، أو العلاج، لأن الحكم على الظاهر بمشاهدته ووصفه، أو تحليله وكأنه غاية في حد ذاته، وقد لا يؤدي إلى نتائج علمية، يمكن اعتبارها والاعتماد

عليها، والظاهر قد يكون مشاهدا، وقد يكون محسوسا (ملموسا ومدركا) مثل ارتفاع حرارة المريض، التي بالمس يتم التعرف عليها، وعند قياسها يمكن تحديدها بدقة، ولكن الذي يود أن يعرفه الطبيب، أو الأخصائي النفسي والاجتماعي هو معرفة الأسباب التي تكمن وراءها، وعند مشاهدة الطبيب أو الأخصائي النفسي والاجتماعي إلى مريض مصفر الوجه، هل يتوجه هؤلاء الأخصائيون إلى معالجة الاصفرار الظاهر؟ أم إلى البحث عما يكمن وراءه من علل، وأسباب؟ لذلك يكون الاصفرار كظاهر مؤشر إلى البحث عن كامن، لأن الاصفرار مسبب، وبما أنه مسبب، إذن لابد وأن تكون له أسباب، ومسببين له، ولذلك قد تكون الأسباب هي الأخرى ظاهرة بعد التعرف عليها، كأن يكون سبب الاصفرار هو مرض عضوي لا قدر الله في الكبد، أو المرارة وغيرها من المسببات الظاهرة، وقد يكون السبب غير ظاهر، كأن يكون سبب اصفرار الوجه هو الخوف من الامتحان، أو من نتائج مترتبة على ارتكاب فعل يعاقب عليه الوالدين والقانون أو المجتمع أو نتيجة مواقف قد تعرضه إلى الهلاك، وهو لم يستطع اتخاذ قراره بحرية حيالها، مثل الجندي في جبهة القتال، الذي تصدر له أوامر دخول المعارك، دون أن يكون له رأي، أو حتى وجهة نظر في ذلك.

أما الأمر الثاني: فهو باطن الإنسان وما يمتاز به من عقل وفهم وأدب وعلم وبيان وإيمان وهذه كلها أصول اتسم بها الإنسان عن باقي المخلوقات، فمنذ بداية خلقه كان الاعتناء الرباني واضحا في خلقه في أحسن تقويم من خلال المراحل التي مر بها خلق الإنسان، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخر فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[٧٢٠] وخلق الإنسان في أحسن تقويم ارتبط ببقية ما خلق الله تبارك وتعالى، والتي تؤلف الكون بأجمعه، يقول تعالى: {اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ هُوَ

[٧٢٠] – المؤمنون ١٢ – ١٤

الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}[٧٢١] وقوله تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[٧٢٢] وصورة الإنسان مستوفية الحسن ليس فيها فظاعة أو نقصان، فكل أجزائه متناسقة تنم عن الحسن الذي أراده الله تبارك وتعالى للإنسان.

وعليه فالباطن هو الكامن الذي لم يكن قابلا للمشاهدة وهو الأصل في إظهار الحق وتعيين الحقيقة، فالباطن هو: الذي لم يبح به بعد برغم وجوده شاغلاً لحيز، وهو المضمون الذي عليه الظاهر، ولهذا المعرفة العلمية والمنهج الفلسفي بصفة خاصة يهتم بالظاهر والكامن في التعرف على الأشياء أو المواقف والظواهر والحالات الفردية والجماعية والمجتمعية.

الكامن ما ليس بظاهر، وفي ذلك يقول الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم) الكمون هو استتار الشيء عن الحس. ويقول إبراهيم بن سيار النظام المتكلم المعتزلي: الكمون هو أن تكمن بعض الأشياء في بعض. وفي نظرية التعلم هو مقياس للفترة ما بين ظهور الدافع وحدوث الاستجابة.

ولذا فإن الكمون هو مكمن كل حقيقة، وعلاقته بالظاهر كعلاقة السكون بالحركة، فهو الموجود في الذهن أو العقل ويشغل حيزا لا تراه العينان ولكن يدركه كل عقل ناضج سليم. وهكذا تكمن الأسرار في الصدور حتى يباح بها فتنتشر في ميادين المعرفة.

وعليه فخلق الإنسان في أحسن تقويم يحتوي على شيئين: (الظاهر والباطن) الظاهر سويا، والباطن عاقلا ومتحملا لعبء الأمانة، وهذه مسؤولية الخليفة المؤمن بالحق حقا. ولذا فالباطن في حاجة للاستثارة أو الاستفزاز وقد يظهر للعيان بما يُبذل من جُهدٍ، وقد يظهر شيء منه في فلتات اللسان، ولهذا لا ينبغي أن يغفل الخليفة عمّا يرد عن فلتات اللسان، إلى جانب ما

---

[٧٢١] – غافر ٦٤ ٦٥

[٧٢٢] – التغابن ٣

يتمكن من معرفته بالأساليب الإسقاطية أو عن طريق استخدام التصانيف القيمية، وأساليب التحليل العلمي مع الملاحظة والمشاهدة الواعية.

معرفة الظاهر لا تتحقق إلا بالتعرف على جوهره، على أسراره وخفاياه، فالإنسان يكمن في جوهره كما يكمن في بصماته، وعليه إن دراسة الظاهر قد لا تكون غاية في ذاتها، بل الغاية فيما ورائها. قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عليهمْ بِمُسَيْطِرٍ}[٧٢٣].

الخليفة يستوقفه المشاهد حتى يرى جمال الخالق في خلقه، ثم ينتقل إلى الملاحظ حتى يرى إعجاز ربه في خلقه، ولذلك أسرار وعلل الظاهر هي في الباطن، ولهذا فالباطن مكمن الحقيقة التي يبحث الإنسان عنها، والتي إذا ما بلغها آمن بالإعجاز الذي يكمن ورائها حتى يدركه واحد أحد ذو الجلال والإكرام.

وفي هذا الأمر المثال الذي سبق البحث فيه سابقا وهو: تحليل البصمات الذي لم يكن الغاية منه التعرف على البصمة، بل الغاية معرفة صاحبها أولاً، ثم معرفة علاقته بالفعل المرتكب أو السلوك ثانيا، وثالثا معرفة العلل والأسباب التي دفعت الإنسان إلى ارتكابه، وهنا تكمن الحقيقة موضوع البحث. وعندما يختفي الشيء عن الحس ولم يتم التعرف عليه بالمشاهد والملاحظ، يكون كامنا في الشيء ذاته. وليس معنى ذلك أن الكامن هو الذي لا يشاهد، فكثير من الأشياء الكامنة يمكن مشاهدتها، ولا يمكن التعرف عليها إلا بعد معرفة مكمنها، فالسارق قد يقوم بفعل السرقة، ولم يتم القبض عليه، وقد يكون بيننا عند بحثنا عن السارق وآثاره لكي يبعد عنه الجريمة أو التهمة، وكأنه لم يكن سارقا، وبعد إجراء عملية المقارنة البصمتية، يتم القبض عليه فكان هو السارق.

---

[٧٢٣] الغاشية ١٧ ـ ٢٢.

إذن الإنسان كظاهر يكمن في بصماته، كما تكمن المطر في السُحب، وكما يكمن الزيت في حبة الزيتون، وهكذا يكمن الكائن في النطفة وتكمن السنبلة في البذرة.

وبناء على ذلك قد يكون الكامن مشاهدا، وقد لا يكون كذلك. وقد يتوحَّد الكامن في الظاهر كما تتوحد الأسرة في أفرادها، والمجتمع في حشوده. ولذا فإن الزواج والطلاق والأسرة والمجتمع، لا يمكن أن تشاهد، ولكنها تُلحظ، وإلا هل هناك من يستطيع أن (يشاهد) الزواج؟. لا يمكن أن يخضع الزواج للمشاهدة، بل الذي يخضع لذلك هو التقاء الزوجين (فردين) على موضوع متفق عليه بعقد شرعي ويعلن عنه ويُدعى الناس إليه. إذن الذي تتم مشاهدته، هو الزوجان الذكر والأنثى، والعقد المكتوب بينهما على ورق، والناس الذين حضروا لأجل ذلك، وهذا كله لم يكن الزواج، بل هذه مراسم الزواج. الزواج توادد، وتقارب وجداني يسمو بالزوجين إلى التباس بعضهما، حبا واشتياقا وفق اتفاق على مستقبل مشترك، يجعل الآخرين شاهدين على ذلك بأنه الحق، ومحرضين عليه. إذن الزواج كموضوع يكمن في العلاقة بين أسرة وأسرة، وذكر وأنثى، وهذه تُلحظ، ولا تشاهد بالعينين. والطلاق كموضوع هو الآخر يُلحظ، ولا يشاهد، وهكذا تكمن الأسرة والمجتمع في عناصرهما المكونة لكل منهما، ولا يخضعان للمشاهدة، لأن الذي يشاهد هم الأفراد، كباراً وصغاراً، ذكوراً وإناثاً، وحشوداً من البشر، وهؤلاء لم يكونوا هم الأسرة، ولا المجتمع، مع أنهم عناصر تكوينهما، فبدون علاقات مشتركة ذات معنى لا يمكن للعناصر المشاهدة أن تعطي معنى للأسرة، أو المجتمع، ولهذا تتكون معارفنا من ظاهر وكامن وتوحُّد بينهما. فنحن نعرف الأبوة، والأمومة، والأخوة، ونعرف الخال والجد، ونعرف أيضا أن هذه المفاهيم جميعها لا تشاهد، لأنها كامنة ومترتبة على علاقات يمكن ملاحظتها.

وعليه ليس كل ما يشاهد يعد معرفة كافية، بل قد يكون الكامن هو المعرفة الوافية. ولكن من أجل المعرفة العلمية ولكي تكون متكاملة ينبغي أثناء تحليل البيانات والمعلومات، أن لا يغفل الخليفة عن أهمية ربط المشاهد والملاحظ بالكامن حتى لا تكون المعرفة قاصرة.

وللمزيد من التوضيح هل العبادات كدلائل كامنة هي، العبادات كسلوك مشاهد؟ فالحج على سبيل المثال، هل هو ما نشاهده من سلوك، أم أنه أكثر من ذلك؟.

إن المشاهد أثناء أداء فريضة الحج هو حشود من البشر، ترتدي زيا موحدا (الإحرام) وتقوم بحركات واحدة في مواقيت معينة، ويلحظ عليها التعاون، والانضباط، والمساواة في أداء الفرائض، وأنه لا رئيس لهذه الحشود من البشر (الحجيج) ولا فوارق بينهم. فهل هذا السلوك المشاهد، والملاحظ هو الحج؟. في اعتقادنا السلوك الظاهر، هو السلوك العملي لأداء فريضة الحج، ولم يكن الحج في ذاته. فالحج عقيدة وإيمان بوحدانية الله، واعتراف بقدسية ذلك المكان، الذي تهدمت فيه الأصنام والأوثان، ويقين بأن ما قام به محمد صلى الله عليه وسلم من فرائض وسنة، هو الحق الذي يستوجب الاتباع. ولهذا لو لم يكن هناك مدلولا كامنا لفريضة الحج، ما كان هناك ظاهر سلوكيا له.

ذكر الله تبارك وتعالى خلق الإنسان مع بقية ما خلق وهي بمجموعها تمثل الخالق العظيم الذي أبدع وصور، يقول تعالى: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ }[٧٢٤]. فما كان من صنع غير الله تبارك وتعالى لا يكون متقنا ويكون واهيا.

إن خلق الله تبارك وتعالى لعباده في أحسن تقويم يتشكل ضمن عملية الخلق العامة التي شملت كل ما هو موجود، فكل شيء خلقه تعالى من أجل غاية يريدها جل شأنه، فطبيعة خلقه تتفق فيما أناط تعالى بها من تكليف، ولهذا تميز العباد بالخلق في أحسن صورة يريدها تعالى من أجل غاية يريدها الله جل جلاله، إذ يقول تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}[٧٢٥] هنا تتضح الغاية التي من أجلها خلق الله تعالى الجن والإنس، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، فالغاية

---

[٧٢٤] – النمل ٨٨

[٧٢٥] – الذاريات ٥٦ – ٥٨

تتناسب مع الخلق الذين خلقهم الله تبارك وتعالى، فالإنس بالصورة التي خلقهم الله تعالى عليها قال عنها (في أحسن تقويم) تتناسب مع الأمر المطلوب منهم، فالعقل هو الركيزة الأساسية التي تستند إليها الدعوة الإسلامية، فهو الذي يميز ويقبل ويرفض، لذلك نجد أن النص القرآني يردد دائما الصيغ التي تتعلق بالعقل، إذ يقول تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[٧٢٦] وقوله تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٧٢٧]، وقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[٧٢٨]وقوله تعالى: {كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى}[٧٢٩].

هذه الآيات وغيرها تظهر مدى التركيز على أهم خصلة في الإنسان وهي العقل، فهي الأداة العظيمة التي من خلالها يكون التدبر والتفكر، إذ يقول تعالى: {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[٧٣٠]، وقوله تعالى: {إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ والأنعام حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عليها أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٧٣١].

---

[٧٢٦] – البقرة ٤٤

[٧٢٧] – البقرة ١٦٤

[٧٢٨] – البقرة ١٦٩

[٧٢٩] – طه ٥٤

[٧٣٠] – النساء ٨٢

[٧٣١] – يونس ٢٤

وحظ الخليفة من العقل أن يكون أداته التي ينشر بها دين الله من خلال إيصال دعوة الله تبارك وتعالى إلى أبعد نقطة في هذا العالم الذي نعيش فيه، فتكون معاملة كل قوم بما يتفق وعقليتهم والطريقة المثلى التي يجدها تتلاءم معهم.

سابعا: المستحق للأمر والنهي:

الأمر والنهي من المفردات التي صاحبت الخليقة، فكانت فاتحة الخطاب بين الله تبارك وتعالى والملائكة، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ}[٧٣٢] في هاتين الآيتين ورد الأمر والنهي، والأمر والنهي يمثل البداية التي عرف من خلالها الخلق جلال الله تبارك وتعالى، ونقصد بالمعرفة هنا أن استدراكات العقل الباطن للإنسان تحيل النصوص التي يسمعها إلى رؤى ثم بعد ذلك يقوم بتحليل هذه الرؤى وربطها بالنص الأول، فالمغزى من كلامنا هذا أن الأمر والنهي يحيل على صورة أخرى يرسمها العقل، وهذه الصورة تتكون من الأبعاد الآتية:

البعد الأول: يتمثل به الأمر والنهي.

أما البعد الثاني: فيكون المالك وهو الله تبارك وتعالى.

ثم البعد الثالث: وهو الجلال.

هذه الأبعاد الثلاثة تكون متوالية كل واحدة تأتي بعد الأخرى وتفضي إليها من خلال ربطها بدلالات نصية، فيكون الشكل كالآتي، جلال الله تبارك وتعالى ثم المالك وهو الله تبارك وتعالى ثم بعد ذلك الأمر والنهي، ولبيان ذلك أن هذا التدرج يمكن أن يقرأ بوجهين:

الوجه الأول: أن الله تعالى صاحب الجلال الذي لا يصل إليه جلال ولا يقارن به جلال بيده كل شيء ومالك كل شيء، ومن بيده كل شيء يأمر وينهي كما يشاء لأن كل شيء له فلا يحق لأحد من خلقه أن يفعل أو يأخذ شيئاً لا يملكه، لأن كل شيء ملكه لله تعالى.

---

[٧٣٢] – البقرة ٣٤ – ٣٥

أما الوجه الثاني: فهو أن الأمر والنهي يمثل وجها من وجوه السلطة في فرض ما يريد ومادام هو يريد ولا يريد كما يشاء فهو مالك للأمر والنهي، والمالك يتسم بالجلال لعلو شأنه وقدرته وملكه للأمر والنهي، وبهذا نجد النص القرآني يبلور فكرة المالك، إذ يقول تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٧٣٣].

من جلاله أنه المستحق للأمر والنهي، الاستحقاق هنا يتبلور من خلال ما يأمر وما ينهي، وهذا يبدو واضحا من خلال الأحكام والتشريعات التي بينها الله تبارك وتعالى، وترتبط هذه الأحكام والتشريعات بالخليفة وفق معيار واحد وهو الطاعة لا غير، مما يستبعد فكر الخليفة رفضها أو تجاوزها أو تأويلها ضمن سياق المراوغة الذي تريده نفسه .

من الأمور التي أمر بها الله تبارك وتعالى عباده الزكاة، وهي أحد أركان الإسلام التي ورد ذكرها في القرآن الكريم كثيرا، إذ يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عليهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[٧٣٤] وقوله تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأنفسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[٧٣٥].

أما أصل الزكاة النمو الخاص، ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية يقال زكا الزرع يزكو إذا حصل منها نمو وبركة وقوله: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا}[٧٣٦] ومن الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة أو تزكية

[٧٣٣] – أل عمران ٢٦ – ٢٧

[٧٣٤] – البقرة ٢٧٧

[٧٣٥] – البقرة ١١٠

[٧٣٦] – الكهف ١٩

النفس أي لتنميتها بالخيرات والبركات أولهما جميعا فإن الخيرين موجودان فيها وقرن الله تعالى الزكاة بالصلاة في القرآن بقوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ}[٧٣٧] وبزكاة النفس وطهارتها يصير الإنسان بحيث يستحق في الدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الفوز بالجنة، فالزكاة هي الزيادة المباركة.

والبحث في الزكاة يتصل بأمر مهم وهو الرزق وهو من تقدير الله تعالى للخلق والتقدير ليس متساويا بحيث يصبح الخلق وفق نسق واحد من التوزيع، ولهذا نجد أن النص القرآني استعمل صيغة تعبر عن عدم التساوي في توزيع الرزق إنما يكون التوزيع تابعا للمشيئة التي يريدها الله تبارك وتعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٧٣٨] وقوله تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[٧٣٩] وعلى وفق المشيئة ينقسم الخلق إلى أغنياء وفقراء لحكمة لا يعلمها إلا ذو الجلال والإكرام جل جلاله.

فملف الزكاة ضمن إطار الأمر الرباني الذي نريد الحديث عنه، فالزكاة تتشكل ضمن أركان الإسلام لترسم صورة واحدة معبرة عن فكرة الإسلام الكاملة، إلا أن الزكاة تنحوا منحى خاصا، فهي لا تتعلق بفرد واحد إنما تمس في بعض الأحيان مجموعة كبيرة من المسلمين المستخلفين فيها.

ومن جانب آخر أن الزكاة تمثل امتحانا حقيقيا، فإخراجها وتوزيعها يتم من خلال الإيمان الكامل بهذا الركن، وحتى لا يكون الإنسان من الذين قال عنهم الله تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَى عليها

---

[٧٣٧] – البقرة ٤٣

[٧٣٨] – البقرة ٢١٢

[٧٣٩] – الشورى ١٩

فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ}[٧٤٠].

والنهي يمثل نصف الأحكام الشرعية التي جاء بها الدين الإسلامي، أما الأمر فهو يمثل النصف الآخر، ذلك أن وجود الأمر والنهي في النص القرآني يعود إلى المجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم، فهو لم يكن مجتمعا بكرا، بمعنى أنه لم يكن خاليا من الأفكار والمعتقدات والديانات السابقة بل هي متوارثة فيه لا تتقطع من جيل إلى جيل آخر، إذ يقول تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عليه آَبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آَبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ}[٧٤١]، فجاء القرآن الكريم فاقتطع ما أراد أن يقتطعه منها.

والنهي ورد في القرآن الكريم وخاصة في الأمور المهمة والجليلة التي تمس مصلحة العباد في أمورهم الدنيوية، التي يكون جزاؤها دنيويا وأخرويا من ذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}[٧٤٢] نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن أكل المال الحرام، فهو يشمل كل الطرق التي تسلك من أجل الحصول على المال الحرام، كالسرقة والاحتيال والنصب والغصب والقمار وغيرها، والنهي هنا يحمل مدلولات كثيرة تنم عن عظمة الله تبارك وتعالى، فلو أبيح الحصول على المال من الطرق المذكورة آنفا لأصبحت الحياة فوضى وانعدم الأمن ولسقطت كل المقاييس التي تبين صلاح الناس.

بعد التحريم تأتي الإباحة في الآية الكريمة من خلال التجارة المشتملة على شروط من التراضي وغيره.

---

[٧٤٠] – التوبة ٣٤ – ٣٥

[٧٤١] – المائدة ١٠٤

[٧٤٢] – النساء ٢٩ – ٣٠

تتردد عبارة بين آونة وأخرى وهي من لا يجل لا يكون خليفة، وهذه العبارة تطرح بعض الأسئلة:

. ما علاقة الخليفة بالجلال؟.

. ما هي شروط الجلال للخليفة؟.

. من أين يستمد الخليفة جلاله؟.

. هل أن الجلال شرط من شروط الخليفة؟.

هذه الأسئلة وغيرها تفتح ملفا معرفيا ينساق خلف قراءات كثيرة يتمحور من خلالها تأصيل فكرة الخلافة التي يتردد ذكرها دائما، لماذا الجلال للخليفة؟ هذا كلام يفتح لنا ماهية الجلال التي يجب أن يكون عليها بين الذاكرة وبين استدراكات القراءة المتعددة، فالذاكرة رسمت لنا صورة واضحة عن الصيغة التي يجب أن يكون عليها الخليفة كي يجل أي يُقدر، والتقدير هو: قيمة تقييميه، تربط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات. قيمة عليها يكون التسابق بكل قوة مع المحافظة على المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة، وبناء على النتائج المنجزة تتميز كل خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين. ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين الناس إذا لم يمارسوا الحرية بأسلوب ديمقراطي.

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكلة وتحديد احتمالات اتجاهات تطوُّرها والمتغيرات المتداخلة معها، حتى يتضح دور الخليفة وفقا لما يجب حيالها.

ولهذا فالتقدير مطلب يُشبع رغبة، مما يستوجب من راغب في ممارسة العبادة لله وحده أن يحس بتماثل حاجات الآخرين له في ممارسة هذه الحقوق. ولذا عندما يصل (الآنا والآخر) إلى هذا المستوى من التقدير ينال كل منهما نصيبه بإرادة، ويتمكنان من العيش سويا في المكان والزمان الواحد، وينال كل منهما مكانة عند الآخر، مما يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض وأن كل منهما على درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها أو يَغفل عنها.

وهذه الصيغة هي خليط من مجموعة من الأفكار والتصورات والخصائص التي ترددت بين ثنايا القرآن الكريم، وهذه المجموعة تتسم بطابع يفتح آفاق معرفيه لمعرفة الخليفة عن قرب، فحمْل الأمانة ليس بالأمر الهين، بل هو من الأمور الصعبة في بعض الأحيان نتيجة للتحلل الذي يصيب المجتمعات في بعض الأحيان، فتكون الأمانة فيه شيء غريب أو مستهجن، مما يترك انطباعاً سيكولوجيا لدى عامة الخلق بانهيار مبدأ الأمانة، ولهذا لابد للخليفة من أن يكون أمينا في كل شيء حتى يصل إلى المرتبة التي ينتمي إليها ألا وهي الخلافة، ولذا فإن مبدأ الإفساد أول ما بدر في خطاب الملائكة، إذ يقول تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٧٤٣]. هذه الآية تفتح ملف الخليفة بوتيرة هادئة من خلال عرضه على الملائكة إن صح القول – الله تعالى بيده كل شيء إن شاء فعل وإن لم يشأ لا يفعل – كان جواب الملائكة ذا توجه معرفي رسم أبعادا مختلفة متشعبة من خلال لفظة (يفسد) والفساد يخرق كل الأبواب الموصدة التي يقطن خلفها ما عرض على الإنسان وسمي أمانة. وباب الأمانة هو من أجل أبواب الإكرام، إذ يشمل على كل ما يتصل بالخليفة من قريب أو بعيد، فالأمر المطلق الذي ذكرناه آنفا حول تعريف الأمانة، يكون للخليفة كالثوب الذي يغطي كل جسده ولا ينفك عنه إلا للممات ويكون حتى كفنه، ومعنى هذا أن الذي لا يتخلق بالأمانة التي يريدها البارئ جل جلاله لا يصلح أن يكون خليفة، إنما يكون من الذين قال عنهم تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ}[٧٤٤]، وهذه هي إحدى خصال الذي لا يصلح أن يكون خليفة.

---

[٧٤٣] – البقرة ٣٠

[٧٤٤] – الأعراف ٤٠

أما العقل بالنسبة إلى الخليفة فهو مفتاح التفكير لديه بمعنى أن عقله دائما يعمل ويسخر من أجل التفكر والوقوف على الحقائق واستبيان الآراء ووضع النقط على الحروف، وفتح الرؤى التي تؤدي كلها إلى الوقوف على جلال الله عز وجل، يقول تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ}[٧٤٥].

وتدخل الرأفة ضمن نسق خاص يشمل كوامن النفس الإنسانية بما تحمله من خصائص وصفات أرساها الله تبارك وتعالى فيها فالأبوة تمثل لدى الخليفة منعطفا كبيرا في حياته، فمنها يتعلم دروسا كثيرة، إن أتقن هذه الدروس وجبت له الخلافة، هذا الكلام قد يرد من البعض، ولكن هل من الممكن أن تصل الأمور بالخليفة إلى هذه الدرجة لتقاس خلافته بالأبوة؟ نعم أن الأبوة نظام اجتماعي يتسم بأبعاد خاصة ونظم خاصة لا يمكن تجاوزها أو التنصل منها، ولهذا إن كان الخليفة قادرا على الحفاظ على هذا النظام الاجتماعي من خلال مد جسور الرأفة بين الأفراد وجبت له الخلافة، فضلا عن ذلك نستدرك في حديثنا هذا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ لِلَّهِ مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالإنس وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا وَآخر اللَّهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ"[٧٤٦] علاقة هذا الحديث بالخليفة أن الله تعالى جعل هذه الرحمة الواسعة من أجل التواصل والبقاء واستمرار الألفة والمحبة وسيادة التقدير بين الناس، فالرحمة تأخذ حيزا كبيرا أكثر مما يتصور لها،

---

[٧٤٥] – أل عمران ١٩٠ – ١٩٤

[٧٤٦] – صحيح مسلم ج ١٣ ص ٣١١

والخليفة في نظام أسرته يزرع الرأفة والرحمة، فتكون صورة من الصور التي يريدها الله تبارك وتعالى على أرضه وبذلك يكتسب صفة الخليفة.

أما نظام الوراثة، فهو نظام دقيق ينم عن جملة من الأمور المهمة التي تتعلق بالخليفة، منها ضمان حقوق الأسرة في كل ما تملك وكل ما سوف تملك، فهو يعزز نظامها ويبني مستقبل أبنائها، ومن الجلال أن جعل نظام التوريث خاص بالمسلم لا يتعدى إلى غيره، ونقصد غيره بغير المسلم، هنا يجل المسلم من غيره، لأن ميزة الوراثة تعطيه خاصية التفرد والتوحد، فالتفرد تعني إبقاء إسلاميته واضحة المعالم لا تختلط بغيرها من التشريعات المشابهة له إن وجدت، والتوحد هو تكاتف الأسرة فيما بينها، فالميراث هو أحد أسباب التواصل بينهم بكل أبعاده التي يرسمها ويؤصلها فيهم، وحال الأسرة الواحدة يشمل كل الأسر وبذلك يتولد لنا مجتمع الوحدة والألفة والمحبة والتوافق.

الإكرام: صفة من صفات الله تعالى، صفة توحي بعظم صاحبها وكرمه الذي ليس له حدود.

الكرم إذا وُصِف الله تعالى به فهو اسم لإحسانه وإنعامه المتظاهر نحو قوله تعالى: {قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ}[٧٤٧]، وإذا وصف به الإنسان فهو اسم للأخلاق والأفعال المحمودة التي تظهر منه، ولا يقال هو كريم حتى يظهر ذلك منه، أما الإكرام والتكريم أن يوصل إلى الإنسان إكرام أي نفع لا يلحقه فيه غضاضة، أو أن يجعل ما يوصل إليه شيئا كريما شريفا، قال تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ}[٧٤٨]وقوله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ}[٧٤٩].

---

[٧٤٧] – النمل ٤٠

[٧٤٨] – الذاريات ٢٤

[٧٤٩] – الأنبياء ٢٦

ومن فضائل الله تعالى الكرامات على عباده الصالحين:

تتكون المعجزات من أمور ممكنة عقلا خارقة لمجرى العادات الكونية، مرافقة لدعوى النبوة، ومقرونة بالتحدي المصرح به على لسان الرسول، ولكن هناك أمورا من خوارق العادات غير مقرونة بالتحدي ولا بدعوى النبوة، يجريها الله تبارك وتعالى على يد بعض الصالحين من اتباع الرسل والأولياء الذين كرمهم الله تعالى، إكراما من الله لهم. وذلك كشاهد مستمر على إمكان معجزات الأنبياء التي جرت في أزمانهم، باعتبار أن الله تعالى أجراها على يد صالح من الصالحين المستخلفين فيها، ويسمى هذا النوع من خوارق العادات بـ(الكرامات). نحن دون أدنى أي شك نعرف ونؤمن أن زمن الرسل قد انتهي بمحمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته الخاتمة، ولهذا لن يظهر علينا ولا لنا رسول بعد محمد، أما العباد الصالحون فهم مستخلفون فيها، والله مع عباده الصالحين في كل زمان ومكان والحمد لله رب العالمين. ولنأخذ ما ورد في القرآن الكريم من كرامات:

أولا: قصة أهل الكهف:

وهذه القصة تتحدث عن فتية آمنوا بالله تعالى، وهؤلاء فروا من ظلم الملك الكافر الذي كان في زمانهم، فآووا إلى كهف في بعض الجبال، فأنامهم الله تعالى ثلاثمائة سنين وأزدادوا تسعا، ثم بعثهم بعد ذلك وأيقظهم من نومهم الطويل، وهذا الأمر من خوارق العادات بالنسبة إلى البشر، وقد أكرمهم الله تبارك وتعالى بذلك، وهم فتية مؤمنون صالحون وليسوا بأنبياء، تبدأ الكرامة مع دخول الفتية إلى الكهف، إذ يقول تعالى: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آَيَاتِنَا عَجَبًا إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آَتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا فَضَرَبْنَا عَلَى آَذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا}[٧٥٠].

قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عليهمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عليهمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عليهم

---

[٧٥٠] - الكهف ٩- ١٢

مَسْجِدًا سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَاسمع مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا}[٧٥١].

إن قصة أصحاب الكهف بمجملها ليست غريبة على آيات الله العظام، بل لله تعالى من الآيات الكثيرة التي تدل على عظمته وإكرامه لعباده، فقد آوى الشباب إلى الكهف يريدون التحصن والتحرز من فتنة قومهم لهم (فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً) أي تثبتنا بها وتحفظنا من الشر، وتوفقنا للخير (وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) يسر لنا أي شيء يكون السبب في الوصول إلى الرشد، هم في حالة الدعاء تأتي قدرة البارئ عز وجل لترسم صورة تنطق بكرم البارئ عز وجل لهؤلاء الفتية، قال تعالى: (فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا) والنوم هنا يتجلى فيه أمران: الأمر الأول: هو حفظ قلوبهم من الخوف والاضطراب الذي كان يلاحقهم دائما، أما الأمر الثاني: فهو حفظ لهم من قومهم وليكون لهم آية بينة.

لكن بعد النوم لا يتركهم البارئ جل جلاله بل يستعرض قدرته العظيمة في الحفاظ عليهم وهم في ذلك الكهف، إذ يقول تعالى: {وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عليهمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا}[٧٥٢]

---

[٧٥١] الكهف ٢١ ـ ٢٧.

[٧٥٢] – الكهف ١٧ – ١٨

حفظهم الله من الشمس فيسر لهم كهفا إذا طلعت الشمس تميل عنه يمينا، وعند غروبها تميل عنه شمالا فلا ينالهم حرها فتفسد أبدانهم، والكهف مكان متسع يدخل إليه الهواء فيغير من رائحة المكان، أما عيونهم فهي مفتوحة يحسبهم الناظر إليهم أيقاظا، والحال أنهم نيام. وتنتهي هذه المكرمة بقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عليكم يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عليهمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عليهمْ بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عليهمْ مَسْجِدًا}[٧٥٣].

هذه القصة اتسمت بأبعاد مختلفة منها زيادة بصيرة ويقين المؤمنين وحُجَّة على الجاحدين، فضلا عن ذلك إشهار أمر الفتية، ورفع قدرهم حتى عظَّمهم الذين اطلعوا عليهم، ومجموع هذه الأبعاد المختلفة تنطق بكرم البارئ عز وجل لهؤلاء الفتية، حتى أصبحوا أنموذجا يحتذى به في اللجوء إلى الله تبارك وتعالى.

ثانيا: كرامات السيدة مريم عليها السلام:

الكرامة الأولى: نشأة مريم عليها السلام في عبادة ربها وفاقت النساء في ذلك، وانقطعت للعبادة، ولزمت محرابها، إذ يقول تعالى: {فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عليها زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[٧٥٤] فكان الرزق يأتيها من غير كسب ولا تعب بل رزق ساقه الله إليها، وكرامة أكرمها الله بها، فكانت فاكهة الصيف موجودة في الشتاء،

---

[٧٥٣] – الكهف ١٩ – ٢١

[٧٥٤] – أل عمران ٣٧

وفاكهة الشتاء موجودة في الصيف[٧٥٥]، فيقول لها زكريا: (أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) والرزق هنا هو فضل من الله تبارك وتعالى وإحسان من عنده لعباده الذين يريد أن يتفضل عليهم بجلاله وكرمه، وهذا الأمر يحيلنا إلى قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[٧٥٦]. والكرامة هنا من الأمور الخارقة للعادة بالنظر إلى مقتضى الأسباب الكونية المحسوسة وفي هذه الآية دليل على إثبات كرامات الأولياء الخارقة للعادة.

الكرامة الثانية : حملها بعيسى عليه الصلاة والسلام دون أن يمسها بشر:

وهذا أمر من خوارق العادات في التناسل، والحمل هنا اتسم بأمرين:

الأمر الأول: هو كرامة لمريم عليها السلام.

أما الأمر الثاني: فهو تمهيد لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام. فهذا الأمر جلب انتباه الناس جميعا وتفكروا به، يقول تعالى: {قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[٧٥٧] والولد والولدان في العادة لا يكون إلا من مس البشر، وهذا الأمر يشترك به كل الخلائق إلا آدم عليه الصلاة والسلام، مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٧٥٨]، وقول مريم عليها السلام هو من باب الاستغراب، ثم جاءها الجواب بعد ذلك لينهي الأمر، في قوله تعالى: {قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}. عرض القرآن الكريم قصة مريم في أكثر من مرة وبتفاصيل أوسع، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي

---

[٧٥٥] – تفسير التحرير والتنوير ج٣ ص ٩٢

[٧٥٦] – الطلاق ٢،٣

[٧٥٧] – أل عمران ٤٧

[٧٥٨] – الذاريات ٤٩

غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ على هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آَيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا}[٧٥٩]

الكرامة الثالثة: لما أحست مريم عليها السلام بقرب ساعات الوضع، ابتعدت عن أهلها إلى مكان خال في الجهة الشرقية بالنسبة إلى منازل أهلها، وجلست إلى جانب شجرة من أشجار النخيل التي لا ثمر فيها وحصلت لها من المساعدات الربانية في وضعها أمور كثيرة، منها: تساقط الرطب الطري اللذيذ عليها من الشجرة غير المثمرة، إذ يقول تعالى: {وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عليكِ رُطَبًا جَنِيًّا}[٧٦٠].

الكرامة الرابعة: في قوله تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْت وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ على يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}[٧٦١]، فبعد أن وضعت عيسى عليه الصلاة والسلام حملته وجاءت به إلى قومها، تبدأ الكرامة هنا بإحالة قومها إلى عيسى كي يسألوه عن قصته على الرغم من أن الأسئلة كانت موجهة إلى مريم عليها السلام، يقول تعالى: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا}[٧٦٢] وأسئلتهم كلها مبنية على التجريح والاتهامات التي هي في غير محلها، فضلا عن ذلك السؤال الذي تردد كثيرا واكتسب درجة الإلحاح وهو عن كيفية حملها بطريقة لم تتجاوز إلى الفاحشة، وهي منها براء عليها السلام، فكلام عيسى عليه الصلاة والسلام في تبرئة أمه كرامة لها من ذي الجلال والإكرام جل جلاله.

ثالثا: كرامة زكريا عليه السلام:

---

[٧٥٩] – مريم ١٦ – ٢١

[٧٦٠] – مريم ٢٥

[٧٦١] – مريم ٢٩ – ٣٣

[٧٦٢] – مريم ٢٧ – ٢٨

من بين الأرزاق التي وزعها الله تبارك وتعالى بين الخليقة هي الذرية، إذ يقول تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عليم قَدِيرٌ}[٧٦٣]، فكان نصيب زكريا عليه السلام هو عدم الإنجاب، فاستمر به العمر إلى أن أصبح شيخا كبيرا، وتقدم العمر لا يعني شيئا له إلا من باب استمرار دعوة الخلق إلى عبادة الله تعالى، فبدأ يعرض أمره إلى الله ذي الجلال والإكرام، قال تعالى: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا}[٧٦٤] بدأ زكريا عليه السلام بعرض حاله لله تعالى، فبدأ بضعف العظم الذي هو عماد البدن، ثم بعد ذلك الشيب لأنه دليل على الكبر والضعف وعلامة من علامات نهاية الإنسان، فزكريا عليه السلام هنا يطرق باب التوسل إلى الله تعالى من خلال عرض ضعفه وعجزه، وهذا من أحب الوسائل إلى الله تبارك وتعالى، لأنه يدل على التبرؤ من الحول والقوة، وتعلق القلب بحول الله وقوته.

إن طلب الذكر هنا دون الأنثى ليس لأمر دنيوي، إنما القصد هو مصلحة للدين، أما امرأته فهي عاقر أي لا تلد أصلا، وهو في عمر يندر معه وجود الشهوة أو طلب الولد، أما الولاية التي أرادها في دعائه فهي ولاية الدين وميراث النبوة والعلم والعمل، ولهذا قال: (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) فكانت الإجابة من الله العظيم الجليل بقوله: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسمهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}[٧٦٥] بشره الله تعالى على يد الملائكة بـ(يحيى) وسماه الله له (يحيى) وكان اسمه موافقا لمسماه: يحيا حياة حسية، ويحيا حياة

---

[٧٦٣] – الشورى ٤٩ – ٥٠

[٧٦٤] – مريم ٢– ٦

[٧٦٥] – مريم ٧

معنوية، وهي حياة القلب والروح، بالوحي والعلم والدين. هذه كرامة من كرامات البارئ عز وجل التي تنم عن قدرته العظيمة في تغيير الأمور من حال إلى حال آخر أفضل، وذلك فضل منه ومنّة على عباده، ولم تكن هذه الكرامة هي الوحيدة في هذا الجانب بل كانت كذلك مع إبراهيم عليه الصلاة والسلام، إذ يقول تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوب قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعلي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عليكم أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ}[٧٦٦] والكرامة برزق الأنبياء بالأولاد من دواعي استمرار الدعوة الإسلامية وفق تسلسل ينطوي على حكمة البارئ عز وجل.

رابعا: كرامة يوسف عليه الصلاة والسلام في الجب:

يبدأ الحديث عن الجب في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام في قوله تعالى: {قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعلينَ}[٧٦٧] اختلفت الآراء في النهاية التي تراد ليوسف عليه الصلاة والسلام، فكان القتل هو الرأي الأول وهو أشنعها وأشرها، ثم بعد ذلك أصبح الإلقاء في غيابة الجب، وهو أهون الآراء قياسا بالرأي الأول، فالمهم هو إبعاد يوسف عن أبيه عليهما الصلاة والسلام، وهذا من نتائج الحسد الذي فعل فعلته بين يوسف وإخوته، وتم الأمر فعلا وتم إلقاء يوسف عليه الصلاة والسلام في الجب، إذ يقول تعالى: {فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}[٧٦٨] قال السدي: إن يوسف عليه السلام لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيماً فضربوه حتى

---

[٧٦٦] - هود ٦٩ – ٧٣

[٧٦٧] - يوسف ١٠

[٧٦٨] - يوسف ١٥

كادوا يقتلونه وهو يقول يا يعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك، فقال يهودا الم تكونوا قد أعطيتموني ميثاقاً أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه، وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب عليه الصلاة والسلام، فقال لهم ردوا على قميصي لأتوارى به، فقالوا: ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً لتؤنسك، ثم دلوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه ليموت، وكان في البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام بها وهو يبكي فنادوه فظن أن رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهودا فمنعهم وكان يهودا يأتيه بالطعام، وروي أنه عليه السلام لما ألقي في الجب قال يا شاهداً غير غائب. ويا قريباً غير بعيد. ويا غالباً غير مغلوب. اجعل لي من أمري فرجاً ومخرجاً، وروي أن إبراهيم عليه السلام لما ألقي في النار جرد عن ثيابه فجاءه جبريل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وألبسه إياه، فدفعه إبراهيم إلى إسحاق، وإسحاق إلى يعقوب، فجعله يعقوب في تميمة وعلقها في عنق يوسف عليه السلام فجاء جبريل عليه السلام فأخرجه وألبسه إياه[٧٦٩].

أوردنا هذه القصة بتفاصيلها من أجل عرض أهم حدث سبق مكرمة البارئ عز وجل، فالأخوان أرادوا كيدا بأخيهم لكن الله تبارك وتعالى غير الأمور، فصارت عملية قلب لكل ما خطط له إخوة يوسف عليه الصلاة والسلام، وبدأت مكرمته تعالى، إذ يقول تعالى: {وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللَّهُ عليم بِمَا يَعْمَلُونَ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[٧٧٠] إن انتشال يوسف عليه الصلاة والسلام من الجب يعد بداية لمرحلة جديدة في حياته، فقد بدأت حياته تأخذ منحىً جديداً فكان التمكين مرحلة مهمة، بقوله

---

[٧٦٩] – تفسير الرازي ج ٩ ص ٦

[٧٧٠] – يوسف ١٩ – ٢٢

تعالى: {وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ} [٧٧١] ثم بعد ذلك توجت مكرمة البارئ جل جلاله بلقاء يوسف عليه الصلاة والسلام مع إخوته {وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عليه فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ}[٧٧٢] هذا اللقاء جمع بين يوسف عليه الصلاة والسلام وإخوته، لكن كيف كان الجمع؟ لم يكن جمعا اختياريا بل كان جمعا مقصودا أراد به البارئ عز وجل أن يوضح من خلاله للخلق أجمعين أن عظمته وكرامته لا يمكن تصويرها أو رسم ملامحها أو وضع حدود لها، فكانت النهاية أن جمع الله تبارك وتعالى يوسف عليه الصلاة والسلام مع أبويه وإخوته في مكان لم يكن يفكر أحد منهم أن يكون فيه، قال تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أخرجني مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعليمُ الْحَكِيمُ}[٧٧٣]

خامسا: كرامة يونس عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت:

هذه الكرامة تتعلق بنبي اختلف عن باقي الأنبياء بصفة هي أن قومه رفع عنهم العذاب، إذ يقول تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[٧٧٤] فبداية قصته مع قومه كان الجزع منهم وعدم الاستجابة عنوانا لها، يقول تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عليه فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}[٧٧٥] فقوله تعالى: (فظن أن لن نقدر عليه) يقتضي أنه خرج خروجاً

---

[٧٧١] – يوسف ٥٦

[٧٧٢] – يوسف ٥٨

[٧٧٣] – يوسف ٩٩ – ١٠٠

[٧٧٤] – يونس ٩٨

[٧٧٥] – يونس ٨٧ – ٨٨

غير مأذون له فيه من الله. ظن أنه إذا ابتعد عن المدينة المرسل هو إليها يرسل الله غيره إليهم[٧٧٦] وبعد خروجه من قومه وركوبه السفينة، إذ ثقلت السفينة نتيجة لزيادة أعداد الركاب والأمتعة، فاحتاجوا إلى إلقاء بعض الركاب، وكأنهم لم يجدوا لأحد مزية، فاقترعوا على أن من قرع وغلب، ألقي في البحر عدلا من أهل السفينة، فلما اقترعوا أصابت القرعة يونس (فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ) المغلوبين.

إن قصة يونس عليه الصلاة والسلام رسمت وفق مشيئة الله تبارك وتعالى، إذ أن اختيار البحر يحمل دلالات كثيرة تختلف عن الإلقاء من جبل عالي مثلا، ذلك أن طريقة الموت في البحر تتطلب وقتا وخاصة عندما يكون المرمي في البحر عارفا بالسباحة، بمعنى أن هناك وقت للتفكر أو للتفكير فيما آل إليه مصير من رمي في البحر، إذ نجد ذلك واضحا عندما أدرك الغرق فرعون، إذ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ الآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ}[٧٧٧] نجد في هذه الآية حوارا، والحوار بطبيعة الحال يحتاج إلى وقت، لكن الله تبارك وتعالى قادر على أن يفعل ما يريد سواء أكان ذلك في البر والبحر، كان مصير يونس عليه الصلاة والسلام أن يلقي نفسه في البحر، يقول تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عليه شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ}[٧٧٨] أصبح يونس عليه الصلاة والسلام في بطن الحوت في مكان لم يكن يفكر فيه أبدا ولم يحلم حتى به، ظلام دامس وأصوات لا يعرف كنهها، وحرارة ورطوبة لم

---

[٧٧٦] – تفسير التحرير والتنوير ج ٩ ص ١٩٨

[٧٧٧] – يونس ٩٠ – ٩٢

[٧٧٨] – الصافات ١٣٩ – ١٤٦

يتعرض لها من قبل، بين الحقيقة والخيال لم يعرف كيف يتصرف لكنه يعرف إلى من يلتجئ ومن ينقذه مما هو فيه، يقول تعالى: (فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فمن عظمة البارئ عز وجل وكرمه لم يجعل من يونس عليه الصلاة والسلام طعاما للحوت بل كان وديعة أودعها سبحانه في بطنه، ثم انتهى وقت الإيداع الذي حدده سبحانه {فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ} ومكرمة الإنجاء لم تتوقف عند الخروج من بطن الحوت بل رافقته عليه الصلاة والسلام حتى بعد خروجه من بطن الحوت، لأن وضعه بعد الخروج اختلف اختلافا جذريا نتيجة ما حصل له داخل بطن الحوت، فكان كالفرخ المنتوف ليس عليه شعر ولا جلد، فأنبت الله تعالى عليه شجرة من يقطين يستظل بها ويأكل من ثمرها، تظله بظلها الظليل، لأنها باردة الظلال، ولا يسقط عليها ذباب، وهذا من لطفه به، وبره.

سادسا: أصحاب الأخدود:

من القصص التي وقف عندها كثير من عباد الله تعالى يتأملونها ويتفكرون بها ويتعظون بها، فهي تعطي صورة باهرة مضيئة في كل تفاصيلها عن كرامة من كرامات البارئ جل جلاله، وقد وردت هذه القصة في صحيح مسلم عن صهيب أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ قَالَ: "كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكِ إِنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلَامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ فَبَعَثَ إِلَيْهِ غُلَامًا يُعَلِّمُهُ فَكَانَ فِي طَرِيقِهِ إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيْهِ وَسَمِعَ كَلَامَهُ فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيْهِ فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ فَقَالَ إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ حَبَسَنِي أَهْلِي وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ حَبَسَنِي السَّاحِرُ فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتْ النَّاسَ فَقَالَ الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمْ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضَى النَّاسُ فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ أَيْ بُنَيَّ أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّي قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى فَإِنْ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ على وَكَانَ الْغُلَامُ يُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَيُدَاوِي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِيَ

فَأَتَاهُ بِهَدَايَا كَثِيرَةٍ فَقَالَ مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللَّهِ دَعَوْتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ فَآمَنَ بِاللَّهِ فَشَفَاهُ اللَّهُ فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَنْ رَدَّ عليك بَصَرَكَ قَالَ رَبِّي قَالَ وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي قَالَ رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ فَجِيءَ بِالْغُلَامِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ أَيْ بُنَيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَتَفْعَلُ فَقَالَ إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ فَجِيءَ بِالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَدَعَا بِالْمِنْشَارِ فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ فِي مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ثُمَّ جِيءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَرَجَفَ بِهِمْ الْجَبَلُ فَسَقَطُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ فَذَهَبُوا بِهِ فَقَالَ اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ فَانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا وَجَاءَ يَمْشِي إِلَى الْمَلِكِ فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ قَالَ كَفَانِيهِمُ اللَّهُ فَقَالَ لِلْمَلِكِ إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ قَالَ وَمَا هُوَ قَالَ تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي ثُمَّ ضَعْ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قُلْ بِاسم اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ ارْمِنِي فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ ثُمَّ قَالَ بِاسم اللَّهِ رَبِّ الْغُلَامِ ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ فَقَالَ النَّاسُ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ فَأُتِيَ الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ أَرَأَيْتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ قَدْ آمَنَ النَّاسُ فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ وَقَالَ مَنْ لَمْ يَرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا أَوْ قِيلَ لَهُ اقْتَحِمْ فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتْ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِيٌّ لَهَا

فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ يَا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ"[٧٧٩] لقد قمنا بعرض كل القصة ولم نترك منها شيئا، فهي تعرض ملحمة من ملاحم الدعوة الإسلامية بكل تفاصيلها وتجلياتها، فبطل هذه القصة شاب صغير أجرى الله تبارك وتعالى على يديه كرامات كثيرة لمسناها بين طيات ما قصصنا، والتي انتهت بنطق الرضيع كرامة لأمه المؤمنة الصابرة. ولقد أشار القرآن الكريم إلى قصة أصحاب الأخدود في قوله تعالى: {قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عليها قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ لَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[٧٨٠].

هذه القصة فيها تتبع معرفي ينطوي على تساؤلات كثيرة، وهذه التساؤلات تبدأ من بداية القصة، والتي كان بطلها غلام صغير يتوخى منه أن يكون ساحرا، لكنه لم يكن كذلك، بل أصبح داعية من دعاة الله تبارك وتعالى، لكن كيف يكون داعية دون أن يكون معه رب المكارم يفتح له أفاق المعرفة واليقين من أجل ترسيخ مبدأ العبادة لله تعالى، فضلا عن ذلك أن القصة احتوت على أمر في غاية الأهمية وهو اختيار الطريق الصحيح من خلال اليقين المرئي، وهذا ما كان من أمر الدابة التي ظهرت أمام الغلام، فهذه الحادثة تحيلنا إلى قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[٧٨١].

سابعا: من كرامات عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

من الخلفاء الراشدين الذين حملوا لواء الدعوة الإسلامية إلى مختلف الأصقاع، فكان نعم الخليفة الصالح الذي يضرب به المثل. فمن كراماته:

---

[٧٧٩] – صحيح مسلم ج ١٤ ص ٢٩٣

[٧٨٠] – البروج ٤ – ٩

[٧٨١] – البقرة ٢٦٠

أ- كان اسمه رضي الله تعالى عنه يتردد دائما ويذكر خاصة بعبارة مشهورة أخذت حيزا كبيرا في الفكر الإسلامي ألا وهي (يا سارية الجبل) فهي تمثل إحدى الكرامات التي أنعم الله تبارك وتعالى على عبده عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "عن ابن عمر ، أن عمر بعث جيشا وأمر عليهم رجلا يدعى سارية فبينما عمر رضي الله عنه يخطب فجعل يصيح : يا سارية الجبل، فقدم رسول من الجيش فقال: يا أمير المؤمنين، لقينا عدونا فهزمونا، فإذا صائح يصيح: يا ساري الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله[٧٨٢].

ب- الإلهامات الكثيرة التي كان يلهمها. شهد له بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنْ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ[٧٨٣].

هذه الكرامات تنطوي على أمور كثيرة منها:

أ- إن الكرامات لا يختص بها الأنبياء فقط، إنما تكون لغيرهم أيضا كعمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره، ولذا فالمعجزات للأنبياء والكرامات للصالحين.

ب- إن الكرامات مستمرة لا تنقطع فهي وجه من وجوه مكارم الله تعالى لعباده.

ج- الكرامة وجه من وجوه إقناع غير المسلمين بعظمة وكرم الله تبارك وتعالى.

ثامنا: تيسير أسباب الخير وتعسير أسباب الشر:

الخير والشر من المفردات التي واكبت الخلق منذ البداية، فمعرفة الشيطان للبشرية كانت فاتحة التمييز بين الخير والشر ولم يكن بين الخير والشر من تمييز قبل أن يعرف الشيطان بصفاته وأعماله وضروب قدرته، فلا توجد مصطلحات تنم عن خلاف بين اثنين، كالطيب والخبيث والظلام والنور والحسن والقبيح . بل عرفت بعد أن وجد الخير والشر.

---

[٧٨٢] - دلائل النبوة للبيهقي ج ٧ ص ١٨٦

[٧٨٣] - صحيح البخاري ج ١٢ ص ٢٢

فمن مكارم البارئ عز وجل أنه يسَّر أسباب الخير وعسَّر أسباب الشر، وذلك من خلال أحكامه وتشريعاته التي كانت الممثل الأبرز في هذا الجانب.

تعد العبادات من الطرق التي تصل بالعبد إلى رضا الله تبارك وتعالى، ومن هذه العبادات الصوم، والمعروف عن الصوم هو الامتناع عن الطعام والشراب أو بعبارة أخرى كل ما يدخل إلى الجوف يعد ممنوعا، وقد يتعرض الصائم إلى مشقة في صومه، فجاء التيسير له وهي الرخصة التي أعطاها الله تبارك وتعالى للمسافر والمريض بأن يفطر، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ آخر يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[٧٨٤] وتجلى التيسير في قوله تعالى: {وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى}[٧٨٥] تعود هذه الآية على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، أي أن الله تعالى جاء به ميسرا لا معسرا للدين، وبهذا الأمر اصطفاه وبعثه للكافة، فتيسير الرسول الكريم لليسرى لأجل الهداية وانجاز مهمة الاصطفاء على أحسن وجه، والتيسير تذليل للصعاب وتواجد من أجل حق، وعليه فمحمد عليه الصلاة والسلام اصطفاه تيسيرا للعباد المستخلفين فيها، ولأنه الميسر لليسرى، فالدين الذي جاء به دين تيسير لا دين تعسير، (فذكر إن نفعت الذكرى) ولهذا يسر الله تبارك وتعالى رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام لليسرى في جميع الأمور التي تتعلق بالدين الإسلامي، مما يجعل شرعه ودينه يسرا، وهذا اليسر يفتح أفاقا جديدة تكون منفذا كبيرا لنشر الدين الإسلامي بين الناس أجمع.

ومن كرمه تعالى تعسير أسباب الشر، والشر يتمثل بأفعال العباد التي يزاولونها في غير مرضاة الله، فتكون عليهم وبالا في الدنيا والآخرة، وطريق تعسير الشر يتمثل بالأحكام الصارمة التي بيّنها الله تبارك وتعالى لعباده، والتي تعد معسرة لأسباب الشر، من ذلك جناية

---

[٧٨٤] – البقرة ١٨٥

[٧٨٥] – الأعلى ٨

القتل، وهي من أول الأعمال التي قام بها بنو آدم، وعدت بداية التنفيذ الفعلي للشر بين بني آدم، قال تعالى: {وَاتْلُ عليهمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدم بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخر قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[٧٨٦]، ولتعسير فعل القتل وعدم تكراره والاحتراز من التفكير فيه أوجد الله تبارك وتعالى العقوبة المناسبة له من أجل اجتنابه وعدم التفكير به، يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عليكم الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ والأنثى بالأنثى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتباع بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ}[٧٨٧]، فبعد أن استعرض البارئ جل جلاله أحكام القصاص بكل تفاصيلها ذكر بعد ذلك علة القصاص التي أوجدها تعالى بقوله: {وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[٧٨٨] القصاص احتكام عدل، وفي الوقت نفسه هو حياة، كيف يكون ذلك؟ يكون حياة للقاتل والمقتول، أي عبرة لمن يريد أن يعتبر، وذلك لأهمية الحياة التي كتبها الله لعباده، فلا يقتلها أحد ومن قتلها اعتدى على الحق، وبالتالي يصبح القصاص ضرورة وهو الحق. فيكون حياة للقاتل حين يريد أن يكون قاتلا، وذلك لو علم أنه لو قتل يقتل ترك القتل فلا يقتل فيبقى حياً، أما بالنسبة إلى المقتول، فأن من أراد قتله إذا خاف من القصاص ترك قتله فيبقى غير مقتول، وبذلك تحقن الدماء وتتقمع به الأشقياء، فلو كانت عقوبة القاتل غير القتل، لم يحصل انكفاف الشر، الذي يحصل بالقتل، وهكذا سائر الحدود الشرعية، فيها من النكاية والانزجار، ما يدل على حكمة الحكيم الغفار، ونكَّر "الحياة " لإفادة التعظيم والتكثير.

---

[٧٨٦] – المائدة ٢٧ – ٣٠

[٧٨٧] – البقرة ١٧٨

[٧٨٨] – البقرة ١٧٩

ومن الشر (الزنا) فهو إثم عظيم ومرض خطير حرمه البارئ عز وجل على عباده، إذ يقول تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}[٧٨٩]، والزنا فعل ممارسة الجنس مع المحرمات، أي مع غير الحلائل، والنص القرآني حرمه بطريقه أبلغ من النهي عن الفعل نفسه، بل جاء النهي عن جميع مقدماته ودواعيه، ولهذا نجد أن النص القرآني عندما عرض عقوبة الزنا عرضها بشكل جديد من ناحية الترتيب، قال تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فاجلدوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخر وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[٧٩٠] بدأ بالزانية ولم يقل الزاني فقدم ذكر (الزانية) على (الزاني) للاهتمام بالحكم لأن المرأة هي الباعث على زنى الرجل وبمساعدتها الرجل يحصل الزنا ولو منعت المرأة نفسها ما وجد الرجل إلى الزنا تمكيناً، فتقديم المرأة في الذكر لأنه أشد في تحذيرها[٧٩١]. الحكم الذي تضمنته الآية الكريمة يشمل الزانية والزاني يجلد كل منهما مائة جلدة، ومع ذلك يحتاج الحكم في هذا الأمر إثبات اعترافي أو شهود صادقين، وفي هذا الأمر التشهير عقاب معنوي لعدم التكرار والتوبة.

لاحظنا كيف أن الله تبارك وتعالى عسر فعل هذا العمل، فجعل له الحد الأشد من جلد ورجم، فضلا عن ذلك أن الحد لا ينفذ في مكان معزول، بل جعله أمام مرأى الخلق، وهو أشد من العقوبة نفسها، ليشتهر ويحصل بذلك الخزي والارتداع، وليشاهدوا الحد فعلا فإن مشاهدة أحكام الشرع بالفعل، مما يقوى بها العلم، ويستقر به.

فما تحدثنا عنه هو عقوبة لفعل الزنا، لكن من كرم البارئ عز وجل أنه أعطى علاجا لهذا العمل الفاحش قبل وقوعه أو التفكير فيه، وهو في الوقت نفسه معسر لأسباب فعله، فقد حث القرآن الكريم على الزواج بقوله تعالى: {وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ

---

٧٨٩ – الإسراء ٣٢

٧٩٠ – النور ٢

٧٩١ – تفسير التحرير والتنوير ج ٩ ص ٤٢٦

إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عليم وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[٧٩٢]، وكذلك السنة النبوية الشريفة التي عالجت هذا الأمر وبينت عواقبه، فعَنْ أَبِي حَاتِمٍ الْمُزَنِيِّ قَالَ: "قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ فِيهِ قَالَ: إِذَا جَاءَكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ"[٧٩٣]

تاسعا: إكرامه للعاصي ولغير العاصي:

من كرمه تعالى أنه وزع الرزق بين الكفرة والمؤمنين، إذ يقول تعالى: {كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا}[٧٩٤] فالله تبارك وتعالى لم يترك خلقه جميعا دون أن يعطيهم، فالكل راتعون بفضله وإحسانه، حتى الكفرة منهم الذين لا يؤمنون بلقائه فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قدر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة. وذلك مصداق قوله: {وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخرةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ}[٧٩٥].

وكرمه تعالى يفتح أبواب التساؤل أمام الخلق أجمعين:

- كيف يتساوى الجميع بالكرم؟.
- ألا يكون الكرم خاصا بالمؤمن دون الكافر؟.

---

[٧٩٢] - النور ٣٢ - ٣٣

[٧٩٣] - سنن الترمذي ج ٤ ص ٢٦١

[٧٩٤] - الإسراء ٢٠

[٧٩٥] - الأعراف ١٥٦

– لماذا يكرم الله تعالى الكافر وليس فيه شيء ينم عن عبوديته لله؟.
– ألا يرى المؤمن تفضيله في الدنيا قبل الآخرة؟.

الكرم في الدنيا مقصود للجميع فلا يفرق الله تعالى بين العباد في التوزيع على أسس يكون قياسها الإيمان أو الكفر بل أن الجميع هم خلقه، والجميع لا يضرونه ولا ينفعونه إن كانوا أهل إيمان أم أهل كفر، والحياة الدنيا كلها تمثل مكان عمل وليس فيها حساب، بينما الآخرة هي مكان الحساب وليس فيها عمل، والعمل يتطلب اختبارا يتبين من خلاله مدى التجاوب مع الأوامر والنواهي التي بينها تعالى لعباده، فضلا عن ذلك أن الحياة الدنيا كلها لا تعدل عند الله شيئا، إذ ورد في الحديث النبوي عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليه وَسَلَّمَ "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"[٧٩٦].

أما الثواب الذي ينشده المؤمن فإن لم يجده في الدنيا فهو في الآخرة خير وأبقى، إذ يقول تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ}[٧٩٧].

أما في الآخرة فأن التكريم لا يكون إلا للمتقين، يقول تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ}[٧٩٨]، وقوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}[٧٩٩].

بناءً على ما تقدم، فإن الجلال هو: هيبة مؤسسة على معطيات العظمة والهيمنة والرفعة والقداسة وكل ما يؤكد على الفضيلة الحسنة.

---

[٧٩٦] – سنن الترمذي ج ٨ ص ٢٩٩

[٧٩٧] – الشورى ٣٦

[٧٩٨] – الحجر ٤٥ – ٤٨

[٧٩٩] – الذاريات ١٥ – ٢١

والإكرام: إعطاء دون انتظار مقابل، وجود لا حدود له يمتد في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع وهو جود من مطلق لا تحصره دائرة ولا يحاط بأفعاله دوائر.

وذو الجلال والإكرام هو الله الذي بيده المُلك الذي منه المكارم والقوة والقدرة التي منها الهيبة والجلال.

إذن، ذو الجلال والإكرام: هو مالك المطلق الذي دائما نصف به صفات الله تعالى، أي أن جميع صفاته ذات جلال، وجميعها ذات إكرام فسبحانه ذو الجلال والإكرام.

ولكن كيف للخليفة أن يكون على هذه الصفة المطلقة؟.

يكون على هديها، فمع انه لا يخرج عن دائرة الممكن من حيث قدراته وقوته الفاعلة إلا أنه بإيمانه وتوحيد لله واحدا أحد لا شريك له في الملك والأمر وهو الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ولم تكن له الصاحبة، فإنه في هذه الحالة آمن بالحق المطلق مطلقا. وعليه فمن يؤمن بالمطلق من الحق المطلق يكون من المستخلفين الذين أرادهم ذو الجلال والإكرام أن يكونوا خلائف في الأرض مصلحين لا مفسدين فيها ولا سافكي دماء بغير حق، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدم الأسماء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بأسماء هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العليم الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدم أَنْبِئْهُمْ بأسمائهم فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بأسمائهم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدم فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدم اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فأخرجهما مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي

الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدم مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عليه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[٨٠٠].

وعليه فالخليفة في الأرض هو المُصلح والمُعمر والمُفلح، بقوله للحق وفعله للحق وعمله بالحق وسلوكه على الحق، حتى يكون قدوة حسنة تُجل وتقدر وتحترم وتعتبر من الآخرين، أي تهاب بصدقها وسلامة قولها ومناصرتها للمظلوم وإقدامها على دمغ الباطل كلما حاول الظهور وذلك حتى لا يعم الفساد وينحرف العباد عن مكارم الأخلاق.

ولهذا يجل ذو الجلال والإكرام عباده ويكرمهم في الدارين استخلافا ووراثة. فمن أراد أن يكون خليفة عليه بالهداية والسلوك القدوة حتى يجله الناس على ما هو عليه من فضائل قولا وفعلا، ويجله الله ذو الجلال والإكرام على شيئين:

الأول: لتماثل باطنه مع ظاهره مع الله تعالى: قال تعالى: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٨٠١].

والثاني: لإجلال الناس إليه وهو على الحق ثباتا: قال تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}[٨٠٢]، وقال تعالى: {قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ}[٨٠٣].

فالخليفة قدوة حسنة في مسلكه، قوله يصدق ولا يكذب، فعله حق فلا يقدم على باطل، في الأرض يصلح ولا يفسد، مؤمن لا يشرك مع الله أحداً، يركع ويسجد لله تعالى ولا يركع ولا يسجد لسواه، يتصدق من ماله وما يملك دون أن تحس يده اليسرى بما أعطت يده اليمنى،

---

[٨٠٠] البقرة ٣٠ ـ ٣٧.

[٨٠١] البقرة ٢٨٥.

[٨٠٢] الإسراء ٨١.

[٨٠٣] سبأ ٤٩، ٥٠.

يطهر رزقه بالزكاة ولا يقبل بأكل الحرام، يؤدي فريضة الحج بقدرته طاعة لله وحده، وفي سبيله يجاهد بالمال والنفس ليحق الحق ويزهق الباطل.

اللهم يا ذو الجلال والإكرام أجلنا بعظمتك وأكرمنا بجودك وكرمك، اللهم إن جلالك هيبة فاجعلنا مهابين الجانب ولا تجعلنا من السفهاء، اللهم اجعلنا من الذين تُبدَّل سيئاتهم حسنات ومن الذين يتوبون إلى الله متابا، وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عليها صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا اللهم اجعلنا من الذين يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا، اللهم اجعلنا من المستخلفين الوارثين الذين يجلونك طاعة بالوحدانية والصلاة والزكاة والصيام والحج إلى بيتك الحرام والجهاد في سبيلك عبادة، ونشهد أن جلالك إعجاز وإكرامك إعجاز فآمنا طائعين والحمد لله رب العالمين.

المقسط

المقسط: محق الحق بتوازن واعتدال، وهو الفاصل بين الحق والباطل، والمجازي بالثواب والعقاب، دون أن يظلم أحدا.

المقسط: مظهر العدل جزاء وإنصافا، وهو المحاسب على القول والفعل بما يستوجب أثرا مرضيا وجاء بالكتاب (ولا يظلم ربك أحدا). قال تعالى: {وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ

وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[٨٠٤].

المقسِط: "هو من أسماء الله جل وعلا وهو (العادل) الذي له كمال العدل"[٨٠٥].

المقسط: "هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم وكما له في أن يضيف إلى إرضاء المظلوم إرضاء الظالم وذلك غاية العدل والإنصاف ولا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى"[٨٠٦]

المقسط هو المنصف الذي يعطي كل ذي حق حقه، للوالدين حقوق على الأبناء وللأبناء حقوق على الوالدين، ولله حقوق على العباد يجب أن يؤدوها واجبات وفروض عليهم، وللعباد حقوق من عند الله فهو منزلها ومؤتيها لهم رزقا ونعيما ورعاية وحفظا. ولذا تستمد المخلوقات أقساطها من المقسط الأعظم جل جلاله.

والقسط هو الأدق، أي مهما صغر الحق فالمقسط يخرجه لمن يستحقه أو من كان له فيه نصيب، وبهذا قلنا: إن ذلك العدل المطلق وانتفاء الظلم.

من أَسماء اللّه تعالى الحسنى المُقْسِطُ هو العادِلُ، يقال: أَقْسَطَ يُقْسِطُ فهو مُقْسِطٌ إِذا عدَل وقَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسِطٌ إِذا جارَ[٨٠٧]. والإقْسَاطُ: العَدْلُ في القِسْمَة والحُكْم[٨٠٨].

واعلموا أن اللّه لا يَنام، وقائم على كل نفس بما كسبت، وهو الذي يوزع الأرزاق كيف يشاء، ودونما غفلة أو سِنَة، قال تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[٨٠٩]، وقال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ

---

[٨٠٤] الكهف ٤٨ . ٤٩.

[٨٠٥] قسم العقيدة ، ج ١٢، ص ١٩٩.

[٨٠٦] المقصد الأسنى ، ج ١ ، ص ١٤٢.

[٨٠٧] لسان العرب، ج ٧، ص٣٧٧.

[٨٠٨] المحيط في اللغة، ج١، ص٤٤٧.

[٨٠٩] هود٥٦.

أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[٨١٠]، فالله جل جلاله يَخْفِض القِسْطَ ويَرْفَعُه، والقِسْط: المِيزان العَدْل، فقولُه تَعَالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٨١١]: وأراد بذلك أنّ اللّه يَخْفِض ويَرْفَع ميزان أعمال العباد المرتفعة إليه وأرزاقهم النازلة من عنده كما يرفع الوزَّان يده ويخفضها عند الوزن وهو تمثيل لما يقدره اللّه وينزله، وربما أراد بالقسط القسم من الرزق الذي يصيب كل مخلوق فخفضه تقليله، ورفعه تكثيره[٨١٢]، وكل ذلك عدل، ومن قسطه: تقسيم الأرزاق على عبيده، فلم يحرم منها كائنا، فلكل من له نصيب في الحياة نصيب في الرزق، واختلاف الأرزاق بين عبيده يرجع لقسط كل واحد منهم، ولحكمة يعلمها، فلو أن مسلما غنيا أفقره ربما كفر أو سلك سلوكا معاديا للناس وربما سبب مشاكل ومتاعب لوالديه أو أسرته بل للمجتمع بأسره، وكذلك من الناس من لو أغناه الله لكفر وعمل عملا مشينا لا يعتقد ولا تظن يوما أن يقع منه، كما حدث مع قارون، فقد قال في حقه تعالى في كتابه المكنون: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ

---

[٨١٠] البقرة٢٥٥.

[٨١١] الأنبياء٤٧.

[٨١٢] النهاية في غريب الأثر، ج ٤، ص٩٣.

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[٨١٣].

قال الله تعالَى: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}[٨١٤]، وعلى المستخلفين أن يكونوا على بينة من:

١ . أن لا يظنوا يوما أن الله سيضن عليهم في الرزق مادام لهم أجل في هذه الدنيا، فالله جل جلاله قد ضمن الرزق لمخلوقاته في سمائه وأرضه ماداموا أحياء، قال تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[٨١٥].

٢ . أن يعلم المستخلف أن ما كان له لن يخطئه وما كان لغيره لن يصيبه، وليعلم أن لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأخذوا من نصيبه شيئا ما استطاعوا، وكذلك لو اجتمعوا على أن ينفعوه بشيء لن ينفعوه إلا بشيء قد قسمه الله إليه، قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[٨١٦]. وكذلك قوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ}[٨١٧].

---

[٨١٣] القصص٧٦-٨٤.

[٨١٤] الأعراف٢٩.

[٨١٥] هود٦.

[٨١٦] الأنعام١٧ ،١٨.

[٨١٧] يونس١٠٧-١٠٩.

٣ . أن يهرع المستخلف إذا مرت به جائحة أو ضائقة في حياته إلى ربه، وكذا في كل أمر يطرأ عليه وذلك بالدعاء آناء الليل وأطراف النهار؛ لأن من سكن لغير الله ذل، ومن ظن أن غير الله يرزقه أو يغنيه، أو أن أرزاقه وليدة أفكاره، فإن الله سيفقره في الدنيا والآخرة إذا شاء فكل شيء بيده، وسيجد نفسه قد أفلس من الحسنات في الدارين بسبب اعتماده على غير خالقه وكما جاء في الآيات السابقة الذكر على لسان قارون قال تعالى: (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) فهذا الرجل جزاء عمله وطغيانه وظنه أنه هو الذي يطعم نفسه وقومه وجد نفسه في الدرك الأسفل من النار، وربما كاد أن يؤذي غيره بجره إياهم عندما قال: (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)، فأراد المقسط جل جلاله بقسطه أن ينجي بقية القوم من العذاب الذي كان سيلحقهم بسبب ما سيترتب من لحوقهم بفئة ذلك الظالم المتجبر، فقالوا عندما رأوا ما لحق بقارون، قال تعالى: (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)، ولذلك فالمستخلف لا يقطع أمرا إلا بمشورة ربه وذلك ما خاب من استخار ربه بركعتين ثم دعا ربه أن يلهمه الطريق الصالح وكذا دأب الصالحين المستخلفين في الأرض لا يقطعون أمرا إلا بعد استخارة العليم الخبير؛ لأنه خبير بكل شيء وهو الذي يعلم ما ينفع ويصلح حياتنا ودنيننا وآخرتنا.

ومن مظاهر قسطه تعالى:

خلقه السماوات والأرض بالميزان: ودون تفاوت، قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٨١٨]، إن الله جل جلاله رفع السماء بقسطه وعدله فكما رفع السماء بوزن دقيق في غاية الدقة، جعل ذلك ظاهرا في الأرض، بما خصه تعالى من نعمة الميزان على الإنسان وهذه النعمة قد لا نشعر بقيمتها

---

[٨١٨] الرحمن٧-١٣.

لكثرة تعاملنا بها ومعها، إلا أن فضلها كبير فلولا الميزان لسادت الفتن على أبسط الأمور إذ لا يقبل أحد أن يؤخذ من نصيبيه الذي كتب له، ولذلك قرن العلم بالعدل والقسط، فمن واجبنا أن نتعلم ما هو الميزان الحقيقي للأشياء، ويجب أن نعطي كل شيء، قيمته ووزنه مهما قل أو كبر، فرب أمر صغير غير ذي بال كان سببا في أمور عظيمة، فعلى الخليفة أن ينتبه لكل ما حوله وأن يعطي لكل شيء قيمته، فلا يستهين بأي شيء، وذلك ليكتمل عدله، الذي أمره ربه بأن يسير على نهجه وطريقه القويم دون زيغ أو حيف، وللقسط شروط وموجبات منها:

أ – الإيمان: قال تعالى: {قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ}[٨١٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[٨٢٠].

ب – العدل: قيمة بينيَّة تحكيمية تتوسط طرفين أو أكثر، مركزها الاتزان وأطرافها من توازن. تؤسس قيمة العدل على إعطاء كل ذي حق حقه. لذا فهي قول حق وفعل حق، يقول الله تعالى: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل" قال: إذا حكمتم بين الناس ولم يقل إذا حكمتم الناس. فالذين يريدون أن يحكموا الشعوب باسم الدين، فالدين لا ينص على حكم الناس، بل ينص على أن يكون الحُكم بينهم بقوله تعالى: {وأمرهم شورى بينهم}[٨٢١] جاء الأمر هنا مطلقا، والأمر هو كل ما يتعلق بالناس ومصائرهم، (السلم والحرب، والسياسة الداخلية والخارجية، الزواج والطلاق وكل ما يتعلق بالإنتاج ووسائله).

---

[٨١٩] الأعراف ٢٩.

[٨٢٠] النساء ١٣٥، ١٣٦.

[٨٢١] الشورى ٣٨.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآَنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ}[٨٢٢]، وقال تعالى: {وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ}[٨٢٣].

ج – العلم: معرفة وبينة فمن علم بالحق حكم به، أما من جهل فلا يمكنه الحكم بالقسط أي لا يمكن له أن يحق الحق أو يزهق الباطل، قال تعالى: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[٨٢٤].

د – الإحسان: الإحسان عمل الخير لِمن هم في حاجة إليه. إنه جهود تُبذل وإمكانات وخدمات تُقدَّم بأفعال طوعية تحقق الرضا النفسي لِمن تُقدّم له (المحتاج أو القاصر) ولِمن قام أو أقدم على أفعال تقديمها للمستحقين لها.

الإحسان عمل إنساني لا يقتصر على ذوي العلاقة بل يحتويهم ويمتد إلى آخرين، ولذلك تؤسس له الجمعيات الخيرية والمنظمات المحلية والدولية، وبالنسبة للمستخلفين فيها هم الأولى بالقيام بأعمال الإحسان. ولذا فالإحسان القيام بدور يستوجب القيام به، لمن هم في حاجة إليه، وهو نتاج القيام بالأعمال المرضية لله تعالى، فمن أحسن عملا نال الجزاء الأوفى بما جاز به من إحسان، ولهذا يضاعفه له الله أضعافا كثيرة. قال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[٨٢٥] قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ

---

[٨٢٢] المائدة٨.

[٨٢٣] هود٨٥ ،٨٦.

[٨٢٤] آل عمران١٨ ،١٩.

[٨٢٥] البقرة ٢٤٥.

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[٨٢٦].

هـ – المساواة: المساواة قيمة لاعتدال كفة الميزان القسط، فمن عمل بها كان عادلا ومحسنا، وجامعا للشمل غير مفرقٍ، ومن تعداها فقد تعدى حدود الله في أرضه، ولأن الله جعل في الأرض خليفة لأجل أن يصلح لا يفسد، لذا جاء بالمساواة قيمة إصلاحية بين الناس فمن عمل بها كان خليفة لله في الأرض ومن لم يعمل بها فيعد من الذين فقدوا خاصية الاستخلاف التي أرادها الله تعالى لبني آدم دون استثناء منه، قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[٨٢٧].

خلقه الإنسان وتسليمه الخلافة: خلق الله جل جلاله الإنسان من عناصر مختلفة عن عناصر غيره من المخلوقات، ولهذا فميزه بما امتاز به من صفات: قال تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٨٢٨]، وبهذا أعطى الله جل جلاله تقديرا وتكريما لبني الإنسان من أول خلقه ليكون جاهزا للخلافة على أرضه، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[٨٢٩]، وكان أمر الخلافة جليا واضحا من حيث ثقلها وأعبائها، فعندما عرض الله تعالى في علاه أمر الخلافة على جميع المخلوقات، رفضت أمر الخلافة لما أحست بثقلها وحملها الإنسان وكان ظلوما جهولا؛ قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ

---

[٨٢٦] النحل ٩٠ ،٩١.

[٨٢٧] الحجرات ٩ ،١٠.

[٨٢٨] الرحمن ١٤–١٦.

[٨٢٩] الإسراء ٧٠.

وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}[٨٣٠]؛ ولأنها ليست مؤهلة كما أنها غير قادرة، كان الإنسان قادرا عليها ليحملها، وذلك الحمل لم يحمله عبثا بل جاء بميزان جعل به الإنسان قادرا على حملها وإلا لما حصل على الموافقة من ربه، ومع ما حدث من استغراب للملائكة عندما سمعت بأمر استلام الإنسان لأمر الخلافة إلا أن الجواب من رب العزة كان حاسما كما جاء في سورة البقرة في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[٨٣١]. وبهذا كان على الخليفة أن يضع الموازين القسط كما أمره ربه في محكم كتابه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[٨٣٢]، وقال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}[٨٣٣]. والله جل جلاله خلق الإنسان في أحسن تقويم، ليقيم القسط والعدل بين

---

[٨٣٠] الأجزاب٧٢.

[٨٣١] البقرة٣٠-٣٣.

[٨٣٢] النساء١٣٥ ،١٣٦.

[٨٣٣] المائدة٧-٩.

المخلوقات: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ على كُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}[٨٣٤]. فالإنسان إذا لم يقم القسط بين الناس والمخلوقات فإن ميزان الحياة فيها سيتغير ويكون وبالا عليه، ويكون هو السبب في الخسران الدنيوي قبل الأخروي، فعلى الإنسان أن يراعي التوزيع الذي وضعه للمخلوقات، ولا يعمل على تغيير ما وضع الله في أرضه ظنا منه أنه قادر على التغيير والتبديل، والتغيير الذي حرمه الله الذي وضع كل شيء بميزان كما جاء في سورة النساء، قال تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}[٨٣٥]، فالذي يجري اليوم من عمليات اللعب بالجينات الحيوانية والنباتية كلها محاولات يائسة يراد به التغيير في موازين الطبيعة فكلما ظنوا أنهم وصلوا إلى شيء جديد وجدوا أنفسهم قد بدءوا في الفساد فعلى سبيل المثال وعلى مستوى التوزيع الجغرافي للحيوانات حاولوا أن يبيدوا أقوى أنواع الأفاعي السامة في قارة أستراليا وذلك باستيراد نوع من الضفادع القاتلة لها وبكثرة، وبعد أن أرادوا الإطلاع على نتيجة ما عملوا وجدوا أنفسهم في مشكلة أكبر وهو كيف يستطيعوا القضاء على الأعداد الضخمة من هذه الضفادع، فأراد الله جل جلاله أن يريهم كيف خلق كل شيء بميزان وقد خصص له مكاناً وزماناً.

خلقه الشمس والقمر بحسبان: أي خلقه لهما وخلقه الليل والنهار بالقسط فما يستوجب النهار يكون النهار فيه بحسبان وما يستوجب الليل يكون الليل فيه بحسبان وهكذا تكون الشمس والقمر كل بحسبان والحسبان قياس بالقسط لا يتعرض للخلل أبدا كل في فلك يسبحون قال تعالى:

---

[٨٣٤] الإنفطار ٦-١٢.

[٨٣٥] النساء١١٧-١٢١.

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، ولأن المقسط عادل في ملكه فهو يجزي الذين أمنوا وعملوا الصالحات بالقسط الحق قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}[٨٣٦]، إن الله جل جلاله خلق الشمس والقمر فالشمس ضياء والقمر نور، والفرق بين اللفظين واضح، فالله خلقهما بميزان، ولحكمة يعلمها، فلا أحد يعلم كنه وجودهما ولماذا أعطى خاصية لأحدهما دون الأخرى، أما الحكمة الظاهرة فهي:

أ ـ الضوء: قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا) ، وقال تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً}[٨٣٧]، وقال في آية أخرى: {وَجَعَلَ الشمس سِرَاجاً}[٨٣٨]، وفي آية أخرى {وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً}[٨٣٩]، الشمس هي السراج الوهاج، والقمر هو المنير، فالأول متوهج والثاني أقل، وهو ما أثبته العلم الحديث، فالشمس هي التي تترأس المجموعة الشمسية، والضوء ينبعث منها بسبب احتراقها، فهي متوهجة دائما، بسبب احتراق الغازات بداخلها، أما القمر فقد ثبت في العلم الحديث أنه يعكس الضوء الساقط عليه من الشمس، وبذلك كان نوره خافتاً بالنسبة للشمس التي هي مصدر الضوء، وللخليفة أن يستفيد من الشمس في الحصول على الطاقة التي يستفاد منها في الأغراض المتعددة.

---

[٨٣٦] يونس٣-٦.

[٨٣٧] الفرقان٦١.

[٨٣٨] نوح١٦.

[٨٣٩] النبأ١٣.

ب . عدد السنين والحساب: قال تعالى: (وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ)، وقال تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}[٨٤٠]، ونظيره قوله تعالى: {والقمر قدرناه مَنَازِلَ}[٨٤١]، وقوله تعالى: (وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ)، فالمنازل لها معنيين:

أحدهما: أن يكون المعنى وقدر مسيره منازل، وهي التي يستفاد منها في عدد السنين والحساب الشمسي، ومنه يتعرف على الفصول الأربعة والتي يستفاد من معرفتها في تنظيم حركة الحياة على سطح الكرة الأرضية.

والثاني: أن يكون المعنى وقدره ذا منازل، وهذا بالنسبة للقمر والذي به يتعرف على عدد الأيام بقدر صغر أو كبر حجمه في دورة مدتها ثلاثون يوما تقريبا، والذي نستفيده منه معرفة المواقيت، وفي ذلك قال تعالى رادا على من سأل عن ماهية الأهلة: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٨٤٢]، والمواقيت هي التي يراد بها معرفة الأشهر والأيام حيث كل شيء بحسبان وهذا يدل على أن للعلم مصادر يمكن أن يتم بها معرفة الإحصاء والتعداد، وكذلك معرفة الحركة والسكون ومعرفة الزمان والسرعة، ورصد المتغيرات الطارئة فوق الأرض وفي أعالي السماء.

ج – الظل: قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا}[٨٤٣]، فالشمس هي السبب في وجود الظل، وهذه من النعم التي أنعم بها رب العزة على عباده، فالظل يستفاد منه في معرفة المواقيت ومعرفة اتجاهات الحركة وزمانها، والظل يمكن أن يتم الركون إليه وقت الحر الناجم عن حرارة الشمس، وخاصة في فصل الصيف، ومن قسطه تعالى أن وازن بين الحرارة والبرودة، بخلق الظل ردا ومعادلة

---

[٨٤٠] الرحمن٥.

[٨٤١] يس٣٩.

[٨٤٢] البقرة١٨٩.

[٨٤٣] الفرقان٤٥ ،٤٦.

للحرارة، فقد قال تعالى في معادلته للأشياء: {وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ}[٨٤٤]، فنعمة الظل تظهر عندما ترتفع درجة الحرارة في موسمها فيبحث هناك الناس عنه وبذلك يجب على خلفائه في أرضه أن يحمدوه على نعمه التي لا تحصى.

د . توزيع النبات ومنه الفاكهة والحبوب: هذا التوزيع الذي جعله الله تعالى في أرضه للفاكهة لم يكن عبثا بل كان نعمة من رب العباد على أهل الأرض وكذلك توزيعه للحبوب والأشجار، قال تعالى: {وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}[٨٤٥]، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٨٤٦]. في الآيات السابقة ذكر الله جل جلاله فضله على خلقه ليذكر الإنسان، وليبرهن له أن لهذا الكون خالق وأن كل شيء عنده بميزان، فجعل للشتاء فاكهة غير التي في الصيف؛ لأن فصل الشتاء يتميز بالبرودة والصيف بالحرارة، وجعل المناطق الاستوائية آية تتميز عن غيرها من مناطق الفصول الأربع، وكذلك جعل المنطقتين القطبيتين آيتين متميزتين بالبرودة الشديدة، وهذه كلها نتاج الموازين المقسطة. ولذلك جعل الله تعالى فاكهة الشتاء تحتوي على مواد ومركبات تقي الإنسان أمراض الشتاء التي يسببها البرد، وكذلك فاكهة الصيف تحتوي على مواد ومركبات تمنع الجفاف بسبب الحرارة التي ينتج عنها التبخر، وكذلك جعل لكل شيء قوته حسب منطقته التي وجد فيها فالذي يسكن الجبل غير الذي يسكن السهل والوادي، والذي يسكن جوف البحر غير الذي على ظهر اليابسة، فسبحانه من مقسط عدل عالم لا يغفل عن النملة ونصيبها في جحرها ولا عن الحوت في جوف البحر مهما صغر، وللخليفة في ذلك درس

---

[٨٤٤] فاطر ١٩-٢١.

[٨٤٥] الرحمن ١٠-١٣.

[٨٤٦] الأنعام ٩٩.

أن لا يظن أن الله غافل عما يعمل الظالمون، فواجبه أن يعمل على ما يرضي ربه من الخيرات وان لا يبخل على أهل الأرض بما وجده من الرزق، والله المستعان.

هـ . توزيعه للرحمة والشدة بين عباده: فالله جل جلاله جعل أقواما رحماء وجعل أقواما قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة، قال تعالى: {فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ}[٨٤٧]، وهناك من الناس من جعله رحيماً وقت الرحمة وشديداً وقت الشدة، كما جاء في قوله تعالى: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا}[٨٤٨].الناظر إلى الآيات السابقة يرى عجبا أو استغرابا لماذا خلق الله تعالى كلا الأمرين، أما القسوة فكانت نتاج الكفر والجحود، وأما اللين والرحمة فكانت نتاج الإيمان، هكذا ظهر معنى القسوة الذي هو أساسه العناد وخراب الفكر وما بني على الباطل، واللين الذي هو أساس الرحمة والشفقة التي زرعها الله جل جلاله في قلوب خلفائه، ليملكوا بها ود الآخرين وليزدادوا إيمانا، وليكون قلب الخليفة لينا عليه أن يكون:

أ . مؤمنا إيمانا صادقا بربه وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، مصداقا لقوله تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ

---

[٨٤٧] البقرة٧٣-٧٦.

[٨٤٨] الفتح٢٩.

وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآَتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[٨٤٩].

ب . باحثاً عن رضا الله تعالى، والذي يكون نتاجه الحصول على فضله تعالى في الدارين كما قال تعالى: {يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا}[٨٥٠]، ويكون ذلك بالقربات التي أمرنا الله بها سواء أكانت مفروضة أم مندوبة، والذي يأتي بعمل الصالحات، كلٌ في ذلك سواء لا فرق بين ذكر وأنثى، قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا}[٨٥١].

ج . إحقاقه الحق وإزهاقه للباطل: فالحق هو أساس عدل الميزان أما الباطل على العكس، فبقسطه تعالى جل جلاله خلق الحق ليدمغ به الباطل فيصير زهوقا بإذنه تعالى، قال تعالى جل في علاه: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ}[٨٥٢].

د . تفرده بالألوهية: قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ}[٨٥٣].

---

[٨٤٩] البقرة١٧٧.

[٨٥٠] الحشر ٢٤١.

[٨٥١] النساء١٢٤-١٢٦.

[٨٥٢] الفتح١٦-١٩.

[٨٥٣] الفتح٢٢-٢٤.

ر . خلقه الفتنة للامتحان: تعرض بنو آدم من أول ما جاؤوا إلى الخلق لامتحانات، وكان الهدف هو اختبار الإنسان هل هو يستحق ذلك المكان العالي الذي تحدى به الملائكة البررة في أعلى العليين أو هو دون ذلك ليس لعدم معرفته تعالى بكنهه بل ليري ذلك للمخلوقات الأخرى التي تعجبت بتكريم رب العزة له دون غيره من المخلوقات ومن هذه الامتحانات الآتي:

١ . الامتحان من أول وجود آدم عليه الصلاة والسلام وبعدما خلق له حواء، وجعل لهما الجنة التي أراد الله له إعمارها والسكن فيها في رغد وهناء، وخلق له عدوا من قبل أن يخلقه، واستطاع ذلك العدو أن يستدرجهما بالرغم من التحذيرات المتكررة من ربه أن لا يتبعا رأي عدوهما ولكن حدث ما حدث عندما اقتربا من الشجرة التي نهاهما الله جل جلاله من عدم الاقتراب منها، قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آَدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آَدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا}[٨٥٤].

٢ . والامتحان الثاني كان لأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، بما تعرضوا له من عداوة الشياطين الجن والإنس، ومثال ذلك قوله تعالى في خطابه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: {لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآَيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آَيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ

---

[٨٥٤] طه١١٥-١٢٥.

أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى}[٨٥٥]. من هذه الآيات الكريمة نصل إلى أن زهرة الحياة الدنيا للفتنة لمن لم يأخذ حذره منها، وبذلك يجب على الخليفة أن لا يلتفت إلى الدنيا ومفاتنها بل يسعى لكسب الدنيا والآخرة بالصالحات، (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى).

ز . ميزانه لليل والنهار سواء في الطول والقصر، أو في الحركة والسبات: قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا}[٨٥٦]، وقال تعالى: {وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا}[٨٥٧]. قال تعالى: {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ}[٨٥٨]. {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ}[٨٥٩].

ح . ميزانه في فلق الأشياء: ويظهر ذلك في الآتي:

---

[٨٥٥] طه١٣١–١٣٥.

[٨٥٦] الفرقان٤٧.

[٨٥٧] النبأ٩–١١.

[٨٥٨] الأنعام١١–١٥.

[٨٥٩] الزمر ٥–٧.

أ ـ فلق الحب: قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}[٨٦٠].

فالق الحب والنوى، يقصد مخرجهما من الشيء الذي خلقه أولا كما أخرج آدم وحواء من الأرض (من التراب)، وبذلك كان خلق الذكر والأنثى من كل ما خلق لأجل التكاثر والبقاء إلى النهاية، (يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) يخرج المتحرك والمتكاثر من الثابت الذي لا يتغير إلا نسبيا ولا يتكاثر أبدا، مثل الأرض في ثباتها أرض، وتغير بني آدم من بعد آدم وحواء الذين أخرجهما من الميت (الأرض)، وسبحان الذي يحي الأرض بعد موتها، مصداقا لقوله تعالى: {يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَمِنْ آَيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ وَمِنْ آَيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آَيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٨٦١] ولهذا تتحسن الجينات وتسوء، وهذا الفلق هو الذي يستدل به على بداية الحياة، ودليل على وجودها، وهذه الآية توضح بجلاء وتحل مسألة كثيرا ما تنازع عليها العلماء، وهي أيهما الذي سبق الآخر الذكر أم الأنثى؟ فيقول جل جلاله: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٨٦٢] وقال تعالى: {وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى}[٨٦٣].

---

[٨٦٠] الأنعام٩٥.

[٨٦١] الروم ١٩ ـ ٢٤.

[٨٦٢] الذاريات ٤٩.

[٨٦٣] النجم ٤٥ ـ ٥٥.

أما قوله تعالى: (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) تعني: مخرج الأرض هو الله، فالأرض ميتة أي ساكنة ثابتة في ذاتها وهي متحركة بفعل قوة الحي الذي لا يموت وهو الله جل جلاله. أي أن كل مخلوق هو من الحي الدائم جل جلاله، وهذا هو الله الحي فلا تكذيب والحمد لله رب العالمين.

فلق الصبح: قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[٨٦٤]، فالله جل جلاله خلق الليل والنهار، للموعظة قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا}[٨٦٥].

ب . فتق السماوات والأرض: آيات الله العظام لا تحصى ولا تعد ولكن لمن آمن وأسلم وجهه لله وكان من المستخلفين فيها يدرك ذلك جيدا دون أن يراوده ظن أو حتى شك مصداقا لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[٨٦٦]. والفتق انفكاك وفصل بالقسط، ولذا كان الاتزان في الحركة والزمان دون أن يحدث الخلل، وهذه آية إعجازية مثل انتظام الشروق والغروب دون أن يقدر أحد على التبديل أو المساس بهذه المنظومة الإلهية.

ج . فلق البحر: الفلق بالقوة المُحكمة لا يتم إلا بقسط زماني وحركي وموضوعي، وذلك لأجل تحقيق غاية بالتمام، وهذا الفلق هو الفلق الموزون والمحسوب بالقسط. قال تعالى: {فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآَخَرِينَ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ

---

[٨٦٤] الأنعام ٩٦، ٩٧.

[٨٦٥] الفرقان ٦١، ٦٢.

[٨٦٦] الأنبياء ٣٠.

لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ}[٨٦٧]. والخليفة هو الذي يستمد قوته المقسطة من قوة المقسط المطلق فلا يقدم على شيء هكذا، بل لا يقدم إلا والغايات من وراء الفعل بينة لا لبس ولا غموض فيها، ولهذا لكل شيء حساب، ومن كل شيء قسط ولا يُظلم أحد.

ط .ميزانه في خلق الأرض: قال تعالى: {وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آَيَاتِهَا مُعْرِضُونَ}[٨٦٨]. الرواسي هي الجبال المثبتة لحركة الأرض وتوازنها واعتدالها بالموازين المقسطة للحركة والزمان، {لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٨٦٩] وهذه الرواسي موازين تحول دون حدوث أي اختلال بها سواء في حركتها حول نفسها أو في مسايرتها لمجموعتها في درب التبانة، هذه الجبال بقدر ما لها من الارتفاع إلى أعلى يكون ذلك لها في العمق داخل باطن الأرض، وهذا هو تفسير قوله تعالى: {وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا}[٨٧٠]، فسبحان الله الذي أوجد الميزان لكل شيء بهذه الدقة في الصغير والكبير، وجاء هذا التفسير جديدا بعد ظهور المناظير، والتقدم العلمي للأشياء، وليجدوا أن القرآن الكريم أثبت كل هذه الأمور في كلمتين خفيفتين في اللفظ ثقيلتين في المعنى، فهؤلاء العلماء ظنوا أنهم قد جاءوا بالجديد فوجدوه مكتوبا في كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، وليثبتوا هم أعداؤه بأنفسهم أن القران الكريم صالح لكل زمان ومكان، والحمد لله، وميزانه في خلق الجبال حيث لم يجعلها عوائق أمام من يريد أن ينتشر في الأرض، وذلك كما قال تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ). وهذا الميزان هو القسط فلو لم يكن يصاحبه وزن في السماء ما كان لميزان الأرض قيمة دونها، فالسماء بمثابة السقف للأرض وبذلك أضاف بقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا) كمالا وجمالا على الآية الكريمة وليخرس

---

[٨٦٧] الشعراء٦٣-٦٨.

[٨٦٨] الأنبياء٣١.

[٨٦٩] يا سين ٤٠.

[٨٧٠] النبأ٧.

بها أفواه الذين يلحدون في أسمائه وبأن له شركاء في الأرض والسماء، ولكن كما قال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}[٨٧١]، والخليفة بين هذا وذاك لابد أن يعمل على ما يحقق به الميزان بالقسط في الدنيا فيعمل على العدالة، وحسن التوجيه لنفسه وللآخرين، فيكون صادقا في ميزانه في أهل الأرض فيمهد الطرق والممرات ويزيل العوائق بصدق وإخلاص، وبذلك يستطيع أن يحقق الميزان بين بني البشر في السير على الأرض.

ي . ميزانه في خلقه للموت والحياة: قال تعالى: {وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[٨٧٢]، وهذا الميزان الذي جعله بين الحياة والموت، بحيث :

١ . لا يطغى الموت على الحياة فيفنى البشر، والمخلوقات والكائنات، والموت من ناحية أخرى له وقع على نفوس أقارب الميت؛ لما زرعه الله جل وعلا في نفوس الكائنات من الحنان، والشوق وحب الاجتماع والألفة، فكانت مصيبة بالنسبة لمن فقد أحد أبويه، أو أحد أقاربه وكذا وبهذه اللفظة جاء ذكرها في القرآن قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ}[٨٧٣]، وعلى المستخلفين أن يقابلوها بصبر ويقين بأن كل نفس ذائقة الموت، وعليه فعلى الخليفة أن يردد ما جاء في قوله تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ

---

[٨٧١] الفرقان٢.

[٨٧٢] الأنبياء٣٢-٣٥.

[٨٧٣] المائدة١٠٦.

إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[٨٧٤].

٢ . لا تطغى الحياة على الموت: فلو أن الحياة كانت في الدنيا أبدية لما قام أحد بعمل ينفع به نفسه أو غيره، ولذلك جعل الله الموت ليعلم ابن آدم أن الدنيا دار ممر وأن الآخرة هي دار المقر وبالتالي يكون جادا في الحصول على ما يرضي به ربه في آخرته، وذلك لا يكون إلا بالعمل الصالح في الحياة الدنيا ومن ثم يكون أداة خير ونماء، وهذا هو هدف المستخلفين على الأرض في أن يطيعوا ربهم حتى يرضى عنهم ويكونون قد فازوا بسعادة أبدية سرمدية وهي جنات عدن خالدين فيها أبدا كما قال تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[٨٧٥].

ك . ميزانه في خلق الإنسان من نفس واحدة: هذه النفس البشرية خلقت من نفس واحدة وذلك لحكمة يعلمها كما قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ}[٨٧٦]. ويستفاد من قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ) أن الله واحد لا شريك له؛ لأن هذا الخلق دليل على وحدانيته تعالى، ودليل على وجوده ودليل على كمال قدرته ودليل على علمه بمخلوقاته، والسؤال هنا الذي يطرح نفسه هل أمُنا حواء خلقت من ضلع آدم أم أن الآية لا تشملها؟ والسؤال الثاني يقول: هل سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام خلق من السيدة مريم أم لا فالقرآن دل على أنه مخلوق من الروح أو الكلمة؟ أما بالنسبة لخلق سيدنا عيسى حسب ما يقتضيه تفسير الآية من قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ) إن النشأة تختلف عن الخلق؛ لأن النشوء لا يدل على الابتداء بل يدل على النمو والزيادة. وعلى كل

---

[٨٧٤] البقرة١٥٥–١٥٧.

[٨٧٥] البقرة٢٥.

[٨٧٦] الأنعام٩٨.

ناحية فإن الذي أريد قوله: إن خلق بني آدم من نفس واحدة يظهر الغاية منها هو انتشار المساواة بين بنيه على ظهر البسيطة التي عليها نحيا ومنها نعود، فلو أنهم خلقوا من أنفس عدة لما استوت في المعاملة وبالتالي في الحساب، والله قادر على كل شيء ولكن لحكمة يعلمها، وحتى يخلق بيننا روح التنافس، إذا ما كان الجنس من نفس المادة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا}[٨٧٧] خلقكم من نفس واحدة: تعود على نفس الخالق الواحدة، أي أن الناس جميعهم مخلوقون من نفس الله عز وجل، مصداقا لقوله تعالى: {وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي}[٨٧٨]، وهذه دليل إثبات نفس الله الواحدة، وخلق منها زوجها: أي أن النفس الواحدة هي نفس الله تعالى التي خلقت الزوجين الذكر والأنثى، ولذا فكلمة زوجها لا تخص الذكر لوحده ولا تخص الأنثى لوحدها، ولكنها ضمير يعود على الزوج الذي هو يعد ويثنى، ومن ذات الجنس والنفس، ومن هذين الزوجين (الذكر والأنثى) كان التكاثر رجالا ونساء.

وعليه قلنا أن حواء لم تكن من ضلع آدم كما يدعي البعض اجتهادا بل هي من ذات النفس التي خلقت منها نفس أبونا آدم عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[٨٧٩].

ل . ميزانه وإقساطه في السماوات والأراضين: قال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[٨٨٠]، الله جل جلاله خلق وأبدع السماوات والأرض بغير مادة يحتاجها أو زمن يحبسه عليها فيكون منشغلا بها دون غيرها، وفي هذا رد على من يظن أن الله كل يوم هو في شأن، أو أن الله تعالى ينسى، حاشا لله أن يضل

---

[٨٧٧] النساء ١.

[٨٧٨] طه ٤١.

[٨٧٩] الذاريات ٤٩.

[٨٨٠] الأنعام١٠١.

أو ينسى، فالله ليس محتاجا لأنه قادر على خلق كل شيء دون الحاجة إلى أبناء أو زوجة أو شريك، ولذلك جاء ذكر العون من الأبناء والأزواج ردا على من يظن ذلك، لأن هذا الخلق الكبير وبهذا الوزن الدقيق مع سعته وكبر حجمه، ربما احتاج إلى مساعدين ومعاونين حتى جاء على هذا النسق العجيب والغريب فالمقسط هو الذي أبدعها، وجعلها سبعا شدادا، ومن ثم جعل من الأرض مثلها، فالسماء زينها بالكواكب والنجوم، وحفظنا بها من كل شيطان مريد، قال تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ}[٨٨١]، وقال تعالى: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}[٨٨٢]، وقال تعالى: {وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا}[٨٨٣]، أما الأرض فقد جعلها ممهدة من جهة وجعل فيها الجبال لتثبتها من جهة أخرى، وذلك ليسهل على الخليفة إعمارها، وعمل الصالحات فيها، وجعل فيها نعم لا تعد ولا تحصى، ومصداقا لذلك قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا}[٨٨٤].

م . إقساطه في توزيع المطر: قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[٨٨٥]، وقال

---

[٨٨١] الصافات٥-١٠.

[٨٨٢] فصلت١٢.

[٨٨٣] النبأ١٢.

[٨٨٤] النبأ٦-٨.

[٨٨٥] الروم٤٨-٥٠.

تعالى: {وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}[٨٨٦]، إن الله تعالى خلق الأرض، وخلق الإنسان ليعمرها بالخير والبركة، ووزع في الأرض أقواتها، فجعل المطر وتوزيعها لكل جهة حسب ما تحتاجه، والمطر أنواع:

ـ مطر جعل البركة في قطراتها لمن أراد بهم خيرا، قال تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}[٨٨٧]، فهذه المطر وما تحمله من البركة، والبركة يراد بها المضاعفة واستمرار الرزق، فهي التي تسقي الحب بأنواعه المختلفة، فتنتج سنابله مئات الأضعاف، قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[٨٨٨]، والله جعل لكل مكان موسما يستقبل فيها الأمطار ويقابل ذلك إنتاج الحب وأنواعه، والثمار وأشكالها، فجعل كل ناحية لها نوع يختلف عن أي ناحية بما يناسب حياتهم ومناخهم فجعل للشتاء حباً وفاكهة تختلف عن التي تظهر في فصل الصيف، وجعل للذين يقطنون في المناطق الباردة حباً وفاكهة بما يقيهم البرد، وهذا الذي ورد في سورة قريش في وصف حياة أهل مكة وما جاورها، قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}[٨٨٩]، فقد مَنَّ الله عليهم بنعمتين:

أ – الأمن من الخوف: وذلك في زمن كانت القبائل يأكل فيها القوي الضعيف دون رادع أو وازع، فتحصلت قريش على هذه النعمة العظيمة.

ب – الطعام: الذي كان متوافراً عندهم برحلتين:

---

[٨٨٦] النبأ١٤–١٦.

[٨٨٧] ق٩–١١.

[٨٨٨] البقرة٢٦٢.

[٨٨٩] قريش١–٤.

أحدهما: في الصيف إلى الشمال حيث بلاد الشام التي يكون فيها المنتجات الصيفية قد نضجت، وليغطي بها أهل قريش فترة الشتاء.

وثانيهما: إلى بلاد اليمن حيث موسم النضج بالنسبة للحبوب والثمار المختلفة تنضج في فصل الشتاء؛ لأن أمطارهم موسمية صيفية، بذلك يكون أهل مكة وما جاورها من قبائل قد ضمن الله لها الرزق بما جعله المقسط جل جلاله من التوزيع الذي يضمن حق كل أحد، وحكمة هذا الاحتياج لهاتين الرحلتين جعله الله جل جلاله سببا لزيادة الروابط بين الناس وليعلم كل إنسان أنه في حاجة أخيه، فعليه أن يربط نفسه بأبناء المجتمع لا أن يبتعد عنهم فيكون بذلك قد حرم نفسه من أشياء وفوائد كثيرة، منها ما نعلمه ومنها ما لا نعلمه، وكل هذا التوزيع هو توزيع قسطي بعد المقسط جل جلاله. وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٨٩٠]، فقوله تعالى: (وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ) فترى الفاكهة تتشابه في لونها وتختلف في طعمها كما هو في الزيتون والرمان وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[٨٩١]. والبركة في قطرات الماء يكون وفق ما يرضاه الله، فهذا الخليفة يكون رزقه مباركا إذا استوفى شروط البركة، وهذه الشروط تتمثل في:

١ . الطهارة : وطهارة الرزق يكون بالزكاة، في جميع أصناف المنتجات، كما قال تعالى: (كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ)، فمن دفع حقه يوم حصاده سواء أكان العشر أم نصف العشر يكون قد نظف رزقه من الأدران والأوساخ، وبما صحبه من الصدق وحسن النية التي هي أساس العمل وخوف العقاب ورجاء الثواب في الدنيا والآخرة، وهذا هو دأب الخليفة في

---

[٨٩٠] الأنعام٩٩.

[٨٩١] الأنعام١٤١.

أرضه، فكلما كان مطيعا كلما ازداد قربة من ربه تعالى، وذا ركن من أركان الشريعة الغراء وبما نزل به الوحي من السماء.

٢ . عدم الإسراف: قال تعالى: (وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)، وقال تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[٨٩٢]، فالإنسان إذا زاد عنده الرزق لابد له من أن يحفظه في مكان أمين عن الآفات؛ ليتقي به السنين المستقبلة، ولا يجعل أهله وقومه عالة على غيرهم، فلابد أن يفكر في طرق الحفظ، وهذا هو من موجبات الخليفة، وليكن لنا من قصة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام درسا وفائدة نستقبل بها ما هو محتمل الحدوث، قال تعالى: {وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ}[٨٩٣]، فالحب الذي يبقى في سنبله يكون أقل عرضة للسوس من ذاك الذي أُخرج منها، وهكذا استطاع الخليفة أن يخرج قومه من أزمة خانقة استمرت سبع سنوات دون أن يحتاج للتسول والاستلاف من الأمم الأخرى فيبقي شعبه مرفوع الرأس وذلك بما عمله من الحفظ وعدم الإسراف.

أما مطر العقاب والعذاب – والعياذ بالله – : ومطر السوء أنواع منها:

١ . مطر الحجارة: والتي ورد ذكرها في القرآن في قصة قوم لوط، والذين كانت لهم خمس قرى ولكنها ظلمت نفسها وخرجت عن أمر خلفائها فجاءهم العذاب من فوقهم بتلك المطر وما بقي لهم من آثار، بين بلاد الشام وأهل مكة، ولكن هل اتعظ أهل مكة في ذلك الوقت قبل مجئ

---

[٨٩٢] الإسراء٢٥-٢٧.

[٨٩٣] يوسف٤٥-٤٩.

الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إليهم؟ بالطبع لا، والسؤال يقول: لماذا لم يتعظ أهل قريش أو غيرهم في تلك الفترة مما يرونه من دمار فنيت فيه خمس قرى بأكملها؟ الجواب عن هذا السؤال ورد في قول تعالى: {أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا}[٨٩٤]، فالذي لا ينتظر العودة أو جحدها لأي سبب كان لا يعطي الأشياء حقها في التفكر والموعظة والتي لا ينتظر من تلك الموعظة والتفكر الأجر العظيم، والآيات بتمامها قال تعالى: {وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آَلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا}[٨٩٥]،

٢ . مطر الماء الغزير: وهو ما حدث مع قوم نوح عليه الصلاة والسلام، فقد وردت القصة بتفاصيلها في سورة هود، قال تعالى: {قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ

---

[٨٩٤] الفرقان ٤٠.

[٨٩٥] الفرقان ٤٠–٤٣.

وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ}[٨٩٦]،

٣ . مطر السجيل: هذه الحجارة لم يكن سقوطها على هيئة مطر من السماء مباشرة، بل كانت تحملها طيور لم تألفها العرب من قبل، وأصحاب الفيل قوم جاءوا من اليمن؛ ليهدموا الكعبة الشريفة، والتي تكفل الله بحمايتها، فحل عليهم أمر الله جل في علاه، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}[٨٩٧].

س . ميزانه في مراحل العمر: فقد خلق الله الحيوان عمره أطوار وكل نوع له كيفية في مراحل عمره فنجد بعض الحيوانات تعيش سنة أو أقل من ذلك، فتكون القدرة على الحركة أسرع من تلك التي تعيش عشرات السنين كالإنسان مثلا، فالله جل جلاله جعل لكل عمر مرحلة من القوة والضعف فقد قال تعالى في ذلك: {مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا}[٨٩٨]، فالجنين يتكون في بطن أمه على مراحل، ومدة هذه المراحل تختلف طولا وقصرا

---

[٨٩٦] هود٣٢-٤٩.

[٨٩٧] الفيل١-٥.

[٨٩٨] نوح١٣-٢٠.

من مخلوق إلى آخر، تبعا لحجمه وصنفه ونوعه، والنكتة في وجود هذه المراحل هو رؤية الإنسان كيف يخلق الله جل في علاه المخلوقات ولتكون له درسا وعظة، ودلالة على وجود خالقه ليكون أقرب للإيمان منه للكفر والجحود ويكون جاهزا لاستقبال الرسل والأنبياء الذين يتم إرسالهم لكل قوم من الأقوام، والخليفة هو الذي يُرِيَ الناس ذلك حتى يكتمل عمله ورسالته تجاه ربه سبحانه، قد وصف الله تعالى مراحل نمو الجنين في كتابه العزيز مما أعجز العلماء وأيقن كثير منهم أن القرآن ليس من كلام البشر، بما حققه من المعجزات الربانية، والذي جاء قبل أن تكون هناك تقنيات وتصوير وتدقيق، قال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ}[٨٩٩]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[٩٠٠].

ع . ميزانه في الصلوات المفروضة والمسنونة: والتي هي صلة العبد المباشرة مع ربه، وهذه الصلة التي لم يرد الله جل جلاله لها الانقطاع، جعلها خمس صلوات في اليوم والليلة، قال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[٩٠١]، وقال تعالى: {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ

---

[٨٩٩] الرعد٨ ،٩.

[٩٠٠] الحج٥.

[٩٠١] هود١١٤-١١٥.

عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى} [٩٠٢]، وقال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} [٩٠٣].

ف . ميزانه في إرسال الرسل: بحيث جعل لكل أمة شرعة ومنهاج فبعث الأنبياء والرسل برسالات خاصة ورسالة عامة ختمها بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وكان الهدف الظاهر من إرسالهم هو هداية الناس إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: {حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ} [٩٠٤]، من هذه الآيات الكريمة يتضح لنا جليا لماذا أوجد الله جل جلاله الرسل والأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأزكى التسليم:

١ . رحمة بعباده رب العالمين، قال تعالى: (إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ).

٢ . رفع الشك الذي ملأ به الشيطان قلوب الناس، قال تعالى: (رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ).

٣ . التحذير ورفع الملامة بعدم العلم، قال تعالى: (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرَى وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ

---

[٩٠٢] طه١٤-١٦.

[٩٠٣] العنكبوت٤٥.

[٩٠٤] الدخان١-١٦.

مُبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ). وبهذا كان ولا يزال مقسطا في خلقه إلى أن يلقوا خالقهم الذي أحصى كل شيء وعده عدا.

ص . ميزانه في المواقيت وتقسيمها بدقة متناهية من الثانية إلى الدقيقة إلى الساعة إلى اليوم، ثم إلى الأسبوع إلى الشهر، إلى السنة إلى العقد إلى القرن إلى الدهر إلى العصر، والذي نتج عنها تنظيم حياة الناس اليومية كالصلوات الخمس، والسنوية كالحج والزكاة، هذا في العبادات، وأما الحياة الأخرى وما نتج عن معرفته من تنظيم بديع للفصول الأربعة وما يجب أن يستعد له من الحرارة والبرودة، فقد جعل الله تعالى ما يقيه ذلك سواء من حيث الملبس والمسكن، والإقامة والرحيل، قال تعالى في كتابه العزيز: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ}[٩٠٥]، فالله تعالى جعل لنا من الجبال المادة التي نبني بها ما نكنُّ إليه في الصيف والشتاء، وجعل كل ما يحتاجه البناء من أصل ما كُوِّنَ به الجبال كالإسمنت والحديد وطوب البناء وغيرها مما يحتاجه الإنسان في مراحل البناء المختلفة، فالخليفة تجاه هذه النعم يجب أن يكون شكورا مطيعا لربه ليكون مقسطا بالإضافة إلى ربه بما يقدمه من شكر على هذه النعم التي لا تعد ولا تحصى، وبما يجب عليه من حسن استغلال دون تبذير أو إسراف ولا يعبث بالطبيعة؛ لأن كل ما فيها مخلوق بميزان في منتهى الدقة والحساسية، وإن ما نراه اليوم من عبث وفساد سواء بالتدخل في تكوين الخلايا وما تحمله من مورثات جينية، هذا في المنظار الدقيق، أو على مستوى الجبال والبحار والقمم الجليدية وما يحدث فيها من الذوبان المفاجئ، وما أحدثه الإنسان من خروقات في الغلاف الجوي، وما ظن

---

[٩٠٥] النحل ٨٠-٨٣.

أنه يعمل على إعمارها وهو يحدث العكس، وما قام به من صناعات مدمرة تأتي على الأخضر واليابس.

إذن المقسط هو الله جل جلاله محق الحق، وهو الذي لا يظلم أحدا، وهو الذي جعل كل شيء موزوناً في زمانه وحركته وسكونه أو ثباته، ولأنه المقسط جعل كل شيء بيده رحمة على العباد، وهو الذي في توزيعه يعدل فجعل لكل شيء نصيباً موصولاً لا يقطعه أحدا.

وعليه فالمقسط هو الموسع على مخلوقاته بالنعم والفضائل وهو الذي لا يقصي أحدا من أخذ نصيبه منها والخليفة هو المقسط بالإضافة وهو الذي يدرك حقه ويعمل على بلوغه ويعرف واجبه ولا يتأخر عن أدائه ويعرف مسؤولياته فيقدم على حملها. ولهذا يعد الاستيعاب قيمة احتوائية لا إقصائية، تعتمد تقبل الآخر والاعتراف بوجوده وبممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته. واستنادا على مبدأ التقبل يستوعب الخليفة ذوي العلاقة به من بني جنسه كما هم لأجل أن ينقلهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه. ولذا لا تتم دراسة الحالات ولا تتم عمليات التفاوض ولا تُحل المشاكل بين الناس إلا بالاستيعاب الذي يُحفّز على التقارب ويؤدي إلى التفاهم.

والاستيعاب قيمة إنسانية تؤسس على افتراض قبول الآخر كما هو فيه خير كثير، ولذا على الخليفة إذا أراد أن يحث على أفعال الخير ألَّا يغفل عن الآتي:

١ ـ استيعاب الإيجابيات، والتأكيد عليها، ونقلها للآخرين بوسائل مبسطة، تمكنهم من التعرف عليها، وتحفِّزهم على العمل بها.

٢ . استيعاب السلبيات، وتحديدها، وإبراز عيوبها وأسبابها والعمل على إزالتها، وتنقية الموضوع منها، وتبيان الأضرار التي قد تنجم عنها.

وبناء عليه لم يكن الخليفة مستوعبا لبني جنسه ليتركهم على ما هم عليه بالتمام بل ليسهم في تغيير أحوالهم فيما يرضي الله تعالى، ولم يكن غرضه تثبيت المعلومات كما هي (سالبها وموجبها) بل أنه تحليل تثبيتي إزالي، يُثبِّت المعلومات الموجبة، ويزيل السالبة، ولهذا يتم

استيعاب المعلومات السالبة كما يتم استيعاب المعلومة الموجبة، من أجل معرفة نقاط الاتفاق والاختلاف، حتى تتم عمليات التثبيت للموجب المُفضَّل، والإزالة للسالب غير المفضل.

وعليه يعد الاستيعاب قيمة احتوائية، تقبل بالاختلافات وتعمل على احتوائها. من طبيعة الخلق لا يتساوون في القدرات والاستعدادات والمهارات ولا حتى في الرغبات والحاجات، ولا في درجة الفهم والمعرفة، ولذا فمن الضرورة سيكون الاختلاف الذي يستوجب التقدير، حتى تتمم الفروق الفردية بين الناس بعضها البعض. ولهذا كل مفردة هي في حالة نقص، ولا تستكمل إلا بآخر يستوجب الاستيعاب. وإن لم يحدث الاستيعاب تصبح الفرقة بين الناس هي السائدة، ولأجل ذلك فإن قيم ممارسة الأفعال المقسطة وحدها التي تمكن من الاستيعاب. وبدونها لا يمكن أن يتحقق التفهم والتفاهم بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.

والاستيعاب عملية تفاعلية بين الأنا والآخر تعتمد على القيم الآتية:

١ . الفهم: فهم الموضوع أو الحالة والإلمام التام بها، من حيث تاريخها، وما يؤثر فيها بالسلب والإيجاب، وفهم متغيراتها وعللها وأسبابها ومراميها والغايات التي من ورائها.

٢ . التفهُّم: إلمام بالظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، والنفسية والذوقية والثقافية التي تلم بالعميل، ومراعاة آثارها على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي حتى لا تسود المظالم ويتم الانحياز لأحد على حساب الآخر.

والتفهم إلمام بالموضوع والظروف المحيطة به والمعطيات التي أظهرته على السطح أو أنتجته بين الأيدي، وهو دراية عن كتب ومعرفة تامة بأسبابه وعلله ومبرراته وخفاياه المؤلمة والمفرحة السالبة والموجبة.

إنه تقدير للظروف التي أثرت على سلوك الأفراد، وهو دراية بما ينبغي أن يتم حيالها، وكيف ومتى وأين يتم؟.

التفهم قيمة تقديرية يُقدِّر فيها الأنا الآخر. ويفسح له مجالا واسعا يسمح له بالحركة والامتداد الحر، وباعتماد التفهُّم قيمة بين الأفراد والجماعات والمجتمعات تقدّر ظروف كل خصوصية

وتحترم مما يؤدي إلى تفعيل مبدأ التقبل الذي يترتب عليه تأثير وتأثر موجب، وتخفيف للآلام وعلى ضوئه يتحقق التوافق الاجتماعي.

وعليه فالتفهَّم يُمكَّن من الاستيعاب، وبما أنّ التفهّم يُمكّن من الاستيعاب.

إذن لماذا لا يفسح المجال بين بني آدم من الاطلاع على كل ما من شأنه أن يؤدي إلى الاستيعاب؟.

وبناء على القيم المتضمنة في النظرية الاجتماعية (الإنسان اجتماعي بطبعه) فان التفهَّم الذي به يتم تقدير الحالة وظروفها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية والذوقية والثقافية هو المُمكن من تأكيد وتحقيق قيمة الاستيعاب بكل إرادة.

ولهذا على الخليفة بالآتي:

. تفهَّم ظروف الآخر.

. تفهَّم الواقع كما هو.

. تفهَّم الصعوبات التي تواجه بني آدم.

. أن يكون مقدرا لأحوال الناس وظروفهم.

ـ أن لا يصدر أحكاما مسبقة فعليه بالتبيُّن. قال تعالى: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ}[٩٠٦].

. أعطِ الفرص وافترض خيراً.

. اعرف أن كل شيء ممكن.

---

[٩٠٦] ص ٢٣ ـ ٢٦.

بناء على ذلك فإنه يلحظ أن في الاستيعاب تكمن الرغبة، والرغبة هي طاقة استيعابية. ولهذا لا استيعاب بدون رغبة.

وعليه: على الخليفة أن يهيئ الناس للاستيعاب، إذا أرد العمل معهم من حيث هم إلى حيث ما يجب، لأجل إحداث النقلة التي لها يُصنع المستقبل.

٣ . الاعتراف: الاعتراف بالفرد أو المواطن أو العبد من حيث أن له حقوقاً ومن حقه أن يطالب بها ويمارسها. وأنّ له واجبات ويقدم على أدائها. وأنّ له مسؤوليات فلا يتأخر عن حمْلها، وتحمّل ما يترتب عليها من أعباء. الاعتراف قيمة اثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكل في نيلها من الكل، فهي تربط الفرد بالمنزلة، وتربط الخصوصية بالمكانة. ومع أن العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح. ولذلك فإن جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع. ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف. ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولا من أبائهم وثانيا من الآخرين. وهكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به. وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكل قاعدة شواذ.

ولذا فمن الضرورة أن يشعر الخليفة سواء كان فردا أو جماعة أو مجتمعا بأهميته وأن يعترف له بوجوده وبمقدرته على العمل والمشاركة والتفاعل والعطاء بلا حدود إلى النهاية.

٤ . التقدير: تحسيس بني آدم بأنه قيمة في ذاته، وأنه مُقدَّر في شخصه وفي قراراته، ومشاعره وخصوصيته، وفيما يرغب أو يقبل أو يرفض. التقدير قيمة تقييميه، تربط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات. وقيمة عليها يكون التسابق بكل قوة مع المحافظة على المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة، وبناء على النتائج المنجزة تتميز كل خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين. ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين الناس إذا لم يمارسوا الحرية بأسلوب ديمقراطي.

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكلة وتحديد احتمالات اتجاهات تطوُّرها والمتغيرات المتداخلة معها، وتحديد دور الخليفة حيالها وفقا لدائرة الممكن المتوقع السالب والمتوقع الموجب، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب.

التقدير مطلب يُشبع رغبة، مما يستوجب من راغب في ممارسة السلطة أو امتلاك الثروة، أن يحس بتماثل حاجات الآخرين له في ممارسة هذه الحقوق وامتلاكها. ولذا عندما يصل (الأنا والآخر) إلى هذا المستوى من التقدير ينال كل منهما نصيبه بإرادة، ويتمكنان من العيش سويا في المكان والزمان الواحد، وينال كل منهما مكانة عند الآخر، مما يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض وأن كلاً منهما على درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها أو يَغفل عنها، وهكذا يكون الخليفة على أرضه.

والمقسط هو الذي جعل الخليفة في حالة توافق مع ما أمر به ونهى عنه، فهو لا يعتدي على حق الآخرين وما حلل لهم المقسط من نصيب، وهو المنتهي عما نهى عنه ولا يظلم أحدا، ولذا فالتوافق قيمة تحقق الرضا بين المستخلفين فيها على المحبة وأخذ الحق وأداء الواجب وحمْل المسؤولية.

والتوافق انسجام إرادي، تتماثل به الأقوال والأفعال بملائمة على الموضوع بين المستخلفين فيها، ويتضمن التوافق انسجاما ومشاركة موضوعية تتطابق فيها وجهات النظر أو الأفكار، ما يجعل المشاركة بين الطرفين موجبة لتساوي كفتيهما بإرادة. وهذا لا يعني أن لا يكون التوافق سالبا، فمثلما يتوافق الإصلاحيون كذلك يتوافق المفسدون، والفرق بينهما الموضوع والغايات التي من ورائه. ولذلك يكون التكيف للضرورة، ويكون التوافق للوجوب. والتوافق يؤدي إلى مغالبة الصعاب والتكيف يؤدي إلى التسليم إليها. ولذا فالتكيف في مضمونه السلبية إلا إذا كان مترتبا على عملية توافقية. وفي التوافق يكون للإنسان رأي ومشاركة بدون ضغوط من أحد، أما التكيف في معظم الأحيان فلا.

التكيف موائمة نفسية بين الفرد أو الجماعة والبيئة التي هم فيها أو البيئة التي تحيطهم، بعد القبول الضمني بتقديم التنازلات، أو القبول بالتغيير بما يتناسب مع من هم في حاجة للتكيف. ولذا فالسجين في بداية أمره لا يمكنه التكيف مع السجن، ولكن بمرور الزمن يتكيف مع السجن كأمر واقع لا مفر منه، ومهما تحقق له من تكيف مع السجن والسجانين، لا يمكن أن يتوافق معهم ولا مع السجن، ما يجعل الفرق كبير بين التكيف الذي لا يتم إلا بتنازلات وبين التوافق الذي لا يتم إلا بإرادة، وبدون تقديم تنازلات. ولذلك فالتكيف تآلف وتقارب يتم به تعديل السلوك أو تغيير اتجاهه وفقا لِما هو كائن، ومثل هذه السلوكيات لم تكن نتاج أفعال المقسط الرؤوف بعباده وهو الرحمن الرحيم، إنها صفات المفسدين الذين هم بأفعالهم وأقوالهم يظلمون ويتبلون على الناس بما ليس فيهم فيجعلونهم بين الجدران مساجين وحينها يريدونهم أن يتوافقوا مع السجون التي لا تتوافق معها حتى الجرذان، ومع ذلك قد يكون لهم مع التكيف جلسة أو موعد. ولذا فالمقسط لا يظلم أحدا أما غيره فمن الظالمين.

وعليه الاستيعاب قيمة امتدادية ترسي قاعدة القبول بين الأنا والآخر وفقا لقاعدة النسبية حيث لا مطلق إلا من عند الله تعالى، ولأن الإنسان اجتماعي بطبعه، لذا فإن استيعاب البعض للبعض هو الذي يؤدي إلى توسيع دائرة القبول والرفض التي تؤسس قاعدة للتعامل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات.

وبما أن الاستيعاب قيمة احتوائية تطوى الهوة بين الأنا والآخر.

إذن:

القاعدة هي:

الاستيعاب يطوي الهوة.

والاستثناء هو:

الإقصاء يزيد الهوة اتساعا.

ولهذا فالاستثناء هو الاستثناء.

ولتوضيح ذلك، علينا أن نجيب على السؤال: كيف يصبح الاستثناء هو الاستثناء؟.

عندما تستثني جماعة ما عضوا من أعضائها من المشاركة، أو يستثني مجتمعا ما جماعة من جماعاته من المشاركة، فإن هذا الاستثناء يخالف القاعدة التي تستوجب مشاركة كل أعضاء الجماعة دون استثناء.

ولهذا فالمشاركة استيعابية، وهذه قاعدة.

والاستثناء لا استيعابي وهذا استثناء.

الصحيح أن يتم الاستيعاب.

والاستثناء تتخذ مواقف من البعض فلا يتم الاستيعاب.

ولأن في الاستيعاب القوة وفي الاستثناء الضعف.

إذن القاعدة هي:

في الاستيعاب القوة.

والاستثناء هو:

في الاستثناء الضعف.

ولهذا الاستيعاب قيمة احتوائية تطوي الهُوة بين الأنا والآخر.

والاستثناء يزيد الهوة بينهما.

ووفقا لقاعدة المتوقع وغير المتوقع، يمكن أن يكون الضعف قوة استيعابية، ويمكن أن تكون القوة ضعفا استثنائيا.

على سبيل المثال: طاعة الوالدين.

هل هي ضعف أم قوة؟.

الإجابة الموضوعية أنها تقع في دائرة الممكن.

كيف؟.

من ناحية أنها قوة إيمانية (طاعة الوالدين في غير معصية الله واجبة).

ومن ناحية عقلية منطقية مجردة. فهي القبول بالخضوع، بتنازلات قد لا تكون مرضية للأنا (على عكس من رغباته أو طموحاته) ولهذا قد ترغب الأنا الإقدام على فعل الشيء، وفي الوقت ذاته تواجهها قوة ممانعة أو رفض من الوالدين أو أحدهما.

وهكذا الحب أيضا هو الآخر ذو أثر قوة، وأثر ضعف في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع).

ولذا فالحب قوة موجبة، وقوة سالبة.

قوة موجبة: حيث يُمكّنك من استيعاب الآخر بلا تردد.

وهنا نلحظ شيئين متناقضين هما:

الاستيعاب الموجب: الذي فيه فُسحة للنفس وللذوق الرفيع ولقوة الحواس، حيث ينقلك من مواقع الغفلة إلى قمم الفطنة، التي تمدك بالصحوة في كل حين، وتفتح عليك آفاق تُمكّنك من نيل الاعتراف والتقدير، وتجعل مشاعرك في حالة فيض كلما تُبادل. وهنا يكون الحب قوة تمركز التعادل بين المحبين بالقسط الحق، والخليفة المقسط هو الذي لا يكون في نفسه حب على حساب حب آخر، أي لا ينبغي أن يكون حب الوالدين على حساب الدين الذي ارتضاه الله تعالى، ولا يكون حب الزوجة على حساب حب الوالدين اللذين يستوجبا الطاعة في غير معصيته عز وجل، ولا حبهما على حساب حب الأبناء ولهذا المقسط بالإضافة هو الذي في حبه عدل وتقوى وتوازن دون ميل. فكلما امتدت مسافة لتملأ الآخر مودة تقدم نحوك بالتماثل ليملؤك ودا. حينها يكون الحب بين (الأنا والآخر) قوة استيعابية، تُمكّن من الإبداع والعمل المنتج والتحدي لمواقع الضعف.

الاستيعاب السالب: هو الذي يجعلك في حالة تنازلات كلما فكَّرت في الابتعاد، أو الانفصال، حيث لن تطيق الفراغ من بعده (بعد غزوته) التي جعلتك أسيرا بلا قوة.

والذي يسيطر عليك هنا ليس القوة، كما تعتقد، بل الضعف (القوة السالبة للإرادة) ولذا وفقا لقاعدة المتوقع ستكون أسيرا خائفا مترددا.

أما بالنسبة لغير المتوقع فمن الممكن أن تقبل بدفع الثمن وتنفض الغبار من على ظهرك. ما يجعلك في حالة استرداد للقوة. وتأكد أنك تستطيع أن تفعل إذا كانت الغزوة استعمارية استعبادية أو استعلائية. أما إذا كان ودا متبادلا إراديا فيكون الحب قوة.

وعليه، الحب قوة غازية متحدية ليتها لا تغيب عن ذكر الله ويا ليتها لا تنفصم عن حبه.

وفي كلتا الحالتين الحب قوة بضعفه وبقوته. ولهذا لو لم يكن الضعف قوة ما كان له الأثر السالب، ولو لم يكن الحب قوة ما كان له الأثر الموجب.

ولهذا فإن الهُوة بين الأنا والآخر لا تُطوى إلاَّ بالاستيعاب بدون إكراه حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الحق من المقسط جل جلاله.

ولذا فإن طي الهوة يتطلب الأتي:-

. تقبل الآخر كما هو، حتى لا تُزوَّر صفاته التي تميزه عن الغير.

. التواصل مع الآخر اجتماعيا وإنتاجيا وسياسيا ونفسيا وذوقيا وثقافيا وأخلاقيا قسط بقسط دون مبالغة في الزيادة والنقصان.

. التعامل بشفافية ووضوح فإن الحق بيِّن لا لبس ولا غموض فيه فلا داعي للتستر.

. التجرد من الأنانية، التي بها يحدث الميل عن الحق مما يجعل صاحبها فاقد لصفة المقسط التي بها يعتدل في القول والفعل ويعدل إذا حكم بين الناس، ولهذا الخليفة هو من يأخذ حذره حتى لا يميل كل الميل.

. الاعتراف بالآخر هو كما هو دون فرض رؤية إكراها.

. التطلع لما يجب، وهو المستهدف بالتغيير للحق.

. التقييم بمنظور معياري يمكن قياسه بالمنافع والفوائد المسببة في الإصلاح.

. استيعاب الخصوصية.

. الإقرار بوجوبية أخذ الحقوق، وبأحقية أداء الواجبات، وبأهمية تحمّل المسؤوليات.

. التقدير لمن يجب ولما يجب.

وعليه فان القاعدة هي:

١ . الاستيعاب احتوائي.

٢ . الاستيعاب طاوي للهوة.

والاستثناء هو:

١ . الإقصاء إبعادي.

٢ . الاستيعاب لا يطوي الهوة.

ولذا فإن أخذ الحق والمطالبة به قاعدة، الحرمان منه استثناء. وبالتالي يجب استيعاب من له الحق وإعطائه له. أما من يُستثنى ويحرم من حقه، فهو في حاجة للمساعدة الهادفة مما يجعل دورا في إحقاق الحق بالقسط. قال تعالى: {وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[٩٠٧].

إذن تقبل الآخر كما هو فعل استيعابي من ورائه غاية.

وبما أن تقبل الآخر كما هو فعل استيعابي.

إذن:

لا تقبل إلا لآخر أو من آخر.

ولهذا فالاستيعاب فعل لطي الهوة بين المستوعِبْ والمستوعَبْ.

ولا يمكن أن يتم الاستيعاب إلا بإعطاء فسحة للامتداد المتبادل مع قبول كل طرف للطرف الآخر.

ولأنه كذلك فان الاستيعاب قيمة إرادية.

لذا فان القاعدة هي:

١ . الاستيعاب امتداد متبادل.

---

[٩٠٧] الكهف ٤٩.

٢ . الاستيعاب قيمة إرادية.

والاستثناء هو:

الاستيعاب امتداد بلا تبادل.

الاستيعاب قيمة لا إرادية.

وبما أن تقبل الآخر كما هو فعل استيعابي.

إذن:

. تقبله كما هو.

. بادله التقدير.

. بادله الاعتراف.

. بادله الاعتبار.

. عامله بشفافية.

. عامله بلين ومرونة.

وعليه:

. تمسّك بالقيم الأخلاقية وابتعد عما يبعدك عنها.

. قدَّر الآخر يُقدِّرك.

– تمسّك بالقيم التي تطوي المسافة بينك وبين الآخر.

. تقبل الآخر كما هو واعمل على تغييره إلى ما يجب.

. استوعب الآخر الذي باستيعابه يزوُّدك بالمنفعة.

. استوعب الآخر الذي هو في حاجة للمساعدة.

. اعمل مع الآخر لأجل أن تحدث لكم النقلة.

. اعترف بالآخر يعترف بك.

. اغرس الثقة في الآخر يغرس الثقة فيك.

ولهذا فإن الغاية من وراء العملية الاستيعابية هي: أن الإنسان قيمة في ذاته. ولأنه قيمة في ذاته، فإن تقبُّله واجب قيمي.

ولهذا الاستيعاب القيمي قاعدة والانسلاخ عنه استثناء.

وعليه:

. لا تكن أنانياً فالأنانية نقيصة.

. لا تكن انسحابيا فالانسحاب عيب من المواقف الموجبة.

. احترم ذاتك يحترمك مجتمعك ويُقدّرك الآخرون.

. تطلّع إلى ما هو أفضل تحدث لك النقلة وتصنع لك مستقبلاً خيِّراً.

. كن موضوعياً تنال الاحترام والتقدير وتكسب الهيبة.

ولذا فالاستيعاب أفعال عمدية لقرار مسبق.

من أجل ذلك، يتعّمد الطبيب استيعاب مريضه. ويتعّمد الأخصائي الاجتماعي استيعاب عملائه، سواء كانوا في حالة اتزان، أو في حالة اضطراب وخوف، وسواء كانوا معتمدين لمنطق، أو كانوا في حالة حيادٍ نسبيٍ عنه، وهكذا الخليفة هو الذي عليه حق الدعاية للدين والدعاية إلى الإصلاح والتعارف والتآلف والتحاب في مرضاة الله تعالى، وهو الذي ينذر دون عداء، ويزهق الباطل بالحجة ويدمغه بها حتى يزهق وهو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولهذا فعليه بأن يقول خيرا في كل مجلس أو مجمع ويعمل بالقسط إذا وزن أو اكتال أو إذا حكم بين الناس ولهذا فإنه يصلح دائما ولا يفسد مرة واحدة.

ولذلك فالقاعدة هي:

الوعي عن عمدٍ وإرادة.

والاستثناء هو:

الوعي عن غير عمد وإرادة.

وبناء على ما سبق:

١- اسمح برغبة.

٢- تقدّم برغبة.

٣- اعمل بوعي.

٤- انطلق بقوة الإرادة.

٥- استوعب عن عمد.

٦- حلّل بمنطق.

٧- شخّص على واقع.

٨- قوِّم بموضوعية.

ولهذا فبالاستيعاب يمتد الاعتبار، وبدونه ينكمش.

ولذا فالقاعدة هي:

امتداد الاعتبار.

والاستثناء هو:

انكماش الاعتبار.

لذلك يُعد الاعتبار سمواً للرقي القيمي، مما يجعل السمو القيمي قاعدة، وانعدامه استثناء.

ولذلك فالاستيعاب مكمن الاعتبار للأنا والآخر.

ومن لا يَستوعِب لا يُستوعَب، ولهذا من يعاني من تأزمات في حاجة لمن يستوعبه.

وبما أن الاستيعاب يُشبع الحاجة.

إذن البحث عنه ضرورة.

وبما أنه ضرورة.

إذن لا يجب الإغفال عن أهميته، لمن هم في حاجة إليه.

ولذلك يزداد الاستيعاب امتداداً، في حالة التقدير المتبادل. ولو لم يكن للتقدير مكان، ما كان للاستيعاب امتداد.

ولأن الإنسان قيمة في خلقه ، فهو المقدّر في ذاته.

ولذا فإن تبادل التقدير وجوبي.

وبما أنه وجوبي.

إذن تبادل التقدير قاعدة، وعدم تبادله استثناء.

وعليه:

١- اعتبِر تُعتبر.

٢- قدِّر تُقدِّر.

٣- استثني تُستثنى.

٤- اسمح بالامتداد يُسمح لك بمثله.

٥- تطَّلع للآخر يتطَّلع إليك.

وعليه فالاستيعاب محفِّز لنيل التقدير، وبما أنه لا تقدير بلا استيعاب.

إذن لماذا لا يتم الاستيعاب حتى يتم نيل التقدير؟.

وبما أن نيل التقدير حاجة ماسة للفرد والجماعة والمجتمع. ولا يتم نيله إلا بالاستيعاب. فلماذا لا يسعى الجميع إلى نيله بالاستيعاب؟.

وبما أن نيل التقدير حاجة ضرورية.

إذن نيل التقدير هو قاعدة قيمية، وفقدانه هو الاستثناء.

ولهذا الاستيعاب مكوِّن قيمي، للاعتبار والاعتراف والتقدير.

فأينما وُجِد الاستيعاب، وُجِد في مضمونه، قيم الاعتبار وقيم الاعتراف وقيم التقدير.

وعليه:

. تقبّل بلا حدود.

. استوعب بلا تردد.

. امتد إلى النهاية.

لذلك يستوعب الآباء أبنائهم، والزوج زوجه، والطبيب مريضه، والأخصائي عملائه، والجار جاره، والمدرس تلاميذه.

وعندما تُفقد أو تنعدم هذه القيم ومثيلاتها، يحدث التفرّق والصدام والصراع، وتتجذّر العداوات.

ولأن المقسط هو محق الحق فمحق الحق لا يخاف أبدا، والخليفة المقسط هو الذي يخاف على ولا يخاف من، وعلينا أن نفرق بين الخوف من، والخوف على.

فالخوف من، لم يكن هو الخوف على، ولهذا قد يكون الخوف مصحوبا بحرص وقد يكون مصحوبا بكره، وفي كلتا الحالتين ينبغي أن نميز بين ما يجب تأييده وبين ما يجب الابتعاد عنه.

١ . الخوف من: كالخوف من الظلم، والاستعباد، والاستغلال، فعندما يختلف طرفان فقد يغضب أحدهما من الأخر وعندما يتصالحان قد تنتهي هذه المشاعر، فعندما يغضب الأب من أبنائه بسبب تقصيرهم فيما يجب القيام به أو نتيجة سرقة أو كذب فهذا الخوف شخصي، وهو موجب، أما إذا كان مقابل تلك الأعمال غير المرضية فيكون الرضا في هذه الحالة سالبا، ولهذا ينبغي أن يكون الخوف حتى يتحقق الرضا الموجب.

إذن الخوف يحقق الرضا عندما يكون موجباً. وعليه يغضب المواطن من بلده وأمته أو حتى أخوته ورفاقه إذا لم يُعترف له بأهميته ويقدر دوره الإيجابي في مجال تفوقه، ومن حقه أن يغضب أيضا من أمته إذا لم تعمل جادة من أجل التقدم والتطور العلمي والتطور الثقافي والحضاري.

٢ . الخوف على: الخوف على الشيء أو الأخر موجب، فالخوف على الأمة عندما تغفل عن مهامها القومية والأخلاقية والدينية لا يعد عيبا ولا محضورا لأنه من أجلها، والخوف على الأبناء عندما يفشلون أو يقصرون عن أداء المهام المكلفين بها لا يعد عيبا، وهكذا خوف المسؤول على الموظفين عندما يتأخرون عن أعمالهم وواجباتهم ويخاف الصديق على صديقه عندما يُغفّل أو يتم تسخيره لأداء مهام ليست خيّرة، وقد يعم الغضب جيل بكامله عندما يخاف

على أمته التي لم تستجب لرؤاه أو لم تعمل على تحقيق طموحاته أو تحقيق وحدتها فيما يرضي الله تعالى.

والخوف على قد يكون على أفراد وقد يكون على مواقف، فإذا توقع الشعب من الحكومة مواقفاً قومية تجاه تحقيق الوحدة، وسلكت الحكومة اتجاهاً مغايراً لذلك، فيكون الغضب عليها من الشعب نتيجة عدم تحقيقها ما كان متوقعاً منها، وعليه يخاف المواطن على بلده وأمته إذا وضعت نفسها في مكان لا يليق بكرامتها وكبريائها. ويخاف المؤمن من الذين يستخفون بدينه نتيجة أنهم لم يؤمنوا به، ويخاف عليهم إذا كانوا من الذين يدينون به ولكنهم لم يلتزموا بنواهيه وأوامره وإرشاداته في حياتهم العامة والخاصة.

وعليه فالمقسط المطلق هو المتوازن الذي لا يميل عن الحق وإحقاقه والباطل ودمغه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو القوي العادل في ملكه والمهيمن على عرشه والحافظ لخلقه.

اللهم اجعلنا من المقسطين الذين يستمعون إلى القول فيتبعون أحسنه دون ميل أو حياد عن الحق وإحقاقه.

اللهم يا المقسط اجعلنا عادلين مقسطين مع أبنائنا ووالدينا وزوجاتنا ومن لهم حق علينا، ولا تجعلنا ممن يظلمون الناس ويعتدون على ممتلكاتهم وحرماتهم، اللهم يا المقسط من مكر بالناس فأنت كفيل بالمكر به ومن يكيد للناس أنت كفيل بكيده اللهم إنك أمرت بالقسط فاجعلنا من المقسطين الذين يوفون الكيل ولا يطففون الميزان.

اللهم يا المقسط اجعلنا من الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، اللهم يا المقسط اجعلنا شهداء بالقسط واجعلنا من الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ.

اللهم يا المقسط اجعلنا من القَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ والشُهَدَاءَ لك بالحق وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ.

اللهم إنك تحب المقسطين فاجعلنا من أحبائك واجعلنا إن حكمنا بين الناس أن نحكم بالعدل ولا نظلم ولا نميل.

اللهم اجعلنا من الذين يوفون الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وهم لعهدك من الموفين. وَلَا نبْخَسُ النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا نعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ.

الجامع

الجامع، هو المؤلف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات ومسير أمورها دون خلل، أما جمع الله المتماثلات فكجمعه الخلق الكثير من الإنس على ظهر الأرض وكحشره إياهم في صعيد القيامة، وأما المتباينات فكجمعه بين السماوات والكواكب والهواء والأرض والبحار والحيوانات والنبات والمعادن المختلفة كل ذلك متباين الأشكال والألوان والطعوم والأوصاف وقد جمعها في الأرض وجمع بين الكل في العالم وكذلك جمعه بين العظم والعصب والعرق والعضلة والمخ والبشرة والدم وسائر الأخلاط في بدن المخلوق، وأما المتضادات فكجمعه بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة في أمزجة الحيوانات وهي متنافرات متعاديات وذلك من أبلغ وجوه الجمع، وتفصيل جمعه لا يعرفه إلا من يعرف تفصيل مجموعاته في الدنيا والآخرة وكل ذلك مما يطول شرحه تتبيه.

الجامع من أسماء الله الحسنى "هو الذي يَجْمع الخلائق ليوم الحِساب، وقيل: هو المؤلِّف بين المُتماثِلات والمتباينات والمُتضادّات في الوجود"[٩٠٨].

---

[٩٠٨] لسان العرب – ج ٨ ، ص ٥٣

الجامع "الذي جمع الفضائل وحوى المكارم والمآثر"[٩٠٩].

الجامع من العباد من جمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح وبين الحقائق الباطنة في القلوب فمن كملت معرفته وحسنت سيرته فهو الجامع ولذلك قيل الكامل من لا يطفئ نور معرفته نور ورعه وكان الجمع بين الصبر والبصيرة متعذر لذلك ترى صبورا على الزهد والورع لا بصيرة له وترى ذا بصيرة لا صبر له والجامع من جمع بين الصبر والبصيرة والسلام[٩١٠].

فالحمد لله جامع جميع مخلوقاته، ليوم الجمع استعدادا لملاقاته، فيجازي كلٌ بسيئاته وحسناته، والصلاة والسلام على سيد مخلوقاته، وعلى من سار على نهجه طمعا في جناته.

الجامع: الذي بيده كل شيء ولا شيء خارج يده، فهو الجامع للحق كله، فبيده كل الملك وكل الأمر، وهو الجامع للشيء ونقيضه في المخلوق الواحد، كالقوة والضعف في الإنسان مما يجعل المخلوق يقوى ويضعف ولكل أسباب، ويجعله يمرض ويشفى ويمشي ويقعد، وبهذا كل من يريد أن يؤمن فبإمكانه أن يؤمن، ومن يريد أن يكفر فبإمكانه أن يكفر، قال تعالى: {لَيْسَ عليك هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ}[٩١١]، وقال تعالى: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}[٩١٢]. أي بما أن الله الجامع جل جلاله جامع للشيئين في المخلوق الواحد إذن طبيعة التخيير مغروسة في المخلوق في أحسن تقويم، ولهذا كل شيء ممكن فلا تستغرب أن يضل البعض ويهتدي البعض الآخر، ولهذا الحساب يسجل ويؤجل إلى يوم إنزال العقاب جنة أو نار.

اسم الجامع من أسماء الصفات، الجامع لكل كمال، المنزه عن كل نقص، وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العلى؛ فجَمَعَ صفات العظمة والجلال والكبرياء، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

---

[٩٠٩] الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١، ص ٢٠٩.

[٩١٠] الغزالي، المقصد الأسنى، ص ١٤٤.

[٩١١] البقرة ٢٧٢.

[٩١٢] القصص ٥٦.

الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[٩١٣]، الجامع لكل صفات البقاء، قال تعالى: {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخر وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم}[٩١٤]، وهي التي لا يستحق غيره أن يتصف بها إلا على سبيل الإضافة إلى الله عز وجل؛ لأنه سبحانه الجامع لجميع الصفات المحبوبة، والأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو يثني بنفسه على نفسه، والخلق لا يحصون ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه، وهو الجامع؛ لأنه القوي المتفرد بما يستحق غيره أن يبقى تحت طوية يمينه، فهو القوي الذي يستطيع أن يجمع كل المخلوقات في قبضته يوم يريد لها ذلك، قال تعالى: {بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[٩١٥]، وهو الجامع لجميع صفات الألوهية التي من جملتها القدرة على النفع والضر، فالله جل جلاله هو الجامع الذي جمع المُتماثِلات بتأليفه بين المُتضادّات في الوجود، وجَمَعَ الشيءَ بعد تَفْرِقة فيَجْمَعُه جَمْعاً من هنا وهنا، فيصير من الشيء القليل الشيء الكثير، ومن الشيء الصغير الشيء الكبير، ومن مظاهر ذلك:

١ . جمعه للماء حتى يصير سيلا، فيلتقي من كل مكان ويجمعه من كل موضع في الموضع الذي يريده، قال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عليهمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عليه فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا

---

[٩١٣] الحشر ٢٢-٢٤.

[٩١٤] الحديد٣.

[٩١٥] الزمر ٦٧،٦٦.

يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}[٩١٦]، كذلك الخليفة عليه أن يكون نافعا حتى يمكث ذكره في الناس كما يمكث الماء النافع المبارك أثره في الأرض ولا يكون الخليفة نافعا إلا بإحقاق الحق فإذا الباطل زاهق، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعلينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ}[٩١٧]، والماء كما يريده الله جل جلاله، فيجعل فيه البركة حيث يشاء، ومصداقا لذلك قال تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ}[٩١٨]، ويجعله نقمة على من أشرك بالله وظن أنه العالي، كما فعل بقوم لوط، قال تعالى: {فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أخرجوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ وَأَمْطَرْنَا عليهمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ}[٩١٩]، فعلى الإنسان أن يحمد الله جل في علاه على نعمه التي لا تحصى، بما اصطفى به خلفاءه بأن نجاهم من العذاب الدنيوي قبل الأخروي وبما كانوا جادين من فعل الحسنات فسلمهم من كثير من المهلكات، أبدل لهم العذاب بأمطار نافعة يغرسون تحت بركتها الشجر والحدائق الغناء، قال تعالى: {قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}[٩٢٠].

---

[٩١٦] الرعد١٧،١٦.

[٩١٧] الأنبياء١٦-١٩.

[٩١٨] ق٩-١١.

[٩١٩] النمل٥٦-٥٨.

[٩٢٠] النمل٥٩،٦٠.

٢ . جمعه للقوم: فيكونون من هنا وهنا قبائل وأفخاذ وجماعات وشعوب وأمم، والذين أساسهم الفرد؛ وذلك للتعاون والتعارف، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عليم خَبِيرٌ}[٩٢١]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا}[٩٢٢]، فعلينا أن نحافظ على بني البشر بفعل الخير واجتناب الشر، وألا نحاول العبث بنواميس الطبع والطبيعة، والتي خلقها الله جل في علاه بنظام لا نعلم من حقائقه إلا ما أراده الله لنا أن نعلمه، ولذلك يجب علينا ألا نعمل ما يعمله الملحدون والذين يظنون أنهم يحسنون صنعا، فمثلا عندما حاولوا أن يزرعوا الجنين في أنبوب وظنوا أنهم نجحوا حتى إذا ما وصلوا إلى نقطة الصفر وجدوا أنفسهم كأن لم يفعلوا شيئا؛ لأنهم دخلوا في ما هو علمه عند الله فوجدوا أنفسهم لا يعلمون شيئا مصداقا لقوله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}[٩٢٣]، وهذه الصفة التي تجمع بين الجسد والروح لا يقدر عليها إلا من كان يحمل هذا الاسم فكيف يكون جامعا وهو لا يملك قدرة على الجمع، فقدرة الإنسان على الجمع إلا بقدر الإضافة التي حدد الله قدرها للإنسان فليكن الخليفة جمعه في الخير ووحدة الصف، وجعلهم كالبنيان المرصوص، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ}[٩٢٤]، ليكونوا قوة رادعة يرهبون عدو الله وعدوهم امتثالا لقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخرينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}[٩٢٥]. فعمل الخليفة يتمثل في قدرته على جمعه للناس على الأمر الجامعٌ بما يفعله من الخير وهو الأمر الذي يَجمع خلفاءه على

[٩٢١] الحجرات١٣.

[٩٢٢] الفرقان٥٤.

[٩٢٣] الإسراء٨٥.

[٩٢٤] الصف٤.

[٩٢٥] الأنفال٦٠.

أرضه، وفي التنزيل قال تعالى جل في علاه: {وإِذا كانوا معه على أَمر جامِعٍ لم يَذهبوا حتى يَستأْذِنوه}[٩٢٦].

٣ . جمعه للنقيضين في الشيء الواحد: الإنسان واحد يعد ويجمع، ومن مكوناته الشخصية الحب والكراهية ولكل منهما مكانة في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، فعندما يكون خليفة يحب فعل الخير قولا وعملا، ويكره الشر قولا وعملا وكليهما موجب، وفي مقابل ذلك من لم يكن خليفة قد يحب الخير لنفسه ويكره أن يكون الخير لغيره، وفي هاتين الحالتين سلبية لا تليق بمكارم الخلاق.

في المخلوق الواحد يلتقي المرض مع الشفاء، والطرب مع الغضب والظلم مع الحق، والحقد والكره والبغض مع التواد والتراحم والمودة، وكلها نقائض في واحد، ومن يكون من المستخلفين يغالب بالموجبات أقولها وأفعالها على السالبات أقوالها وأفعالها. ومن يكون غير ذلك قد يجتني مظالم ويرتكب مفاسد ويسفك دما بغير حق، وفي ذلك تشب نار الفتنة. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عليكم رَقِيبًا}[٩٢٧].

٤ . جمعه للنقيضين المستقلين في المكان الواحد: الإنسان مع الشيطان، المؤمن مع الكافر، المصلح مع المفسد، الخروف مع الذئب، القطط مع الفئران، الليل مع النهار (الشروق مع الغروب)، قال تعالى: {سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ وَآَيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعليمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[٩٢٨].

---

[٩٢٦] النور ٦٢.

[٩٢٧] النساء ١.

[٩٢٨] يا سين ٣٦ ـ ٤٠.

٥ . جمعه للكون: قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأجل مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ}[٩٢٩]، هذه القدرة العظيمة التي عمر بها الكون ليست من قدرة مخلوق مهما كان حجمه أو قدرته، كهذه السماوات التي لا ترون أعمدتها، وكيف استطاع أن يسخر فيها الشمس والقمر وكلاهما بهذا الحجم ودونما إعياء أو تعب، قال تعالى: {أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ}[٩٣٠]، وما جعل من تعاقب لليل والنهار وكلاهما يطلب صاحبه وهو جديد مع كل شروق وغروب، وكلاهما تحت تدبيره وتصرفه، فهل من مخلوق يستطيع أن يجمع بين كل هذه الأشياء العملاقة الضخمة؟ وكأن أمرا يسيرا يحدث في أمورنا المعتادة، وكل ما نراه لم يستغرق عنده سوى ستة أيام، فالجامع هو الذي له القدرة والعلم والقوة والإرادة على فعل كل ذلك، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}[٩٣١]، وحظ الخليفة من هذه الجمع العظيم الذي لم يكن ليعيش فيه لولا فضل الله الجامع المانع إلا أن يجمع الحسنات بفعل الحسنات والبعد عن كل ما يغضب الله تعالى في علاه، فليكن شاكرا لأنعم الله على كل ما حباه من الخيرات وفي كل الأوقات، وكيف يكون الإنسان شاكرا! وذلك بالعمل بما يرضي ربه والتوجه له بالدعاء جهرا وخفية لأن يوفق مستخلفيه إلى العمل الصالح، وعمل الصالحات وكل ما يعمر به الأرض والبعد عن الفساد والدمار امتثالا لقوله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[٩٣٢].

---

[٩٢٩] الرعد٥.

[٩٣٠] ق١٥.

[٩٣١] الأعراف٥٤.

[٩٣٢] الأعراف٥٥ ،٥٦.

٦ . جمعه البَيْداءِ: فجعل فيها الشجر ومختلف النبات والجبال، وأمدها لمسافات شاسعة يعجز الإنسان عن قطعها بدون مساعدة، وجعل فيها الجبال الراسيات المختلفة الأشكال والألوان، وخصها بنوع معين من النبات وميزه بالقدرة على تحمل الحرارة العالية، وندرة الأمطار، وفي المقابل شقها في بعض الجهات بالأنهار؛ رحمة بالناس، سواء في ذلك المؤمن والكافر؛ لأن ذلك لا يزيد ولا ينقص من خزائنه شيئا جل في علاه، وجعل فيها الواحات وبحارًا من الرمال، كل ذلك جمعه الجامع جل جلاله في بيئة واحدة نسميها الصحراء، أو البيداء لأنها تبيد كل من لا يحسن الدخول إليها، ليريه ربه أن الاستعداد جزء من حسن التوكل على الله، فالله جل جلاله يأمرنا بحسن التوكل عليه؛ وليعلمنا أننا أضعف من أن نتحداه في خلقه، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٩٣٣]، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فأخرجنا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}[٩٣٤].

٧ . جمعه البحرين: ومَجْمَعُ البحرين مُلْتَقاهما، أي العذب والمالح الأجاج، فالله جل جلاله جعل بينهما حاجزا لا يصل أحدهما إلى الآخر، وقد حاول العلماء قياس قوة هذا الحاجز فوجدوه مانعا قويا لا يمكن لأي قوة أن تخترقه، وهم لا يعلمون أنه سبق فيه قول البارئ عز وجل: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا

---

[٩٣٣] الرعد٣،٤.

[٩٣٤] فاطر ٢٧ ،٢٨.

مَحْجُورًا}[٩٣٥]، فسبحانه من جامع قوي جمع بعدل بين البحرين ودونما ظلم أو بغي لأيهما على الآخر، وقال تعالى: {أَمْ مَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ}[٩٣٦]، والخليفة الذي يرى هذا الجمع بين النقيضين وما جعله بينهما من الحواجز التي لا نراها إلا بما نحسه من الفارق بين طعمهما، ليعلم في أن الطرف المقابل أن الله جل جلاله لا يوجد بينه وبين من يدعوه حاجز، حيث قال: (أَمْ مَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ)، وهو الذي يسمع المضطر إذا دعاه، وذلك عندما تعلو من حوله الأمواج فيجد نفسه ضعيفا لا يقوى على ردها من غير تدخل إلهي، وبذلك يخرج متيقنا بأن الله هو الذي جمع القوة والإرادة والقدرة والعلم، فيعبده بحق بعدما رأى رأي العين ما كان فيه من الموت المحقق، إلى ما صار إليه من النجاة، فيكون صادقا حريصا على مرضاة ربه في البر والبحر، وفي السر والعلن، وبذلك يكون مستحقا للخلافة الحقة في أرضه وصولا إلى جنته في أخراه؛ وتنفيذا لقوله تعالى في علاه: (وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) . وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[٩٣٧]. وفي الناحية المقابلة نجد الذين ينكرون نعمة ربهم بعدما يخرجهم من محنتهم التي كانوا فيها، فقد قال تعالى في حقهم: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ

---

[٩٣٥] الفرقان٥٣.

[٩٣٦] النمل٦٢،٦١.

[٩٣٧] لقمان٣١-٣٣.

الشَّاكِرِينَ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}[٩٣٨]. وإذا ما غصنا في البحر لنرى من العجائب والغرائب في الجمع بين مختلف الكائنات من حيث الحجم والأشكال ما يفوق كل تصور، فنرى الأودية والجبال والرمال والنبات المختلف في شكله وحركته وحجمه وكيف تسلك طريقها في الحياة بنظام بديع فلا تأكل إلا بقدر حاجتها وتتصرف تاركة حق غيرها، دونما عبث بالطبيعة وما حوت، وكيف تحافظ هذه الكائنات على بقائها بطرق الحماية المختلفة، فتختار المكان والوقت المناسب لتكاثرها من حيث الجو والحرارة والتيارات البحرية وأمواج السمك الضخمة والتي تعد بمئات الآلاف، فسبحانه من قادر على جمع هذه المتضادات لتعيش في بيئة متناسقة ومتآلفة ودون أن يؤثر أحد في وجود الآخر؛ والحمد لله رب العالمين.

٨ . جمْعه بين الأزواج: وإدامته بينهما، بما غرسه وأَدامه الله من أُلْفَة بين القلوب، قال تعالى: {وَمِنْ آَيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٩٣٩]، فالخليفة هو ذلك الذي يعمل على بناء البيوت الأسرية ولتعمر الأرض بأهلها وتزداد في بهائها بما تنجبه من أهل الخلافة الحقة والذين أسسوا من أول يوم وجدوا فيه على البر وتقوى الله جل جلاله ليكونوا خلفاء الله في أرضه بما يقدمونه من الأعمال الصالحة، ولتحقيق ذلك يجب أن يكونوا على الأسس التالية:

أ . تقوى الله: فالبيت الذي يريد الله له الخلافة لابد وأن ينشأ على الخوف من الجليل الجامع الذي يجمع الناس ليوم تشخص فيه الأبصار والقلوب لدى الحناجر كاظمين الغيظ، فالجامع الذي يجمع كل عمل عمله من خير أو شر، فالله جل جلاله هو لا يغفل عما يعمله الظالمون،

---

[٩٣٨] الأنعام٦٣ ،٦٤.

[٩٣٩] الروم٢١.

قـال تعـالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّـهَ غَـافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّـالِمُونَ إِنَّمَـا يُـؤَخِّرُهُمْ لِيَـوْمٍ تَشْـخَصُ فِيـهِ الْأَبْصَارُ}[٩٤٠].

ب . عمل الصالحات: هو العمل الذي يبقى لصاحبه، كثر أو قل فكل شيء مسجل في مكانه إلى يوم لقائه سبحانه، قال تعالى: {قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى}[٩٤١]، وتتقسم الصالحات إلى:

. ما هو فرض لازم، كما هو الحال في الصلوات الخمس والزكاة وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا.

– وما هو سنة مؤكدة أو مندوبة والتي تتمثل في سنن قبل وبعد الصلوات الخمس، وصيام النوافل والصدقات.

وفي كل الأحوال الأجر ثابت عنده بإذنه ويضاعفه كيف يشاء، وأما ذكر الكتاب فإنه لا يعني أنه ينسى وإنما المراد به أنه تعالى أحفظ مما تحفظونه عندكم في الكراريس والسجلات والدفاتر المختلفة الأشكال والأنواع تبعا لمادتها جودة وضعفا فالجامع ليس بحاجة لأن يعمل كل ذلك، فالكون عنده لا يساوي قيمة بعوضة علاوة على أن يشتغل به، ولو كان الكون عنده يساوي جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

ج . حفظ الأمانة: فالله جل جلاله أمر أن نؤدي الأمانة إلى أهلها، قال تعالى: {إِنَّ اللَّـهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّـهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٩٤٢].

د . بالعدل بين الناس: وذلك في أمور منها:

---

[٩٤٠] إبراهيم٤٢.

[٩٤١] طه٥٢.

[٩٤٢] النساء٥٨.

– الحكم: قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأخرى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[٩٤٣].

. الميزان قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ}[٩٤٤].

ـ القضاء قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}[٩٤٥].

. المنازعات: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}[٩٤٦].

. في مكاتبة الديون: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أجل مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عليه الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عليه الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأخرى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أجلهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عليكم جُنَاحٌ أَلَّا

---

[٩٤٣] الحجرات٩.

[٩٤٤] الرحمن٧–٩.

[٩٤٥] النساء٥٨.

[٩٤٦] النساء٥٩.

تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم}[٩٤٧].

. صون الأعراض: والذي يكون بالبعد عن الفواحش ما ظهر منها وما بطن تبعا لقوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٩٤٨].

هـ . البعد عن النميمة والغيبة ورمي المحصنات الغافلات بما ليس فيهن: قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَشْهَدُ عليهمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ}[٩٤٩].

٩ . جمعه الجمعة: جعل الله يوم الجُمعة ليَجتمع فيها القوم ولا يتفرّقون خوف الضلال ونحوه؛ لأنها هي التي تَجْمَعُهم، فأَمر المؤمنين إذا كانوا مع نبيه صلى الله عليه وسلم في جماعة فيما يحتاج فيه نحو الحرب وشبهها مما يحتاج إلى الجَمْعِ فيه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[٩٥٠].

١٠ . جَمعهُ للكلام من حروف: حتى أعطى معنىً، وجاء منه جوامع الكلم، وهو من قول النبي صلى الله عليه وسلم: "أُوتِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ"[٩٥١]، يعني به القرآن وما جمع الله عز وجل بلطفه من المعاني الجَمَّة في الأَلفاظ القليلة كقوله عز وجل: {خُذِ العَفْو وأْمُر بالعُرْف وأَعْرِضْ

---

[٩٤٧] البقرة٢٨٢.

[٩٤٨] الأعراف٣٣.

[٩٤٩] النور٢٣-٢٥.

[٩٥٠] الجمعة٩ ،١٠.

[٩٥١] مسند أحمد، ج ١٥، ص١٣٧.

عن الجاهلين}[٩٥٢]، والخليفة من صفته أَن يتكلم بجَوامِعِ الكَلِم أَي أَن يجمع كثير المعاني في قليل الأَلفاظ كما هو الحال في الدعاء فهو الذي يجْمع الأَغْراض الصالحةَ والمَقاصِدَ الصحيحة بحسن الثناء على الله تعالى وآداب مسأَلته تعالى.

١١ . جمعه الخلائق ليوم الحِساب، قال الله تعالى: {ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ}[٩٥٣]، والجامع جل في علاه قادر على جمعهم كما خلقهم أول مرة قال تعالى: {وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}[٩٥٤]، وفي صفة السرعة المذهلة التي تجمع ملايين الملايين من الإنس والجن، وكافة المخلوقات مهما كان حجمها، قال تعالى: {فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ}[٩٥٥]، وقال تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الأنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ}[٩٥٦]، وفي ذلك اليوم لا تخفى منكم خافية، بل يحاسب كل إنسان بما قدم من عمل صالحا كان أو غيره، ذكراً أو أنثى، ومن أي أمة كان إنسًا أو جنًا، مؤمنا كان أو كافرا، قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ}[٩٥٧]، بل يحاسب على كل كبيرة وصغيرة، قال تعالى: {وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ}[٩٥٨]،

---

[٩٥٢] الأعراف١٩٩.

[٩٥٣] هود ١٠٣.

[٩٥٤] الأنعام٩٤.

[٩٥٥] المعارج٤٢–٤٤.

[٩٥٦] القمر ٤–٨.

[٩٥٧] الحاقة١٨.

[٩٥٨] الانبياء٤٧.

ويجد كل ما عمله حاضرا ومجموعا في صحيفة، حتى إن الإنسان ليستغرب الدقة المتناهية في جمعه الجامع تعالى في علاه لكل ما عمل، فيسأل كيف هذا الكتاب استطاع أن يجمع كل هذه الدقائق وعلى طوال العمر طال العمر أم قصر، قال تعالى: {وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا}[٩٥٩]، وقال تعالى في صفة حساب المؤمن والكافر: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا وَيَصْلَى سَعِيرًا إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا}[٩٦٠]، وبالنسبة لحساب المؤمن الوارد في الآيات السابقة فيراد به يوم العرض فالله جل جلاله أكرم من أن يعذب عباده الصالحين، ولكن من شدة يوم الحساب ترى الناس قد أخذتهم العلامات العظيمة التي يظهرها لمخلوقاته وما يرون من القوة والقدرة الربانية التي لم تكن في حسبان خلقه يذهلون من هول ما يرون ودون أن يصل إليهم العذاب الذي وعد به رب العزة الكافرين، فذلك اليوم يقول في صفته جل جلاله وما يحدث فيه من الإرباك والاضطراب لكافة المخلوقات: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ}[٩٦١]، وقال تعالى: { فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عليها غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ}[٩٦٢]، وعن ذكر الأعمال والحساب لم يجدوا

---

[٩٥٩] الكهف٤٧–٤٩.

[٩٦٠] الانشقاق٧–١٥.

[٩٦١] الحج١ ،٢.

[٩٦٢] عبس٣٣–٤٢.

رب العزة ظالما بل يجدونه رحيما بعباده رووفا بهم، قال تعالى: (وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا).

وعودا على بدء فيما يتعلق بذكر العرض والجنة والنار يلوح سؤال في الأفق: هل المؤمن يعرض على جهنم؟! وإذا كان كذلك فكيف يكون ذلك؟ وبادئا ذي بدء نعرج على ما ورد ذكره في القرآن الكريم، وخاصة فيما يتعلق بهذه المسألة، قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[٩٦٣]، فقوله: (وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) قوله الحق، ولهذا كل ما قاله هو حق لا باطل فيه، وإحقاق الحق إصدار حكم، وحكمه بالقدرة والقوة وامتلاكه للأمر المنفذ للحكم (كن)، وامتلاء جهنم يدل على شيئين اثنين:

الشيء الأول: أتساع جهنم، فهي ذات سعة تستوعب كل من خلق من الجنة والناس، ولهذا فهي لا تضيق بأحد.

الشيء الثاني: القدرة والإرادة الألوهية، فهو بإمكانه أن يدخل الجميع جهنم، وهذا الأمر ممكنا حيث كل شيء تحت أمره ولا وجود للمستحيل.

قال تعالى: {وَيَقُولُ الإنسان أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أخرج حَيًّا أَوَلَا يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا وَإِذَا تُتْلَى عليهمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ

---

[٩٦٣] السجدة١١–١٤.

قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا}[٩٦٤]. فقوله: (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) فوربك، قسم برب محمد عليه الصلاة والسلام إي القسم بالذات الألوهية، وعندما يكون القسم برب محمد عليه الصلاة والسلام، فإن الأمر يدل على مكانة محمد الرفيعة صلوات الله وسلامه عليه عند ربه عز وجل، والحشر في قوله (لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) جمع بين الشياطين والذين أغووهم من الإنس، وهؤلاء جميعا هم في جهنم، ولهذا لا محل للاستثناء في ذلك، إي لا علاقة في هذا القول بالذين آمنوا بربهم ولم يشركوا شيئا.

وقال الألوسي في تفسير الآية الكريمة: (حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلأن جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)[٩٦٥]: "وأما تفسير ما سأله الكفرة من الرجوع إلى الدنيا أو بالهداية إلى الجنة فليس بشيء لأعطيناها إياه في الدنيا التي هي دار الكسب وما أخرناه إلى دار الجزاء (هُدَاهَا ولكن حَقَّ القول مِنْى) أي ثبت وتحقق قولي وسبقت كلمتي حيث قلت لإبليس عند قوله: (لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخلصين فالحق والحق أَقُولُ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ)، وهو المعنى بقوله تعالى: (لأمْلأن جَهَنَّمَ مِنَ الجنة والناس أَجْمَعِينَ) كما يلوح به تقديم الجِنَّة على الناس فإنه في الخطاب لإبليس مقدم وتقديمه هناك؛ لأنه الأوفق لمقام تحقير ذلك المخاطب عليه اللعنة، وقيل: التقديم في الموضعين؛ لأن الجهنميين من الجِنَّة أكثر. ويعلم وجه العدول عن ضمير العظمة في قوله سبحانه: (وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا) إلى ضمير الوحدة في قوله جل وعلا: (ولكن حَقَّ القول مِنْى)؛ وذلك لأن ما ذكر إشارة إلى ما وقع في الرد على اللعين وقد وقع فيه القول ولإملاء مسندين إلى ضمير الوحدة ليكون الكلام على طرز قوله تعالى: {لأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إلاَّ عِبَادَكَ} في توحيد الضمير، وقد يقال: ضمير العظمة أوفق بالكثرة الدال عليها (كُلُّ نَفْسٍ) والضمير الآخر أوفق بما دون تلك الكثرة الدال عليه (مِنَ الجنة) والناس أو يقال: إنه وحد الضمير في الوعيد لما أن المعنى به المشركون فكأنه أخرج

---

[٩٦٤] مريم٦٦-٧٤.

[٩٦٥] تفسير الألوسي، ج ١٦، ص ٧٤.

الكلام على وجه لا يتوهم فهي متوهم نوعاً من أنواع الشركة أصلاً أو أخرج على وجه يلوح بما عدلوا عنه من التوحيد إلى ما ارتكبوه مما أوجب لهم الوعيد من الشرك، أو يقال: وحد الضمير في (لأمْلأن)؛ لأن الإملاء لا تعدد فيه فتوحيد الضمير أوفق به ويقال نظير ذلك في (حَقَّ القول مِنّى) والإيتاء يتعدد بتعدد المؤتى فضمير العظمة أوفق به ويقال نظيره في {شِئْنَا} فتدبر، ولا يلزم من قوله تعالى: (أَجْمَعِينَ) دخول جميع الجن والإنس فيها، وأما قوله تعالى: (وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا) فالورود فيه غير الدخول؛ لأن قوله: (أَجْمَعِينَ) تفيد عموم الأنواع لا الأفراد فالمعنى لأملأنها من ذينك النوعين جميعاً كملأت الكيس من الدراهم والدنانير جميعاً كذا قيل، ورد بأنه لو قصد ما ذكر لكان المناسب التثنية دون الجمع بأن يقال كليهما، واستظهر أنها لعموم الأفراد والتعريف في (الجنة) للعهد والمراد عصاتها، ويؤيده الآية المتضمنة خطاب إبليس، وحاصل الآية لو شئنا إيتاء كل نفس هداها لآتيناها إياه لكن تحقق القول مني لأملأن جهنم... إلخ الآية، فبموجب ذلك القول لم نشأ إعطاء الهدى على العموم بل منعناه من اتباع إبليس الذين أنتم من جملتهم حيث صرفتم اختياركم إلى الغي بإغوائه ومشيئتنا لأفعال العباد منوطة باختيارهم إياها فلما لم تختاروا الهدى واخترتم الضلال لم نشأ إعطاءه لكم وإنما أعطيناه الذين اختاروه من البررة"[٩٦٦]، وهم الخلفاء في أرضه الذين لم يبدلوا إيمانهم بظلم بل كانوا كما أراد الله لهم من الهداية واتباع طريقها، أولئك الذين جمعوا الحسنيين في الدارين، فكيف لا يكونون خلفاء جامعين، وهم على علم باتباع طريق الرشاد فكانوا مخلصين لله تعالى في الدارين، فصح عليهم القول أن يكونوا الجامعين بالإضافة إلى خالقهم.

١٢ ـ جمعه الجيش المتفرق فيكون به خميسا، بعد أن كان مجرد أفراد قلة في العدد والحجم كما هو الحال في أسراب الجراد والنمل والنحل والزنابير، فهذه المجاميع الضخمة إذا نظرت إليها وهي في حال الإفراد لوجدتها مجرد جرادة أو نملة أو نحلة، ولكن بقدرة الجامع جل جلاله يتكون منها الجيوش الجرارة القادرة على إحداث الكوارث في المحاصيل الزراعية، ويجعلها

---

[٩٦٦] تفسير الألوسي، ج ١٦، ص ٧٤.

الجامع جل جلاله رسلا وعقابا لمن ظن أنه قادر على أن يبرز في الأرض بغير الحق، وخير مثال ما حدث مع فرعون وجنده، قال تعالى: {فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ فَأَرْسَلْنَا عليهمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ وَلَمَّا وَقَعَ عليهمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أجل هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ}[٩٦٧]، والجيش في العادة يتكون من خمسة أقسام: ميمنة وميسرة ومقدمة ووسط ومؤخرة؛ ولذلك سمي خميسا، وعلى الخليفة الجامع أن يعد جيشه ويجمعه جمعا؛ استعدادا لكل مواجهة ونصرة لدين الله في كل مكان من أراضي المسلمين؛ لأنه محاسب أمام الله على كل تقصير في حق هذه النصرة سواء على الصعيد الشخصي أم على مستوى الجماعة والأمة، واتباعا لقوله تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخرينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعليمُ}[٩٦٨]، وإعداد الجيش يلزمه المال الذي يجمعه الخلفاء من الطرق الصحيحة والسليمة؛ ولأنه الجامع بالإضافة فلابد له من تدبير في طرق ووسائل الجمع ليعد الجيش الذي هدفه نصرة الإسلام والمسلمين وإظهار الحق بالحق دونما إزهاق لأرواح الأبرياء، ويكون إعداد الجيش لغرض قهر الشعوب الاستيلاء على خيراتها ونهب ثرواتها؛ لأن الله عادل في ملكه ويحب العدل في كل الأمور.

[٩٦٧] الأعراف ١٣١-١٣٥.

[٩٦٨] الأنفال ٦٠، ٦١.

١٣ . جَمعه الأحياء ليتكون المجتمِع: قال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[٩٦٩]، لقد خلق الله الجامع جل جلاله بني الإنسان على المفرد (فرادى) الجنس واحد ولكل خصوصية، ثم جعل آياته في جمعهم كُثر، وهذا هو الأساس لتكوين الأسرة وهي نواة المجتمع فكان أساس الناس سيدنا آدم ثم من بعده ذرية نوح، فإذا هم قبائل وجماعات وشعوب جعلها الله جل جلاله لتعمر الأرض بالخير والنماء ولا عداوة ولا بغضاء إخوان متقابلين، يعمرون الأرض بكل خير وبر، لذلك على الخليفة أن يعمل على بناء المدن والقرى التي تساعد زيادة العدد ليبني جنسهم، الذي أساسه الاستخلاف في الأرض لأجل إعمارها وإصلاحها دون إفساد أو سفك دماء بغير حق.

١٤ . جمعه الرِّمال: والتي كانت أساس الصخور العملاقة التي بنيت عليها السلاسل الجبلية، من ثم جاء العكس فبعوامل الطبيعة من سيول ورياح واختلاف في درجات الحرارة وما نتج عنه من تشقق في الصخور بفعل عامل التمدد والانكماش من ثم تفتت تلك الصخور إلى حبيبات صغيرة نقلتها مياه الأمطار فتكونت بها بطون أودية ومن ثم نقلتها الرياح إلى حيث يشاء الله فتجتمع لتكون الكثبان التي نراها منتشرة في أرجاء الصحراء، ومن ينظر إلى هذه الكثبان وكيف تجمعت وكيف تتحول من مكان إلى مكان وبأحجام مختلفة وربما لمسافات بعيدة لما وراء البحار فكثير ما نرى الكثبان التي هي منظر مألوف في السواحل الجنوبية للبحر المتوسط قد تحولت إلى السواحل الشمالية منه، وهل يظن أحد أن هذه التنقلات الدقيقة الهائلة ليست بعلم الله جل في علاه، نعم، كل ذلك بعلمه وبأمره فهو الذي يعطي أوامره في أي وقت يريد فتتنقل بالواسطة التي يريدها الله لها، فهو الجامع لما يشاء وكيف يشاء وفي أي وقت شاء، وكل ذلك بعلمه مهما كان حجم تلك الذرة في البر أو البحر، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخرةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي

---

[٩٦٩] النحل٧٢.

الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ}[٩٧٠]، ولأن رب العزة عالم بكل صغيرة وكبيرة فكيف لا يعمل الخليفة على ما يرضيه باتباع ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، ولعلمنا أن الله جل جلاله سوف يجمع لنا كل كبيرة وصغيرة فعلينا أن نتقيه في السر والعلن، قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[٩٧١].

١٥ . جَمعه الثياب وإلباسها: قال تعالى: {يَا بَنِي آدم قَدْ أَنْزَلْنَا عليكم لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدم لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أخرج أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[٩٧٢]. واللباس نوعان:

. لباس ظاهر: ليُبْرَز الإنسان به إلى الناس وعادة يتكون من:

. الإزار.

. والرِّداء.

. والعمامة.

. والمِلْحَفة.

. والخِمار.

. والسرابيل، قال تعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عليكم لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}[٩٧٣].

---

[٩٧٠] سبأ ١-٤.

[٩٧١] البقرة ٢٨١.

[٩٧٢] الأعراف ٢٦، ٢٧.

[٩٧٣] النحل ٨١.

. لباس الحرب، ومنه:

. الدرع.

. الخوذة.

. الترس.

. لباس باطني: ويتمثل في لباس التقوى، قال تعالى: (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ)، والذي يعتبر الأهم بالنسبة للخليفة، فالتقوى أزين ما يلبسه، وإذا فقده فإن تعويضه ليس سهلا أو ربما لا يجده مرة ثانية، ولذلك على الخليفة أن يحتاط لكل شيء يمس هذا اللباس الثمين الذي لا يساويه ثمن وتكون المحافظة عليه من وجوه:

. أن يعمل كل ما يرضي الله.

. أن يراعي شعور الناس ولا يحاول خدشهم.

. الابتعاد عن النميمة، والغيبة، وكل ما يمس أعراض الناس.

. أن يصلح ويفلح في الأرض ولا يفسد فيها.

. أن يقول الحق.

. أن يفعل الحق في كل زمان ومكان.

. أن يحكم بالعدل إذا بين الناس حكم.

. أن يتطهر في نفسه وماله.

١٦ . جمعه الإِثْم في الخَمر: أَي مَجْمَعهُ ومِظَنَّتُه فاتَّقوا هذه الأَهواء التي جِماعُها الضلالةُ ومِيعادُها النار، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}[٩٧٤]، الله جل جلاله ذكر الآنفاق بعد ذكر الخمر، ليبين أن الصرف الصحيح لا يكون في الخمر و ما شابهها من الموبقات المهلكات بل يجب الصرف في حيثما أمر والابتعاد عن

---

[٩٧٤] البقرة٢١٩.

ما نهى عنه من المحرمات، قال تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أخرج لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[٩٧٥].

١٧ . جمعه الدين والشريعة الحقة: الجامع جل جلاله جمع الشريعة بما لها من أحكام أصولية والفروع بين مفصل ومجمل، وعبر رسل وأنبياء ليتوارثوا الملة القويمة و الشرع المستقيم نسلاً بعد نسل حتى محمد الخاتم الكريم صلوات الله وسلامه عليه، والكتب جامعة بين الظاهر والباطن، وجعل جل جلاله القرآن الكريم خاتما لها، وهو العلم الإجمالي الجامع لهداية الناس إلى عبادة الله وحده وأتى به تنبيهاً للمأمورين وتشريفاً لهم، فالقرآن جاء جامعا في عناوينه، وجامعا لتفاصيل العلم، وهو الجامع للتكاليف؛ ولذلك أمر سبحانه باتباعه ونهى عن اتباع غيره، فيأيها الخلفاء المؤمنون عليكم بهذا الكتاب الجامع لصفات الكمال الهادي إلى الصراط المستقيم الموصل إلى مقام الرحمة، استمعوه وعليكم بما جاء به فلا تتأخروا وعليكم بالعمل بما جاء به أمرا ونهيا، ليحصل المطلوب، ولعلكم ترحمون.

١٨ . جمعه بين اللطف والقهر: قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عليكم حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ}[٩٧٦]، وقال تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عليم بِذَاتِ الصُّدُورِ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ}[٩٧٧]. فالجامع جل جلاله مع لطفه ما ظهر لنا منه وما لم يظهر فهو قاهر لكل جبار متكبر، فالمتكبر مع تكبره وتعنته يوجد له رزقه وعمره الذي أراده له حتى إذا جاءت ساعة القهر فإنه لا يفلت من قبضته، بل يأخذه من حيث يظن في نفسه أنه قادر على فعل الذي يريد، فالله من لطفه وقوة قهره لا يعذب

---

[٩٧٥] الأعراف٣٢ ،٣٣.

[٩٧٦] الأنعام٦١.

[٩٧٧] الملك١٣ ،١٤.

أحدا حتى يرسل الرسل حيث فعل ذلك مع فرعون، وقوم نوح، وغيرهم ممن طغوا وكانوا بآيات الله يجحدون، فلطف بهم على كل جانب حتى إذا كذبوا جاءهم النصر الإلهي فإذا القاهر ينتصر بقهره للجبابرة، ويذلهم ليطف بآخرين قد ظنوا بالله الظنون، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخرةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[٩٧٨].

١٩ . جمعه للنطفة: أي أَن النُّطفة إِذا وقَعت في الرحم فأَراد الله أَن يخلق منها بشراً يجَمْعُها، والمراد بالجَمْع مُكْث النطفة بالرحم أَربعين يوماً حتى تتهيَّأ للخلق والتصوير ثم يكون الخلق بعد الأَربعين، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخر فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ}[٩٧٩]، وبهذه الصورة العجيبة يتم جمع الجامع للجنين في بطن أمه وفقا للمراحل الآتية:

المرحلة الأولى: التقاء الختانين، الذي ينتج عنه التقاء الحيوان المنوي فيلتقي مع البويضة ويتم الاتحاد ومن ثم الالتحام، قال تعالى: (جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ).

المرتبة الأولى: قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سلالة مّن طِينٍ) والسلالة الخلاصة، وهي أصل تكوين النوع البشري، الذي به يتميز عن بقية المخلوقات حتى يتصف بالإنسان.

---

[٩٧٨] يزسف١٠٩-١١١.

[٩٧٩] المؤمنون١٢-١٧.

المرتبة الثانية: قال تعالى: (ثُمَّ جعلناه نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ) ومعنى جعل الإنسان نطفة أنه خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة في أصلاب الآباء فقذفه الصلب بالجماع في قراراً مكيناً، والقرار المكين هو رحم المرأة الذي تستقر فيه النطفة بكل آمان وسلامة، وذلك لمناسبته للنمو السليم مع الحفاظ التام في ظل الرعاية الربانية.

المرتبة الثالثة: العلقة، (ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً)، أي حولنا النطفة عن صفاتها إلى صفات العلقة وهي الدم الجامد، وهي التي بدورها تنزل لتلتصق بجدار الرحم لتكون العلقة، هذه العملية المعقدة التي لا تتم بالصدفة بل لابد من خالق يرعاها، وفي ظلمات ثلاث: مصداقا لقوله تعالى: {خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الأنعام ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ}[٩٨٠].

المرتبة الرابعة: قال تعالى: (فَخَلَقْنَا العلقة مُضْغَةً) أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم كأنها مقدار ما يمضغ، ولكن كل شيء تحت القوة والإرادة الألوهية الخالقة، والمضغة هي المعجونة أو التي تم سبكها وخلطها بغيرها دون ظهور فواصل بين الممضوغة (المضغة).

ـ المرتبة الخامسة: وهي التحول من اللحم إلى العظام، (فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا)، والعظام تماسك كلسي ذا قوة تفوق قوة تماسك النطفة والمضغة والعلقة، وهو الذي به يتم بناء الهيكل الذي يجعل المخلوق في صفة القوام والاستواء في مخالفة مع المخلوقات التي تمشي مكبة على وجوهها.

ـ المرتبة السادسة: وهي تغطية العظام باللحم، (فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا)، بناء ملامح الشكل الظاهر الذي به يتميز خلق الإنسان عن بقية ما خلق جل جلاله، واكتساء العظام لحما لأجل اكتمال المخلوق في أحسن صورة.

---

[٩٨٠] الزمر ٦.

. المرتبة السابعة: قال تعالى: (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخر)، خلقا مختلفا عما سبقه في جميع المراحل السابقة فيكون الاتضاح والاكتمال الخلقي للنوع البشري متميزا ذكرا كان أم أنثى.

وعندما يكون جاهزا يضفى عليه اسمه بقوله تعالى: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ). فقد أعجبه جمعه للإنسان بما أضافه إليه من نعمة العقل والنطق، فجعله مباركا ليكون خليفته في الأرض، وليخرج إلى الأرض ليصلح ويعمرها بما هو نافع ومفيد في هذا الكون، ويمد في عمر من شاء منهم، قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عليم قَدِيرٌ}[٩٨١].

وليكون جاهزا للحياة الأبدية بقوله تعالى: (ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ).

٢٠ . جمعُه للرأي: فيجعله شديدا إذا أراد النصرة لصاحبه، وجعل ذلك الرأي في يد ورأس إنسان واحد، وجَمعه أَمْره وعزمه عليه. وأَجْمَعَ أَمرَه وجعلَه جَميعاً بعدَما كان متفرقاً، وجمع الرأي فيه إتمام الحجة، وتوليف المتناقضات والمتماثلات والمتشابهات والمتنوعات والمتعددات والمتباينات.

٢١ ـ جمعُه الثمَرة في النبات: فهذه الحبة، أو الغصن يغرس في الأرض على يد الخليفة الذي يريد أن يحصد ثمارها كما يريد أن يحصد أجرها، فيضعها في الأرض ويبادر بسقايتها، حتى تخرج فتَجَمَّعُ وتتكون الأغصان التي تحمل على رؤوسه براعمه، ومن ثم يأتي موسم الأزهار فتزين الأرض بما أراده الله لها من ذلك الجمال والبهاء، فتلتقي حبوب اللقاح بمياسيمها، وتبدأ مرحلة الثمار في الظهور من جديد، وكل ذلك بفضله تعالى بما أنزله من الماء المبارك، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ

---

[٩٨١] النحل٧٠.

تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٩٨٢].

٢٢ ـ جمعه الأيام: فيكون الأسبوع ومنه الشهر ليكون السنة ومن ثم القرن والدهر والعصور، قال تعالى: {إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[٩٨٣].

٢٣ ـ جمعه بين الأبوين والجنين: فهو يجمع بين الناقة وفَصِيلَها ليرضَعَها، وبين الطائر وفراخه ليطعمها، وبين الشجرة وثمارها فيصعد له الماء في أعلى قمتها، وكل ذلك تحت كلمة الحنان الذي غرسه الله في أجوافها، فهي بهذه الغريزة جعل الكائن يحمي جنينه، ويلطف به، ويحافظ عليه، لينمو ويزدهر ومن ثم يحافظ على نوعه وبقائه كما أراده الله له، كيف يكون ذلك لولا قدرة الجامع على خلق هذه الغريزة الجامعة لكل كائن مع نوعه فتجد الطائر يدافع عن أفراخه، ويجعل لها عشا على الأرض أو في الشجر أو على رؤوس الجبال، ويتحد على إطعامهم الأبوين حتى إذا ما كبرا علمه الطيران ويشق طريقه في الحياة على نهج أبويه. وإذا ما نظرنا إلى النحلة كيف تسعى دائبة طول النهار لأجل أن تجمع الرحيق لتغذي الملكة والتي بدورها تضع البيض، والذي يفقس أنواعا من النحل تبعا لغذائه الذي يتغذى منه، فيخرج منه الشغالة والملكة، وليكون خلية أخرى من جديد، قال تعالى: {وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[٩٨٤]. وكل ذلك فيه المنافع الظاهرة والباطنة للإنسان، فيأكل من ثمار الأشجار كما يأكل من لحم

---

[٩٨٢] النحل١٠ ،١١.

[٩٨٣] التوبة٣٦.

[٩٨٤] النحل٦٨ ،٦٩.

الطير والدواب، ويشرب منها الحليب بين فرث ودم، قال تعالى: {وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأنعام لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[٩٨٥].

٢٤ . جمْعه الدّراهم: فيكون منه الدينار مع الدينار، ومنه تتكون الأموال الطائلة، وهي التي جعلها الجامع جل جلاله زينة الحياة الدنيا، وتكون الأموال ربحا في الدنيا والآخرة لمن عمل بها الصالحات تصدق وتزك وأصلح وعمَّر، وتكون غير ذلك لمن لم يحسن التصرف فيها فبغى وعتا، كما فعل قارون، وذلك هو الخسران المبين، قال تعالى في حقه: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عليهمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخرةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[٩٨٦]، وبذلك على الخليفة أن يجمع المال ابتغاء مرضاته في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا}[٩٨٧]، والله جل جلاله جعل المال نعمة ونقمة، فعلى الخليفة الجامع أن ينفقها في سبيل الله ونصرة دينه في البر والبحر، لتجتمع القلوب على المحبة والمودة والطاعة لله تعالى، وقبل ذلك عليه أن يجمعها من الرزق الحلال فلا يكذب ولا يسرق ولا يغش ولا يحتال ولا يتبع أي طريق غير مشروع، ولا يقترب من أي شبهة أو شك، بل دائما على يقين وصحة، وليعلم أن الباقيات الصالحات وأن البر، وهي كلمة جامعة لكل معاني الخير، لا يأتي إلا بحسن الإنفاق وفي وجوهه التي أمر الجامع بالتصدق بها عليهم، وهذا البر الذي جعل أوله الإيمان بالله أتى بعده بذكر نفقة المال في الوجه

---

[٩٨٥] النحل٦٦ ،٦٧.

[٩٨٦] القصص٧٦ ،٧٧.

[٩٨٧] الكهف٤٦ ،٤٧.

الصحيح، حيث قال تعالى: {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[٩٨٨]. وعليه نستنبط من هذه الآيات الكريمة ملامح الإيمان والبر والإنفاق في وجهه وهي ذات علاقة بأفعال الخير الحسان ومنها:

أ . الإيمان بالله تعالى: لأن الكافر مهما أنفق فإن الله تعالى لن يقبل منه؛ لأن عمله حبط قبل أن يقبل منه، قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[٩٨٩]، ولذلك أمر الله تعالى أن يعبد في الأرض والسماء بالحق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}[٩٩٠].

ب . الإيمان باليوم الآخر: ونظرا لما للإيمان باليوم الآخر من أهمية للإنسان في عقيدته وتوجيه سلوكه نحو الاتجاه الصحيح جعل الله ذكره بعد الإيمان به تعالى، قال تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}[٩٩١]، في هذه الآيات الكريمة يقسم جل جلاله أنه سيجمعهم وأنه قادر على جمعهم بسهوله؛ لأنه هو الجامع لما أراد وقتما أراد، وهو القاهر فوق عباده،

---

[٩٨٨] البقرة١٧٧.

[٩٨٩] الزمر٦٥ ،٦٦.

[٩٩٠] النساء١٣٦.

[٩٩١] التغابن٧-٩.

وهو الذي يسجد له من في السماوات والأرض طوعا وكرها، قال تعالى: {أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}[٩٩٢].

ج . الإيمان بوجود الملائكة: قال تعالى: {آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[٩٩٣]، والملائكة منهم:

ـ الحفظة: قال تعالى: {وَإِنَّ عليكم لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}[٩٩٤]، لحافظين لأعمال العباد كبيرها وصغيرها، وكذلك وهم الذين كلفوا بحفظ الإنسان من الشياطين والمردة الذين أخذوا العهد على أنفسهم أن يضلوا عباد الله قدر ما استطاعوا، وقد جاء ذلك جليا واضحا في قوله تعالى: {قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ أخرج مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَن جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}[٩٩٥]، ورد عليه الله جل جلاله على قوله وعهده، قال تعالى في علاه: {قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ على لَئِنْ أخرتن إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأجلبْ عليهمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عليهمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا}[٩٩٦]، ومن توكل على الله فليس للشيطان عليه سبيل، فالله هو

---

[٩٩٢] آل عمران٨٣.

[٩٩٣] البقرة٢٨٥.

[٩٩٤] الانفطار ١٠-١٢.

[٩٩٥] الأعراف١٤-١٨.

[٩٩٦] الإسراء٦٢-٦٥.

الذي بيده القوة والرد والحماية، قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عليكم حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ}[٩٩٧].

. الكتبة: وهم الذين يكتبون الأعمال الصالحة وغيرها فهما موجودان عن يمين الإنسان وشماله وهما يكتبان حسناته فور وقوعها، أو ورود النية بقصد عملها أو الأمر بها، وتكون مضاعفة لما يشاء الله ذلك، ولمن يشاء من عباده، ويترددان في كتابة السيئة، ولا يكتبانها إلا بعد التأكد من وقوعها، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[٩٩٨]، وقال تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُون}[٩٩٩].

. وجبريل عليه السلام: وهو الذي ينزل بالوحي من السماء إلى الأرض على رسله، ووُصِف بالقوة والأمانة، قال تعالى: {وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}[١٠٠٠]، هذا الملك الكريم جاء في وصف هيئته وقوته ما لا تتوقعه العقول والقلوب، وهذا الملك عندما نزل بالقرآن على رسولنا الكريم أبغضته اليهود طمعا في نزول الرسالة عليهم فرد الله عليهم قولهم وفضحهم في أقوالهم وتصرفاتهم، قال تعالى: {قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ}[١٠٠١].

. وميكائيل: وهو أحد الملوك الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، قال تعالى: {مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ}[١٠٠٢].

---

[٩٩٧] الأنعام٦١.

[٩٩٨] ق١٦-١٨.

[٩٩٩] الزخرف٨٠.

[١٠٠٠] الشعراء١٩٢، ١٩٣.

[١٠٠١] البقرة٩٧.

[١٠٠٢] البقرة٩٨.

ـ ملك الموت: وهو الذي ورد اسمه بملك الموت، قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ}[١٠٠٣].

. ملوك النفخات، وهي:

الأولى: نفخة الفزع: والتي قال تعالى في وصفها: {وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق}[١٠٠٤]، وما ينتج عن هذه النفخة من هول قال تعالى: {فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ}[١٠٠٥]، ويستثنى من ذلك الفزع الشهداء الذين هم في فضل من الله ورحمة، قال تعالى: {وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ داخرين}[١٠٠٦].

الثانية: نفخة الصعق: (صعقة الموت) قال تعالى: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ}[١٠٠٧].

الثالثة: نفخة البعث: للقيام، قال تعالى: (ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أخرى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ).

ـ حملة العرش: وهم الذين يحملون العرش الإلهي، قال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}[١٠٠٨].

[١٠٠٣] السجدة١١.

[١٠٠٤] ص١٥.

[١٠٠٥] الحاقة١٣-١٦.

[١٠٠٦] النمل٨٧.

[١٠٠٧] الزمر٦٨-٧٠.

[١٠٠٨] الحاقة١٧.

ـ وخزنة الجنة، وهم الذين جعلهم الله جل جلاله على أبواب الجنة، ليستقبلوا المؤمنين عندما يدخلون الجنة التي وعدهم رب العزة بها، ويستقبلونهم بالتحية والسلام، وبكل كلام طيب يطيب به الخاطر؛ جزاء أعمالهم الصالحة الصادقة، قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عليكم طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ}[١٠٠٩].

ـ وخزنة النار: قال تعالى: {وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عليكم آَيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ}[١٠١٠].

وكلهم يسبحون بحمده لا يفترون ليل نهار كذا وصفهم القرآن الكريم في محكم آياته، قال تعالى: {تَكَادُ السماوات يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[١٠١١].

د ـ الإيمان بالكتاب: قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آَثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآَتَيْنَاهُ الإنجيل وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عليهمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآَتَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ

[١٠٠٩] الزمر٧٣ ،٧٤.

[١٠١٠] الزمر ٧١ ،٧٢.

[١٠١١] الشورى٥.

بِيَدِ اللَّـهِ يُؤْتِيـهِ مَنْ يَشَـاءُ وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِيمِ}[١٠١٢]، وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[١٠١٣].

هـ . الإيمان بالرسل والأنبياء: قال تعالى: (وَالنَّبِيِّينَ)، وقال تعالى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّـهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عليهمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عليمًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا}[١٠١٤].

و . التصدق بالمال عن طيب خاطر وحسن نية: قال تعالى: (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ)، وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّـهَ بِـهِ عليم}[١٠١٥]، ويكون الصرف في الوجوه التي أمر الله تعالى بها:

. ذوي القربى: قال تعالى: (ذَوِي الْقُرْبَى)، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١٠١٦].

ـ اليتامى: قال تعالى: (وَالْيَتَامَى)، وقال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّـهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِـهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[١٠١٧].

[١٠١٢] الحديد ٢٦ ـ ٢٩.

[١٠١٣] البقرة٢١٣.

[١٠١٤] النساء٦٩–٧١.

[١٠١٥] البقرة٢١٥.

[١٠١٦] النحل٩٠.

[١٠١٧] النساء٣٦.

. المساكين: قال تعالى: (وَالْمَسَاكِينَ)، وقال تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١٠١٨].

ـ ابن السبيل: قال تعالى: (وَابْنَ السَّبِيلِ)، وقال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عليها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عليم حَكِيمٌ}[١٠١٩].

ـ السائلون: قال تعالى: (وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ).

. الغارمون: قال تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عليها وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عليم حَكِيمٌ).

ر . الوفاء بالعهد: ومن الأمور التي حافظ عليها العرب في جاهليتهم هو الوفاء بالعهد، والتاريخ يشهد لهم بذلك وكان لهم من الصدامات الدامية مع جيرانهم الفرس في ذلك الوقت في ذي قار، والذي كان سببه الوفاء الذي لم يرجع فيه العربي قيد أنملة ولو كان على حساب حياته، وجاء الإسلام وأكد على هذه الخصلة النبيلة الحميدة، ومدح بها خلفائه في أرضه أمرهم بأن يتحلوا بها وأن يتبعوا نهجها، قال تعالى: {وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ}[١٠٢٠]، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الإيمان بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عليكم كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ}[١٠٢١].

[١٠١٨] النور ٢٢.

[١٠١٩] التوبة ٦٠.

[١٠٢٠] البقرة ١٧٧.

[١٠٢١] النحل ٩١.

ز . الصبر في كل الأوقات: والصبر على الفرح كما هو الصبر على الضراء، أما ترى أن الله نهى عن الفرح في غير موضعه أو في حال زيادته والإسراف فيه خوفا من أن يجر صاحبه إلى الغرور وغيره، وذلك ما حدث مع قارون عندما تجاوز الفرح عنده إلى مرحلة الكفر والاغترار، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عليهمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ}[١٠٢٢]، وكذلك عندما رفض سيدنا سليمان الهدية فقد جاء في القرآن الكريم ما جاء على لسانه عليه الصلاة والسلام: قال تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ}[١٠٢٣]، كل ذلك بعدا عن ما هو سبب في العجب بالنفس، وعلى الحالات فالمؤمن هو الذي في حقه قوله تعالى: (وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ). قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}[١٠٢٤].

ط . إقامة الصلاة: بين فرض وسنة، قال تعالى: (وَأَقَامَ الصَّلَاةَ)، وقال تعالى: {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ}[١٠٢٥].

الصلاة عبادة بالإمكان أن يمارسها الإنسان وحده دون إلحاق ضرر بالآخرين من تأديتها، ويفضل أن تقام جماعية. وفيها يتساوى المصلون في صفوف واحدة دون تمايز بينهم، لا فقير محروم ولا غني مفضل في صفوفها المجتمعة، الكل متساوون أمام الله ولا فرق بينهم إلا بالأعمال، وتؤخذ العبرة منها بهدم قواعد التمايز الاجتماعي بين البشر، فلا تركع الناس إلا لله تعالى، ولا تسجد إلا له، مما يجعلنا نَسخَرُ من الذين يركعون ويسجدون لغير الله خوفاً وطمعاً،

[١٠٢٢] القصص٧٦.

[١٠٢٣] النمل٣٦.

[١٠٢٤] البقرة٢١٤.

[١٠٢٥] هود١١٤.

يقول الله تعالى: {اتلُ ما أوحى إليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر}[١٠٢٦].

هذه الآية تحرض على استعمال الوعي في الحياة الدنيا حتى لا يقع الأفراد والمجتمعات في الرذائل التي تنحرف بهم إلى الركوع والسجود لغير الله عز وجل، فهي الشك في كل ما يخيف الإنسان من دون الله، فلا وجود لخائف ومخيف في الصلاة، مما يجعلنا نتمرد ونرفض أي مصدر خوف عندما نحب الله ونخافه، وتجعلنا ندعو إلى قيام سيادة الجميع التي يتساوى فيها البشر دون انتقاص من أحد لحساب أحد آخر. ففي الصلاة مواقيت، أي فيها تنظيم المواعيد وتحديدها من أجل العمل الذي يكون فيه الضبط الذاتي رقيباً وسلطانا، وفيها احترام الذات والآخرين، ومنها تؤخذ القدوة الحسنة.

في الصلاة لا رئيس للمصلين بل لهم إمام يصلي بهم دون إكراه أو خوف منه، وليس له سلطة عليهم سوى الضبط الذاتي التلقائي. ولا تؤدى الصلاة بمقابل مادي، وليس للإمام رأي على المصلين. لا طاعة له إذا خرج عن الكتاب والسنة، الكتاب من حيث التزامه بقراءة القرآن عند قيام الصلاة، والسنة من حيث التزامه بعدد الركعات. ففي الأولى إذا أخطأ عن عمدٍ أو عن غير عمد يجب على الجميع متابعته وتصويبه إلى الحق، ويمنع اتباعه في الخطأ، ولا يجيز له غير ذلك حتى يتم التصويب إلى الذكر الحكيم. وفي الثانية إذا أخطأ في عدد الركعات بالزيادة أو النقصان فلا يتبع من قبل المصلين بل يجب تذكيره إلى الحق وإلى أن يصوَّب لتتم الصلاة دون تفريط.

وعليه لماذا لا تكون هذه عبرة للمسلمين في تنظيم شؤون أمرهم ليكونوا هم الرؤساء الأفاضل في دولهم دون أن يتولى أمرهم من يكرههم على غير مرضاة الله؟.

يلتقي المسلمون في جماعات وتجمعات خمس مرات في المساجد في اليوم الواحد، لممارسة شعائرهم في الصلاة التي هي عبادة الله وعامل وحدة بين المستخلفين في الأرض، وهي أحد

[١٠٢٦] العنكبوت ، ٤٦ .

أشكال التنظيم الذي يظهر الضبط والنظام أثناء تأديتها دون تدخل من أحد، وبدون قوانين وضعية وأجهزة تشرف على تنفيذها، وبدون مقابل مادي يعطي كأجرة للمصلين. وبالرغم من أن الصلاة تؤدّى على المستوى الفردي، فإنها محببة ومفضلة في تأديتها على المستوى الجمعي الذي يحقق للمستخلفين فيها من خلال التقائهم في اليوم الواحد خمس مرات الاستئناس والآمان وهم في لحمة الوحدة والقوة الاجتماعية متفقدين بعضهم بعضاً وهم متآزرين على القول الحق والفعل الحق، ويتم هذا على مستوى القرية أو المحلة، أو الجزء الجغرافي المحيط بدائرة كل مسجد.

تنص الشريعة على صلاة الجمعة التي هي مرة واحدة في الأسبوع من أجل أن يلتقي أبناء القرية أو القرى المجاورة في المسجد. وعند اللقاء لتأدية العبادة تحدث الوحدة في أداء الصلاة والوحدة في المشاعر والأفراح لمن منهم كانت له مناسبة فرح، أو ستكون له ليلتقي في مشاركته فرحته أو التخفيف عنه إذا أصابته كارثة، وبالتالي، تزداد الوحدة والألفة والحاجة للجماعة، إنها مراجعة أسبوعية لسكان القرية والمدينة الذين قد شغلتهم أعمالهم والظروف المتعلقة بها عن اللقاء اليومي بينهم في كل صلى.

وهناك مناسبتان مهمتان في السنة يجتمع المسلمون فيها في الجامع مفتوحا أو بناء مسيجا، والعيدان هما: عيد الفطر، وعيد الأضحى. وعليه، إذا كانت ظروف الحياة قد جعلت سكان المدينة أو القرى المتجاورة لا يلتقون في اليوم خمس مرات، أو حتى مرة واحدة في الأسبوع (يوم الجمعة)، فقد جعل الله للمسلمين عيدين يلتقون فيهما جماعات في ألفة ومحبة، وذلك من أجل تأكيد الوحدة وتقوية العلاقات الاجتماعية بينهم والاحتفال الجماعي بالمناسبات الدينية ذات الفضائل والمكارم في تاريخ الخليفة، إنهما عيدان للتسامح والتآخي.

إن الهدف من صلاة الجماعة واللقاءات العامة هو: استمرار الصلة الروحية والاجتماعية، وحتى لا يظن المسلم في أخيه المسلم ظن الجاهلية، وخاصة من تربطه علاقات بهم ظن إثم فجعل الله بين المسلمين مواقيت (أعياد) يلتقون فيها وهم في خشية من الله للتشاور والنقاش

المباشر حتى لا تكون بينهم غيبة عندما يتدخل الوسطاء في تناقل الحديث بينهم وقد يحرفونه عن مواضعه، لهذا كان للقاء معنى وفق فرائض وسنن لا خلاف عليها مصداقاً لقوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فَكَرِهتُمُوهُ واتقوا الله إن الله تواب رحيم يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائِل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير}[١٠٢٧] .

ظ . الحِجُ: الحِجُ شعيرة من شعائر الإسلام وهو من أيام إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وتعني كلمة الحَجُ بفتح الحاء كما يقول لسان العرب المحيط القصد والتوجه، أو القدوم إلى المكان الذي فيه غاية الزيارة فرضاً وسنة[١٠٢٨] . الحج فرض باعتباره مكمن الأسرار مما جعله واجبا من عند الله، وسنة من حيث أنه يتم وفق ما عمل الرسول صلى الله عليه وسلم من خطوات القيام به كواجب على المستطاع.

الحِجُ، بكسرِ الحاء، هو الزيارة والإتيان. ولهذا كان الحِجُ إلى بيت الله الحرام بمكة فرضا على كل مسلم مستطيع. ولكن إذا تساءل أحد: لماذا الحِجُ يرتبط بزمانٍ ومكانٍ معينٍ؟ . الحِجَ يرتبط بقداسة المكان والزمان المعين لسرٍ يتعلق بهما مما يجعل العرفان به واجبا. فهناك من يقول أنه من ذلك المكان كانت لحظة الانفجار العظيم التي امتدت منها الأرض. ونحن نفسر تحديد الزمان والمكان في أشهر معلومات وبمكة التي نزلت فيها خاتمة الرسائل السماوية نفسره بأنه الزمان والمكان اللذين امتدت فيهما الأرض والتي ستطوى فيهما في النهاية مصداقاً لقوله تعالى: {لا يحزنهم الفزع الأكبر وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون يوم نطوي السماء كطي السجلِ للكُتُابِ كما بدأنا أول خلقٍ نُعيدُهُ وعداً علينا إنّا كنّا فاعلينَ ولقد كتبنا في

[١٠٢٧] الحجرات ، ١٢ ، ١٣ .

[١٠٢٨] لسان العرب المحيط للعلامة أبن منظور ، ج ١، ص ٥٧٠ . ٥٧١ .

الزبورِ من بعد الذكرِ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون}[١٠٢٩] ، ولهذا هناك قداسة إلهية لمكان وزمان بداية الخلق، ولمكان وزمان طيهما، وهو يوم النهاية.
يقول الله تعالى: {وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيتِ أن لا تُشرِك بي شيئا وطَهِر بيتي للطائِفينَ والقائمينَ والرُّكَّعِ السجودِ وأذِّن في الناسِ بالحَجِ يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميقٍ ليَشهَدوا منافعَ لهم ويذكروا اسم اللهِ في أيامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم}[١٠٣٠] . ويقول الله تعالى: {الحَجُ أشهُرُ معلوماتُ}[١٠٣١] . بمعنى أشهرُ معروفات ومحددات، ويقال أنها شوال وذو القعدة وذو الحَجة. ويقول الله تعالى: {وأذَانُ من اللهِ ورسولهِ إلى الناسِ يوم الحَجِ الأكبرِ}[١٠٣٢] هناك من يقول أن يوم النحر هو يوم الحج الأكبر، وهناك من يقول هو يوم عرفة، الذي يقال أن الرسول قال عنه الحِجُ عرفة. والذي قال عنه الله تعالى: {فإذا أفضتم من عرفاتٍ فاذكروا الله عند المَشعَرِ الحرام}[١٠٣٣] . هذه أماكن مقدسة ندب الله عباده إليها لحكمة هو يعلمها، فالمَشعَرِ الحرام كما يقول أبن منظور في لسان العرب المحيط هو مزدلفة وهو مَعلَمُ تعبد ندب الله الناس للقيام عليه. ويقال من أسرار الوقوف بعرفة أن آدم لما هبط من الجنة لم يلتق مع حواء إلا في عرفات ويوم لقائهما هناك بعد ضياع أطلق عليه عرفات حيث لقيها في ذلك الموقع فعرفها وعرفته[١٠٣٤] ، ولذا سمى عرفات لأنه مكان التعارف بين آدم وحواء، وفي هذه أسرار تقديس المكان الذي يقال أيضاً عنه أنه المكان الذي طاف منه جبريل عليه السلام بسيدنا إبراهيم عليه السلام فكان يُرِيه المشاهد العظام ليعرِّفه عليها حتى قال إبراهيم عرفت

[١٠٢٩] الأنبياء ، ١٠٢ . ١٠٤ .

[١٠٣٠] الحج ، ٢٤ . ٢٦ .

[١٠٣١] البقرة ، ١٩٦ .

[١٠٣٢] التوبة ، ٣ .

[١٠٣٣] البقرة ، ١٩٦ .

[١٠٣٤] لسان العرب المحيط . أبن منظور ، المجلد الثاني ، ص ٧٤٨ .

عرفت. وسواء أكان هذا مكان تعرف أبانا آدم بأمنا حواء، أو أنه المكان الذي التقى فيه جبريل عليه السلام بسيدنا إبراهيم ليعرِّفه على أماكن التوحيد المقدسة، في كلتا الحالتين يكون مكمن السر الإلهي الذي يستوجب التوجه إلى مكانه ولزيارته .

وعليه تؤخذ العبر من الحِجُ الذي فيه يتساوى كل المستخلفين في دعواتهم ولباسهم أثناء أدائهم فريضة الحج، فلا يلحظ بين الحجيج خلال ارتدائهم ملابس الإحرام (الملابس الخاصة لفترة من فترات الحج) إنهم طبقات أو فقراء وأغنياء ، بل يلحظ بينهم وحدة الفكرة ووحدة السلوك وفقا لوحدة العقيدة. قال تعالى: {ولله على الناس حجُ البيت من استطاع إليه سبيلا}[١٠٣٥] . إنه فرض على كل مستطيع بجهده أو بتسخير ماله في أداء الفريضة.

الحج يمارس جمعيا، فيه الناس سواسية، كلهم سادة ولا سيد عليهم، لا رئيس يرأسهم ولا شرطة بينهم تتدخل في شؤونهم لتعلمهم كيف يمارسون العبادة، العبادات في الإسلام جميعها إرادية، ولا سلطان عليها إلا سلطان الجامع جل جلاله، وليس لهم مدافع وكتائب مسلحة تنوب الدفاع عنهم، ولا يتقاضون المرتبات مقابل أدائهم الفريضة، ولا حزب لهم يتولى تثقيفهم بثقافته، جميعهم ينشدون الله أكبر ولله الحمد الجامع على الحق جل جلاله.

في موسم الحِجُ يلتقي ملايين المسلمين لأداء الفريضة وهم على درجة انضباط عالية وقدوة حسنة في التعاطف والتراحم والتعاون والتواد، لأنهم يلتقون على الواحد الأحد. إن اللقاء على تعاليم واحدة منزهة تجعل المؤمنين بها في مسلك واحد نزيه. فالحج ملتقى جمعي يتساوى الناس فيه، وهم ليسوا في حاجة لمن يتولى أمورهم أو ينوب عنهم، فالأمر أمرهم وهم المسؤولون عنه. إنه الوعي الكامل بوحدانية الله تعالى، والرفض الكامل لكل الأشكال والأدوات التي تشرِّع بغير حكم الله.

[١٠٣٥] آل عمران ، ٩٧ .

في الحج ترتقي الروح بالبدن لتطهره من دنس الرذيلة حتى يتجلى الإنسان بالحب الإلهي فيسمو إلى عالم المثل السرمدي ثائراً على نفسه ليعود بها بعد رحلته إلى عالم الإيمان، مستنهضاً بها إلى الحياة الواعية، متبيَّناً ما كان فيه وما يجب أن يكون عليه.

الحج خشوع لله وعودة بالنفس إلى حياة الفطرة، من خلال الإحرام الذي يرتقي بنا إلى الشك في النفس، وما ترتديه من ملابس وما تنطق به من كلمات وما تمتلكه من ماديات، لتعود بنا إلى حياة الفطرة بأن الله لا ينظر إلى ملابسنا وأموالنا، ولكنه ينظر إلى أفعالنا. فالحج مثال للمسلمين يجتمعون ويتساوون فيه، ليس بينهم من يلبس الحرير ومن يلبس الخيش، وليس بينهم من يحس بالغبن والظلم، بل كلهم يحسون بخشية الله وعظمته التي جمعتهم على كلمة سواء وجعلت بينهم مودة وهم ملايين من البشر من مشارق الأرض ومغاربها جميعهم أخوة متحابين في الله، يرددون الله أكبر ويرجمون بضمائرهم وأيديهم كل الخبائث التي تفرق بينهم ويلعنون مسببيها من الجنة والناس، متحررون من الماديات التي تضعف نفوسهم أو تذلها والتي كانت سبباً في وهنهم وضعفهم، إنهم في وحدة وتجمع وشعورهم القوة.

ع . الصوم: جمعه في العبادة بين النية والعمل: فالصيام من لم يُجْمِع فيه الصِّيامَ من الليل بين النية والعمل فلا صِيام له فالإِجْماعُ إِحكامُ النيةِ والعَزيمةِ على أداء الفريضة تنفيذا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عليكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ آخر وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ القرآن هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ آخر يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[١٠٣٦].

[١٠٣٦] البقرة١٨٣-١٨٥.

الصوم فريضة على المسلم البالغ القادر، وفيه يتساوى المفروض عليهم في الامتناع عن جميع المفطرات من شرب وأكل وجنس نهاراً مع تهذيب الأخلاق، وفيه مودة ومحبة بين الناس مصداقا لقوله تعالى: {أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هنَّ لباسُ لكم وأنتم لباس لهنَّ عَلِمَ الله أنكم كُنتم تَختانُون أنفُسَكُم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهنَّ وابتغوا ما كتب الله لكم وَكُلُوا واشربُوا حتى يتبين الخيط الأبيضُ من الخيط الأسودِ من الفجرِ ثُم أتموا الصيام إلى الليل ولا تباشروهنَّ وأنتم عاكفون في المساجد}[١٠٣٧].

الصوم ثورة على النفس لتفطن من غفلتها التي تلهيها عن عمل الخير، فتكون الكلمة صدقة ويكون التصدق خيرا. في شهر رمضان يتوحد المسلمون في صيامهم وقيامهم، ويلتفت بعضهم إلى بعض، بعد أن قضوا أحد عشر شهراً وهم محرومون من أهميته. ولهذا إذا كان الحج شكاً فيما نلبس، فإن الصوم شكا فيما نأكل ونشرب، مما يجعل الصائم يتساءل: هل ما نأكله ونمتلكه ونشربه هو نتيجة حرمان الآخرين منه، أم أنه من جهدنا وعرق جبيننا؟ إنه الشك من أجل اليقين، ومراجعة مسلكية لِمَا نحن عليه خلال سنة تقريباً في شهر رمضان لنُطهِر أقوالنا وأفعالنا من كل شك، قال تعالى: {من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد}[١٠٣٨]، إنه منهج بناء الفرد الذي يقوم عليه بناء المجتمع متضمناً مساءلة بين الروح والجسد، وقوة فاعلة تمكن الفرد من أن يكون أمة كاملة عندما يتوحد شعوره وحبه وآماله مع آمالها وحبها وشعورها. شهر رمضان هو الشهر الذي يجمع كل المسلمين على صيامه بالعبادة من مشارق الأرض ومغاربها، إنه الشهر الذي تظهر فيه قوة التحمل والتعاطف والتراحم، لأنه شهر مراجعة الظروف الاقتصادية للمسلمين القادرين وغير القادرين، حتى يوفر المحتاج وجبة له، وحتى يتذكر غير المحتاج أولئك المحتاجين فينفق عليهم من زاده دون منّة منه، ودون إجبار من أحد. وهو نظام ذاتي لا يحتاج في تطبيقه إلى أجهزة وموظفين وقوانين

[١٠٣٧] البقرة، ١٨٦.

[١٠٣٨] فصلت، ٤٥.

إلزامية، إنه علاقة مباشرة مع الله تعالى في الحياة الدنيا. وهو تنظيم اجتماعي يهدف إلى إبراز السلوك الخيّر بين الناس، وله مواقيت ونواميس أثناء الإفطار وأثناء الإمساك والصيام هي الأخرى تهدف إلى احترام الوقت ومراعاة أهميته بين الناس وفيما يعملون، إنه الشهر الجامع للألفة والمحبة والجامع لأعمال الخير وأفعاله، والجامع للحسنات بما تقدم أيدي المستخلفين فيها على كل خير.

غ . الزكاة: قال تعالى: (وَآتَى الزَّكَاةَ)، قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[١٠٣٩].

الزكاة تشبع الحاجة، والكل في حاجة إليها، (الغني والفقير):

الغني: لأنه المالك للحلال، ولأنه كذلك فهو في حاجة لتطهير ماله الحلال بها (بالزكاة)، وهذه قاعدة (المال الحلال يطهر) أي يزكى، وبتزكيته يتم إشباع الحاجات الروحية التي بها تطمئن الأنفس، ثم يسود المال المزكى السلامة من الشرور والمخاطر فيتبارك، مما يجعل المزكي خليفة من المصلحين فيها، وعليه الغني إن لم يزكي سيظل في حاجة، وإن زكى أصبح في حالة إشباع وعلى حمدٍ لله ربه العالمين.

الفقير: هو صاحب الحق في المال الحلال البالغ للزكاة، ولأن الزكاة حق في الحالتين:

. حالة الإخراج (تطهير المال الحلال).

ـ حالة الأخذ، (أخذ المال الحلال) أي أن الفقير له الحق في مال الغني وبالتالي عليه بأخذ حقه منه، دون خشية، ولأن إظهار الزكاة بدون منة، لذا فأخذها حق دون ريبة. وعليه فالفقير الذي لم يأخذ الزكاة التي هي حق له، سيضل في حاجة، وإن أخذها أصبح من المشبعين بالحلال.

الزكاة عبادة تكمن فيها رعاية المحتاجين، وهي ضمان اجتماعي أمر به الله تعالى بأن يخرج الذين في أموالهم حقوق معلومة للمحتاجين من سائل ومحروم، وتعطى لهم عن طيب خاطر.

[١٠٣٩] البقرة ١١٠.

وبناءً على هذه الرؤية التي تكّون عامل توحيد بين المستخلفين في الأرض، تظهر أحاسيس الود والتراحم بينهم فلا يكون بينهم شقيا ولا محروما.

والزكاة تعني "ما أخرجته من مالك لتطهره به"[١٠٤٠]، وهي فرض على المسلم الذي يمتلك ثروة تزيد عن حاجاته، وهي ركن من أركان الإسلام ، فإذا انهدَّ هذا الركن اختل التنظيم الاجتماعي، وإخراجها ليس منة من أحد، بل إنها الحق المعلوم للسائل والمحروم في الحصول على الحق من آخذيه مباشرة من خلال الاستعباد والاستغلال أو غير مباشر من خلال التوسع في التملك والاحتكار الذي لا يسمح للمحتاجين بالحصول على حاجاتهم، فيقول الله تعالى: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة}[١٠٤١].

إن الغاية من فرض الزكاة هي تحقيق المساواة وإحقاق الحق بين الناس والقضاء على متغيرات العبودية وأسباب الفقر، من أجل تأكيد قيمة الإنسان وحقه في التملك وفق الحاجة ليمارس الحرية مع الآخرين الذين يعيش معهم. ولهذا كان الغرض من الزكاة هو تحرير المحتاجين والعبيد من التبعية والاستغلال.

وعليه، لقد عرفنا مما سبق بشكل عام الزكاة على من تجب ولمن تجب. ولكننا لم نعرف بعد، هل المستهدف من ورائها هو إلغاء الطرفين أم طرف واحد؟ في اعتقادنا لم يكن المستهدف إلغاء طرف واحد، بل الهدف إلغاء الطرفين من خلال إعادة تنظيم المجتمع على قواعد المساواة التي توّلد مجتمعا جديداً، وذلك بأخذ الزائد عن الحاجة وإعطائه لمن هو محتاج، فيتكون مجتمع لا محتاج فيه. إذن يكون الاختيار بين ثلاثة مستويات لتنظيم المجتمع تكوِّن ثلاث طبقات في الدولة هي:

[١٠٤٠] لسان العرب المحيط . ج ٢، ص ٣٦ .

[١٠٤١] البقرة ، ١٧٦ .

١- المستوى الأول: طبقة الأغنياء، التي هي نتاج سوء توزيع الثروة بين أبناء الأمة، وفي حالة تكوَّن هذه الطبقة بالضرورة تتكوَّن من بعدها طبقات أخرى مترتبة عليها. وهذه الطبقة ينبغي أن تتغير إلى الأحسن وهو مجتمع الإشباع الذي لا يترتب على وجوده طبقات، وذلك بتحرر عقلية أفراده من استغلال بعضهم لبعض، وتحرر عقلية الأغنياء من احتقار الآخرين أو التقليل من شأنهم.

٢- المستوى الثاني: طبقة الفقراء، والتي هي نتاج وجود الطبقة السابقة والمترتبة عليها. ولكن عندما يكون مجتمع الدولة بكامله في مستوى الفقر يكون هذا المستوى مستقلا عن المستوى السابق وغير مترتب عليه، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يتحول المجتمع بأكمله إلى الإنتاج لينتقل من مستوى الفقر إلى مستوى الإشباع الذي يحرره من التعرض إلى الاستغلال والمستغلين وبه يتطور. وعندما يكون المجتمع متكون من أغنياء وفقراء، يكون المجتمع في حالة عدم تساوٍ، أي أن الفروق بين أفراده تمتد على مستقيم التباين، وهذا الأمر في حاجة لإعادة التنظيم الاجتماعي والاقتصادي، فكانت الزكاة هي الحل الذي يقرب الهوة ويطوي مسافات التباين بين أبناء الأمة الواحدة في المجتمع الخليفة.

٣- المستوى الثالث: طبقة إشباع الحاجة، وهي الطبقة الفاصلة بين الطبقتين السابقتين من خلال تدرج المستوى الاقتصادي لأفراد المجتمع، وفي هذه الحالة يصبح المجتمع مكوَّنا من ثلاث طبقات متراتبة هي:

. طبقة الأغنياء على رأس الهرم.

. الطبقة المتوسطة التي هي في حالة الإشباع.

. طبقة الفقراء (المحتاجون) في أسفل الهرم الطبقي. ولكن عندما يصل المجتمع بكامله إلى مستوى الإشباع ينتفي بالضرورة وجود مجتمع طبقي وتكون المساواة هي المبدأ العام لتنظيم المجتمع الفاضل .

وعليه كان المجتمع العربي في العصر الجاهلي ينتظم وفقاً لقاعدة الغني والفقير والسيد والعبد كما هو مبين في الشكل رقم (١). وجاء الدين الإسلامي ليصحح قواعد تنظيم المجتمع على قاعدة المساواة فأوجب الزكاة وهى حق المحتاجين في الثروات الزائدة عن الحاجة.

الشكل رقم (١)

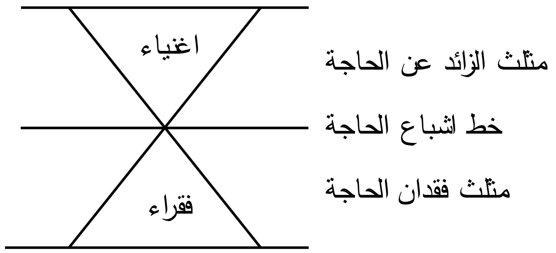

إن تنفيذ فريضة الزكاة بأخذ الثروات الزائدة عن الحاجة وإعطائها لمن في حاجة إليها، هو من أجل إعادة تنظيم المجتمع على قاعدة يتساوى فيها كل الناس. فأخذ المال الزائد عن إشباع الحاجة وإعطاؤه لمن هم في حاجة إليه، يؤدي إلى رفع المستوى الاقتصادي والاجتماعي للمحتاجين بحيث يصيرون في مستوى إشباع الحاجة، ولذا يؤدي أخذ الزائد عن الحاجة عندما يعطى إلى المحتاجين إلي شيئين:

الشيء الأول: تطهير أموال الأغنياء، وتثبيت حقهم الذي لا يحاققهم فيه أحد وذلك بوقوفهم على خط إشباع الحاجة الذي هو حقهم.

الشيء الثاني: رفع المستوى الاقتصادي للمحتاجين بالزكاة وذلك بما يمكنهم من الوقوف على خط إشباع الحاجة.

والنتيجة من هذين الشيئين هي: قيام مجتمع لا طبقي وذلك بعودة طبقة الأغنياء إلى خط الإشباع، وارتفاع طبقة الفقراء إلى خط الإشباع مما يجعل الطبقتين تلتقيان في خط واحد مستقيم ويطوى الشكل رقم (١) ويقوم المجتمع المتساوي في ممارسة الحقوق وأداء الواجبات، وحمْل المسؤوليات، ويترك مجال الزيادة والنقصان بين الأفراد والجماعات والمجتمعات إلى

المجهود المبذول من أجل الإنتاج، وبناء على ذلك ينتظم المجمع على خط واحد هو، خط المساواة (خط إشباع الحاجة) كما في الشكل رقم (٢) .

خط إشباع الحاجة ـــــــــ

(خط تنظيم المجتمع)   شكل رقم (٢)

وعليه، لو كان العرب المسلمون وجميع المجتمعات المسلمة يخرجون الزكاة منذ بداية الدعوة إليها ويعطونها لمن هم في حاجة إليها، لما وُجد اليوم فقير وغني في المجتمع العربي المسلم، أو أي أمة من الأمم الإسلامية الأخرى، ولما كان هناك داع للحديث عن الزكاة إلا ذكرى لمنفعة المستخلفين في الأرض. وحسب هذه القاعدة فإن دفع الزكاة لا يستمر مع حياة الإنسان المسلم إذا أعاد الحاجات الزائدة عنه إلى مستحقيها أولا بأول، وأصبح ينتج حسب حاجاته المتطورة، أي يفترض أن دفع الزكاة في صورته المبدئية قد انتهي منذ زمن. ولكن نتيجة الممتنعين عن دفعها والمتحايلين عليها أوجد الحاجة إلى إخراجها والحاجة إلى أخذها.

ولذا فالمجتمع المسلم الذي يخرج الزكاة ينبغي أن لا تكون هناك مبررات قيام الطبقية بل ينبغي أن يتأكد المجتمع الحر المتساوي في نظمه وتنظيماته السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تمكن أفراده من امتلاك سلطتهم وثروتهم وسلاحهم دون تمايز قانوني.

قال تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم}[١٠٤٢] . تؤكد هذه الآية أن الصدقات لمن هم في حاجة إليها. فالفقير هو الإنسان الذي يحتاج لما يبقيه حياً، والمسكين هو الذي لا دخل له بل يعيش ليومه، ويحس بآلام الحاجة عندما يلاحظ ظروف أسرته المحتاجة ولا يجد سبيلا إلى العمل على إشباعها خاصة عندما يكون جميع أفرادها قصَّر. أما

[١٠٤٢] التوبة ، ٦٠ .

العاملون عليها فهم الذين تم اختيارهم أو تكليفهم لجمع الزكاة، وبالتالي لا دخل لهم إلا منها، والمؤلفة قلوبهم هم قوم أسلموا ونيتهم ضعيفة لدخولهم في الإسلام حديثاً، وفي الرقاب ويقصد بها دفع الصدقات من أجل تحرير العبيد وفك رقابهم. والغارمون هم المدينون، وفي سبيل الله في الجهاد لإعلاء كلمة الحق (كلمة الله)، أما ابن السبيل فهو الذي ينتقل من بلد إلى آخر بحثاً عن الأمن أو العلم وهو في حاجة للصدقة.

يتضح من الآيات السابقة أن الزكاة من أهم المصادر الضمانية لحياة المحتاجين إليها من المجتمع، وهي أيضاً مسؤولية اجتماعية عامة. والمجتمع الإسلامي مجتمع تكافل إنساني لا ينبغي أن ينتظم على أساس طبقي (فقير وغني) فالفقر والغنى علامة من علامات الجاهلية الغابرة. ولهذا فالزكاة نظام اقتصادي يهدف إلى المساواة بين أبناء الأمة بإزالة مثلثي الفوارق الاجتماعية من أجل الانتظام في خط مستقيم لا فوارق فيه بين الناس. والزكاة بهذه الحكمة الاقتصادية تتجاوز ما يطرحه النظام الرأسمالي من حلول، والذي لم يتجاوز الأجرة ولا شيء يعطى دون مقابل من الدولة في هذا المجال. والزكاة في المجتمع المسلم لم تدفع من قِبل الدولة، بل تُدفع للناس من الناس أنفسهم، ولهذا هي تكافل اجتماعي بينهم مؤسس على قاعدة الرزق الحلال، وهي ليست أجرة مقابل مجهود كما هو الحال في مجتمعات الأجرة المستغلة، ولهذا فإن تأدية الزكاة بالنسبة للمسلمين هي تأدية عبادة على كل من تجب عليه منهم، وإعطاؤها يبرهن على المحبة والوفاء بين أبناء الأمة، ويبرهن على الطاعة التامة لله رب العالمين جامع العباد على العبادة والمحبة، ولهذا فهي حق بين الناس.

ف . الجهاد:

إنه عبادة من أجل الدفاع عن النفس والدين والأمة. وبما أنه عبادة، فكل المستخلفين معنيون به، فعندما يحين وقته يتم التنادي بينهم ويجتمعون كصف واحد في مواجهة الأعداء، إنه ليس جيشاً مجبراً على القتال، بل شعب واحد دون إجبار من أحد إلاّ من الضمير المؤمن بأهمية الجهاد في ممارسة العبادة. وإذا نظرنا اليوم إلى خريطة العالم، نلحظ أن الدين الإسلامي

منتشر في آسيا، وأفريقيا، وأوروبا، والأمريكتين، وأستراليا، فأي قوة نشرته إذن؟. هل دخل العرب المسلمون بقوتهم العسكرية الجرارة إلى هذه القارات الخمس؟. لقد انتشر الدين بإحقاق الحق وإزهاق الباطل أي بقوة العقيدة (قوة الحجة) عند المبشرين بها وبقوته الفكرية والروحية بالدعوة والتبشير لا بالقوة العسكرية، فكل ما ينتشر بالقوة العسكرية يزول بزوالها مثله مثل الاستدمار (الاستعمار). والجهاد هو نتيجة الإيمان بصدق الرسالة التي توحد العقيدة مع السلوك عندما تتجسد في النفس. أما الحرب فهي التي يدخلها المقاتل كرها لأنها تهديد للوجود وتدمير للحق ولا مفر من ذلك إلا أن تخاض دفاعاً عن النفس البريئة.

الجهاد أمر يخص كل من يحرص على معتقده ومصيره مما جعل الرسول صلى الله عليه وسلم يستشير المسلمين في أمرهم، وكان يأخذ برأيهم حول كل أمر في السلم أو في الحرب. فعندما سمع الرسول صلى الله عليه وسلم أن كفرة قريش كانوا يستعدون لمحاربة رسالته والمؤمنين بها قبل غزوة بدر جمع الناس وأخبرهم بالأمر، فكان من بين المتكلمين ابوبكر الصديق وعمر بن الخطاب والمقداد بن عمر الذي قال: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معك مقاتلون، مما جعل المسلمون يقررون بأجمعهم قتال الأعداء الذين يعدون لهم العدة لمقاتلتهم. وكان عدد المقاتلين الذين خرجوا مع الرسول في غزوة بدر حوالي ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلاً منهم مائتان وسبعة من الأنصار، ومائة وستة من المهاجرين. وفي أثناء الاستعداد للمعركة تقدم المنذر بن الحباب يناقش الرسول لتغيير المكان الذي يوجد فيه المسلمون، وعمل القوم برأيه وتم تغيير المكان. بعد انتهاء المعركة اجتمع المجاهدون للتشاور في الأمر المتعلق بالأنفال والأسرى فتباينت الآراء حيث رأى الرسول وابوبكر وطائفة من المسلمين أخذ الفداء، بينما رأى آخرون وعلى رأسهم عمر بن الخطاب رفض الفداء وهكذا تباينت الآراء حتى نزل قول الله تعالى: {فإذا لقيتم الذين كفروا فَضَربَ الرقابِ حتى إذا اتخنتُمُوهُم فشدوا الوَثَاقَ فَإما منًّا بعد وإما فداء حتى تَضَعَ الحربُ أوزَارَهَا}[١٠٤٣]. بعدها كان الرأي بالإجماع بعدم أخذ الفداء.

[١٠٤٣] محمد ، ٤ .

وفي معركة أخرى حينما علم الرسول بقدوم كفرة قريش ومن معهم لقتال المسلمين، جمعهم للتشاور في الأمر، فكانت آراء الأغلبية منهم الخروج إليهم لملاقاتهم خارج المدينة، وكان من بينهم حمزة بن عبد المطلب، وسعد بن عبادة، والنعمان بن مالك. أما الرأي الآخر فكان على رأسه رأي الرسول الذي أكد على البقاء في المدينة نتيجة حصانتها، ولكن في النهاية اقتنع الجميع بمن فيهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه بالرأي الأول فخرج حوالي ١٠٠٠ ألف مجاهد لمقاتلة المعتدين[١٠٤٤].

لقد كانت الشورى قاعدة التنظيم الاجتماعي العربي في فترة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان أكثر التزاماً بها حتى ولو كان القرار المترتب عليها مخالفاً لرأيه. ففي غزوة الأحزاب طرح الرسول على المسلمين الأمر بينهم شورى حتى يقرر كل منهم بإرادته الخروج أو عدم الخروج لملاقاة الأعداء. وعندما خرج المجاهدون منهم للجهاد تشاورا في أفضل الخطط القتالية، طرح سلمان الفارسي فكرته الحربية التي تعلمها من الفرس وهي حفر خندق كبير شمال المدينة المنورة، وأقرها الجميع مما جعل النصر حليفهم[١٠٤٥].

إن أمر الحرب شورى بين من يخصهم الأمر، فلا يجوز فيه الإجبار من أحد مما جعل الرسول لا يتجاوز التحريض على الجهاد بعد أن أُذن له وللمؤمنين بذلك، ومن لا يرغب ذلك يكون مع الخوالف. ولهذا لم يكن للرسول جيوش نظامية كما هو حال المجتمعات من بعده، لأن الجيوش عبارة عن موظفين مأجورين من قبل الدولة للدفاع عنها، وعندما تكتب عليهم الحرب يدخلونها متثاقلين غير راضين وليس لهم حرية التخلف عن تنفيذ الأوامر التي تصدر لهم، وهم لا رأي لهم فيها مما يجعل الهزائم العسكرية علامة من علامات الجيوش النظامية. ولهذا لا خير في متباطئ متثاقل مصداقاً لقوله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: {فقاتل في

[١٠٤٤] فرج محمد الهوني ، النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية . طرابلس . الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٧م ، ص ٣٦ .

[١٠٤٥] يعقوب محمد المليجي ، مبدأ الشورى في الإسلام . الإسكندرية . مؤسسة الثقافة الجامعية ، ص ٩٣ .

سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين}[١٠٤٦] . إن المسلمين لم يخوضوا المعارك إلا في حالة إكراههم على ذل أو باطل، ولهذا حاربوا الفرس لأن كسرى أرسل إلى عامله في اليمن يأمره بتأديب الرسول أو ضرب عنقه وإرسال رأسه إليه، وحاربوا الروم لأنهم أرسلوا طلائعهم إلى تبوك[١٠٤٧] .

وعليه، برغم الخسارة الحربية للعرب المسلمين في بعض المعارك التي خاضوها ضد زبانية العصر الجاهلي (الكفار والمشركين) إلا أن الانتصارات كانت هي الحليف الأكثر تكراراً لهم وذلك نتيجة الإيمان بالقضية التي جاهدوا في سبيلها. والفرق كبير بين من يقاتل من أجل قضية ومن يقاتل من أجل حكومة. فالذي يقاتل من أجل قضية سماوية أو وطنية فهو يقاتل في حقيقة الأمر من أجل كرامة شخصية يكون لها اعتبار بين الناس ويكون لها اعتبار في المستقبل الخالد مما يحقق للمقاتل النصر أو الاستشهاد ، أما الذي يقاتل بغير قضية فلا يكون له اعتبار لا في الحاضر ولا في المستقبل، مما يجعله في حالة استسلام وهزيمة ويكون الندم له رفيقا.

أسباب التجمع لإعلان الحرب:

من خلال العرض السابق تتضح أسباب الجمع لإعلان الحرب في الآتي:

١- أي اعتداء من العدو على الأمة أو الوطن يستوجب الدفاع على كل مواطن ومواطنة، مصداقا لقوله تعالى: { فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم}[١٠٤٨] .

٢- الدفاع عن الدين واجب لا خيار عنه والقتال من أجله جهاد والموت في سبيله استشهاد، {فليُقتِل في سبيل الله الذين يَشرُونَ الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يَغلِب

[١٠٤٦] النساء ، ٨٣ .

[١٠٤٧] عباس محمود العقاد ، بحوث إسلامية . بيروت . المجلد الخامس ، دار الكتاب العربي ، ٢٢٨ .

[١٠٤٨] البقرة ، ١٩٣ .

فسوف نؤتيه أجراً عظيما ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها}[١٠٤٩] .

٣- نقض العهد: في حالة توقيع اتفاق صلح أو عهد أمان بين الأمة وغيرها من الأمم الأخرى، ثم تنقض الأمم الأخرى عهدها مع الأمة بالخداع أو النفاق، يحق عليهم القول وهو إعلان الحرب مصداقا لقول الجامع جل جلاله: {وإن نكثوا أيمانكم من بعد وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون}[١٠٥٠] .

٤- إذا حاول الأعداء إشعال نار الفتنة بين أبناء الأمة، كما هو حال اليهود عندما حاولوا الفتنة بين الأوس والخزرج (بين المهاجرين والأنصار) حيث وجب قتالهم مصداقا لقول الله تعالى: {وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين}[١٠٥١] .

٥- في حالة الردة: إذا ارتدت أي أمة من الأمم الإسلامية أو أي طائفة من الطوائف أو الجماعات عن الدين وجب قتالها، مصداقا لقوله تعالى: {يأيها الذين أمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يُحِبُهم ويُحِبُونه أذِلةٍ على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم}[١٠٥٢] . وقد سبق وأن ارتدت عن الدين الإسلامي منذ بداية ظهوره ثلاث فرق من العرب وهم بنو مُذجح وكان رئيسهم ذو الحمار الأسود العنسيّ الذي تنبأ في اليمن، وبنو حنيفة أصحاب مسيلمة الكذاب تنبأ وحاربه ابوبكر رضي الله عنه بجند المسلمين وهلك، وبنو أسد قوم طليحة بن خويلد، تنبأ

[١٠٤٩] النساء ، ٧٣ ، ٧٤ .

[١٠٥٠] التوبة ، ١٢ .

[١٠٥١] البقرة ، ١٩٢ .

[١٠٥٢] المائدة ، ٥٦ .

فبعث لـه رسول الله صلى الله عليـه وسلم خالد بن الوليد إلى أن أسلم بعد هروبه إلى الشام وحسن إسلامه[١٠٥٣] .

إن النقاط السابقة تعتبر أساسية في تنظيم المجتمع المسلم. ولأن الحرب أمر يخص كل فرد من أبناء الأمة فلا يجوز لأحد أن يقرره نيابة عنه، وذلك لتحمل المسؤوليات الجسام المترتبة عليه، وإذا لم يعرض أمر الحرب بين المعنيين به، فستكون النتيجة الهزيمة في معظم الأحيان، لأن قرار الحرب من الحاكم قد لا يكون نتيجة للأسباب السابقة، بل قد يكون لأمر يخص الحكومة كامتصاص الغضب الداخلي أو الطموح التوسعي على حساب الآخرين، أو نتيجة الزيادة الكبيرة في عدد السكان أو لأسباب اقتصادية أو لغرض الهيمنة العسكرية، أو لأسباب طاغية لا مبرر لها. والخليفة الذي لا يمتلك الحرية فيما يتعلق بمصيره على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، لا يمكنه أن يكون مقاتلا أو مدافعا منتصرا عن تراب الوطن وذلك نتيجة الروح المعنوية المنهزمة على هذه المستويات الثلاثة والتي بدورها تؤدي إلي الهزيمة في ميدان القتال. وهذا ما نلمسه اليوم على جبهات القتال المنهزمة، فالمقاتل الذي يمتلك حريته وهو على جبهة القتال يستطيع أن يقرر النصر أو الهزيمة، يقرر النصر عندما يحس بأنه يقاتل من أجل دينه أو وطنه الذي يملؤه بالحب والأمان أو أنه يقاتل من أجل حريته التي يمتلكها قرارا وتنفيذا ورقابة، وذلك في كل ما يتعلق به من أمر يخصه، وفي مقابل ذلك بإمكانه أن يقرر الهزيمة عندما يعرف إن النصر لا يعود عليه بل يعود على الحكومة التي تزيد من هيمنتها عليه وعلى سيادة الأمة وتراب الوطن، مما يجعله لا يقاتل بإرادة وقد يفضل الاستسلام أو يتآمر مع المتآمرين أو يهاجر مع المهاجرين حيث أرض ارض الله واسعة. وإذا سأله أحد لماذا لا تقاتل من أجل العِرض الذي يهتكه الأعداء؟ أو لماذا لا تقاتل من أجل الحرية التي تهدد، أو عن تراب الوطن؟ فقد يجيب إذا كان القتال من أجل العِرض فعلى أن أقاتل الحكومة التي

[١٠٥٣] محمد أحمد كنعان ، مواهب الجليل من تفسير البيضاوي . بيروت . دار العلم للملايين ، ١٩٨٤م ، ص ١٤٨ .

هتكت كل عِرض. وإذا كان القتال من أجل الحرية فعلى أن أقاتل الحكومة التي كبلت كل الحريات، وإذا كان القتال من أجل الوطن فيجب أن نحرره أولا من قيود الحكومة التي حولت ترابه إلي سجون، وهكذا إذا كان القتال من أجل امتلاك مسكن أو مزرعة أو جزء من الثروة التي تخصه، فعليه أن يقاتل المتحكمين في أمره. وعليه أصبح المواطن يطرح السؤال على المواطن، لماذا لا تقاتل من أجل تحرير الأرض؟ ويجيب، أنني لا أقاتل من أجل تحرير الأرض حتى لا يتسع نفوذ الحكومة.

ق . الجامع: ملتقى المستخلفين على الطاعة وممارسة العبادة في مواقيتها، فالجامع يوحِّد على المحبة ولا يفرق بالمظالم، إنه العنوان الدائم في حياة المستخلفين فيها، وعلامة للاجتماع، قال تعالى: {يَا بَنِي آدم خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[١٠٥٤].

في العصر الجاهلي كانت ألقاءات والاجتماعات تتم في أماكن للسهر والبيع والشراء وحفلات الزواج، إلا أنه بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الذين معه من مكة إلى المدينة، ليحل بين مناصريه، أراد بناء مكان يلتقي فيه المسلمون من المهاجرين والأنصار أخوة، ويعتبر هذا المكان ملكاً للجميع حيث يباشرون فيه العبادة مع غيرها من ألوان المعاملات الحسنة بينهم. فأنشئ المسجد وسمى بيت الله حيث يتعبدون ويتعلمون ويتقاضون ويزاولون مهمة البيع والشراء، إلا أن ذلك أكثر الضجة حول المتعبدين، فخصص مكان للتعليم ومكان لمزاولة مهمة البيع والشراء، وخصص مكان للصلاة بعيداً عن الضجيج أطلق عليه اسم المسجد تمييزا له عن اسم الجامع الذي يضم كل ما سبق ذكره في هذا الخصوص.

وهناك أهداف من بناء الجامع منها:

الهدف الأول: التعبد الروحي، وهذه مهمة تتم في المسجد الذي هو جزء من الجامع حيث تقام الصلاة وتعلم الحكمة.

[١٠٥٤] الأعراف ٣١.

الهدف الثاني: التعبد الاجتماعي (وأمرهم شورى بينهم)، وهو تأكيد أهمية اللقاء والمناقشة في الأمر شورى بين الناس، وهو مركز إداري ينظم شؤون المجتمع من خلال الصلاة والتعلم والمشاورة في الأمر (أي أمر) سواء تعلق بشؤون الأسرة أو شؤون الفرد والجماعة، أو شؤون الأمة بأسرها، وعلى المستوى الداخلي أو الخارجي. إنه مركز اجتماعات الناس ومقر حكومتهم، والحكومة هي: هم، الذين يتنادون عندما يسمعون الآذان الذي يُعلن من خلاله حضورهم لمناقشة الأمر سلماً كان أم حرباً، فحي على الصلاة تعني أمر سلم، وحي على الجهاد تعني أمر حرب، وبعد المشاورة في الجامع بين المجتمعين، وهم كل من يتعلق الأمر به في السلم أو في الحرب، بعدها يستطيعوا أن يتخذوا القرار بوعي لأنه خضع للمشاورة الجادة بينهم. ولأنهم حكومة فهم المسئولون على تنفيذه، فالحكومة هي التي تتخذ القرار، وهي المنفذة له دون نيابة عن أحد، {قُل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين}[١٠٥٥]، ولهذا كانت الحكومة فترة الرسول صلى الله عليه وسلم هي كل الناس وهو لم يكن حاكما، بل رسول الله ونبي الله المبشر والمنذر والمحرض على ألقول الحق والفعل الحق، فلو كان رسول الله صلوات الله عليه وسلم حاكماً لكان هو مصدر القرار دون غيره ولكانت أدواته المساعدة هي العاملة على تنفيذه. وعليه لماذا لا نقتدي؟ ولماذا تغييب الناس عن ممارسة حقوقهم وأداء واجباتهم وحمل مسؤولياتهم بغير حق؟

الهدف الثالث: المساواة بين أبناء الأمة في كل شيء إقتداء بالمساواة بينهم في صفوف متساوية لا فرق فيها بين الفقراء والأغنياء.

الهدف الرابع: لا رئيس لهم فيما يتعلق بأمرهم، ولا يحق لأحد أن يمثل غيره في شيء.

الهدف الخامس: تعلم الأدب والنظام والطاعة لأولى الأمر في غير معصية الله. وأولوا الأمر هم الذين لا ينوبون عن موليهم في كل شيء، بل فقط فيما خولهم فيه، وإذا خرج عما أولى عليه فلا طاعة له في ذلك وفي هذه الحالة، مثل حالة الإمام أثناء إقامة الصلاة إذا خرج عن الفرض

[١٠٥٥] الجمعة ، ٦ .

والسنة لسهو أو نسيان فلا طاعة له في خروجه عن المصدر (الكتاب والسنة) ، ولهذا لا طاعة لولي بدون أمر من موليه يلتزم به، وهذه أمانة، فإذا لم يلتزم بها كما وصاه أو كلفه وليه بها، يكون من الخائنين لأماناتهم، وبالتالي فلا طاعة له. ولهذا لا طاعة بالمطلق إلا لله الجامع على الحق بالحق.

الهدف السادس: أن تكون الجوامع باعتبارها أماكن عامة ملتقيات ومثابات للكافة فيها يتم الاجتماع ومنها تصدر القرارات بين أبناء الأمة من أجل وحدتها وقوتها لا من أجل شتاتها وتدمير ممتلكاتها.

ولذلك كان المسجد مكانا للترغيب وليس مكانا للتزمت والتحزب، لأنه المنارة التي تهدي كل ضال من بحار الجهالة إلى بحر الأمان، وهذه جعلت للمسجد مكانة ودوراً بارزاً في تقوية العلاقات الاجتماعية بين الناس، ومدرسة يتعلم فيها المهتدون الحكمة.

في الختام، لماذا أصبح الجامع مقراً للسكوت بعد أن كان مركزا للتخطيط الأعلى ترسم فيه السياسة الداخلية والخارجية والأمر شورى بين الناس؟ ولماذا أصبح مكاناً للعمل البوليسي السري والعلني بعد أن كان مثابة للناس وأمنا؟، ولماذا لا تُقرأ من على المنابر إلا الخطب المكتوبة أو المعتمدة؟، ولماذا أصبحت الخطب تختتم بالدعاء بطول عمر الحاكم بعد أن كانت تختتم بتوحيد الله تعالى والصلاة والسلام على رسوله الأمين؟. وهل هذا يدل على التطور عن الجاهلية أم يدل على العودة إليها؟.

وعليه، إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن حاكماً، ولم يستخلف أحداً من بعده ولم يعين نظاماً سلطوياً، وفترته كانت فترة نزول الوحي ومسؤوليته التبليغ والتبشير به، وتفسيره لمن يحتاج إلى ذلك. أنه لم يبن دولة، بل إنه أعاد تنظيم أمة على أساس الحرية والعدل والشورى والمساواة بين الناس، دون تمايز أو فوارق، وحاول تطبيق ذلك بداية مع بني قومه والذين آمنوا به وبرسالته السماوية، وكانت بدايته معهم من حيث هم ليحرضهم على الوصول إلى ما يوحي إليه (تحقيق الحاضر والمستقبل الأفضل)، ولهذا استمر نزول الوحي ٢٣ ثلاثاً وعشرين سنة

حتى يحفظ ويتقبل بنو قومه المبادئ والأهداف التي يتضمنها القرآن الكريم. إن الحكمة من نزوله على مدى هذه السنين يعني مراعاة الخالق قدرات واستعدادات المخلوق (الذي خلق في أحسن تقويم) والبدء معهم من حيث هم، لأنهم عاشوا في مجتمع جاهلي مظلم. ولهذا بدأ معهم من عقليتهم إلى أن وصل بهم إلى تدمير تلك العقلية بأنفسهم وهم راضون بعد استغفار من بعده توبة.

وعليه إذا تساءل أحد ما هو الفرق بين غاية الدين وغاية الحكومة ؟ تكون الإجابة أن الفرق واضح بين الدين والحكومة، الدين غايته الناس، أمَّا الحكومة فغايتها السلطة. وإذا تساءل آخر ما هو الحل؟ فالحل إذا حكم الناس بشرعة الله، يكون الناس حكومة، ولهذا تتحقق غاية الدين عندما يكون الناس حكومة على الطاعة بين يدي الجامع جل جلاله.

وحظ الخليفة من الاسم الجامع، أن يكون مصلحا لا مفسدا في الأرض، موحدا بين العباد لا مفرقا بينهم، يلم بالكلم، ويقوله أينما يجب قوله، يعظ الناس بالحق وينهاهم عن ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وينهاهم عن المنكر ويجنبهم من الشرور التي بها تتقد نار الفتن.

وأن يكون عادلا في قوله وفعله حتى تجتمع الناس معه وعليه في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، وان يكون مؤلفا بين القلوب لا مفرقا بينها، موحد بين ذوي العلاقات وطافيا لنيران الفساد والضلال والخراب.

وأن يكون قدوة حسنة في تقدير الآخرين واحترامهم واعتبارهم لأنهم المخلوقون في أحسن تقويم، ولكن بأسباب المعلومات الخاطئة انحرف بعضهم وحاد عن الحق، فبدوره العمل على إصلاح حال المنحرف وذلك بتصحيح المعلومات الخاطئة لدية لأجل إعادته إلى قواعد السلامة والطمأنينة التي تجعله مندمجا في مجتمعه على الحق والإصلاح.

اللهم باسمك الجامع اجمع شمل أمتنا على الحق وإحقاقه، واجعلنا من العاملين المصلحين في الأرض التي استخلفتنا فيها ولا تجعلنا من المفسدين وسافكي الدماء بغير حق، اللهم باسمك

الجامع أجمعنا على التقوى واجعلنا على الهداية والصراط المستقيم ولا تجمعنا على الفتنة ولا تجعلنا من الضالين، اللهم إننا بين يديك لا نلتجئ إلا إليك.

اللهم يا الجامع للأقوال والأعمال اجمع أقوالنا مع أعمالنا على أفعال الخيرات، اللهم يا الجامع للروح مع البدن مع النفس اجمعها فينا على الرحمة والمودة والمحبة ولا تجمعها فينا على الشقاء يا خالق الأرض والسماوات والعلا، اللهم أجمعنا على الحق ولا تجمعنا على الباطل، واجمعنا على الشهادة بوحدانيتك وطاعتك وطاعة رسولك الكريم محمد عليه الصلاة والسلام ولا تجمعنا على الكفر والشرك بك.

اللهم يا الجامع اجمع بيننا وبين الصالحين من عبادك لنكون من خلفائك الذين يصلحون ويأخذون على يد المفسدين، واجمع الخير في قلوبنا وأعمالنا، واجمع بيننا وبين ما تحب، وباعد بيننا وبين ما تكره كما باعدت بين المشرق والمغرب، واجمع بيننا وبين من ساروا في طريق الهداية في الجنة، وباعد بيننا وبين الكافرين والمنافقين الذين ستجمعهم النار الذين قلت فيهم: {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}[١٠٥٦]، اللهم أبعدهم عنّا وأبعدنا عنهم في الدنيا وفي الآخرة.

اللهم إنك جمعت الماء في قلب السماء سحابا وسقته حيث تشاء لمن تشاء فلا تحرمنا من غيثك النافع واجمعنا في الأرض أخوة متحابين حتى ننال رضاك، اللهم إنك جمعت في نفوسنا مشاعر الأبوة والأمومة والأخوة والعمومة وذي القربى فاجعلنا بحبلك معتصمين غير متفرقين، اللهم إنك جعلت صلاة الجمعة صلاة جامعة فاجعلنا من الذين يدرؤون البيع ويسعون إلى ذكرك واجعلنا من بعدها من الذين ينتشرون في الأرض إصلاح ولا تجعلنا من المفسدين، اللهم إنك جمعت الأحرف في الكلمة فاجمعنا على الشهادة والطاعة ويسر لنا من أمرنا رشدا. اللهم يا الجامع إنك جمعتنا يوم العيدين فلا تجعلنا من بعدهما مفتونين، وجمعتنا على جبل عرفات نشهد لك بالوحدانية فاكتب لنا حَجَّة واجعلنا من بعدها معصومين من الوقوع في الخطيئة.

[١٠٥٦] النساء ١٤٠

اللهم يا الجامع قد اجتمعنا في بيتك المحرم الذي جعلته للناس مثابة وَأَمْنًا واتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فاجعلنا آمنين مطمأنين وجمعتنا نسعى بين الصفاء والمروة إظهارا للحق فاجعلنا قوة مجتمعة على الحق.

الغنيُّ

الحمد لله الذي جعل الغنى غناه، والفضل له دون ما سواه، ولم يكن معبوداً بحق سواه، والصلاة والسلام على من اتبع هداه، ومن أراد اللحاق بسفينة النجاة، وتبعه بحق ووالاه.

اسم الغني "من أَسْماء الله تعالى في علاه، وهو الذي لا يَحْتاجُ إلى أَحدٍ في شيءٍ، وكلُّ أَحَدٍ مُحْتاجٌ إليه، وهذا هو الغِنى المُطْلَق"[١٠٥٧].

الغني "الذي قد كمل في غناه"[١٠٥٨].

الغنى "صفة كمال والحمد كذلك واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما"[١٠٥٩].

الْغَنِيُّ "الَّذِي وَسِعَ غِنَاهُ مَفَاقِرَ عِبَادِهِ، وَوَسِعَ رِزْقُهُ جَمِيعَ خَلْقِهِ"[١٠٦٠].

[١٠٥٧] لسان العرب،ج ١٥، ص١٣٥.

[١٠٥٨] القائد إلى العقائد – ج ١ ، ص ١٥٨.

[١٠٥٩] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة – ج ١ ، ص ١٠.

[١٠٦٠] الأسماء والصفات للبيهقي – ج ١ ، ص ١١٥.

الغنيُّ: مصدر الغنى البدني والروحي والنفسي والعقلي، وبهذا فهو مصدر الغنى الكمي والكيفي، ولننظر كيف؟.

البدن غنى مادي جمالي وهو مظهر من مظاهر الوجود في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع، والروح غنى البدن بالحياة المنبعثة فيه بالأمر الخارج عنه، والنفس غنى الروح بالبقاء المؤقت مع المظهر المادي للمخلوق في محيط البدن، والعقل غنى النفس بما يطمئنها، حيث فقدانه مقلق، أما الروح فأمرها بيد الغني المطلق جل جلاله.

وعليه سلامة البدن وطهارته غنى يجعل كل عضوٍ شاهدا بالسلامة والطهارة في مرضاة الغني المطلق جل جلاله.

وانبعاث الروح في البدن غنى من التلف والفساد، لتسيره حركة وسكونا فيما يشاء الله أن يكون عليه ويكون به.

وغنى النفس امتلاؤها بالطمأنينة، التي بها تسكن على الحق ثباتا لا حياد عنه دون ظن.

وغنى العقل بإرشاده إلى ما به تتم الهداية وبه يحق الحق، أي نور يضاء به البدن والنفس.

ورأت اليهود أن معنى الغنى مقصورٌ ضدُّ الفقْر، قال تعالى: {لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[١٠٦١]، وحدث ذلك عندما سمعوا قوله تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةًوَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[١٠٦٢].

الغني: هو الذي ليس في حاجة، وهو يملك المطلق لمشبعات كل حاجة، يهب ما يشاء لمن يشاء وهو لا يوهب إليه، يرزق وهو في غير حاجة للرزق، يملك وهو في غير حاجة للملك، إنه ذو الرحمة والمغفرة والتوبة لكل عبد منيب ومستجيب له واحد احد لا شريك له، له ما في السماوات وما في الأرض وهو على كل شيء قدير، وهو الذي يُفْتَقَرُ إليه وهو الغني الحميد،

[١٠٦١] آل عمران ١٨١ ،١٨٢.

[١٠٦٢] البقرة٢٤٥.

وهو الذي كمل في غناه عما سواه، كما أن الحليم الذي كمل في حلمه. فالله جل جلاله غني في ذاته بذاته لعدم حاجته أو احتياجه لغيره، ولغناه عن الحاجة في ذاتها، فكيف يحتاج من ليس له طريق للحاجة بل هو الذي خلقها، وليس ليحتاج إليها، لقد خلقها لكي تسبحه كثيرا وتمجده كثيرا في علاه، وتعلم رفعته، وتظهر مجده الأبدي الأزلي الذي ليس للعوز طريق إليه بأي حال كان، وللخليفة أن يستمد منه الغنى، فالخليفة هو الذي يبحث عن مشبعات حاجاته بما يرضي ربه تعالى فعليه مما عليه بالآتي:

١- التقوى: وهي خير الزاد، وذلك بالسير على الجادة التي لا يحيد عنها إلا هالك، قال تعالى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ إِنْ تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١٠٦٣]. ولهذا فمن يتقي الله يجد له مخرجا، ويرزقه من حيث لا يحتسب، سبحانه جل جلاله إنه الغني.

٢- الإنفاق في وجوه الخير: قال تعالى: {الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٠٦٤].

واعلم أن غنى الغني جل جلاله له صور:

أ- من حيث عدم الاحتياج:

لأن غناه في ذاته بذاته، ومستغن عن الحاجة، فهو لم يتصف بالعوز والافتقار، فالله جل جلاله رفيع الدرجات، جاء ذلك في قوله: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ

[١٠٦٣] التغابن١٦-١٨.

[١٠٦٤] البقرة١-٥.

الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[١٠٦٥]، فالله الغني جل جلاله ليس له علاقة بالحاجة إلا من حيث المشبعات فهو مالك الملك وهو المغني جل جلاله، وهذه المشبعات تتطلب من الخليفة الآتي:

الخوف باتقائه تعالى: حيث قال تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[١٠٦٦]، وقال تعالى جل في علاه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آَيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٠٦٧]. ففي الآيات السابقة توضيح لشروط التقوى منها الإسلام: فلا تقوى بدون إسلام، قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[١٠٦٨]، وقال تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[١٠٦٩].

ويكون بالاعتصام به تعالى ذكره، فهو الحبل المتين الذي ما ذل من التزم بما أمر وانتهى عما نهى، وهذا الذي يكون عليه الخليفة من السير على النهج الصحيح، فعليه أن يعمل على توحيد الأمة جميعها، وأن يكافح ما يجد فيها من شقاق وتفرق، حيث قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا)، ويكون التوحيد بردع الفئة الباغية حتى ترجع إلى أمر الله، قال تعالى: {وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي

[١٠٦٥] غافر١٥ ،١٦.

[١٠٦٦] البقرة٢١٢.

[١٠٦٧] آل عمران١٠٢-١٠٤.

[١٠٦٨] آل عمران١٩.

[١٠٦٩] آل عمران٨٥.

حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ}[١٠٧٠].

ذكر النعم التي أنعم الله جل جلاله بها على الخلق: حيث أمرنا تعالى، قال تعالى: (وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ)، وهو من موجبات الخليفة الذي يعرف النعم حق المعرفة، والمعرفة تكون بالشكر والحمد على النعم التي لا تحصى، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[١٠٧١]، ولا يظنن الخليفة أن الله محتاج لأحد من خلقه شكر أم لم يشكر؛ لأنه غني في ذاته بذاته، قال تعالى: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا}[١٠٧٢]، والخليفة ليكون غنيا فلينظر كيف جعله غنيا بما ركبه في جسمه من عجائب، قال تعالى: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ}[١٠٧٣]، وكذلك مطلوب منه النظر في ما حوله من المخلوقات وكيف خلقها تعالى جل في علاه، قال عز وجل: {فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ}[١٠٧٤].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا لا يكون إلا من صفات الخليفة الحق الذي إذا انتهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفلح، والفلاح لا يأتي إلا بإتباع ما أمر الغني جل جلاله، والانتهاء عما نهى، قال تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

[١٠٧٠] الحجرات٩ ،١٠.

[١٠٧١] إبراهيم٧.

[١٠٧٢] النساء١٤٧.

[١٠٧٣] الطارق٥-٩.

[١٠٧٤] عبس٢٤-٣٢.

الالتزام: ويكون بالسير على قواعد الإسلام وفق نصوصه الغراء، والتي وصفها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله: "قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى المحجَّة الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ"[١٠٧٥].

ومن حيث عدم امتناع شيء عليه:

أراده بجميعه أو بشيء منه، من إعزاز من أراد إعزازه، وإذلال من أراد إذلاله، وغير ذلك من الأمور؛ قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[١٠٧٦]؛ ولأن الخلق خلقه، إليه الفاقة والحاجة، وبه قواهم وبقاؤهم، وهلاكهم وفناؤهم وهو الغني الذي لا حاجة تحلّ به إلى شيء، ولا فاقة تنزل به تضطرُّه إليهم، ولا إلى غيرهم.

وما جعل اسم الحميد مقترنا باسمه الغني إلا لما استوجب عليكم أيها الخلفاء من الحمدَ بصنائعه الحميدة إليكم، وآلائه الجميلة لديكم، فاستديموا ذلك أيها الخلفاء باتقائه، والمسارعة إلى طاعته فيما يأمركم به والانتهاء عما نهاكم عنه، فالله جل في علاه أورد في حق نفسه قوله تعالى: {وكان الله غنيًّا حميدًا}[١٠٧٧]، فهو غنيّ عن خلقه، حميد مستحمدًا بفضله عليهم، ولذلك وجب الحذر من عقابه، فهو قادر على استبدالنا بأقوام آخرين ليسوا من جنسنا أصلا، إذا لم نكن في مقام حمده وشكره قال تعالى: {وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ}[١٠٧٨]، قال أبو جعفر: يقول الله جل ثناؤه: (وربك)، يا

[١٠٧٥] سنن ابن ماجه،ج ١، ص٥٠.

[١٠٧٦] آل عمران٢٦ ،٢٧.

[١٠٧٧] البقرة٢٤٥.

[١٠٧٨] النساء١٣٣.

محمد، الذي أمر عباده بما أمرهم به، ونهاهم عما نهاهم عنه، وأثابهم على الطاعة، وعاقبهم على المعصية (الغني)، عن عباده الذين أمرهم بما أمر، ونهاهم عما نهى، والغني عن أعمالهم وعبادتهم إياه، وهم المحتاجون إليه؛ لأنه بيده حياتهم ومماتهم، وأرزاقهم وأقواتهم، ونفعهم وضرهم، فلم أخلقهم، يا محمد، ولم آمرهم بما أمرتهم به، وأنههم عما نهيتهم عنه، لحاجةٍ لي إليهم، ولا إلى أعمالهم، ولكن لأتفضَّل عليهم برحمتي، وأثيبهم على إحسانهم إن أحسنوا، فإني ذو الرَّأفة والرحمة[١٠٧٩]. ولذلك قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}[١٠٨٠]، فالخليفة إذا أقام الشهادة لإنسان أو عليه، فعليه أن يقوم فيها بالعدل، ولو كانت شهادتهم على أنفسهم وآبائهم وأمهاتهم وأقربائهم، ولا يحملنهم غِنَى من شهدوا له أو فقره أو قرابته ورَحِمُه منهم على الشهادة له بالزور، ولا على ترك الشهادة عليه بالحق وكتمانها. والملاحظ أن هذه الآيات جاءت تأديبًا للخلفاء وتصحيحا لمن يرى أن الفقير لا يظلم الغنيَّ، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط في الغني والفقير فقال: (إن يكن غنيًّا أو فقيرًا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا). فيا خلفاء الله في الأرض قوموا بالقسط لله عند شهادتكم أو حين شهادتكم، ولو على أنفسكم، أو على والديكم أو أقاربكم، وأقيموها على صحّتها بأن تقولوا فيها الحق، ولا تميلوا فيها لغنيٍّ لغناه على فقير، ولا لفقير لفقره على غنيّ، فتجوروا، فإن الله الذي سوَّى بين حكم الغنيّ والفقير فيما ألزمكم، أيها الناس من إقامة الشهادة لكل واحد منهما بالعدل أولى بهما، وأحق منكم؛ لأنه مالكهما وأولى بهما دونكم، فهو أعلم بمصلحة كلّ واحد منهما في ذلك وفي غيره من الأمور كلها منكم، فلذلك أمركم بالتسوية بينهما في الشهادة لهما وعليهما. فعلى الخليفة الغني بالإضافة أن يكون منتبها لمن هو محتاج إلى العون والمساعدة فعليه أن يتحرى سيماهم من خلال أفعالهم ومظاهرهم التي

[١٠٧٩] تفسير الطبري، ج ١٢، ص١٢٦.

[١٠٨٠] النساء١٣٥.

أمر الله جل جلاله بملاحظتها قال تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[١٠٨١]، وسِيَم الذين يستحقون النظر إليهم والاهتمام بهم رثاثة في ثيابهم، فلا يظهر عليهم الجوع بل كل ذلك خفي عن الناس، ولكن آثار الحاجة فيهم لا تخفى، فالخليفة يدركهم كما يدرك الطبيب علامات المرض في المريض دون الصحيح بالمعاينة دون الحاجة إلى الوصف، فالغني أحيانا يلبس ملابس الفقير فزيه يكون مشابها له ولذلك يجب النظر بالمعاينة دون الوصف، فأول صفاتهم:

١- المظهر الخارجي: الذي يعرفه الخليفة بالنظر الثاقب والصحيح؛ لآن كل شيء له دليل عليه، كما إنه قادر على معرفة المنافق بما وصفه الله جل جلاله به من صفات، مصداقا لقوله تعالى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ}[١٠٨٢]، وعلم الهيئة من العلوم التي تمرس عليها المستخلفون فيها منذ زمن بعيد، وجاء القرآن ليؤكد عليها، وبما طلبه منهم العلى الغني معرفة كل أحد بسيماه؛ لأن الذي يعلم ما بالداخل هو الله جل جلاله، قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[١٠٨٣]، وعلى الخليفة أن يتحرى الحق من خلال القرائن والأدلة، وهذا ما جعل الاهتمام

[١٠٨١] البقرة٢٧٢-٢٧٤.

[١٠٨٢] محمد٢٩-٣١.

[١٠٨٣] غافر٢٠،١٩.

بالأدلة الخارجية واجب لما له من دور في تتبع المذنبين وكشف أخطائهم، وما جاء في قوله تعالى: {قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا}[١٠٨٤]، الآية تأكيد لما نراه اليوم في تطبيقهم لما يسمى ببصمة العين والتي من خلالها يتم معرفة البرئ من المتهم، وهذا هو الذي جاء في نص الآية الكريمة قال تعالى: (رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ).

٢- السلوك الذي يكون عليه المحتاج: وهو التعفف ويكون ذلك واضحا لدى الخليفة الذي يريد أن يعرف الحقيقة، والذي من موجباته أن يتتبعها ويتحراها، فهم لا يسألون الناس حاجتهم، ولذلك على الخليفة أن يسأل قبل أن يعطي حتى لا يذهب معروفه سدى مع من هو يتصنع الحاجة، وهو في واقعه ليس محتاجا، فالصدقات معروف أصحابها وواضحة جلية، وربما كان هذا الشرح سببه عدم قدرة الخلفاء ذلك الوقت التمييز بين من يتصنع وبين المحتاج حقيقة، فجاءت الآية الكريمة لتنجدهم وتأخذ بيد الخلفاء إلى الطريق الصحيح قال تعالى: {وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ}[١٠٨٥]، فالقانع: الحامد لله والشاكر له، والمعترّ: من اعتراك من الناس. وقال تعالى في توضيح الذين يستحقون الصدقة: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[١٠٨٦]، قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك عندي: أن الله جعل الصدقة في معنيين:

- أحدهما: سدُّ خَلَّة المسلمين، وعلى الخليفة الغني بالإضافة أن لا يتبجح بكثرة الولد والمال، وما بسط به الله عليه من الدنيا، وما وسَّع به عليه في الرزق، وما حصل عليه من سهلها

[١٠٨٤] الأحزاب١٨ ،١٩.

[١٠٨٥] الحج٣٦.

[١٠٨٦] التوبة٦٠.

وجبلها، وما كان له فيها من أصناف المال كله، من الإبل والبقر والغنم والخيل، وما لا يكون لإنسان آخر أفضل منه في العِدة والكثرة، وما كان الغني جل في علاه قد أعطاه من أهل وولد ومن رجال ونساء، فعليه أن يكون برًّا تقيا رحيما يطعم المساكين، ويحمي الأرامل، ويكفل الأيتام، ويكرم الضيف، ويبلِّغ ابن السبيل، وأن يكون شاكرا لأنعم الله وحامدا له، مؤدّيا لحق الله في ماله، وأن لا يصيب منه عدوّ الله إبليس ما أصاب من أهل الغنى من العزّة والغفلة، والسهو والتشاغل عن أمر الله بما هو أولى من إتباع رزق من الدنيا.

– والثاني: معونة الإسلام وتقويته. فما كان في معونة الإسلام وتقوية أسبابه، فإنه يُعطاه الغني والفقير، لأنه لا يعطاه من يعطاه بالحاجة منه إليه، وإنما يعطاه معونةً للدين، وذلك كما يعطى الذي يُعطاه بالجهاد في سبيل الله، فإنه يعطى ذلك غنيًّا كان أو فقيرًا للغزو، لا لسدّ خلته، وتبعا لذلك المؤلفة قلوبهم، يعطون كذلك، وإن كانوا أغنياء، استصلاحًا بإعطائهموه أمرَ الإسلام وطلبَ تقويته وتأييده، وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من أعطى من المؤلفة قلوبهم، بعد أن فتح الله عليه الفتوح، وفشا الإسلام وعز أهله. فلا حجة لمحتجّ بأن يقول: "لا يتألف اليوم على الإسلام أحد، لامتناع أهله بكثرة العدد ممن أرادهم"، وقد أعطى النبي صلى الله عليه وسلم من أعطى منهم في الحال التي وصفت[١٠٨٧].

من حيث عدم القدرة على إحصاء ما خلق:

فهل لأحد القدرة على أن يحصي ما خلق الغني جل جلاله من النعم والفضائل؟ هذا على مستوى ما نرى، وما خفي كان أجل وأعظم، ولو أننا أردنا أن نعد النعم فقط، والتي أنعم بها الله علينا لعجزنا، فما بالك من يريد أن يعد كل ما خلق، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُمْ

[١٠٨٧] تفسير الطبري، ج ١٤، ص ٣١٦.

مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[١٠٨٨]، وقال تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[١٠٨٩].

ومن مظاهر غنى الغني:

١- غناه عن الولد والوالد:

ويظهر غناه في قوله تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ}[١٠٩٠]. يقول الله منزهًا نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك: (سبحانه)، تنزيهًا لله عما قالوا وادَّعوا على ربهم (هو الغني) فالله غنيٌّ عن خلقه جميعًا، فلا حاجة به إلى ولد؛ لأن الولد إنما يطلب للعون في الحياة والذكر له بعد الموت، والله غنيٌّ عن كل ذلك، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره، ولا يحيدُ فيكون به حاجة إلى خلف بعده، إنه الله الغني جل جلاله.

٢- غناه عن الشريك و النديد والصاحب:

قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[١٠٩١]، وقال تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٠٩٢]، وقال تعالى: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ

[١٠٨٨] إبراهيم٣٢-٣٤.

[١٠٨٩] النحل١٥-٢٠.

[١٠٩٠] يونس٦٨.

[١٠٩١] الإخلاص١-٤.

[١٠٩٢] الأنعام١٠٠-١٠١.

لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا}[١٠٩٣]، وقال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٠٩٤]، أثبت تعالى في علاه أن الولد لا يكون إلا بالصاحبة، قال تعالى: (وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ)، وما كان أن يحدث من خوارق في الكون إلا بأمره تعالى، فأمره تعالى بين الكاف والنون قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}[١٠٩٥]، فهو بقدرته خلق آدم من غير أب ولا أم، بل من تراب، قال تعالى: {إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ}[١٠٩٦]، وخلق سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام من أم بدون أب قال تعالى: {ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ}[١٠٩٧]. فالغني جل جلاله لو لم يكن غنيا لما استغنى عن الولد والصاحبة والتي نرى أننا في أمس الحاجة إليهما لتحمل جزء من أعباء الحياة معنا بسبب فقرنا وافتقارنا إليهم، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[١٠٩٨].

٣- **غناه بتأخير عقابه:** وفي تأخير العقاب دلالة على غنى الغني جل جلاله فلو لم يكن غنيا ما أخر العقاب؛ فلو كفر جميع من في الأرض فالله جل جلاله غني عنهم، قال تعالى: {وَقَالَ

[١٠٩٣] الإسراء١١١.

[١٠٩٤] المائدة١٠١.

[١٠٩٥] يس ٨١-٨٣.

[١٠٩٦] ص٧١-٧٣.

[١٠٩٧] آل عمران٥٨-٦٠.

[١٠٩٨] الروم٢١،٢٠.

مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ}[١٠٩٩]؛ ولأن غناه جل في علاه مرتبط برحمته ومغفرته فكان تأخير العقاب والعذاب من مظاهر غناه، فلو كانوا يساوون جهدا أو وزنا لعجل بالعذاب، ولما لم يكن من قيمة للأشياء التي نراه لديه؛ ومع أنه قادر على تعجيل العذاب، ولكن لحكمة يعلمها، قال تعالى: {لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}[١١٠٠]، والغني لو شاء لعجل بالعذاب ولكن هذه الدنيا عنده لا تساوي أي قيمة أو وزن، فقد جاء في الحديث، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ كَانَتْ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ"[١١٠١]. والخليفة الغني هو الذي يعفو ويصفح عن كل من أساء إليه، فلا يستعجل الرد على من أساء إليه؛ امتثالا لقوله تعالى في علاه: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[١١٠٢]، وأن يكون حذرا من أن يجر إلى الاستعجال بالعقوبة؛ ولأن في تأخير العقوبة وضوحا أكثر لحقيقة الذنب وتبيين صاحبه، وهذا هو من الأمور التي توصل الخليفة للعدل، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ}[١١٠٣].

٤- **غني باستطاعته:** فلو لم يكن مستطيعا ما كان غنيا بذاته عن الذوات، إنه فعال لما يريد قال تعالى في حق نفسه: {إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ}[١١٠٤]، فهذه الصفات لا تكون لمن لم يكن مستطيعا بنفسه في القيام بنفسه على المغفرة

[١٠٩٩] إبراهيم٨.

[١١٠٠] الأنفال٣٧.

[١١٠١] سنن الترمذي،ج٨، ص٢٩٩.

[١١٠٢] البقرة٢٣٧.

[١١٠٣] المائدة٨،٩.

[١١٠٤] البروج١٣-١٦.

والتي ليس لها حدود، وما كان ودودا بخلقه، ولا كان مالكا لعرشه، والذي جاء في وصفه ما جاء، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ}[١١٠٥]، فأي ماء يستطيع أن يحمل عرشه؟! وقال تعالى: {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}[١١٠٦]، وأي ثمانية يستطيعون حمله؟! هم الذين لا نستطيع تصور قوتهم ولا قدرتهم، ولما كان لمغفرته أن تسع كل ما نعلم وما لا نعلم، كان له أن يفعل ما يريد وكيف يريد دون شريك أو نديد، فهو تعالى بيده مقاليد الأمور كلها، قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ}[١١٠٧]، فهل للخليفة أن يعبد غيره، وهو يرى قدرته وجبروته وقهره، وهل يفعل هذا إلا الجاهل، وهل يأمره بذلك إلا من كان جاهلا، وهو الذي بيده الغنى والفقر، قال تعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ}[١١٠٨]، الناظر لهذه الآية الكريمة يرى أن اسمه اللطيف التقى مع اسميه القوي والعزيز إضافة إلى فعل الرزاق، وهذه الأسماء تبين وبجلاء أن الذي يرزق لابد وأن يكون لطيفا بمن يرزقه، ولابد وأن يكون قويا عزيزا، فلا أحد يستطيع أن يمنعه من أن يرزق أو يحرم من يشاء، وهو الذي بيده المغفرة والعذاب، قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١١٠٩]، والخليفة الغني بالإضافة عليه أن يكون غنيا بصفحه وكرمه، كما يحب أن يغفر الله جلا جلاله له، قال تعالى: {وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى

[١١٠٥] هود٧.

[١١٠٦] الحاقة١٧.

[١١٠٧] الزمر٦٢-٦٤.

[١١٠٨] الشورى١٩.

[١١٠٩] آل عمران١٢٩.

وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١١١٠]. والخليفة الغني بالإضافة يكون غنيا في الآتي:

غنى معنويا: وذلك بما يستمده من غنى بصلته بالغني المطلق جل في علاه، وليعلم قوله تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[١١١١]، وكلما اقترب الخليفة من ربه بالقربات والطاعات كلما ازداد غنى؛ لأنه يعلم أن الغني سيزيده من فضله، قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}[١١١٢].

غنى ماديا: ويكون ذلك بما يستكشفه الخليفة من خيرات سواء على ظاهر الأرض أم بما يستخرجه من جوفها وذلك امتثالا لقوله تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}[١١١٣]، هذا النفوذ من أقطار السموات والأرض لا يأتي إلا بسلطان العلم والمعرفة والتي تحتاج إلى جهد ووقت يصرفه فيه الخليفة حتى ينفذ من أقطار السموات والأرض، والنفوذ في أقطار الأرض هو بقدر ما يكتشفه الإنسان من المعادن والثروات والتي تؤدي به إلى الازدهار وليتمكن من طاعة ربه على الوجه الصحيح الأكمل، فالغني بالإضافة هو الذي يعمل على غنى ما يمكن أغنائه من الآتي:

– نفسه: وبما يرفع به نفسه في مجتمعه، وذلك بالسعي بنفسه إلى الأفضل، وامتثالا لقوله تعالى في علاه: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[١١١٤].

[١١١٠] النور٢٢.

[١١١١] محمد٣٨.

[١١١٢] إبراهيم٧.

[١١١٣] الرحمن٣٣.

[١١١٤] التوبة١٠٥.

– وأسرته: وصلاح الخليفة يبدأ من أسرته، فيحرضهم على طلب ما يرضي الغني جل جلاله كأن يأمرهم بطلب العلم فهو الذي يغني صاحبه بما يترك في قلبه من القناعة والإيمان الحقيقي الصادق، فيرتفع به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[١١١٥].

– ومجتمعه: وذلك بقدر ما يكون فعالا فيهم، يكون تأثيره على مجتمعه بالصلاح والفلاح والسعادة وليعلم أن صلاح مجتمعه من صلاحه وصلاح أمته، فيعيش في مجتمع سعيد متماسك ومترابط، وبما يعمله الخليفة من تغيير في القلوب والنفوس يكون رده إيجابيا على المجتمع، قال تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}[١١١٦].

–وأمته: وذلك بقدر ما يعمل به على توحيدهم واتحادهم، والسعي على حل المشكلات التي تحول وتعمق ذلك، وبقدر الكد تكون النتيجة فلا مستقبل لهذه الأمة إذا لم يسع خلفاؤها في تعمير أرضه وتحقيق نهضتها وليعيشوا أغنياء بدل أن يكونوا عالة على الأمم الأخرى، وبذلك أمر الغني جل جلاله بالتوحد والاعتصام بالدين الحنيف، قال تعالى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا}[١١١٧].

– ودينه: وهو الذي به نلاقي ربنا في الدنيا والآخرة، وهو الذي به تحيى قلوبنا وهو النور الذي يقودونا إلى الغنى الأبدي الذي وعدنا به جل جلاله، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ

[١١١٥] المجادلة١١.

[١١١٦] الرعد١١.

[١١١٧] النساء١٧٥.

الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[١١١٨].

غناه بسعته:

فسعته ليس لها حدود ولا معيار ولا مقياس فكيف يقاس أو يحدد أو يعير ما ليس له معيار يشمله أو حيز يحدده، أو ميزان يحمله، ولكن للخليفة أن ينظر في حيثيات سعته:

- من حيث سعة ملكه:

بملكه جميع ما حوته السموات والأراضين: فهو جل جلاله خلقها بقوته وجبروته، قال تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآَيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[١١١٩]، والذي خلق هذه السموات وهذه الأرضين السبع ليس بعاجز عن مسحها من الوجود وخلق ما هو جديد قال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١١٢٠].

قال تعالى: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١١٢١]، الله الغني تعالى ذكره له مُلك ما في السموات وما في الأرض من شيء هم عبيده ومماليكه وخلقه، لا شريك له في ذلك، ولا في شيء منه، وإن الله هو الغنيّ عن كل ما في السموات وما في الأرض من خلقه وهم المحتاجون إليه، الحميد عند عباده الخلفاء في أفضاله عليهم، فعلى الخليفة الفقير أن يستعفف تنفيذا لأمره تعالى: {وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآَتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي

[١١١٨] الحج٧٧ ،٧٨.

[١١١٩] آل عمران١٨٩ ،١٩٠.

[١١٢٠] المائدة١٧.

[١١٢١] الحج٦٤.

أَتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١١٢٢]، إن يكن هؤلاء الذين تُنْكِحون من أيامى رجالكم ونسائكم وعبيدكم وإمائكم أهل فاقة وفقر، فإن الله يغنيهم من فضله، فلا يمنعنكم فقرهم من إنكاحهم، فالله واسع الفضل جواد بعطاياه، فزوّجوا إماءكم من خلفائكم، فإن الله واسع يوسع عليهم من فضله، إن كانوا فقراء؛ لأنه ذو علم بالفقير منهم والغنيّ، لا يخفى عليه حال خلقه في شيء وتدبيرهم، وأما الذين لا يجدون قدرة على تكاليف النكاح فعليهم بالتعفف، قال تعالى: (وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ)، فالعفة هنا مطلب أساسي من المستخلف فيها، حتى لا يقع في ما هو محرم من الفواحش، وحتى يغنيه الله من سعة فضله، ويوسِّع عليه من رزقه. وأما ما هو موجود من مظاهر الاختلاف بين الناس فقوله يوضح أن كل هذه الفروق موجودة للفتنة، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا}[١١٢٣]، امتحن الله الناس بعضهم ببعض، جعلهم هذا نبيا وخصصه بالرسالة، وهذا ملِكا وخصصه بالدنيا، وهذا فقيرًا وحرمه الدنيا ليختبر الفقير بصبره على ما حرم مما أعطيه الغنيّ، والملك بصبره على ما أعطيه الرسول من الكرامة، وكيف رضي كل إنسان منهم بما أعطى، وقسم له، وطاعته ربه مع ما حرم مما أعطى غيره، وعلى ذلك الخليفة الغني بالإضافة أن يكون منتبها لما حوله فيعطي كل أحد حقه، وليكن علمه ما جاء في قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ

[١١٢٢] النور ٣٣.

[١١٢٣] الفرقان ٢٠.

هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ}[١١٢٤]، وبها فعلى الخليفة أن يلتزم بما يلي:

أن يكون إيمانه بالله تعالى هو الغني الرزاق، وهو الذي يبسط ويرزق لمن يشاء وكيف يشاء، ومتى ما يشاء، ويقدر لكل واحد رزقه في الدنيا، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ).

على الخليفة الغني بالإضافة أن لا يغفل عن الزمن وأهميته فيما يملك فيعطي كل ذي حق حقه، ومن أصحاب الحقوق ذو القربى والمساكين وأبناء السبيل؛ لأن ذلك هو السبيل لمن يريد وجه ربه ومن ثَمَّ الفلاح في الدارين قال تعالى: (ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

وعلي الخليفة الابتعاد عن الربا: لأن الربا أساس رئيس لكل الفروق بين الناس في الرزق لما ينتج عنه من ربح سريع ومن طرق استغلالية لظروف الناس، فيكون سببا لوجود الشحناء والحسد بين الفقراء والأغنياء، ولذلك فالمال المرابى به لا يزيد عند الله بل كل ما نراه صوريا ومظهرا من المظاهر الزائفة الخادعة التي يغتر بها أصحاب العقول والنظرات القصيرة، قال تعالى: (وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ).

التصدق بالمال الحلال وأن يجعله متقبلا عند خالقه جل جلاله بما يستوفيه من الشروط المنوطة بالزكاة المتقبلة، قال تعالى: (وَمَا آَتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ). أن لا يخشى الفقر ولا يبطره الغنى وليجعل الخليفة نصب عينيه قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[١١٢٥].

قراءة القرآن: القرآن قول الحق، من الحق المطلق جل جلاله، فيه الرحمة للعباد وفيه شفائهم، وبه تطمئن القلوب، وتنيب إلى الله تعالى، ومن أَغْناه الله فقد غَنِيَ وذلك بالاسْتَغْناء بالقرآن عن

[١١٢٤] الروم٣٧-٣٩.

[١١٢٥] الروم٣٧.

غيرِه ولا يَذْهَبْ إلى البحث عن غيره؛ لما فيه من الكنوز المعرفية والموصلة إلى طريق النجاة ودون أي شك في ذلك، ومن لجاء أو حاول الاستعانة بغيره وجد نفسه ذليلا مخذولا، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آَيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آَمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[١١٢٦]، وهذا الغنى الذي جاء به القرآن لم يأت صدفة، فهو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}[١١٢٧].

إقامة الصلاة: فالصلاة هي التي تورث القناعة عند الخليفة؛ لأنها هي الوسيلة المتلازمة لربطه بخالقه، فتمنعه من أن يرتكب أي خطأ في حق نفسه، أو في حق غيره أمام خالقه عز وجل، قال تعالى: {رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[١١٢٨]، وهذا هو الرباط الحقيقي الذي يورث الخليفة قناعة عن تجربة ملامسة للواقع، ولهذا تكون الصلاة مانعة من ارتكاب الفواحش والمنكرات قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ}[١١٢٩]، وإذا ما واظب الخليفة على صلاته أورثه الله الغني جل جلاله قناعة تامة، في الدنيا بما يريه ربه تعالى من أن هذه الدنيا زخارف لا تصلح أن يملأ الإنسان بها نفسه، وأما الذي لا يقيم صلاته فإنه لا يرى شيئا على حقيقته، فيبقى متحسرا عندما يجد نتائجها مكذوبة مخلوطة بما زين له أعداء الإنسان من تلك الزخارف والألوان البراقة حتى إذا جاءها ليتشبث بها وجدها هباء منثورا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآَنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ

[١١٢٦] فصلت٤٠.

[١١٢٧] فصل٤٢.

[١١٢٨] النور٣٨،٣٧.

[١١٢٩] العنكبوت٤٥.

يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ}[١١٣٠].

الصوم: ومعناه الامتناع عن كل ما هو ممنوع لمدة محدودة من أكل وشرب وجماع والنظر في غير محله، وفي الصوم عن المفاسد والحسد غنىً؛ لأن الحسد يؤدي بصاحبه إلى أسواء الأحوال وأرداها فالذي يحسد يتمنى زوال نعم غيره وهذه أمنية لا تتحقق بل ترجع على صاحبها بالوزر والإثم؛ لأنه تعالى في علاه نهانا عن ذلك بقوله العزيز: {وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[١١٣١]، وأما في الصوم البدني الذي أمر الغني جل جلاله به في القرآن الكريم قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[١١٣٢] ولذا في الصوم مقاصد كبيرة منها:

١ . طاعة الله تعالى.

٢ . شفاء ورحمة وصحة.

[١١٣٠] النور ٣٩-٤٢.

[١١٣١] النساء٣٢.

[١١٣٢] البقرة١٨٣-١٨٥.

٣ . تحمّل وصبر .

٤ . التعاون على الحق والبر ونهضة المغلوب.

٥ . اعتراف بالآخرين وحقوقهم.

٦ . عبادة للواحد الأحد.

٧ – تهذيب النفوس.

٨ – معصية الشهوات المؤدية للانحراف.

٩ – بعث روح الإيقاظ والتيقظ لما حول الإنسان من القيم.

١٠ – خلق روح المودة بما ينتجه من إحساس بحاجات الآخرين.

الحج إلى البيت العتيق: تنفيذا لقوله تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}[١١٣٣]، فالذي يريد الحج لا يكون قصده إلا لله الغني الحميد، فهو الذي يعلم قصده من كل ذلك التوجه حيث جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم: "الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ"[١١٣٤]، فالله هو الذي يعلم ما تخفي الصدور ويعلم ما يجترح الإنسان ليله ونهاره قال تعالى: {اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ}[١١٣٥]، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ

[١١٣٣] آل عمران٩٥–٩٧.

[١١٣٤] صحيح البخاري، ج ١٢، ص٢٨٧.

[١١٣٥] الرعد٨–١٠.

يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ}[١١٣٦]، والناظر هنا يجد أن داخل الإنسان هو المطلوب وما السلوك الخارجي إلا مظهر ودليل لما يجري في الداخل فالإنسان بما جعل الله تعالى له من جسد عجيب يحمل داخله نفس وعقل وروح وما تحمله من غنىً، فالنفس الغنية هي التي تكون مطمئنة في سلوكها أي في حركاتها وسكناتها وفي حلها وترحالها وما تقوم به من واجبات، ولتكون نفس الخليفة مطمئنة وجب عليها ذكر الله ليل نهار سيرا على النهج الناجع والمؤدي إلى النتيجة التي جاء بها القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}[١١٣٧]، وهذا الغنى الداخلي لابد وأن يظهر تأثيره على السلوك الخارجي، فبذلك نرى البدن المطمئن في حركاته وسكناته، سليما معافا، وسيرته طيبة ناجحة فتكون أهدافه في الحياة واضحة ونبيلة لا عوائق أمامه ويكون سالما من الآفات التي تصيب غيره من الذين ليسوا أسوياء، فلا يكون كسولا ولا خمولا بل جادا في حياته ومسيرته يبني مجد خلافته على طريق سليم وقويم خال من كل ما هو ردئ وسيئ فيكون وبلا شك حيا في الدنيا والآخرة حياة طيبة؛ لأنه سار على مسلك صحيح، وعلى قنطرة الحق؛ فحق فيه قوله تعالى: {مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}[١١٣٨].

- من حيث سعة كلماته تعالى جل جلاله:

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[١١٣٩]، لو أن شجر الأرض كلها بريت أقلاما والبحرُ له مداد

[١١٣٦] الأنعام٦٠ ،٦١.

[١١٣٧] الرعد٢٨.

[١١٣٨] النحل٩٦، ٩٧.

[١١٣٩] لقمان٢٧.

و(مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ) أي لتكسرت تلك الأقلام، ولنفذ ذلك المداد، ولم تنفد كلمات الله.

- من حيث سعة رزقه:

قال تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ}[١١٤٠]،

- من حيث سعة نعمه:

قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ}[١١٤١]، وقال تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}[١١٤٢].

- من حيث سعة علمه:

قال تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١١٤٣]، وقال تعالى: {جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١١٤٤].

- من حيث سعة فضله:

[١١٤٠] الذاريات٥٥-٦٠.

[١١٤١] النحل١٧-١٩.

[١١٤٢] إبراهيم٣٤.

[١١٤٣] البقرة٢٨ ،٢٩.

[١١٤٤] المائدة٩٧ ،٩٨.

قال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١١٤٥]، وقال تعالى: {وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[١١٤٦].

. من حيث سعة وجوده:

قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١١٤٧]، وقال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[١١٤٨].

. من حيث سعة مغفرته:

قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى}[١١٤٩].

. من حيث سعة سمعه:

[١١٤٥] البقرة١١٥.

[١١٤٦] آل عمران٧٣ ،٧٤.

[١١٤٧] البقرة٢٦٨.

[١١٤٨] البقرة٢٦١-٢٦٤.

[١١٤٩] النجم٣١-٣٥.

قال تعالى: {إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ}[١١٥٠]، وقال تعالى: {إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ}[١١٥١].

. من حيث سعة بصره:

قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[١١٥٢]، وقال تعالى: {قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ}[١١٥٣].

. من حيث سعة لطفه:

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١١٥٤].

. من حيث سعة حلمه:

[١١٥٠] الأعراف١٩٦-٢٠١.

[١١٥١] الأنفال٤٢-٤٤.

[١١٥٢] البقرة١١٠.

[١١٥٣] آل عمران١٥.

[١١٥٤] الحج٦٣، ٦٤.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ}[١١٥٥].

. من حيث سعة علوه:

قال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آَلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[١١٥٦].

. من حيث سعة كبره:

قال تعالى: {ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}[١١٥٧].

. من حيث سعة قوته:

قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآَخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ}[١١٥٨].

. من حيث سعة رحمته:

[١١٥٥] الحج٥٨ ،٥٩.

[١١٥٦] الإسراء٤٢-٤٤.

[١١٥٧] الحج٦٠-٦٢.

[١١٥٨] الشورى١٧-٢٠.

قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١١٥٩].

. من حيث سعة حكمته:

قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[١١٦٠]، فالخليفة الغني بالإضافة هو الذي ينفق على الفقراء والمحتاجين، ولسعة حكمته تعالى لم يشأ أن يجعل النفقة مدعاة للفقر فالذي ينفق على الفقراء والمحتاجين لا يسرف حتى لا تتقلب عليه الآية قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[١١٦١]، وفي الحديث: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ غِنًى، وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ"[١١٦٢]، أَي ما فَضَل عن قوت العيال وكفايتهم فإذا أَعطيتها غيرك أبقيت بعدها لك ولهم غِنًى وكانت عن استغناء منك ومنهم عنها. "وخير الصّدقة ما أغنيت به من أَعطيته عن المسأَلة قال ظاهر هذا الكلام أنه ما أَغنى عن المسأَلة في وقته أَو يومه وأَما أَخذه على الإطلاق ففيه مشقة للعجز عن ذلك"[١١٦٣].

ومن حكمته الواسعة أن جعل طلب الرزق عليه أجر، فأنت تطلب الغنى والله يجازيك عليه، وهذا هو الطلب محمود وهو ما كان على قواعد صحيحة منها:

. ألا يؤثر في عبادة الإنسان: كأن يؤخره عن صلاته أو يبعده عنها؛ فالذي يستغنى بالمال عن عبادة ربه فإن الله جل جلاله يستغنى عنه، والله غني حميد، قال تعالى: {لْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ

[١١٥٩] الأعراف٥٦ ،٥٧.

[١١٦٠] النساء٢٦.

[١١٦١] الإسراء٢٩ ،٣٠.

[١١٦٢] المعجم الكبير للطبراني،ج ١٠،ص٢٩٤.

[١١٦٣] لسان العربج١٥،ص١٣٥.

بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}[١١٦٤]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}[١١٦٥].

. ألا يكون مدعاة للفخر والاستعلاء والتكبر والاستهزاء: وبالتالي استعباد الناس على غير حق؛ لأن المستغني بعلوه هو الله جل في علاه، وفي ذلك مظنة أنه أعطى نفسه بنفسه، وهذا ما حدث مع قارون الذي ظن أنه أعطى نفسه من معرفة وذكاء وفطنة قال تعالى: {قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ}[١١٦٦]، وقوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آَتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١١٦٧]، فالله لا يحبّ أن يكون الخليفة متكبرا بما أوتي من الدنيا، فخوراً به على الناس، فالله تعالى جل في علاه لا يحبّ الباخلين بما أوتوا في الدنيا مع اختيالهم وفخرهم بذلك على الناس، قال تعالى: (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ).

[١١٦٤] التوبة٦٧ ،٦٨.

[١١٦٥] الجمعة٩-١١.

[١١٦٦] القصص٧٨-٨١.

[١١٦٧] الحديد٢٢-٢٤.

ـ أن يكون طلب الرزق مبنيا على التعفف والرفعة: وبما لا يمس قدر الإنسان ومنزلته التي وضعه الله عليها، فالإنسان جعله الله رفيعا عاليا في قدره ومنزلته فلا يجب على الخليفة أن يحط من قدره وقيمته تبعا لدنيا يطلبها؛ لأنها أساس كل فتنة إذا لم تكن على قنطرة صحيحة وسليمة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}[١١٦٨].

ـ أن يظن المؤمن أن ماله لا يغنيه عن ملاقاة خالقه غدا: وليعلم أن ماله لن يغنيه إذا تردى وهلك، قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى}[١١٦٩]، وقوله تعالى: (وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) أي ما يُغْني عنك هذا أي ما يُجْزِئُ عنك وما ينفعك ولا يكفيك عما يوم الآخرة.

. أن لا يطلب الغنى من غيره تعالى: فالذي استغنى بغير الله افتقر واحتاج، فالفضل كله لله دون سواه، فالخليفة الغني هو الذي يدعو الله أن يغنيه من فضله دون سواه، فهل الغنى بغيره تعالى إلا أساس المذلة والهوان، قال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[١١٧٠].

ـ ألا يبخل بالنفقة في سبيل الله: لأن الذي يبخل إنما يبخل على نفسه، قال تعالى: {هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ}[١١٧١]، وإنما حضكم على النفقة

[١١٦٨] الأنفال٢٧-٢٩.

[١١٦٩] الليل٨-١٢.

[١١٧٠] الجاثية١٨-٢٠.

[١١٧١] محمد٣٨.

في سبيله، ليُكسبكم بذلك الجزيل من ثوابه، ومن يبخل بالنفقة في سبيل الله، فإنما يبخل عن بخل نفسه؛ لأن نفسه لو كانت جوادا لم تبخل بالنفقة في سبيل الله.

ـ ألا يسخر من الفقراء في حالة غناه: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}[١١٧٢]، قال الطبري: "هي سخرية الغنيّ من الفقير، ونهي أن يسخر من الفقير لفقره"[١١٧٣]، فهذه موعظة من الله لخلفائه حتى لا تفتنهم الدنيا وما حوت من الملذات والشهوات، فتؤدي به إلى التولي عن الطريق الصحيح، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١١٧٤]، ومن يدبر معرضا عن عظة الله، تاركا العمل بما دعاه إليه من الإنفاق في سبيله، فرِحا بما أوتي من الدنيا، مختالا به فخورا بخيلا فإن الله هو الغنيّ عن ماله ونفقته، وعن غيره من سائر خلقه. ولذلك وجب علينا أن تكون لنا الأسوة الحسنة الطيبة الذكر في الدنيا والآخرة في رسولنا الكريم، والذي أمرنا الله جل جلاله الاقتداء به في كل أحواله قال تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١١٧٥].

ـ ألا يكلف الإنسان نفسه فوق طاقته: لأن ذلك يؤدي به إلى الإرهاق، ومن ثم يقع بنفسه في عكس ما كان يطمح أو يريد، ولذلك أمر الله جل جلاله بأن لا نكلف أنفسنا فوق ما نقدر وما نستطيع قال تعالى: {لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آَتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا}[١١٧٦]، فالله الغني لا يكلف الله أحدًا من النفقة على من تلزمه نفقته بالقرابة والرحم إلا ما أعطاه، إن كان ذا سعة فمن سعته، وإن كان مقدورًا

[١١٧٢] الحجرات١١.

[١١٧٣] تفسير الطبري، ج ٢٢، ص٢٩٨.

[١١٧٤] الممتحنة٦.

[١١٧٥] الممتحنة٦.

[١١٧٦] الطلاق٧.

عن رزقه فمما رزقه الله على قدر طاقته، لا يُكلف الفقير نفقة الغنيّ، ولا أحد من خلقه إلا فرضه الذي أوجبه عليه، فهو جل جلاله لا يكلف الفقير مثل ما يكلف الغنيّ، قال تعالى: (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا مَا آتَاهَا)، فالله لا يكلف الفقير أن يتصدّق وليس عنده ما يتصدّق به، ولا يكلفه الله أن يزكي وليس عنده ما يزكي، وليكن الخليفة حسبه قوله تعالى ذكره: (سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا)، وليعلم أن من بعد كل شدّة رخاء، ومن بعد ضيق سعة، ومن بعد فقر غنى، وأن يهرع الخليفة في ضيقه إلى الصلاة والتي هي روح العبادة، فهي التي تمنع الشح والحرص وهما أساس كل جزع، قال تعالى جل جلاله: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}[١١٧٧]، ومن صفات الهلوع الجزوع القلق من كل ابتلاء في كل ما يلم به وفي الرزق خاصة قال تعالى: {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا}[١١٧٨]، وليخرج الخليفة من هذه الصفات فعليه:

ـ بالقناعة بما قسمه له الغني جل جلاله: وتأتي القناعة بالبحث عن حسن الخاتمة في الدنيا والآخرة، وذلك باليأس مما في أيدي الناس والاعتماد على الله في كل كبيرة وصغيرة؛ لينجو الخليفة من النفس الأمارة، والشيطان المريد، وليعلم الخليفة أن الله جل جلاله لا يكرم من أكرم بكثرة الدنيا، ولا أهان من أهان بقلتها، ولكن إنما أكرم من أكرم بطاعته، وأُهانُ من أهان بمعصيته، وعلى الخليفة أن يحمده على الأمرين جميعا، على الغنى والفقر.

. وأن يحسن الظن بالله: فلا يظنن بالله إلا خيرا، فكيف يهين الغني جل جلاله من كرمه في البر والبحر وعلى سائر الكائنات؟! قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}[١١٧٩]، ويكون علاج ذلك بحسن

[١١٧٧] المعارج١٩–٢٣.

[١١٧٨] الفجر١٦–١٩.

[١١٧٩] الإسراء٧٠.

التوكل على الله تعالى؛ لأنه جل في علاه قد تكفل بأن يكون حسب من توكل عليه، وأن يجعل له من كل ضيق مخرجا، قال تعالى: {فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[١١٨٠].

ـ إكرام اليتيم: وذلك تبعا لعدم نهره حيث أمر تعالى جل جلاله؛ لأن في النهر كسر لخاطر اليتيم، وإشعار للخليفة بقيمة هذا الأمر كرر جل جلاله أمر عدم النهر في قوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ}[١١٨١].

. إطعام المسكين: وهو من الأصناف الذين أمر الله جل جلاله في كتابه العزيز بالتصدق عليهم، قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}[١١٨٢]. وقد ذم جل جلاله الذين يقللون من أهمية الاهتمام باليتيم بقوله تعالى: {وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}[١١٨٣]، فعلى الخليفة أن يحسن مثلما أحسن الله إليه تنفيذا لقوله تعالى: {وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ}[١١٨٤].

ـ إعطاء أصحاب الحقوق حقوقهم من الميراث: ويكون ذلك على الكيفية التي نزل بها القرآن الكريم فهذا كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ}[١١٨٥]، وقد جاء ذكر

[١١٨٠] الطلاق٢ ،٣.

[١١٨١] الحاقة٣٤.

[١١٨٢] الضحى٩.

[١١٨٣] الحاقة٣٤.

[١١٨٤] القصص٧٧.

[١١٨٥] فصلت٤١-٤٣.

الميراث واضحا في صورته العامة في قوله تعالى: {لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا}[١١٨٦]، جاء بتفاصيل عن كيفية توزيع الميراث حيث جاء في قوله تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمْ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ}[١١٨٧]، ولكن هذه الآيات سبقتها آية تأمر بعدم الاقتراب من مال اليتيم إلا بقدر نفقتهم ودون تفريط أو إفراط في حقوقهم، وقد توعد من يقترب من ماله بغير حق فإنه سيصبح نارا في بطنه يوم القيامة قال تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا}[١١٨٨]. وعلى الخليفة أن يتبع آداب أمر الله جل جلاله بها أثناء القسمة ومنها:

[١١٨٦] النساء٧.

[١١٨٧] النساء١١-١٤.

[١١٨٨] النساء٩ ،١٠.

ـ القول الحسن أثناء قسمة الميراث: كما رعاه في صغره، فليلطف به في كبره، قال تعالى: (وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا).

. عدم حرمان من يحضر قسمة الميراث: من ذي القربى واليتامى والمساكين، قال تعالى: {وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا}[١١٨٩].

. الابتعاد عن الجشع، والجشع إذا أنكره الإنسان حمد ربه جلّ ثناؤه على نِعمه دون فقره، وشكواه الفاقة والفقر والاحتياج، ظنا بربه الغني دون رجائه، والعياذ بالله.

والأسباب السابقة الذكر هي سبب الابتلاء، ولذلك على الخليفة أن يتبع طريق الحق في كل معاملاته المالية والاجتماعية فلا يقرب ما ليس من نصيبه بالنصب والاحتيال على اليتامى والمساكين، وأن يجعل قلبه كبيرا بما بحث به عن القناعة بالقليل والاستعداد ليوم الرحيل، وليجعل حق اليتيم والسائل نصب عينيه امتثالا لقوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[١١٩٠]. فلا تظلم اليتيم، فتذهب بحقه، استضعافًا منك له، وهذا الذي هو الاستخدام غير المحمود للقوة وذلك عندما يظن الإنسان أنه صار أقوى من ذلك الفقير أو ذلك اليتيم فيعامله معاملة سيئة فيها من الاستعلاء ما فيها ويصاحب ذلك من القسوة والنهر وسلب الحقوق ما يستوجب غضب الجبار جل جلاله، وليحذر الخليفة من حوله.

وعليه فالغني: هو من لا ضعف فيه، وهو الكامل الذي يشبع الحاجة ولم يكن في حاجة، وهو الذي يعطي ويهب ويمنح ولا يأخذ شيئا، وهو الذي يعلم بما لا نعلم، وهو الذي خلق الشيء وأوجده من لا شيء، إنه مالك الملك بالمطلق، يهب لمن يشاء الذكور ويهب لمن يشاء الإناث، وهو لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد، تحتاجه المخلوقات وهو لم يكن في حاجة إلي شيء منها، بيده القوة والقدرة، وهو الرحمن الرحيم.

[١١٨٩] النساء٨.

[١١٩٠] الضحى٩-١١.

اللهم يا الغني أجعلنا بغناك على القوة ولا تجعلنا على الوهن والضعف، واجعلنا من الذين حاجاتهم مشبعة ولا تجعلنا من المحتاجين لأحد سواك، اللهم اجعل الغنى والطمأنينة في أنفسنا، واجعل العلم يملأ صدورنا، وآتينا الحكمة من خيرك الكثير، وازرع المحبة بيننا أخوة متلاقين على توحيدك يا واحد يا أحد يا مغني عن كل أحد، واروي ظمأنا بمائك العذب الطاهر، الذي تنهمر به السماء على الأرض وتثور به الينابيع وتفيض، وتجري به الأنهار والوديان، اللهم يا الغني إننا في حاجة إليك لا تجعلنا نلتجئ إلا إليك، توكلنا عليك، توكلنا عليك، توكلنا عليك، أنت الغني جل جلالك واحد احد، لك الحمد ولك الشكر يا نعم المولى ونعم النصير.

اللهم إنك الغني عنا وعن أعمالنا ونحن الفقراء إليك وفي حاجة لأن نعمل ما يرضيك حتى ترضى عنا، اللهم يا الغني بالعلم والحكمة والقوة والقدرة والملك والعظمة يا علام الغيوم أغنينا بواسع فضلك ونعمك ورحمتك في كل شروق وغروب، وأغنينا بشكرك وحمدك في كل حركة وسكون، فإن حمدك وشكرك يزينا غننا، وإن رضاك عنا يجعلنا من المستخلفين ويجعلنا من أصحاب الجنة فلك الحمد والشكر يا الغني يا من لا غنيا غيرك.

المغني

المغني: هو الذي بيده الملك المطلق يغني به من يشاء كما يشاء ويرزق من يشاء بغير حساب، وهو الذي بيده الملك وهو في غير حاجة له، ولذا فهو المغني لمن هم في حاجة له ولملكه.

المُغْني: "وهو الذي يُغْني مَن يشاء من عبِادِه"[١١٩١].

[١١٩١] النهاية في غريب الأثر ، ج ٣ ، ص ٧٣٩.

المغني: هو "الذي كمل بنعوته وأوصافه، المغني لجميع مخلوقاته، وهو الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه"[١١٩٢].

المغني، "له ما في السماوات والأرض، وهو السالم من كل عيب ونقص، ومانح السلامة ومعطيها، وهو السلام، ومنه السلام"[١١٩٣].

الْمُغْنِي "بِمَعْنَى الْكَافِي مِنَ الْغَنَاءِ"[١١٩٤].

المغني المطلق لا وجود للحاجة في ذاته، والمغني بالإضافة هو الخليفة الذي هو في حاجة في ذاته ويفعل الخير الذي به يغني من هم في حاجة، فخلق الله متنوع متعدد، ومن هذا التنوع والتعدد يتم الإغناء بين المخلوقات، وذلك حيث لا غناء ذاتي غير ذات المغني المطلق جل جلاله، ولهذا فالإنسان في حاجة لبني جنسه، وفي حاجة للنبات والطير والحيوان، وفي حاجة للسمك والبحر وفي حاجة للهواء والطعام وفي حاجة للنور والضياء، وفي حاجة للطاقة والنار، وفي حاجة للتراب والماء، وفي حاجة لكل ما يعد ويحصى في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع.

المغني: هو من يغني بالصحة والعافية، ويغني بالطمأنينة والطموح والأمل، وبالعلم والحكمة، وبالتذكر والتفكر، والمغني بالحركة والسكون، وبالحب والعاطفة وبالضمير الذي يجعله عادلا إذا ما حكم بين الناس، ومغني بالتزاوج والإنجاب، ومغني بالتعاون بين من هم في حاجة.

المغني: هو الذي بيده التوبة والرحمة والمغفرة، فيغني بها من هم في حاجة إليه وإليها، وهو المغني بالثواب والعقاب، وهو المغني بالحياة والممات والبعث، وبالنار لمن كفر وبالجنة لمن آمن وكان من المستخلفين فيها فكان من الوارثين في الدارين.

[١١٩٢] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة ، ج ١، ص ٥١.

[١١٩٣] كتب العقيدة ، ج ٧ ، ص ١١٤.

[١١٩٤] الأسماء والصفات للبيهقي، ج ١ ، ص ٢١٦.

إنه المغني بالبدن والروح والنفس والعقل، وهو المغني بالبصر والسمع والذوق والشم واللمس وكل ما يؤدي إلى الإدراك الظاهر والباطن (المتوقع وغير المتوقع)، إنه مغني الأذن بالسمع ومغني السمع بالإنصات، ومغني العين بالبصر ومغني البصر بالرؤية، ومغني الرؤية بالمشاهدة، ومغني العقل بالإدراك، ومغني الإدراك بالملاحظة، وهو المغني الذي يغني العقل بالتدبر وبالتفكر والتذكر والاستبصار والاستنباط والاستقراء.

المغني: هو الذي يغني الخليفة بالإيمان والهداية من الضلال، ويغنيه بحكم العدل كلما حكم بين الناس، ومغنيه بالصدق من الكذب، وبالأمانة من الخيانة، ومن العفة من الزنا، وهكذا فهو المغني من الغش والتزوير والتطفيف والخيانة وشرب المسكرات، ومغني بالانتهاء والتجنب عما نهى.

المغني: هو الذي يغني الأبناء بالأبوة والأمومة والأخوة والعمومة والمخولة، ويغني الآباء بالتزاوج والإنجاب، ويغني الإنسان بالإسلام ويغني بالإسلام القلوب سبحانه إنه ربٌّ جل جلاله.

المغني هو المالك الذي يملك أصل الموارد، وهو علمه سبحانه المطابق لإرادته، فإن شاء أعطى، وإن شاء منع، فمن أعطاه أغناه، ومن منعه افتقر، يقول المغني المالك سبحانه: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}[١١٩٥]، "شبهت مقدوراته تعالى الغائبة للحصر المندرجة تحت قدرته الشاملة في كونها مستورة عن علوم العالمين ومصونة عن وصول أيديهم مع وفور رغبتهم فيها وكونها مهيأة متأتية لإيجاده وتكوينه بحيث متى تعلقت الإرادة بوجودها وجدت بلا تأخر بنفائس الأموال المخزونة في الخزائن السلطانية فذكر الخزائن على طريقة الاستعارة التخيلية، وجوز أن يكون قد شبه اقتداره تعالى على كل شيء وإيجاده لما

[١١٩٥] الحجر ٢١.

يشاء بالخزائن المودعة فيها الأشياء المعدة لأن يخرج منها ما شاء فذكر ذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية، والمراد ما من شيء إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه"[١١٩٦].

وأمره في الخلق أنه مغني بمعنى أن أغنى مخلوقاته بأن جعلها قادرة على الاكتفاء بالعمل والتعاون من أجل ديمومة الحياة، فالإنسان أغناه الله بأن جعل خلقه متكاملاً فجعل له عينين يبصر بهما، {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ}١١٩٧، وآذان يسمع بها {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[١١٩٨]، وعقل يفكر به، {إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ}[١١٩٩]، ولسان يتكلم به، {وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ}[١٢٠٠]، وقلب يشعر به فيحب ويكره ويفرح ويحزن، {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأرض فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[١٢٠١]، ويد لأداء الأعمال، {لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ}[١٢٠٢]، ورجل يسعى بها، {أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا}[١٢٠٣]، وغير ذلك من صور الخلق المتكامل صورة مبهرة تدل على الاكتمال وتشير إلى الاكتفاء عطاءً من المغني جل وعلا.

وجعل فيه إضافة إلى ذلك غريزة البقاء والتكاثر، {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ}[١٢٠٤]، وهذا من المغني وبخلافه لن يكون للإنسان وإن سعى امتلاك البنين أو الحفدة لان مادة التكاثر من عطاء المغني سبحانه، {أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ}[١٢٠٥]،

[١١٩٦] تفسير الالوسي، ج ٩، ص ٤٧١.

[١١٩٧] البلد ٨.

[١١٩٨] المؤمنون ٧٨.

[١١٩٩] المدثر ١٨.

[١٢٠٠] البلد ٩.

[١٢٠١] الحج ٤٦.

[١٢٠٢] يس ٣٥.

[١٢٠٣] الأعراف ١٩٥.

[١٢٠٤] النحل ٧٢.

[١٢٠٥] الواقعة ٥٨-٥٩.

وهو أما يغني الإنسان هبةً منه بنين فقط أو بنات فقط أو يجمعهما، ويمنع من يشاء لأنه هو المغني ولأحد سواه إن شاء أغناك بما تحب وإن شاء أفقرك، {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}[١٢٠٦].

إضافة إلى الأعضاء الداخلية ووظائفها المعقدة، فالإنسان أغناه المغني في ذاته فهو غير محتاج لأحد ليتنفس عنه أو لينظر عنه أو ليفكر بدلا منه، أو ليأكل نيابة عنه، فالاغتناء هنا جاء من المغني للمخلوقات بأن جعل لها كفاية تغنيها عن الحاجة إلى الغير في الخلق، وجعل بينها تعاون بالحاجة والفطرة ليغنيها عن العازة والفاقة، ولذا فالحاجة هي الغريزة التي تدفع الإنسان إلى القيام بكل ما يشبعها مهما تعددت وتطورت وتنوعت مستعيناً بما أعطاه المغني من نعم.

وهو مغني لكل مخلوقاته الأخرى كالحيوانات والنباتات، فالحيوانات جعل لكل منها هيئة خلقية تغنيها عن الحاجة إلى حيوان آخر أو إلى الإنسان لتعيش، فالحيوانات البرية جعل لها أشكال تغنيها فتمنحها قدرة المحافظة على ديمومة حياتها، فجعل لبعضها مخالب تصطاد بها وتدافع عن نفسها، وكل ذلك في دائرة النسبية، قال تعالى: {وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ}[١٢٠٧]، وجعل لبعضها قرون، ثم خلق بعضها على هيئة تغنيها عن الحاجات الملحة، فخلق الإبل بالهيئة التي نعرف لتكتفي خارجيا بتحمل الصحراء ويسهل عليها السير فيها، وداخلياً وذلك بقدرة إضافية على خزن الماء والطعام واستخراجه عند الحاجة، {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ}[١٢٠٨]، أليس هذا صورة مذهلة للاغتناء يضربها المغني لقوم يعقلون.

[١٢٠٦] الشورى ٤٩–٥٠.

[١٢٠٧] الأنعام ١٤٦.

[١٢٠٨] الغاشية ١٧.

أما الحيوانات البحرية فقد جعلها قادرة على استخلاص الأوكسجين من الماء بوسائل متعددة، ومنها الأسماك والبرمائيات وأغناها بالقدرة على اختزان الهواء لفترات طويلة، ومنها ما جعل فيها إمكان امتصاص الأوكسجين من الماء من خلال مسامات جلدها.

أما النباتات فقد خلق لها هيئة خاصة تساعدها على الاغتناء بذاتها على المعيشة بأن جعل لها أوراق خضراء هي الأساس في منح النبات الغذاء الكافي لديمومة حياته. كذلك جعل فيها غريزة البقاء والتكاثر بالنسبة للحيوانات وبالنسبة للنباتات، فالحيوانات خلقها أزواجاً وأغناها بأجهزة تناسلية متكاملة الخلق، {ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آَلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنْثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنْثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[١٢٠٩].

وفي النبات نجد أن المغني جعله على نوعين ذكري وأنثوي وهكذا خلق الأزواج كلها، {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١٢١٠]، ولكونه ثابت مستقر في موضع واحد سخر المغني سبحانه وتعالى الرياح لتقوم بدور التلقيح ونقل السحب إلى الأرض الجرز، {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ}[١٢١١]، وجعل بعض النباتات حاملة للقاح الذكري إلى جانب الوعاء الأنثوي. فالمغني أغنى المخلوقات بمنحها مقومات الاستغناء الخَلقية عن الغير.

أما في المعايش فالمغني أغنى خلقه بأن منحهم القدرة على كسب الرزق وعلمهم سبله، {وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ

[١٢٠٩] الأنعام ١٤٣-١٤٤.

[١٢١٠] الذاريات ٤٩.

[١٢١١] الحجر ٢١ ـ ٢٢.

عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[١٢١٢]، والآية واضحة الإشارة إلى تعلم المغني بعض سبل الحصول على موارد العيش في قوله تعالى: (مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ) والإشارة هنا إلى العلم الموهوب للإنسان، فالتعليم هنا لم يكن بمعنى التدريب، وإنما بمعنى المعرفة.

والإنسان يمتلك العقل والقدرة الجسدية التي تعينه على كسب رزقه فهو مستغني عن الحاجة إلى الغير، والحيوانات جعل فيها المغني الغريزة التي تمكنها من البحث عن طعامها الذي يجعلها تستغني عن عون غيرها من الحيوانات فما من حيوان يُترك للبحث عن طعامه إلا وجد بما أعناه الله فمنحه قدرة البحث والتحصيل.

والنباتات جعلها قادرة على القيام بعملية التبادل الضوئي وجعل في خلقها مقومات الاستغناء فجعل فيها اليخضور وهي الأساس في عملية صنع الغذاء في النباتات.

ثم أتم المغني سبحانه وتعالى كل ذلك بأن أغنى الأرض فوفر للمخلوقات عليها متطلبات العيش، فوهبها تلك المواد الطبيعية الهائلة التي لم يزل الإنسان ينهل من خيراتها فأغناها بمصادر الطاقة المكتشفة منها كالنفط واليورانيوم والفحم والغاز والزيت إضافة إلى الوقود البدائي الممثلة بالغابات المنتشرة في بقاع الأرض، وغير المكتشف والمغني أعلم به.

ثم أغنى الأرض بالماء الذي هو أساس كل شيء حي، {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأرض كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}[١٢١٣]، فجعل فيها الأنهار، {أَمْ مَنْ جَعَلَ الأرض قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}[١٢١٤]، وجعل فيها العيون، {وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ}[١٢١٥]، ثم أمد البقاع الأخرى بالمطر، {وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ

[١٢١٢] المائدة ٤.

[١٢١٣] الأنبياء ٣٠.

[١٢١٤] النمل ٦١.

[١٢١٥] يس ٣٤.

الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ}١٢١٦، ويسر سبل العيش فبسط الأرض وسهل الاستفادة من خيراتها بأن جعلها ذلولاً، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرض ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}١٢١٧، وما من جبل إلا وتجد في سفحه وادٍ فيه سيل من الماء وبقربه أرض خصبة وخيرات أخرى ذكرها المغني عز وجل في قوله: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأرض كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ}١٢١٨، وما من بحر إلا وتجد فيه من الخيرات والطيبات ما تعجز عن وصفه، {وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[١٢١٩].

وأوجد المغني على الأرض قوانين الطبيعة كقانون الجاذبية الذي خص المغني به الأرض ومن عليها بينما القمر ليس فيه هذه النعمة التي لولاها لما تمكن الإنسان من استعمار الأرض والخلافة فيها، {هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا}[١٢٢٠]، إلى دقة حركة الأفلاك، {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}١٢٢١، وما ينتج عنها من تقدير الزمن، {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ}١٢٢٢، وحركة الليل والنهار، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ

[١٢١٦] الشورى ٢٨.

[١٢١٧] الملك ١٥.

[١٢١٨] الرعد ١٧.

[١٢١٩] النحل ١٤.

[١٢٢٠] هود ٦١.

[١٢٢١] يس ٣٨-٤٠.

[١٢٢٢] البقرة ١٨٩.

وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[١٢٢٣]، إلى التبادل الضوئي إلى قوانين الفيزياء كقانون المساحة السطحية الذي تسير به السفن في البحار، {رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا}[١٢٢٤] ، وزجا لفظة عربية تدل على التيسير والاستقامة والدفع كما تنص المعاجم العربية: (زَجَا الشَّيءُ يَزْجُو زَجْواً وزُجُوّاً وزَجاءً تَيَسَّر واسْتقام...، والتَّزْجِيةُ دَفْعُ الشيء)[١٢٢٥]، وفي تلك اللفظة إشارة واضحة إلى تدخل القدرة الإلهية في عملية إرساء السفن في البحر وذلك بالقوانين الطبيعة التي من أولها قانون المساحة السطحية، كذلك فيها إشارة إلى حركة الرياح، والى ذلك ذهب المفسرون فقالوا: "وأصل الإزجاء السوق حالاً بعد حال والمراد به الإجراء وكأن اختياره عليه لما أنه أدل منه على القسر وهو أوفق بالمقام وأعظم في الإنعام أي هو سبحانه وتعالى القادر الحكيم الذي يجري لنفعكم السفن في البحر بالريح اللينة وبالآلات حسبما جرت به عادته تعالى (لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ) تصريح بالنفع أي لتطلبوا من رزقه الذي هو فضل من قبله سبحانه أو من الربح الذي هو جل شأنه معطيه، إِنَّهُ كَانَ (أزلاً وأبداً) (بِكُمْ رَحِيماً) حيث هيأ لكم ما تحتاجون إليه وسهل عليكم ما يعسر من مباديه، وهذا تذليل فيه تعليل لما سبق من الإزجاء والابتغاء للفضل"[١٢٢٦].

إلى قانون مقاومة الجاذبية الذي به ترتفع الطائرات، وقوانين الكيمياء وما ينتج عنها من مخلوطات وتفاعلات كيميائية أغنت الأرض فوفرت كثيراً من المتطلبات وسهلت حياة الإنسان في الأرض.

[١٢٢٣] لقمان ٢٩.

[١٢٢٤] الإسراء ٦٦.

[١٢٢٥] لسان العرب، ج ١٤، ص ٣٥٥.

[١٢٢٦] تفسير الالوسي، ج ١١، ص ١٦.

ولاشك أن ما من مخلوق أو كائن أو شيء قادر على أن يغني كل هذه المخلوقات بكل هذه الموارد إلا الله المغني القادر الغني الذي يمنح كل هذا ولا ينقص من ملكه شيء فتبارك الملك عز وجل، {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١٢٢٧].

وبعد فهو مغني الأشياء، فقد أغنى الأرض بالخيرات وأغنى المخلوقات بالقدرة على الاستفادة من هذه الخيرات، فمنح الإنسان عقلا يجعله قادراً على استخراج مواهب المغني سبحانه، وأغنى بقية المخلوقات بالغرائز اللازمة لتحقيق الاكتفاء والعيش على الأرض.

والمغني بعد ذلك جاعل الغنى في الشيء: {الَّذي أَعْطى كُلَّ شَيءْ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى}[١٢٢٨]، " فالخبز لا يشبع والماء لا يروّي كما أنّ المال لا يغني، والعدم لا يفقر، لأن اللّه هو المطعم المسقي وهو المشبع والمروي، كما هو المغني المفقر بما شاء، كيف شاء وهو جاعل الشبع والري في المطعوم والمشروب، وفي النفس بالغنى والفقر لحكمته ورحمته، كما يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، وهكذا كل في فلك يسبحون سبحانه المغني القادر جل جلاله.

ويمكن للخليفة أن يكون مغنياً بأن يكسب أعماله صفة التمام، وهو ما يمكن أن يقوم به البشر كما يخبر سيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام: "وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه"[١٢٢٩] ، فيكسبه القدرة على الاستغناء عمن يتمه، كما يمكن للخليفة أن يكون مغنياً بتيسير الموارد وحسن توظيفها من أجل خدمة الناس.

وفي لسان العرب: "رَجُلٌ مُغْنٍ أَي مُجْزئٌ كافٍ، لذا يقال الغَناءُ مصدرُ أَغْنى عنْكَ أَي كَفاكَ"[١٢٣٠]، وبهذاَ يَكُونُ الْمُغْنِي بِمَعْنَى الْكَافِي[١٢٣١]. وقد ورد المُغني بمعنى الكافي في القرآن الكريم بأسلوبين، الأول مباشر، والثاني إيحائي، فأما المباشر فمن آياته قوله تعالى: {أَلَيْسَ اللَّهُ

[١٢٢٧] الملك ١.

[١٢٢٨] طه ٥٠.

[١٢٢٩] الجامع الكبير للسيوطي ، ج ١، ص ٥٥٤٩.

[١٢٣٠] لسان العرب ١٥، ١٣٥.

[١٢٣١] الأسماء والصفات للبيقهي، ج ١، ص ٢١٦.

بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ}[١٢٣٢]، أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ، ذكره بلفظ الاستفهام المراد منه تقرير ذلك في النفوس والأمر كذلك، لأنه ثبت أنه عالم بجميع المعلومات قادر على كل الممكنات غني عن كل الحاجات فهو تعالى عالم حاجات العباد وقادر على دفعها وإبدالها بالخيرات والراحات، وهو ليس بخيلاً ولا محتاجاً حتى يمنعه بخله وحاجته من إعطاء ذلك المراد، وإذا ثبت هذا كان الظاهر أنه سبحانه يدفع الآفات ويزيل البليات ويوصل إليه كل المرادات، فلهذا قال تعالى: (أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ) ولما ذكر الله المقدمة رتب عليها النتيجة المطلوبة فقال: (وَيُخَوّفُونَكَ بالذين مِن دُونِهِ) يعني لما ثبت أن الله كاف عبده كان التخويف بغير الله عبثاً وباطلاً، أما لفظة عِبَادِهِ فالمراد بالعباد الأنبياء فإن نوحاً كفاه الغرق، وإبراهيم كفاه النار، ويونس بالإنجاء مما وقع له، فهو تعالى كافيك يا محمد كما كفى هؤلاء الرسل قبلك[١٢٣٣]. فالكفاية في هذه الآية شكل من أشكال الاغتناء، وذلك بصرف العبد عن الحاجة إلى غير المغني جل وعلا.

وقد تكون الكفاية تحقيقيه، أي بتحقيق مطلب ما مادي كان أم معنوي، ففي قوله تعالى: {فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}[١٢٣٤]، كانت الكفاية بتحقيق النصر، وَسَيَكْفِيكَهُمُ الله تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتفريحاً للمؤمنين بوعد النصر والغلبة وضمان التأييد والإعزاز على أبلغ وجه وذلك باستخدام السين مع الكفاية لدلالة على تحقق الوقوع البتة، أو للتذييل الآتي حيث أن السين في المشهور لا تدل على أكثر من التنفيس عقب ذكر ما يؤدي إلى الجدال والقتال، والمراد سيكفيك كيدهم وشقاقهم لأن الكفاية لا تتعلق بالأعيان بل بالأفعال، وتلوين الخطاب بتجريده للنبي صلى الله عليه وسلم مع أنه سبحانه أنجز وعده الكريم بما هو كفاية للكل، وللإيذان بأن

[١٢٣٢] الزمر ٣٦.

[١٢٣٣] تفسير الرازي، ج ١٣، ص ٢٦٥.

[١٢٣٤] البقرة ١٣٧.

القيام بأمور الحروب وتحمل المشاق ومقاساة الشدائد في مناهضة الأعداء من وظائف الرؤساء فنعمته تعالى في الكفاية والنصرة في حقه أتم وأكمل، وَهُوَ السميع العليم الذي لا تخفى عنه خافية في الأرض ولا في السماوات العلى وما بينهما سبحانه جل جلاله.

وقد تكون الكفاية المغنية لغاية الحفظ والرعاية، قال تعالى: {وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا}[١٢٣٥]، وكفى الله المؤمنين عن القتال أي أغناهم سبحانه عنه فحفظهم وحفظ أموالهم ونساءهم وأولادهم من أن يصيبهم مكروه، فيكون قد تحقق لهم ما يريدون بدون قتال، والمغني قادر على جعلهم يقاتلون إذا أمرهم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ}[١٢٣٦] وفي مثل هذا الأمر في وصفه للملائكة قال تعالى: {لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}[١٢٣٧]، لكن أراد تحقيق النصر لهم وحفظهم من مكاره القتال وذلك بالكفاية التي أشارت إليها الآية كنوع من أنواع الاغتناء.

وقد تكون الكفاية المغنية بمعنى سد النقص كما يشير قوله تعالى: {وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ}[١٢٣٨] ، فالكفاية هنا سد الحاجة وفوقها الغنى بناءً على أن الزيادة على نفي الحاجة والإمداد في الأصل إعطاء الشيء حالاً بعد حال، ويقال مد في السير إذا استمر عليه، وامتد بهم السير إذا طال واستمر، وعن بعضهم ما كان بطريق التقوية والإعانة يقال فيه أمده يمده إمداداً وما كان بطريق الزيادة يقال فيه: مده مداً.

[١٢٣٥] الأحزاب ٢٥.

[١٢٣٦] التوبة ١٢٣.

[١٢٣٧] التحريم ٦.

[١٢٣٨] آل عمران ١٢٣-١٢٥.

وقد تأتي الكفاية إيحائية في الآيات الكريمة وهي النوع الثاني على ما ذكرنا سابقاً، أي أن توحي الآية بكفاية المغني سبحانه لعباده، وهو كثير في القران الكريم، منه قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}[١٢٣٩]، فالمغني سبحانه كفى عباده عن طلب المطر من غيره وذلك بأن أنزل من السماء الماء، وكذلك كفاهم عن طلب المرعى إذ أغنى الأرض بالأعشاب الطبيعية فما أن ينزل المطر ثم تشرق الشمس حتى تخضر الأرض كما ترى أعين المؤمن والكافر على حدٍ سواء ودون تدخل من أحد لان ذلك كله من كفاية المغني سبحانه وتعالى، فالكفاية هنا أوحت بها الآية مع دلالة واضحة إلى أن مصدرها المغني تتجلى في قوله تعالى: (وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

ثم أن أنزل المطر بما يحقق الكفاية كما يقول سبحانه وتعالى: {وَالَّذِي نزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ}، أي بحسب الكفاية لزرعكم وثماركم وشربكم، لأنفسكم ولأنعامكم.

ثم أن المغني كفانا كثيراً من الأمور، فهو الذي سخر لنا ما لا نستطيع أن نسخره لخدمتنا فحقق لنا الكفاية، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ}[١٢٤٠]، أي جعل ما في الأرض من الأشياء مذللة لكم معدة لمنافعكم تتصرفون فيها كيف تشاءون.

والمغني كفى عباده عن كثير فخفف عنهم، وصرفهم عن البحث عن من يكفيهم، فهو الذي كفاهم بأن مد لهم الظل، {أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا}[١٢٤١]. وفي الآية دلالات عميقة من المغني عز وجل، فقوله أَلَمْ تَرَ يوحي بالرؤية البصرية التي تجعلك مستشعراً لكفاية المغني وأنت ترى الظل وهو يمتد فيكفيك عن

[١٢٣٩] الحج ٦٣-٦٤.

[١٢٤٠] الحج ٤٥.

[١٢٤١] الفرقان ٤٥.

البحث عما يقيك حر الشمس، وفيه دلالة على الرؤية العقلية التي توحي بالقدرة العظيمة للمغني عز وجل في التأثير في الظل من حيث حرمته، وتصور لو أن الظل ساكن! لكان الناس بحثوا عمن يمد لهم الظل وهو أمر كفاهم المغني عنه.

وفي الآية بيان نعم الله تعالى بالظل، وجميع المكلفين مشتركون في أنه يجب تنبيههم لهذه النعمة وتمكينهم من الاستدلال بها على وجود الصانع.

والظل هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص وبين الظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس، وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف وأفنية الجدران وهذه الحالة أطيب الأحوال لأن الظلمة الخالصة يكرهها الطبع وينفر عنها الحس، وأما الضوء الخالص وهو الكيفية الفائضة من الشمس فهي لقوتها تبهر الحس البصري وتفيد السخونة القوية وهي مؤذية، فإذن أطيب الأحوال هو الظل ولذلك وصف الجنة به فقال: {وَظِلّ مَّمْدُودٍ}[١٢٤٢]، والظل الممدود المستمر في الاتصال دون انقطاع وذلك بالديمومة الأبدية.

ثم أنه كفانا عن طلب الراحة فجعل لنا الليل وقدره سكناً، {أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[١٢٤٣]، فانظر إلى نفسك أيها العبد المؤمن حين يجن الليل هل تطلب من أحد أن يهبك النوم؟ أم أن المغني كفاك هذا بجعل الليل سكنا؟

وهو الذي كفى عباده البحث عمن يحملهم في البحر فأنعم عليهم بتقدير حمل مياه البحار والأنهار لسفنهم، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آَيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ}[١٢٤٤]، وتشير الآية الكريمة إلى أن حمل البحر للفلك وحركتها فيه إنما كانت بنعمة المغني الذي كفى عباده هذا الأمر الصعب.

[١٢٤٢] الواقعة ٣٠.

[١٢٤٣] النمل ٨٦.

[١٢٤٤] لقمان ٣١.

وهكذا فإن المغني كافٍ عباده ما داموا على الطاعة والشكر، فإذا كفروا منعوا الكفاية، وقد ضرب لنا المغني سبحانه مثلاً عن قرية قد تكون مخصوصة، وقد تكون لعموم العباد وغير مختصة بقوم أو بقرية فقال: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}[١٢٤٥]، فالمثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة سواء كان ذلك الشيء موجوداً أو لم يكن موجوداً وقد يضرب بشيء موجود معين، فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئاً مفروضاً ويحتمل أن تكون قرية معينة، وعلى هذا التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها، وذكر الله تعالى لهذه القرية صفات منها:

الصفة الأولى: كونها آمنة أي ذات أمن لا يغار عليهم كما قال: {أَوَ لَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءامِناً وَيُتَخَطَّفُ الناس مِنْ حَوْلِهِمْ }[١٢٤٦].

والصفة الثانية: قوله: (مُّطْمَئِنَّةً)، معناه أنها قارة ساكنة فأهلها لا يحتاجون إلى الانتقال عنها لخوف أو ضيق، وإن كان المراد أنهم لا يحتاجون إلى الانتقال عنها بسبب الضيق، فهذا هو معنى قوله: (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مّن كُلّ مَكَانٍ) وعلى كلا التقديرين فإنه يلزم التكرار.

وقوله: (يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ) إشارة إلى الكفاية.

قال المفسرون وقوله: (مِّن كُلِّ مَكَانٍ) السبب فيه إجابة دعوة إبراهيم عليه السلام وهو قوله: {فاجعل أَفْئِدَةً مّنَ الناس تَهْوِى إِلَيْهِمْ وارزقهم مّنَ الثمرات}[١٢٤٧]، ثم أنه تعالى لما وصف القرية بهذه الصفات الثلاث قال: (فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله) الأنعم جمع نعمة والمعنى أن أهل تلك القرية كفرت بالنعم فحق قول الله عليها.

[١٢٤٥] النحل ١١٢.

[١٢٤٦] العنكبوت ٦٧.

[١٢٤٧] إبراهيم ٣٧.

وعلى الخليفة تحقيق الكفاية لمن يعيش في معيته فيكون مغنياً بالإضافة، وبكل أنواع الكفاية مادية كانت من حاجات العيش والنمو والتطور، وهو بذلك يحقق لهم الكفاية التي تغنيهم عن التفكير بهذه الأمور، الأمر الذي يدفعهم إلى التفكر والتأمل لإعمار الأرض وتحقيق العدل عليها ومنع الفساد فيها. وكذلك على الخليفة أن يحقق الكفاية المعنوية بأن يبث ثقافة القناعة والرضا وغنى النفس فتحقق الكفاية عند كثير من العباد فيستغنوا عن زوائد المتطلبات ومباهج الرغبات مما يجعل الإنسان مستغنيا بما عنده عن ما عند غيره.

والمغني هو الذي يصرف الأشياء، فالعرب تقول: أَغْنِ عَني شَرَّكَ أَي اصْرِفْه ُ١٢٤٨، ومنه قوله تعالى: {لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ من الله شيئاً}١٢٤٩.

المغني هو الذي يصرف عن ما يشاء، فهو الذي يصرف الكيد عن عباده المؤمنين، {قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ}١٢٥٠، والصرف هنا بمعنى إقرار منفرات في قلب العبد تعينه على رد الكيد، وكان قد حصل في حق يوسف عليه الصلاة السلام جميع الأسباب المرغبة في تلك المعصية وهو الانتفاع بالمال والجاه والتمتع بالمنكوح والمطعوم وحصل في الإعراض عنها جميع الأسباب المنفرة، ومتى كان الأمر كذلك، فقد قويت الدواعي في الفعل وضعفت الدواعي في الترك، فطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحدث في قلبه أنواعاً من الدواعي المعارضة النافية لدواعي المعصية إذ لو لم يحصل هذا المعارض لحصل المرجح للوقوع في المعصية خالياً عما يعارضه، وذلك يوجب وقوع الفعل وهو المراد بقوله تعالى: (أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مّنَ الجاهلين)[١٢٥١].

[١٢٤٨] لسان العرب، ج ١٥، ص ١٣٥.

[١٢٤٩] الجاثية ١٩.

[١٢٥٠] يوسف ٣٣.

[١٢٥١] تفسير الرازي، ج ٩، ص ٣٧.

وصرف الكيد من أكبر نعم المغني جل وعلا لأنه يحل في أوقات عصيبة على المؤمنين أولاً، ولعدم العلم به من قبل المؤمنين ثانياً، فالكيد في الغالب ما يكون سرياً خفياً، لكن العالم المحيط لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، {إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ}[١٢٥٢]، فهو المطلع على هذا الكيد وقد أغنى عباده المؤمنين فصرف عنهم شر هذا الكيد، يقول المغني سبحانه وتعالى: {إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ}[١٢٥٣]، لا يضركم كيدهم لأنه أحاط بهم وبكم، فصرف كيدهم عنكم فأبطله، وأحسن إليكم لصبركم وتقواكم لكونهما من محاسن الطاعات ومكارم الأخلاق ومن تحلى بذلك كان في كنف الله تعالى، وحمايته من أن يضره كيد عدو.

وإذا كنا عرضنا للصرف المعنوي، فإن المغني قادر على الصرف المادي أيضاً لأنه القادر القوي، فقد صرف كيد هدم الكعبة عندما شرع في التنفيذ مع عجز العباد آنذاك عن القيام بحمايتها، {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}[١٢٥٤]، "اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية، إن قيل: فلم سماه كيداً وأمره كان ظاهراً، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت؟ قلنا: نعم، لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر، لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته"[١٢٥٥]، ولأنه أراد صرف الناس عن الكعبة صرف المغني سبحانه وتعالى كيده عن بيته الحرام.

[١٢٥٢] آل عمران ٥.

[١٢٥٣] آل عمران ١٢٠.

[١٢٥٤] الفيل ١–٥.

[١٢٥٥] تفسير الرازي، ج ٧، ص ٢١٤.

والمغني هو الذي يصرف عن عباده المؤمنين عذاب النار برحمة منه، فالله عز وجل كتب على العباد ورود النار فقال: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا}[١٢٥٦]، فالنجاة المذكورة في الآية تكون بصرف النار وعذابها عن هؤلاء، {وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا}[١٢٥٧]، فالصرف هنا غايته التكريم لهؤلاء العباد المستخلفين فيها.

ولصرف المغني سبحانه وتعالى غايات أخرى، منها تمييز الكفار من المنافقين، {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ}[١٢٥٨]، وظاهر الآية يدل على أن هذا الصرف عقوبة لهم على انصرافهم، والصرف عن الإيمان لا يكون عقوبة، لأنه لو كان كذلك، لكان كما يجوز أن يأمر أنبياءه بإقامة الحدود، يجوز أن يأمرهم بصرف الناس عن الإيمان. ويحتمل هذا الصرف وجهين: أحدهما: أنه تعالى صرف قلوبهم بما أورثهم من الغم والكيد. الثاني: صرفهم عن الألطاف التي يختص بها من آمن واهتدى[١٢٥٩].

أما قوله تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ}[١٢٦٠]، فهي من آيات التأمل في غاية الصرف، هل هي إرادة المغني بصرف بعض عباده عن الإيمان إلى الكفر؟ وهذا لا يليق برحمته وبكونه رباً للعالمين! والجواب هو أن هذه الآية فيها مسائل منها:

[١٢٥٦] مريم ٧١-٧٢.

[١٢٥٧] الفرقان ٦٥.

[١٢٥٨] التوبة ١٢٧.

[١٢٥٩] تفسير الرازي، ج ٨، ص ١٨٩.

[١٢٦٠] الأعراف ١٤٦.

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة قوله :{سَأُوْرِيكُمْ دَارَ الفاسقين}[١٢٦١]، ذكر في هذه الآية ما يعاملهم به فقال: (سَأَصْرِفُ عَنْ آياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض) أما قوله تعالى سَأَصْرِفُ فانه يتناول المستقبل وقد بين تعالى أنهم كفروا فكذبوا من قبل هذا الصرف، لأنه تعالى وصفهم بكونهم متكبرين في الأرض بغير الحق وبأنهم إن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً، وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً، فثبت أن الآية دالة على أن الكفر قد حصل لهم في الزمان الماضي، فهذا يدل على أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر بالله وهذا وجه.

والوجه الثاني: أن قوله: (سَأَصْرِفُ عَنْ آياتي الذين يَتَكَبَّرُونَ فِي الأرض) مذكور على وجه العقوبة على التكبر والكفر، فلو كان المراد من هذا الصرف هو كفرهم، لكان معناه أنه تعالى خلق فيهم الكفر عقوبة لهم على إقدامهم على الكفر، ومعلوم أن العقوبة على الكفر بمثل ذلك الفعل المعاقب عليه لا يجوز، فثبت أنه ليس المراد من هذا الصرف الكفر.

الوجه الثالث: أنه لو صرفهم عن الإيمان وصدهم عنه فكيف يمكن أن يقول مع ذلك {فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ}[١٢٦٢]، فثبت أن حمل الآية على هذا الوجه غير ممكن فوجب حملها على وجوه أخرى.

فالوجه الأول: إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه، ومعنى صرفهم إهلاكهم فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ولا على منع المؤمنين من الإيمان به، وهو شبيه بقوله: {بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ والله يَعْصِمُكَ مِنَ الناس}[١٢٦٣]، فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه الصلاة والسلام من إيذائه ومنعه من القيام بما يلزمه في تبليغ النبوة والرسالة.

[١٢٦١] الأعراف ١٤٥.

[١٢٦٢] الانشقاق ٢٠

[١٢٦٣] المائدة ٦٧.

والوجه الثاني: سأصرف هؤلاء المتكبرين عن نيل ما في آياتي من العز والكرامة المعدين للأنبياء والمؤمنين، وإنما يصرفهم عن ذلك بواسطة إنزال الذل والإذلال بهم، وذلك يجري مجرى العقوبة على كفرهم وتكبرهم على الله تعالى.

والوجه الثالث: أن من الآيات آيات لا يمكن الانتفاع بها إلا بعد سبق الإيمان. فإذا كفروا فقد صيروا أنفسهم بحيث لا يمكنهم الانتفاع بتلك الآيات، فحينئذ يصرفهم الله عنها[١٢٦٤].

ومن غاياته استشعار النعم، ففي اليوم الموعود وعندما ينعم المغني على عباده بأن يكتب لهم الجنة يصرف أبصارهم نحو أهل النار ليستشعروا النعم التي أنعم الله سبحانه بها عليهم، {وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}[١٢٦٥]، ودليل على أن الصرف أنما كان بأمر المغني سبحانه وتعالى هو استخدام الفعل بصيغة المبني للمجهول (صُرفت) أي أن الصرف لم يكن بمشيئتهم هم وإنما كان بمشيئة المغني جل وعلا، وعلى الخليفة فهم دلالات الآية واستشعار الفائدة من صرف العباد إلى صور الثواب والعقاب لتكون لهم عبرة يعتبروا بها فيعوا واجباتهم ويعرفوا حقوقهم، فالصرف هنا للوعي، {لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ}[١٢٦٦].

وعلى الخليفة امتلاك القدرة والوسيلة لصرف العباد تلقاء الخير، وهو بذلك يغنيهم عن الشر المؤدي إلى الفساد، ثم على الخليفة السعي لصرف السوء بكل أنواعه عن الرعية لان في ذلك إغناءً لهم.

المغني: هو مغني عن الحاجة إلى غيره بما يمتلك من كمال الصفات والفعال، فهو الذي حجته مغنية، {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}[١٢٦٧]، أي أو لم يكف بربك شاهدًا أن القرآن من الله تعالى. ومعنى

[١٢٦٤] تفسير الرازي ٧، ٢٤٧.

[١٢٦٥] الأعراف ٤٧.

[١٢٦٦] الواقعة ١٢.

[١٢٦٧] فصلت ٥٣.

الكفاية هاهنا: أن الله عز وجل قد بين من الدلائل ما فيه كفاية، يعني: أو لم يكف بربك لأنه على كل شيء شهيد، شاهد لا يغيب عنه شيء[١٢٦٨].

كذلك ينص المغني على حجته البالغة المغنية بقوله: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[١٢٦٩]، هذا بلاغ لِّلنَّاسِ أي هذا التذكير والموعظة بلاغ للناس، فهي كفاية في الموعظة لما في الكتاب من بيان النواهي والأمر بتركها، والرخص وكيفية أخذها، كما أن فيه تفصيل كل شيء، {وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ}[١٢٧٠]، فما من شيء إلا وتجد له ذكراً وتفصيلا في الحجة البالغة المغنية عن غيرها لأنها من المغني المطلق كما ينص قول المغني جل شأنه: {إِنَّ فِي هذا لبلاغا لِّقَوْمٍ عابدين}[١٢٧١].

وعليه فالقرآن حجة تفوق كفاية العبد ففيه من الأسرار ما يفوق قدرة كثير من العباد على الفهم والاستيعاب كما يقول المغني تعالى جل وعلا: {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[١٢٧٢]، يعني إن كان إنزال الآية شرطاً فلا يشترط إلا إنزال آية وقد أنزل وهو القرآن فإنه معجزة ظاهرة باقية وقوله: (أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ) عبارة تنبئ عن كون القرآن آية فوق الكفاية، وذلك لأن القائل إذا قال أما يكفي للمسيء أن لا يضرب حتى يتوقع الإكرام ينبئ عن أن ترك الضرب في حقه كثير فكذلك قوله: (أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الكتاب) وهذا لأن القرآن معجزة أتم من كل معجزة وذلك لوجوه منها:

[١٢٦٨] تفسير البغوي ، ج ٧، ص ١٧٩.

[١٢٦٩] إبراهيم ٥٢.

[١٢٧٠] الأعراف ١٤٥.

[١٢٧١] الأنبياء ١٠٦.

[١٢٧٢] العنكبوت ٥١.

الأول: أن تلك المعجزات وجدت وما دامت فإن قلب العصا ثعباناً وإحياء الميت لم يبق لنا منه أثر، فلو لم يكن من يؤمن بكتب الله ويكذب بوجود هذه الأشياء لا يمكن إثباتها معه بدون الكتاب، وأما القرآن فهو باق لو أنكره واحد فنقول له فأت بآية من مثله.

الثاني: هو أن قلب العصا ثعباناً كان في مكان واحد ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأما القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب وسمعه كل أحد، وههنا لطيفة وهي أن آيات النبي عليه السلام كانت أشياء لا تختص بمكان دون مكان لأن من جملتها انشقاق القمر وهو يعم الأرض، لأن الخسوف إذا وقع عم وذلك لأن نبوته كانت عامة لا تختص بقطر دون قطر وغاضت بحيرة ساوه في قُطر وسقط إيوان كسرى في قُطر وانهدت الكنيسة بالروم في قُطر آخر إعلاماً بأنه يكون أمر عام.

والمغني يغني المعدم فيمنحه ما لا يملك أغنانا بالكليات والأساسيات، فالمغني هو الخالق الذي أغني الإنسان بالخلق، فمنحه الهيئة، {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١٢٧٣]، فأغناه عن طلب ما عدمه من غير المغني، ثم منحه العيون والسمع واللسان، {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ}[١٢٧٤]، والقدرة على التمييز، {وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}[١٢٧٥]، النجد الطريق في ارتفاع فكأنه لما وضحت الدلائل جعلت كالطريق المرتفعة العالية بسبب أنها واضحة للعقول كوضوح الطريق العالي للأبصار، وإلى هذا التأويل ذهب عامة المفسرين في النجدين وهو أنهما سبيلا الخير والشر، وعن أبي هريرة أنه عليه الصلاة السلام قال: "يا أيها الناس أنيبوا إلى ربكم إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى يا أيها الناس إنما هما نجدان نجد خير ونجد شر فما جعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير يا أيها الناس اتقوا النار ولو بشق تمرة"[١٢٧٦]، وهو حديث مؤكد بقول المغني عز وجل: {هَلْ أَتَى عَلَى

[١٢٧٣] آل عمران ٦.

[١٢٧٤] البلد ٨-٩.

[١٢٧٥] البلد ١٠.

[١٢٧٦] جامع الأحاديث، ج ٢٣، ص ١٥٩.

الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا}[١٢٧٧] .

والكلام عن الخلق الذي أغنانا به المغني سبحانه عن غيره كثير ولا يحصى مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[١٢٧٨].

ثم بعد الخلق أغنى المغني عباده بالأرزاق من الأرض التي أخرجهم منها أي خلقهم منها خلقا، وخلق فيها خيراتها الكثيرة فهي أرض قابلة للاستعمار، والإصلاح الذي هو من مهمة المستخلفين فيها، {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْباب وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ}[١٢٧٩]، فالأرض طبيعتها معطاءة تصلح للحياة عكس الكواكب الأخرى حيث لم يجد العلماء حتى الآن كوكباً يصلح لحياة الإنسان، ولكن بالبحث العلمي وعبر الزمن سيصلون فالأرض تناسب أنواع البشر ومختلف الزروع فتنتج ثمار مختلفة في أوقات مختلفة، وهذا من آيات عطاء المغني أغنانا بها عن طلب كل هذه الأشياء من غيره وكل ما سبق الحديث كان عطاء أي أن الإنسان يعدم وجود هذه الأشياء لولا نعمة المغني جل شأنه.

والاغتناء بعد عدم شأن يختص به المغني جل وعلا، فما من خلق أو شيء أو رزق صغيرا كان أم كبيرا إلا وكان مصدره المغني فيما هو مدرك من الحاجات، وقد يكون الاغتناء بعد العدم من آيات المغني المفحمة لأعدائه، كما في قصة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام التي يذكرها المغني بتفصيلاتها لتكون عبرة للمعتبر يستدل بها على قدرة المغني سبحانه وسعة

[١٢٧٧] الإنسان ١–٣.

[١٢٧٨] النحل ١٨.

[١٢٧٩] الأعراف ٧٤.

كرمه فقال عز من قائل: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آَيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ}[١٢٨٠]. فلو تنبه الغافل إلى نوع هذا العطاء لأيقن أن ربه المغني قادر على أن يهب أكثر من ذلك، فكيف لمن يطلب أقل؟ إنه المغني الذي يهب لمن يشاء ما يشاء فيغنيه عن الحاجة إلى غيره.

وليس المعدم هو المخصوص بعطاء المغني، فالعطاء عام لكل مناجٍ ربه معدماً كان أم غنياً، لان المغني رب كل العباد فكرمه أكبر من أن يختص به عبد دون آخر، والمغني هو المختص بإزالة النقائص والحاجات[١٢٨١]، فسيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لم يكن معدما، وإنما كان فقيراً عندما دعا الله أن يغنيه، {فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ قَالَتْ

[١٢٨٠] مريم ١٦-٣٤.

[١٢٨١] شعب الإيمان للبيقهي، ج ١، ص ١١٥.

إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ}[١٢٨٢]، فكان الاغتناء بالزوجة والعمل من إجابة الدعاء، وقد يكون الاغتناء بالتمكين، {قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}[١٢٨٣]، ويلفت النظر في هذه الآية أن خطاب يوسف عليه الصلاة والسلام كان موجهاً للملك الإنسان لطلب التمكين، لكن الممكن في الآية هو المغني! لا عجب في ذلك، والتمكين الذي منحه المغني ليوسف عليه الصلاة والسلام يتمثل في حرية التصرف وحسن التدبير في خزائن الأرض، وقد يكون التمكين من المغني بالقدرة وتمهيد الأسباب كما حصل مع ذي القرنين، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا}[١٢٨٤].

وقد يأتي الاغتناء من المغني عز وجل عن طريق التسخير وهو تذليل الشيء وجعله منقاداً[١٢٨٥]، فقد أغنى المغني سبحانه عبده وخليفته داوود بتسخير قوى الطبيعة لخدمته، فقد سخر له الجبال، {اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ}[١٢٨٦]، وألان له الحديد، {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ}[١٢٨٧]، ألان الله له الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في

[١٢٨٢] القصص ٢٤-٢٨.

[١٢٨٣] يوسف٥٥- ٥٦.

[١٢٨٤] الكهف ٨٣-٨٣.

[١٢٨٥] الفروق اللغوية، ج ١، ص ٥٠.

[١٢٨٦] ص ١٧-١٨.

[١٢٨٧] سبأ ١٠.

قدرة الله يسير، فإنه يلين بالنار وينحل حتى يصير كالمداد الذي يكتب به، فأي عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله.

وقد يكون الاغتناء من الله سبحانه وتعالى بالجعل، وهو أما جعل مادي كما أشار المغني سبحانه بقوله: {وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آَتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا}[١٢٨٨]، فالمغني سبحانه أغنى عبده بأن جعل له بستانين مثاليين من حيث الهيئة ومن حيث العطاء، فهما يحويان الأعناب والرطب إشارة إلى نوعين فصليين من الزروع، فالعنب في الصيف ومع اكتمال نضوج الأعناب تظهر عراجين النخيل لذالك قال سبحانه كلتا الجنتين أتت أكلها لأن ثمار الكروم والنخيل تجتمع في وقت واحد مع اختلاف في نسبة نضوجهما، فما أن تنتهي الأعناب حتى تطيب الأرطاب لتدخل في فصل الشتاء ثمارها، إشارة إلى مثالية العطاء من حيث استمرار وجود الثمار في هاتين الجنتين. وهذا أقصى وجوه الغنى من المغني سبحانه وتعالى، فما من إنسان إلا وتمنى أن تكون عنده جنة واحدة مثل هذه الموصوفة في الآية الكريمة.

وقد يكون الجعل المغني روحي كما يشير قول المغني سبحانه وتعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآَخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١٢٨٩]، فالجعل روحي يتحدد بالمَّوَدَّةَ وذلك بأن يوافقوكم في الدين، وعدهم الله تعالى بذلك لما رأى منهم التصلب في الدين والتشدد في معاداة آبائهم وأبنائهم وسائر أقربائهم ومقاطعتهم إياهم بالكلية تطيبباً لقولهم، ولقد أنجز الله سبحانه وعده الكريم حين أتاح لهم الفتح فأسلم قومهم فتم بينهم من التحابّ

[١٢٨٨] الكهف ٣٢-٣٣.

[١٢٨٩] الممتحنة ٦-٧.

والتصافي ما تم[١٢٩٠]. وهذا من عطاء المغني سبحانه فقد أغناهم عن المعاداة بالمودة، وعن القطيعة بالصلة والرحمة.

وقد يكون الاغتناء بالهبة وهي "العَطِيَّة الخاليةُ عن الأَعْواضِ والأَغْراضِ"[١٢٩١]، والهبة التي يخص بها المغني سبحانه بعض عباده ليغنيهم منها أنواع:

أ- تفضيلية، أي تفضيل المُعطى على غير لصدق القول والعمل، كما حصل مع سيدنا إبراهيم عليه وعلى نبينا وجميع الأنبياء الصلاة والسلام، {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا}[١٢٩٢]، أي وهب لهم من النبوة ما وهب.

ب- اكتمالية، مثلما حدث مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ، {وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا}[١٢٩٣]، ولهذه الهبة أسبابها التي ذكرها القران، فهي مما سأل موسى ربه، {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي}[١٢٩٤]، والسؤال غايته مفسرة في آية أخرى، {وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ}[١٢٩٥]، وعند العودة إلى التفاسير في هذه الآية الكريمة وجدت أن بعض المفسرين كالرازي يذهب إلى وجود لثغة في لسان موسى عليه الصلاة والسلام، بينما ذهب البعض الآخر إلى قوة الاثنين معا عن الواحد في الدعوة، ولكن ربما يجد المتأمل أمرا آخرا يتمثل في طبيعة القوم الذين أرسلوا إليهم (اليهود)، فهؤلاء كانوا على أشد ما يكون من الكفر ومخالفة أمر الله إلا قليل منهم ، فقد أبدلوا نعمة الله المنزلة من السماء إليهم بلا عناء ببعض ما يرون في

[١٢٩٠] تفسير الالوسي، ج ٢٠، ص ٤٦٢.

[١٢٩١] لسان العرب ١، ٨٠٣.

[١٢٩٢] مريم ٤٩-٥٠.

[١٢٩٣] مريم ٥٣.

[١٢٩٤] طه ٢٩-٣٢.

[١٢٩٥] القصص ٣٤.

الأرض من الثمار، وكانوا يكفرون بآيات الله، وكانوا يقتلون النبيين كما وصفهم رب العزة فقال: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ}[١٢٩٦].

وهم بعد ذلك رغبوا عن عبادة الله إلى عبادة عجل من ذهب بوجود نبيهم هارون، {فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى}[١٢٩٧]، فمثل هؤلاء يلزمهم أكثر من نبي وهو ما حدث، فأنبياء بني إسرائيل أكثر من حيث العدد من أنبياء الأقوام الأخرى، ربما يكون هذا من أسباب هبة المغني سبحانه لعبده موسى عليه الصلاة والسلام، {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}[١٢٩٨].

ج – روحية، وهي تلك الهبة التي أغنى بها المغني سبحانه نفوس عباده ليؤنسهم بها، كما فعل سبحانه مع سيدنا زكريا عليه الصلاة والسلام، {وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}[١٢٩٩]، واعلم أنه تعالى بيّنَ انقطاع زكريا عليه السلام إلى ربه تعالى لما مسه الضر بتفرده، وأحب من يؤنسه ويقويه على أمر دينه ودنياه ويكون قائماً مقامه بعد موته، فدعا الله تعالى دعاء مخلص عارف بأنه قادر على ذلك، وإن

[١٢٩٦] البقرة ٦١.

[١٢٩٧] طه ٨٨-٩١.

[١٢٩٨] القصص ٣٥.

[١٢٩٩] الأنبياء ٨٩-٩٠.

انتهى الحال به وبزوجته من كبر وغيره إلى اليأس من ذلك بحكم العادة. أما قوله: (وَأَنتَ خَيْرُ الوارثين) ففيه وجهان:

أحدهما: أنه عليه السلام إنما ذكره في جملة دعائه على وجه الثناء على ربه ليكشف عن علمه بأن مآل الأمور إلى الله تعالى.

والثاني: أي أنت الذي بأسبابك كان المستخلفون فيها وارثين في الدارين مصداقا لقوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١٣٠٠]، وقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}[١٣٠١].

وعليه لم تكن حاجة زكريا إلى الولد حاجة مادية بل كانت روحية لأجل الاستئناس من الوحدة وإغناء الروح بهذا الولد فاستجاب له المغني سبحانه فوهبه يحيى هبةً روحية مميزة تشعر فيها بإرضاء المغني سبحانه لنفس عبده المؤمن، فقد قال المغني الكريم لزكريا: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}[١٣٠٢]، والمواساة الروحية واضحة في الآية تتجلى في إخبار المغني لعبده أنه سمى الولد الموعود وفي ذلك أكبر أنواع المواساة كون الله سبحانه هو الذي يسمي الولد، وهي تسمية مميزة لم يتسمَ بها أحد من قبل وفي ذلك مواساة أخرى، ثم أشفى المغني حاجة عبده وأكمل عطاءه عليه بأن قال(وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ).

[١٣٠٠] المؤمنون ١ ـ ١١.

[١٣٠١] الأعراف ١٠٠.

[١٣٠٢] مريم ٧.

والهبة الروحية إغناء روحي لحاجات لا يقدر عليها إلا الله المغني وحده، وهي من عظيم الآيات على قدرته سبحانه وتعالى، فلو نظرنا في هبة المغني لسيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام لأيقن كل ذي لب أن له رباً عظيماً كريماً غنياً مغنياً، لان نوع العطاء لأيوب لا يجانسه فعل بشري بالمطلق، يقول المغني سبحانه: {وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ}[١٣٠٣]، وهذه الهبة آية من آيات العظمة، فتكاد تُجمع كتب التفسير على أن المغني سبحانه أعاد إحياء أهله ممن اهلكوا أثناء محنته، وقال صاحب البحر المحيط أن جمهور المفسرين يذهب إلى: "أنه تعالى أحيا له من مات من أهله، وعافى المرضى، وجمع عليه من شتت منهم"[١٣٠٤]، بينما يذهب الرازي إلى: "وهبه من كان حياً منهم وعافاه من الأسقام وأرغد لهم العيش فتناسلوا حتى بلغ عددهم عدد من مضى وَمِثْلَهُمْ مَّعَهُمْ فكان له ضعف ما كان"[١٣٠٥] وإن كان لنا تعليق على هذه الاستشهادات وغيرها كثير أقول: إنها لا تخرج عن دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع.

والاغتناء قد يأتي بصورة التفوق على الغير، فكثير من العباد غني بتفوقه على غيره وذلك بما أعطاه المغني من مميزات خاصة جعلته بمرتبة أعلى من غيره فأمتنع من الحاجة إلى الغير، وذكر لنا المغني بعض آيات الاغتناء بالتفوق، فأشار إلى سيدنا داوود عليه الصلاة والسلام فقال: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[١٣٠٦]، ثم ذكر سيدنا سليمان وأشار إلى منحه التفوق في عدة آيات، فأشار إلى تفوقه بالعلم إلى أن وصل به الأمر إلى معرفة لغات ومنطق بعض المخلوقات الأخرى من غير الإنسان، فقد عرف لغة الطير ومنطقه، قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ

[١٣٠٣] ص٤٣.

[١٣٠٤] البحر المحيط ، ج ٩، ص ٣٤٣.

[١٣٠٥] تفسير الرازي ، ج ١٧، ص ٣٥٧.

[١٣٠٦] سبأ ١٠-١١.

وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ}[١٣٠٧]، وقال تعالى: {حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ}[١٣٠٨]، وهذا التفوق المميز قابله سليمان وغيره من عباد الله الصالحين بالشكر والعمل الصالح وهو ما يجب على الخليفة القيام به، فإذا كان المغني قد أغناه بالخلافة وميزه عن الآخرين بأن وهبه ما لم يهب غيره عليه أن يشكر المغني على هذا التفوق، والشكر اعتراف بالفضل والوحدانية مع فائق التسليم للمغني جل جلاله.

وهذا التفوق المميز مذكور على وجهين: ايجابي وهو ما ورد مع سيدنا سليمان، ثم سلبي وأمثلته في القران كثيرة منها تفوق قارون الذي جعله المغني سبحانه آية توضح بجلاء قدرته عز وجل على منح العباد الاغتناء المميز بالتفوق على الغير ويبقى على الإنسان أن يعرف كيف يرد هذا العطاء فإذا شكر زاده المغني، {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ }[١٣٠٩]، وإذا كفر عاد عليه سوء عمله، {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ

[١٣٠٧] النمل ١٥-١٦.

[١٣٠٨] النمل ١٨-١٩.

[١٣٠٩] إبراهيم ٧.

صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[١٣١٠]، لذا فإن على العبد عدم التفكير ولو بقليل من الأمر في أنه استغنى بالمطلق عن المغني عز وجل كقارون، فالله عز و جل هو المغني وهو القادر على الإفقار أيضا وهذا درس للخليفة عليه أن يعيه وأن يعلمه من معه، فما من غنى مطلق إلا غنى الله سبحانه وتعالى، وما من غني مطلق إلا الله، وما من مغني مطلق إلا الله جل شأنه. ولهذا فما دونه لا يخرج عن دائرة النسبية.

ومثله في عطاء المغني وجحود العبد قوله سبحانه وتعالى: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا}[١٣١١]، المال الممدود القابل للزيادة والمباركة في كل زمان ومكان، سأرهقه صعودا، أي لن يبلغ مقصده وذلك لعدم تيقُّنِه لآياتنا الكريمة التي تستوجب الحمد والشكر وتستوجب الإصلاح لا الفساد.

وكل هذه النعم هي عطايا المغني الذي أغنى هذا العبد بكل مقومات الغني من مال إلى أبناء إلى الجاه المميز لكنه أبى وكفر، وبدل هذه النعم بالجحود والنكران.

أما بنو إسرائيل فإنهم نموذج للتعالي على عطاء الغني وتبديله، فقد أغناهم الله عن طلب حاجات الدنيا من مأكل ومشرب، {وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا

[١٣١٠] القصص ٧٦-٨٢.

[١٣١١] المدثر ١١-١٧

وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[١٣١٢]، وهذه النعم هي من أعلى مراتب الاغتناء فما من حاجة من حاجات المعيشة إلا وأغناهم المعني عن الاحتياج إلى غيره في قضائها، إلا أنهم أبو هذا الاغتناء وأبدلوه بالأدنى، {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ }[١٣١٣] .

ومن صور الاغتناء التي اختص بها المغني تفرداً وتحديداً للمقدار، الاغتناء بالبركة، لأن البركة من خاص أفعاله لا يشترك معه فيها أحد، والبركة هي: "الزيادة والنماء من حيث لا يوجد بالحس ظاهرا، ويوصف بها كل شيء لزمه وثبت فيه خير إلهي. وليس لضدها اسم معروف، فلذلك يقال فيه: قليل البركة، ولا يسند فعل البركة إلا إلى الله، فلا يقال: بارك زيد في الشيء، وإنما يقال: بارك الله فيه"[١٣١٤]. ولهذا فالبركة مدد في الطعام والرزق والعلم والصحة، وبركة في الحركة والعمل والفعل. قال تعالى: {يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ}[١٣١٥]، فيربي الصدقات يعني يضاعف على أصحابها في الدنيا والآخرة، يقول الرسول محمد الصادق علية الصلاة والسلام: "وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنْ كُنْتُ لَحَالِفًا عَلَيْهِنَّ لَا يَنْقُصُ مَالٌ مِنْ صَدَقَةٍ فَتَصَدَّقُوا"[١٣١٦].

أنوع الاغتناء

والمغني هو الوهاب لأنواع العطاء، فمن أنواع الاغتناء ما هو بالمادي، فهُوَ الَّذِي جَبَرَ مَفَاقِرَ الْخَلْقِ، وَسَاقَ إِلَيْهِمْ أَرْزَاقَهُمْ، فَأَغْنَاهُمْ عَمَّا سِوَاهُ[١٣١٧]، يقول المغني عَزَّ وَجَلَّ: {وأنه هو أغنى

[١٣١٢] الأعراف ١٦٠.

[١٣١٣] البقرة ٦١.

[١٣١٤] الفروق اللغوية، ج ١، ص ٩٦.

[١٣١٥] البقرة ٢٧٦.

[١٣١٦] مسند أحمد ٣، ٢٠٨.

[١٣١٧] الأسماء والصفات للبيقهي، ج ١، ج ٢١٦.

وأقنى} فالله هو المغني الذي له الغنى التام المطلق من كل الوجوه وهو المغني جميع خلقه، غنىً عاماً[١٣١٨]، فهو الذي وهبهم العام والخاص من الحاجات، فمن العام هو الذي أغناهم بالكون وما فيه، فجعل الشمس والقمر، {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ}[١٣١٩]، وهو الذي تكفل بالمطر، {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[١٣٢٠]، وهو الذي أتم صورة الخلق ووهبهم الحواس، {قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[١٣٢١]، ومن الخاص وهبهم كل حاجاتهم التي دعوا الله مخلصين فأجابهم وهذا مختص بكل عبد وبحاجاته، فمنهم من يطلب اغتناء المال، ومنهم من يطلب اغتناء الذرية، ومنم من يطلب جاهاً والمغني قادر على أن يهبهم كل حسب طلبه ما أخلصوا الدين لله، إنه المالك بالمطلق لكل قول وفعل وأمر وملك وهو العزيز الحكيم.

وهناك الاغتناء الروحي، فهو المغني لخواص خلقه، بما أفاض على قلوبهم، من المعارف الربانية، والحقائق الإيمانية[١٣٢٢]. وأوجه الاغتناء الروحي عديدة منها:

١ . هو الذي أغناهم بالهدى، {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ}[١٣٢٣] .

[١٣١٨] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٥١.

[١٣١٩] يونس ٦.

[١٣٢٠] النحل١٠– ١١.

[١٣٢١] الملك ٢٣.

[١٣٢٢] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج ١، ص ٥١.

[١٣٢٣] التوبة ٣٣.

٢ . فانزل لهم الكتب السماوية المغنية عما سواها، {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ}[١٣٢٤].

٣ . هو الذي أغنانا بالخلافة على الأرض: {هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا}[١٣٢٥] .

٤ . أغنانا بالصلاة ، {هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}[١٣٢٦] . والصلاة من الله رحمة، ومن حلت عليه رحمة الله أغنته عن الحاجة إلى أي شيء سواها.

٥ . أغنانا بالسكينة العامة والخاصة، فمن العامة ما شملت جميع المؤمنين، {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[١٣٢٧]. ومن الخاصة ما شملت الزوج زوجه، {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آَتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ}[١٣٢٨] .

[١٣٢٤] آل عمران ٧-٨.

[١٣٢٥] فاطر ٣٩.

[١٣٢٦] الأحزاب ٤٣.

[١٣٢٧] الفتح ٤.

[١٣٢٨] الأعراف ١٨٩.

٦ . أغنانا بالألفة، وهو أمر اختص به وحده ولم يشترك معه في ذلك أحد، {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}[١٣٢٩]
.

وهناك الاغتناء بالانبساط العلمي والجسمي، وقد خص الله به قليل من عباده خصوصاً ممن أخلصوا له القول والعمل، كما خص طالوت بالجمع بين الاغتناء الروحي والمادي فقال عز من قائل: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١٣٣٠]، فقد وهبه وأغناه المغني سبحانه بالعلم وهو اغتناء روحي، ثم أغناه بالقوة الجسدية فجمع بذلك بين الاثنين وعلى وجه الخصوص من بين كثير من أقرانه آنذاك، ودليل ذلك تعجب بعضهم من اختياره ملكاً عليهم (أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا)، ثم الإجابة الدالة على أمر المغني بالجمع بين المادي والمعنوي من العطاء (إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ).

كذلك خص المغني عبده الاسكندر (ذي القرنين)، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا

[١٣٢٩] الأنفال ٦٣.

[١٣٣٠] البقرة ٢٤٧.

وَبَيْنَهُمْ سَدًّا قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا آَتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا}[١٣٣١].

وأجمع المفسرون على أن هذا الاسكندر إما نبي أو صالح، فقال بعضهم أن الذي يتكلم الله معه لا بد وأن يكون نبياً، ومنهم من قال إنه كان عبداً صالحاً، ومع ذلك فلم ينص عليه جل جلاله بذلك وضوحا، وقد جمع بين الاغتناء الروحي الممثل بالإيمان بالله وبقدرته (ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا وَأَمَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى)، والاغتناء المادي الممثل بالقوة التي أغناه المغني بها من دون كثير من خلقه (مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا).

والمغني بعد ذلك مغني بالحساب لعباده المؤمنين، فهو الذي يضاعف الحسنة، فالمعلوم أن لبني آدم ميزان توزن به الأعمال يوم القيامة، والإنسان في ذلك اليوم فقير مهما كانت أعماله إلا برحمة الله التي تغنيه وتثقل كفة ميزان الأعمال الحسنة له، وأول وجوه الاغتناء يتمثل في تقدير العمل، إذ يشعر الإنسان أن أعماله الحسنة ما هي بالثقل الذي يرجح كفة ميزان أعماله، لكن المغني يقدر غير ذلك، {وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ}[١٣٣٢].

ثم تأتي صور المضاعفة كشكل من أشكال الاغتناء، {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[١٣٣٣]، فهو الذي يغني المنفقين فيضاعف الحساب جزاء الإنفاق للعموم، ثم يزيد في هذه النسبة لمن يشاء، فمن يمكن أن يكون من هؤلاء المضاعف لهم فوق ذلك؟ المغني سبحانه عالم خبير بعباده، فهو يضاعف للمحتاج إلى المضاعف في ميزانه من المؤمنين، ويضاعف

[١٣٣١] الكهف ٨٣-٩٧.

[١٣٣٢] النور ١٥.

[١٣٣٣] البقرة ٢٦١.

كذلك لغير المحتاجين كرما منه، فمن هم الذين لا يضاعف لهم إلا على قدر النسبة التي أقرها المغني لعموم الناس؟.

ومن أشكال المضاعفة تقدير القرض الحسن، {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}[١٣٣٤].

ونتيجة ذلك الاغتناء لا محالة لان المغني نسب القرض إليه، ثم ذكر أمر المضاعفة بدون تحديد سقفها، وفي ذلك تشويق للمُقرض إذ ستبقى مخيلته تبحث عن قيمة المضاعفة الموعودة، وكلما استذكر كرم الله كلما شعر بالكثرة وطلب المزيد، فسبحان المغني.

اللهم يا المغني اغننا بحلالك عن حرامك، وبك عمن سواك، واجعلنا من المستعففين الذين تعفهم، واكتبنا من المستغنين الذين أغنيتهم، اللهم لا غنى لنا عن رزقك ورحمتك وإحسانك، وأنت الغني عن العالمين، والمغني للأولين والآخرين، فنسألك أن تغنينا بكل خير وتمنع عنا كل شر في كل سماء وبحر وبر، اللهم يا الغني اغننا بتوحيدك وبالصلاة والسلام على رسولك محمد عليه الصلاة والسلام، واحشرنا في زمرته غير ناكثين للعهد ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مغضوب علينا ولا ضالين فنسألك هذا الغنى يا المغني، واجعل اللهم غنانا من لدنك في نفوسنا، واغرسه في قلوبنا، فمن كان غناه في قلبه فلا يضره ما لقي من الدنيا، إنك الغني الحميد، اللهم يا الغني يا الحميد يا المبدئ يا المعيد يا الرحيم يا الودود اغننا بحلالك عن حرامك وبفضلك وجودك وحلمك وحكمتك وعلمك وكرمك وقوتَك وقوَّتك ومقدرتك وعزتك إنك أنت الغني سبحانك، وأسألك يا المغني أن تغنينا بالقرآن، فوالله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة، اللهم اغننا به إنك الغني الحميد.

[١٣٣٤] الحديد ١٨.

المانـع

اسم المانع من أسماء الله وصفاته الحسان جل جلاله.

المانـع: هو "الّذِي يَمْنَـعُ منِ اسْتَحقَّ المَنْعَ"[١٣٣٥].

المانـع هو الحائل بين ما يجب وبين ما لا يجب، وهو القوة المانعة من الاختلاط بغير حق وهـو الفاصـل بـين تركيبـات النقـائض. قـال تعـالى: {مَـرَجَ الْبَحْـرَيْنِ يَلْتَقِيَـانِ بَيْنَهُمَـا بَـرْزَخٌ لَا

[١٣٣٥] تاج العروس – ج ١ ، ص ٥٥٥٢.

يَبْغِيَانِ}[١٣٣٦]. وقوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا}[١٣٣٧]. مياه تتدفق جنبا إلى جنب ولا تختلط دون أن يكون بينها جدار قابل للمشاهدة، فقط يلحظ الفرق بينها من حيث المذاق العذب جنبا إلى جنب مع المذاق الملح، والمانع هو القوة الحركية بقوة المانع المطلق جل جلاله، التي جعلت الملامسة والاحتكاك دون الاختلاط، ولأنه المانع بالقوة والقدرة فهو (الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا) ولا يوجد بينها مانع مادي إلا القدرة وهذه آية باقية إلى الأزل لا يمكن أن تخفى عن أحد.

وللمانع معنيان:

ـ أحدهما: ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اللهم لا مانِعَ لما أَعْطَيْتَ، ولا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ"[١٣٣٨]، فالله عز وجل يُعْطِي من استحقَّ العطاءَ، ويمنع من لم يستحق إلاَّ المنع، ويعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، وهو العادل في جميع ذلك.

. والثاني: في تفسير المانع أنه تبارك وتعالى يمنع أَهل دينه، أَي يَحُوطُهم، وينصرهم، وقيل: يمنع من يريد من خلقه ما يريد، ويعطيه ما يريد. ومن هذا يقال: فلان في مَنَعةٍ، أَي في قوم يحمونه ويمنعونه، وهذا المعنى في صفة الله جل جلاله بالغ، إذ لا مِنْعَةَ لمن لم يمنعه الله، ولا يمتنع من لم يكن الله له مانعاً[١٣٣٩]، ومن لم يعطه الله شيئاً لن يبلغ شيئا، أي من يمنعه الله عن شيء لا يمكن أن يجد من يُمكِّنه منه، ولذا فهو المانع بالمطلق.

والمنع لا يكون إلا بسبب، وفي هذا عين العدل، أما المنع بدون سبب فمظلمة، وهذه من صفات المفسدين في الأرض وهي الصفة المخالفة لصفات الخلفاء الذين لا يمنعون حلالاً عن حلال ولا يخلطون حراما مع حلال إنهم المؤمنون حقا.

[١٣٣٦] الرحمن ١٩، ٢٠.

[١٣٣٧] الفرقان ٥٣.

[١٣٣٨] صحيح البخاري، ج٣، ص٣٤٨، رقم٧٩٩.

[١٣٣٩] لسان العرب، ج٨، ص٣٤٣.

المانع هو الذي يرد أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان بما يخلقه من الأسباب المعدة للحفظ وقد سبق معنى الحفيظ وكل حفظ فمن ضرورته، منع ودفع فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المانع والمنع إضافة إلى السبب المهلك والحفظ إضافة إلى المحفوظ من الهلاك وهو مقصود المنع وغايته إذ المنع يراد للحفظ والحفظ لا يراد للمنع فكل حافظ مانع وليس كل مانع حافظا إلا إذا كان مانعا مطلقا لجميع أسباب الهلاك والنقص حتى يحصل الحفظ من ضرورته[١٣٤٠].

المانع هو الذي يمنع ما أحب منعه ويعطي ما أحب عطاءه فإذا أعطى تفضل ولا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع[١٣٤١].

المانع اسم من أسماء الله الحسنى يوحي بالإرادة والحماية والقوة والقدرة، فالله تعالى معطٍ ومانعُ برحمته وحكمته وعدله ولا يمكن لأي مخلوق أن يملك رد أو منع ذلك الفضل المقرر منه تعالى، أو أن يمنع الضرر عنه، قال عز وجل: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[١٣٤٢].

واتصاف الله تعالى بالكرم المطلق يتنافى معه البخل والحرمان والمنع، والكرم والعطاء لا يكونان في شكل أو زمن واحد متتالٍ، فقد اقتضت حكمة الله تعالى وعلمه المطلقين توزيع العطاء والمنع بالشكل العادل والصحيح بين الناس، أنه العادل عز وجل في جزائه وثوابه، إذ أن الله تعالى لا يظلم أحداً من عباده، قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}[١٣٤٣]، فالذي يظلم هو الإنسان ولو نفسه هو وذلك بمنعها من فعل الخير وطاعة الخالق.

١٣٤٠ الغزالي، المقصد الأسنى، ص ١٤٥.

١٣٤١ الزجاج، تفسير أسماء الله الحسنى، ص ٦٣.

١٣٤٢ يونس ١٠٧.

١٣٤٣ فصلت ٤٦.

والمانع جل جلاله لا يمنع امتلاك العبد لنعمة من نعمه تعالى إلا لحكمة ومصلحة وفائدة بدون أن يدرك العبد نفسه لهذا المنع المفيد له من ربه، فعلم الإنسان وإدراكه محدودان لا يصلان لبواطن وأسرار هذا العطاء والمنع، لذلك نجد أن كثيراً من البشر يقضي حياته ندماً وأسفاً على ضياع غاية أو أمل كان يسعى لتحقيقه في الدنيا، في الوقت الذي لا يدرك فيه هذا الإنسان أنه في عدم تحقيق هذا الهدف أو عدم الوصول إلى غايته وهدفه خير ومنفعة تعود عليه آخراً في دينه ودنياه، بل وفي بعض الأحيان قد يكون في تحقيق هذا الهدف والحلم بؤس وشقاء ينقلب عليه، وأحياناً قد يُعرض الإنسان كارهاً ومانعاً لأمر ما على اعتبار أنه يحمل شراً وبؤساً له، مع أنه في باطن الأمر قد يكون في هذا الأمر الخير الكثير، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[١٣٤٤]، فلا يدري الإنسان أين الخير هل هو في تحقيق غايته أو في منعها من التحقيق. أو قوله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوِ انْفِرُوا جَمِيعًا وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا}[١٣٤٥]، فهذا الذي فرح بامتناعه عن الخروج مع المسلمين للقتال خوفاً من الاستشهاد، لا يدري أنه قد منع نفسه من نعيم دائم وخير خالد مقابل حياة زائلة، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ}[١٣٤٦]، ففهم المنع هنا من

[١٣٤٤] البقرة ٢١٦.

[١٣٤٥] النساء ٧١ . ٧٣.

[١٣٤٦] آل عمران ١٦٩ . ١٧١.

الإنسان هو للخير ولكنه غير ذلك عند المانع المطلق، فقد منع عن هؤلاء الخير لتعلقهم بالحياة الدنيا ولعلمه بما في قلوبهم من زيف وكذب ونفاق.

ومن شأن الإيمان بهذا الاسم أن يجعلنا نتوكل في كل أمورنا مهما كانت صغيرة أو كبيرة، وأن نبدأ يومنا بقوله سبحانه وتعالى: {حَسْبِيَ اللَّـهُ لَا إِلَـهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}[١٣٤٧]، من هنا يتولد اليقين بأنه لا مانع لضررٍ أو خيرٍ سواه عز وجل.

وكثير من العباد البسطاء من يضع أموره بين يدي من يستطيع أن يدفع الضرر بمنصبه أو مكانته، مثال ذلك في نطاق العمل الوظيفي نجد أن الإنسان دائماً يتمسك ويتقرب لمن بيده أن يمنع أذىً معين أن يصيبه يتمثل أحياناً بقرار فصله أو إنهاء خدمته ويكون دائماً على علاقة طيبة برب العمل، ولله المثل الأعلى فهو وحده تعالى من بيده أمر كل شيء ولكنه لا يمنع إلا ما هو ضرر وشر لنا لحبه لنا ويا ليتنا نبادله هذا الحب لاستحقاقه جل جلاله ذلك منا نحن عباده على الأرض.

ولكن المؤمن الواثق من المانع هو على يقين أن كل ما قُدّر عليه خير من الله تعالى فيرضى به ويقنع لثقته برحمة وحب المولى عز وجل له، وهو بذلك يمنع نفسه من الشك والتحسر والندم، عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – "عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ"[١٣٤٨]، فالمنع والعطاء إذا وصلاً إلى مفهوم الإنسان وأحسن فهمها استحق بذلك رضا المولى عز وجل وحبه لأن الإنسان لابد أن يكون شاكراً في حالة العطاء وصابراً حامداً في حالة المنع .

ولأن بعض النعم لا تُنال إلا بالصبر إذا منعها الله على العباد وحرمها عليهم لتكون لهم حلال في الدار الآخرة، ولهذا نجد في منع الله تعالى لبعض النعم على البشر في الدنيا تأخيراً وادخاراً

[١٣٤٧] التوبة من ١٢٩.

[١٣٤٨] صحيح مسلم، ج ١٤، ص ٢٨٠.

لخير قد كتبه الله تعالى لهم في الآخرة كجزاء لهؤلاء على صبرهم وإيمانهم، قال تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ}[١٣٤٩]، فتأخير كل هذه النعم بمنعها عن المؤمن في الدنيا إنما هو تأخير خير وثواب ليكون سروراً وفرحاً له في آخرته، فالمفاجأة أروع من الواقع والانتظار يزيد الشوق واللهفة أكثر من سرعة حصولها، ووعد الله تعالى لعباده الصالحين بكل ذلك النعيم إنما هو عطاء مؤخر في الدنيا يمنعه عنهم فيها لأنه يستحيل الخلود في الدنيا فيكون هذا العطاء زائل، أما تأخير هذا العطاء لهم في الآخرة فليكون هذا النعيم دائم لهم لا يزول لأن في الآخرة حياة خلد في الجنة، كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا}[١٣٥٠]، بذلك منع الله زوال النعيم بمنعه في الدنيا الفانية، وأعطاه في الآخرة حيث الخلود فيه، وفي ذلك استشعار بل تيقن من رحمة وحب الله لعباده الصالحين حتى وإن منع عنهم التمتع بذلك النعيم إلى حين لقائه يوم القيامة، فمن الرائع أن تهدي من تحب أمام العالم بأسره ما يتمناه وما وعدته، وهذا لا يتحقق إلا بتأخير العطاء إلى يوم جامع للبشر أجمعين فتكون هدية الرحمن التي منعها عن عباده في الدنيا هي لهم أمام العالمين، وليتحسر من سيتحسر ويندم من يتندم ، لما سيلاقيه عباده المتقين من خير وتكريم، قال تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ

[١٣٤٩] الرحمن ٤٦ ـ ٥٨.

[١٣٥٠] النساء ٥٧.

أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آَيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ}[١٣٥١].

والمانع يأتي بمعنى الحماية والحفظ، فالخالق عز وجل هو المانع لحلول البلاء بحفظه وحمايته، فهو الذي يحفظك من وقوع هذا الشر عليك، وهو الذي يحميك من نفسك ومن غيرك إذا شاء، وهناك اعتقاد خاطئ في أذهان بعض الناس هو أن كل مكروه يصيب الإنسان هو من عامل خارجي بعيد عن الإنسان ولا دخل له فيه، بالرغم من أن الإنسان قد يكون له دور في أغلب الأحيان، ليعود الضرر على النفس من جرّاء ما استحقه، قال تعالى: {أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١٣٥٢]، فمنع الخير في هذه الحالة استحقها هذا الإنسان بما ارتكبه وليس ابتلاءً من الله أو امتحان له كما يحدث في أحوال أخرى لمنع الله تعالى.

والله تعالى المانع بمعنى أنه يمنع عنك البلاء ويدفعه بقدرته وإرادته إذا كان في ذلك خير لك في دينك ودنياك، ولكنك قد لا تدرك ذلك الخير في حينه بعلمك المحدود وقدرتك على الفهم، فهو الحافظ لك من وسوسات الشيطان الرجيم إذا أحسنت اللجوء إليه وأخلصت له في الطاعة ، قال تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}[١٣٥٣]، فمن الآية السابقة نستخلص أن حماية الله لنا ومنعه الشر عنا يقابله الإخلاص في الطاعة ومنع النفس من إتباع الأهواء، لأن الإخلاص في العبادة تمنع أي مفسدة أو ضلالة أن تصيب الإنسان بفضل مشيئة وقدرة

[١٣٥١] آل عمران ١٠٦ . ١٠٨.

[١٣٥٢] آل عمران ١٦٥.

[١٣٥٣] ص ٧٥ . ٨٣.

الخالق المانع عز وجل، وهو أيضاً المانع والحافظ لك من شرور الفساد والرذائل التي قد تصيبك من بعض الناس من حولك، وذلك المنع لا يتم لك إلا إذا أطعته واتبعت ما أمر به فتكون بذلك قد فزت في الدنيا والآخرة بفضل حفظه ومنعه لك، قال سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ}[١٣٥٤].

وفي اسم الله المانع يتبادر إلى ذهنك فوراً أنه المانع عنك الشرور والأذى فتشعر بقربه الأمان والسكينة والقوة فيمنع عنك هذا الشعور الالتجاء لغيره لطلب المعونة والمساعدة في أمر تعسّر عليك، ولله المثل الأعلى، ففي قرب الابن من والدته حيث أنها مكمن الأمان والحنان بأنها مانعة عنه كل ما يخيفه وتبعد عنه كل أذى وتدافع عنه بحبها وحنانها، فالإنسان وهو طفلٌ رضيع يكون مكانه أروع وأدفأ مكان في الدنيا وهو حضن الأم، لا يفهم من هذه الدنيا إلا هذا الشعور الدافئ والآمن، ويكبر معه هذا الشعور مع والده حيث أنه بالنسبة له السور القوي الحامي له من الأذى والمانع له من لكل سوء قد يصيبه، بالتالي يكون في ضمة الوالدين لولدهما شعور يزيد لدى الابن بالأمان والود والترابط الروحي بمنعهما عنه كل مكروه وخطر، فيتحقق الشعور بالطمأنينة والأمان في نفس الابن، مما يعزز ثقته بمن حوله وبنفسه أولاً، فينشأ قوياً واثقاً ينتمي لنفسه ولمجتمعه لشعوره بأنه محاط بمن يحميه ويدعمه، وإذا كانت هذه صلة الإنسان بالإنسان فكيف ستكون صلة العبد بربه إذا استقام العبد واقترب من الخالق عز وجل.

فشعورنا بالأمان يكون مضاعفاً وبالحب يكون أطهر وأنقى، فلا يكون انتماؤنا لغيره جل جلاله، ولا نتجه إلا له في طلب العون والحماية والأمان، لأن السعادة الحقيقة لا تتوفر للإنسان ولا يحصل عليها إلا بقربه من الله، فقد يملك الإنسان المال والأبناء والنفوذ والسلطان لكن يبقى قلبه ممنوع ومحروم من السعادة التي سيجدها في سجدة لله أو دمعة استغفار في

[١٣٥٤] النور ٥١، ٥٢.

جوف الليل، قال تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا}[١٣٥٥].

فيقيننا نحن بنو الإنسان وإيماننا باسم الله المانع لابد أن يكون سبباً في زيادة الإيمان في قلوبنا وشعورنا بالاطمئنان فتسكن أرواحُنا لأن أمرنا بيده وحده فتهدأ النفس ولا تتحسر ولا تطمع، ولو أن المسلم وصل إلى هذا الإدراك لكان أشد سكان الأرض إنتاجاً وإبداعاً ورضا، إذ تتوفر لديه الصحة النفسية حيث أنه في سلام مع ذاته مما ينعكس على محيطه بالهدوء والاستقرار والأمان.

وهو المانع لعطائه أحياناً لابتلاء الإنسان واختبار صبره على هذا المنع، وهنا يختلف البشر في تَقَبّل هذا المنع، فمنهم الصابر ومنهم المتذمر، وطوبى لمن صبر لأن جزاء الله له سيكون كبيرا، وكيف لا أليس هو الكريم المطلق والمانع المطلق جل جلاله.

والمانع المطلق يجعلنا نلجأ إليه لأنه لا أحد يستطيع أن يمنع شيئاً نخافه أو أن يصيبنا مكروه إلا الله تعالى، وأعطانا لذلك وسائل عديدة وكثيرة نلجأ إليها مثل التقرب منه عز وجل بالصلاة والعمل الصالح لكي يمنع عنا الشرور ويحفظنا بحفظه تعالى.

ولكن كيف يكون حفظه تعالى.

بأن يكون المانع لكل سوء قد يصيبنا، وبالتالي فإن اسم الله المانع من شأنه أن يجعلنا نلتمس الطرق والوسائل التي تقربنا من الله تعالى فنحصل بذلك على الأجر والثواب في الآخرة، ففي اسمه المانع دافعٌ لنا للحصول على الثواب والحسنات التي تعطينا الجنة، بأن يجعل المانع حاضراً في ذهنه بأن يكون مداوماً على طاعته وحبه بالتسبيح والاستغفار، قال تعالى: {كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ}[١٣٥٦]، فيستشعر القرب والحماية والأمان في ظله جل جلاله، وخاصة أن الحياة أصبحت مخيفة لا توحي بالأمان والاستقرار كما نرى

[١٣٥٥] الإسراء ٥٧.

[١٣٥٦] الذاريات ١٧، ١٨.

بأم أعيننا ما يحدث لبعض البشر في بقاع مختلفة من الأرض كما حصل مؤخراً في إعصار (تسونامي)، فلحكمة لا يعلمها إلا المولى عز وجل قد حصره الله هناك ومنعه أن يصل لبقاع أخرى في الأرض، فلو تدبرنا في هذا المنع قد نستطيع أن نصل إلى مقدار حماية الخالق لنا وقدرته على منع الكوارث أن تحل بنا، فبحمد الله وشكره نمنع الكثير من المصائب والشرور، وهذا يجعلنا على يقين بأن الله هو المانع الذي أنعم علينا بالخير الكثير، وأن الله تعالى منع أن يجعل إنساناً معيناً قادراً على ضرر جميع الخلق أو يمنع عنهم ما يفيدهم وإلا لكانت مصيبة كبيرة بين العباد.

والمعطي يكون عطاؤه عام ولكل البشر، إذ أن المولى عز وجل أعطى ووهب الحياة لمن أرادها وأحبها واشتراها، قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ}[١٣٥٧]، وأعطاها أيضاً لمن زهد فيها، فأسعد بعض الناس بالغنى والقوة والجمال والسلطان، قال تعالى: {أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ}[١٣٥٨]، وبعض العباد مانعت عنهم بعض أو أغلب هذه النعم، وهذه السعادة وهذا الشقاء يحدده فهم الإنسان لجوهر هذا العطاء والمنع، لأنه قد يكون في باطن العطاء منع وفي باطن المنع عطاء، ولكن لا يصل لهذا المفهوم إلا من كان واثقاً أن أمره تعالى بالعطاء والمنع هو خيرٌ لمن آمن وأتقى، وهنا تأتي إلى الأذهان صبر سيدنا أيوب عليه الصلاة والسلام على مرضه، فهو بالرغم من إصابته بالمرض لسنوات عدة وتزايد الابتلاءات عليه إلا أنه كان واثقاً في ذلك الخير كله من الله إليه، وأنه لن يمنع وقوع الفرج أحد إذا أراد المانع عز وجل أن يمنع الكرب، بمثل هذا الإيمان وهذه الثقة كان مستحقاً لأن يكون من أولياء الله الصالحين ومن خلفائه على الأرض، ومع أن مفهوم المنع عند أغلب الناس يكون منبعه الكره والنفور، لا الحب والمنفعة، إلا أن منع الله تعالى لعبد من عباده يكون سببه حبه عز وجل له ورحمته به،

[١٣٥٧] هود ١٥.

[١٣٥٨] المؤمنون ٥٥، ٥٦.

ولا يصل لفهم ذلك الحب وتلك الرحمة إلا من عرف وآمن بالله ووثق بحكمته ورحمته ووده، ولا يمكن أن يرقى لهذا الفهم الصحيح للمنع إلا من نأى بنفسه عن النقائص والشرور، وأكبر دليل على ذلك منعه لأغلب رسله وأنبيائه من ما تشتهيه الأنفس فتضعف بأسبابه، فقد منع الخالق عز وجل عن بعضهم الغنى، أو الصحة أو السلطة والجاه أو غيرها من النعم العديدة، ذلك وهم أحب الخلق إليه وأقربهم منه، ليكون في هذا المنع عطاء لهم في الآخرة وخير وفير، ودروس يتعظ منها باقي المستخلفين لأن رسلنا هم القدوة لنا، فنسلك مسلكهم وننهج منهجهم في الحياة الدنيا.

وتتفاوت النفوس البشرية في قبول أو منع الحق، لأن الحق دائماً بحاجة لمن يدعو إليه ويدافع عنه كي لا يسود الباطل ويعم، وقبل رسالة محمد صلوات الله وسلامه عليه كان الأمر كلما زاد الفساد وانتشرت الرذائل في الأمم بعث الله تعالى رسولاً أو نبياً يدعو للحق ويُنفّر من الباطل، وفي كل أمة يكون منهم من هو مكذّب ومن هو مصدّق ومؤمن، وهذا التفاوت في تقبل الدعوة أو النفور منها يعبر عن امتناع النفس أو قبولها لهذه الدعوة، قال تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ}[١٣٥٩]، ففي الآية السابقة يشمل الله عز وجل جميع الأزمان والأماكن التي كان الباطل يسود فيها فيبعث الله بشيراً لمن اتبع الحق، ونذيراً لمن امتنع عن إتباعه، فلا يكون حجة لأي إنسان يوم القيامة عند الله في كفره وعصيانه وجهله، وقد كان في كل أمة سابقة عدد الممتنعين عن اتباع الحق أكثر منه من المؤمنين به، ذلك أنهم تركوا أنفسهم للشيطان يتبعون أوامره ويأخذونه ولياً لهم، فيقف بينهم وبين الحقيقة فيكونوا بذلك من الخاسرين، قال سبحانه وتعالى: {فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ

[١٣٥٩] فاطر ٢٤ . ٢٦.

وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ}[١٣٦٠]، وقد كان الرسول – صلى الله عليه وسلم – آخر رسول يبعثه الخالق لمنع سيادة الباطل ولإحقاق الحق على الأرض بعد أن زاد الكفر والجحود بين الناس، فكانت بعثته عليه الصلاة والسلام تُمَثّل رادعاً للباطل ومانعاً للفساد، لأنه لا يمكن أن يسود الحق مع الباطل في آن واحد، وقد استقبل أغلب الناس هذه الدعوة بالنفور والتكبر والكفر، حسب إقبال النفس البشرية أو صدّها للحق بغض النظر عن الشخص نفسه وصلته بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فلقد كفر به أول من كفر عمه أبو لهب في حين آمن به أول من آمن من هو بعيد الصلة به كبلال وسلمان الفارسي رضوان الله عليهم، وهكذا إلى أن عمَّ الإسلام المعمورة التي لا مستقبل لها إلا به، فلم تكن صلة الرحم والقربى مع النبي عليه السلام بمانعة عمه بالمجاهرة بكفره وفي محاربته له، قال تعالى: {تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ}[١٣٦١]، وبهذا الكفر والعناد والجهل استحق عم الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُمْنع عنه استغفار الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام له، أو حتى شفاعته يوم الحساب، مع أنها ستُعْطى لغيره من المسلمين، وكذلك زوجة سيدنا لوط فبالرغم من أنها زوجة النبي لوط لم يمنع ذلك عنها العذاب كباقي القرية الظالمة، قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ}[١٣٦٢].

واسم المانع في حق الله تعالى يتضمن عدة صفات وأسماء أخرى منها:

المانع هو العليم: فالله عز وجل بعلمه المطلق بأحوال البشر وما ينفعهم وما يضرهم فهو المانع والمعطي لهم حسب علمه المطلق بخلقه، فمن شاء منعه ومن شاء أعطاه ذلك لعلمه

[١٣٦٠] الأعراف ٣٠.

[١٣٦١] المسد ١ . ٥.

[١٣٦٢] العنكبوت ٣١، ٣٢.

بما فيه صالح البشر وخيرهم، ولقد منع الله تعالى جميع الخلق من معرفة الغيب، قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[١٣٦٣]، فهو بذلك وحده المعطي والمانع وذلك لعلمه ببواطن وسرائر الأمور، التي تخفى على الخلق، قال تعالى: {اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ}[١٣٦٤] ، وقال تعالى أيضاً: {إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}[١٣٦٥]، فتراه أحياناً يعطي بلا حدود لإنسان جاحد بنعمته لا يزيده عطاء الله تعالى إلا كفراً وعصياناً، فيتكبر ويطغى ويُفسد في الأرض، ونرى في أحيان أخرى ذلك المؤمن التقي قد نقص عليه رزقه وولده، ولهذا فقد يتساءل بعض الناس ما الغاية من ذلك.

قد يمنح الله تعالى الإنسان الجاحد بنعمه عز وجل لعله يستفيق من غيبوبة الجهل والعناد التي هو غارقٌ فيها فبعطائه يرحمه الله بنجاته من الضلال، فإذا لم يستفق وبقى على ما هو عليه كان عطاؤه ليزيد في غرقه وتفاخره ليأتي له العذاب بغتة بدون أن يشعر بقدومه، قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ

[١٣٦٣] الأنعام ٥٩.

[١٣٦٤] الرعد ٢٦.

[١٣٦٥] الإسراء ٣٠.

الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ}[١٣٦٦]، فمن شأن عطاء الله ونعمه أن يكونا سبيلي صحوة أو غفوة للإنسان، فإذا كان هذا الإنسان عاصياً شغلته هذه العطايا عن طاعة المعطي لها وأخذه التفاخر والتكبر بها بعيداً عن الشكر والحمد عليها، وتكون صحوة للإنسان المؤمن الشكور الذي لا يغيب عن ذهنه رحمة المعطي وقدرة المانع، فلا يتجبر ولا يتكبر بل يسعى بها في سبل الخير والمعروف، وتكون هذه العطايا بمثابة رابط قوي بين العبد وربه فهو الذي يعطي عز وجل والعبد يشكر ويطيع ويعطي من عطائه كما أراد الخالق، قال تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[١٣٦٧]، فيكونون بذلك مانعين لثلاثة أمور هي:

أ- للبخل في النفوس: لأن الإنسان خُلق وخُلق معه حب الشهوات، فكان العقل هو مركز التحكم وضبط النفس بما يجعلها مسيطرة على شهواتها، فلا تتغلب عليه ولا تقدر على التحكم فيه فتضله، ومن هذه الشهوات حب المال وكنزه، قال تعالى: {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}[١٣٦٨]، لكن يخرج من دائرة هذا الحب المانع للإنفاق والخير خليفة الله تعالى في الأرض، إذ أن هذا

[١٣٦٦] القصص ٧٦ . ٨٢.

[١٣٦٧] البقرة ٢٦١ . ٢٦٤.

[١٣٦٨] الفجر ٢٠.

المال لا يزيده إلا حباً للإنفاق والعطاء ولا يجعله إلا مانعاً للشح من التمكن في نفسه فيمنعها بذلك من طاعة أوامر الله والاستسلام لأوامر النفس التي قد تأمر على هواها فتصل بصاحبها إلى الخسران والضلال، كما نلاحظ في بعض الناس حبهم الغريب للمال، إذ أنهم يقدّمونه حتى على أنفسهم وأولادهم، أو أن تكون هذه النعمة مصدر إسرافٍ وبذخٍ دون فائدة سوى المباهاة والجهل بالنعمة، قال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا}[١٣٦٩]، وكما جاء في الآية الكريمة السابقة بأن المعطي هو الله لمن يشاء من عباده وبعد ذلك يأتي التفاوت بينهم في الاستفادة من ذلك، فيكونون مانعين للخير بمنعهم تنفيذ أوامر الله بالإنفاق والعطاء، أو مانعين للخير بالإسراف غير السليم في الاتجاه غير السليم، فالله يعطي ويمنع عباده بعلمه المطلق بهم، والإنسان الذي وصل إلى هذا الإيمان يرضى ويقنع بما قسمه المعطي له وبما منعه منه، فيحمده ويشكره ولا ييأس من كرمه جل جلاله، فالمانع والمعطي هو الله تعالى وحده ولا يملك ذلك إلا هو، فلو اجتمعت الأرض ومن عليها والسماء ومن فيها على أن توصل رزق إنسان منعه الله أو أن تمنع رزق إنسان أعطاه الله لما استطاعوا،لأن الخالق هو المهيمن والمسيطر والفعّال لكل شيء إذا أراد أن يتم عطاءه كان ذلك، وإذا منعه كان ذلك.

لذلك على خليفة الله أن لا يتملكه اليأس من انقطاع نعمة من نعم الله عليه من مالٍ أو ولدٍ أو صحة، بل لابد أن يكون على يقين إن في ذلك الخير كله والعطاء كله، وهو بذلك يمنع عنه بلاءً أعظم، لأن المانع دائماً رحيم حتى في منعه لأي نعمة من نعمه للإنسان التقي الصادق المطيع، فهو الكريم ولا حدود لكرمه وعطائه عز وجل.

ب- لانتشار الفقر بين المسلمين:

[١٣٦٩] الإسراء ٢٩ . ٣١.

إن الله عز وجل بصفتيه الخبير المطلق والعليم المطلق خلق أرزاق الناس متفاوتة، فليس كل البشر أغنياء ولا كلهم فقراء، بل لقد أعطى الله تعالى عطاء سخياً لبعض الناس، وأوسط العطاء للبعض الآخر وقدّره على بعضهم، ومن هنا كان لزاماً خلق نظام بينهم للوصول للتكامل الاجتماعي والعدالة والحق في المجتمع الإسلامي، فأمر الله المالكين للمال والميسورين الحال بالمساعدة والإنفاق على من هم بحاجة لذلك، قال تعالى: {وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[١٣٧٠]، كما وأن الله تعالى جعل من أركان الإسلام الزكاة وهي فرض على المسلمين كالصلاة والصوم لا يُعفى منها أي مسلم قادر على إخراجها، فالله تعالى مانع للفقر والحاجة بين المسلمين بفرضها عليهم، قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}[١٣٧١]، وقوله تعالى أيضاً: {لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا}[١٣٧٢]، فالخالق عز وجل جمع بين عباداته والزكاة لبيان ما لها من أهمية وقيمة في المجتمع المسلم ولما فيها من منع الحاجة، ورغبة الإسلام في تكوين شخصية المسلم على العزة والكرامة، فلا نصر ولا تقدم بنفوسٍ مكسورة يرهقها السعي وراء الحاجة.

ج – لقطع صلة الرحم:

[١٣٧٠] البقرة ٢٧١ . ٢٧٤.

[١٣٧١] البقرة ١١٠.

[١٣٧٢] النساء ١٦٢.

فقد وضّح الله تعالى وبيّن للمسلم أنه من أحق الناس بماله وعطائه عند حاجتهم هم رحمه، فبهذا الوصل المادي يمنع الله قطع صلة الرحم، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[١٣٧٣].

وعليه فالمَنْعُ إن حدث التدخلَ يكون حائلا بين الشيء المرغوب وبين راغبه أو بين الحاجة ومشبعاتها، ويكون ذلك في حق الخليفة بأن يحول بين المرء وبين الذي يضره، سواء في الدنيا أم في الآخرة، وبذلك على الخليفة أن يتبع قوله تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[١٣٧٤]، فالخليفة عليه أن يحول بين نفسه وبين الذي يضره، وذلك بأن يتقي مهاوي الردى فعليه بالتقوى، فعلى الخليفة أن يتقي الله ربه في السر والعلن، والتقوى تتمثل في المقامات الحسان والأفعال الحسان التي هي في مرضات الله والعباد ومنها:

أولا: إقامة الصلاة: قال تعالى: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا}[١٣٧٥]؛ لأن في إقامة الصلاة وفي ميقاتها تأتي النصرة الإلهية، وبهذا يأوي إلى السلطان النصير الذي لا يخذل من استند إليه، ففي إقامة الصلاة قربة لله، وبعدٌ عن الشيطان الذي جعل على عاتقه غواية من استطاع من بني آدم، فقد جاء في كتاب الله العزيز ما يبين من تهديدات الشيطان لغواية بني الإنسان، والبعد به عن الهداية، قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ

[١٣٧٣] البقرة ٢١٥.

[١٣٧٤] البقرة١٩٥.

[١٣٧٥] الإسراء٧٨-٨٠.

الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا}[١٣٧٦]. جهل عدوّ الله وجه الحق، وأخطأ سبيل الصواب، فكان المانعَ له من السجود، ومخالفة أمر ربه في ذلك بظنه أنه أشد من آدم أيدًا، وقوة، وفضلا لفضل الجنس الذي منه خُلِقَ، وهو النارُ، على الذي خلق منه آدم، وهو الطين، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}[١٣٧٧]، فكان إبليس أول مَنْ قاسَ القياسَ الخطأ، إذ كان معلومًا أن من جوهر النار الخفة والطيش والاضطراب وهو الذي حملَ الخبيث على الاستكبار عن السجود لآدم، والاستخفاف بأمر ربه، ونسي أن من جوهر الطين الرزانة والأناة والحلم والحياء والتثبُّت، ونسي الفضل الذي خص الله به آدم على سائر خلقه من حيث:

– خلقه إياه بيده.

– نفخ فيه من روحه.

– سجود الملائكة له.

. خلقه في أحسن تقويم.

. تميزه بالتفكر والتذكر والاتعاظ وتأنيب الضمير.

– وتعليمه أسماء كلِّ شيء، مع سائر ما خصه به من كرامته بما جعله أهلا للخلافة والولاية في الأرض بالحق.

[١٣٧٦] الإسراء٦٢.

[١٣٧٧] الأعراف١١ ،١٢.

وعودا على بدء، فالشيطان له طرق في غواية بني آدم التي يجب على الخليفة أخذ الحيطة والحذر منها، ومن هذه الطرق:

١ - استفزازه لهم بصوته: وهو الذي جاء في الآية الكريمة (وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ).

٢- جلبه عليهم بالخيل والرجل: وهو ما يؤكده قوله تعالى: (وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ).

٣- مشاركته لهم في الأموال والأولاد: قال تعالى: (وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ)، ورب سائل يقول: كيف يشارك الشيطان بني الإنسان في المال والولد. نقول له: نعم، أما المال وذلك بأن يغريهم بجعل المال الحرام حلالا وذلك بالطرق الممنوعة كالتعامل بالربا، وأكله أضعافا مضاعفة، والسرقة من المال العام والخاص، واليمين الغموس.إمَّا مشاركته الأولاد فهي مشاركة من خلال ارتكاب المحرمات بالزنا، فتختلط الدماء والعياذ بالله فلا يعرف الأخ أخته وهكذا هي لا تعرفه فيحدث الزواج وهو الحرام الأكبر الممنوع من المانع المطلق جل جلاله، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا}[١٣٧٨]، وقوله تعالى: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا}[١٣٧٩]. هذه جملة من الممنوعات حرمها الله تعالى وهي:

. حرمت عليكم أمهاتكم.

. حرمت عليكم بناتكم.

. حرمت عليكم أخواتكم.

[١٣٧٨] الإسراء ٣٢.

[١٣٧٩] النساء ٢٣ .

. حرمت عليكم عمَّاتكم.

. حرمت عليكم خالاتكم.

. حرمت عليكم بنات الأخ.

. حرمت عليكم بنات الأخت.

. حرمت عليكم أمهاتكم اللاتي أرضعنكم.

. حرمت عليكم أخواتكم من الرضاعة.

. حرمت عليكم أمهات نساءكم.

. حرمت عليكم ۠رَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ.

. حرمت عليكم حَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ.

. حرم عليكم وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ.

هذه المحرمات يمنع منها الزواج مطلقا، ومن تعدى ذلك فقد تعدى حدود الله ويوصف من لا يقف عند حدود المحرم بالمنع المطلق بالزاني والزانية. ولذا فالزنا فاحشة وساء سبيلا وبذلك فهو الممنوع بالمطلق، والزنا يتعدد:

أ . الاغتصاب حتى وإن كان من الحلائل كأن يرغم زوجته وهي بأسباب موضوعية غير راغبة وغير قادرة.

ب . زنا المحرمات حتى وإن كان الرضاء بينهما في حالة من التبادل إنه فاحشة وساء سبيلا.

ج . ما ليس معنون بعقد قران.

قال تعالى: (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا)، فالشيطان يأتي بطرق الغواية بأن يجعل الممنوع مرغوب فيه كما حدث مع سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام وزوجه عندما أخرجهما من الجنة الخلد، فوجدا نفسيهما على الأرض بعدما خالفا التحذيرات الربانية، وبسبب غواية الشيطان عليه لعنة الله، قال تعالى في كتابه العزيز ذاكرا في ذكر قصة سيدنا

آدم وزوجته ما حدث بينها، كيف أن إبليس لعنه الله أقسم لهما أنه كان بارا بهم وأنه يودهم كل خير: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أنظرتي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآَتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآَتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ}[١٣٨٠].

٤- ومن طرقه الوسوسة عليه لعنة الله: وذلك بأن يكثر من التزيين للإنسان من أعمال الشر بأن تلك الأعمال من صنوف الخير كما جاء في قوله تعالى في الآية السابقة: (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآَتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ).

٥- ومن طرقه الغرور بالإنسان: قال تعالى: (فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ)، والغرور بتزيين طرق الشر لبني آدم، وتعتيم الطريق الصحيح، فيرى الخطأ صوابا، وكثيرا من الناس من يقع في محاذير كان في غنى عنها، ثم يجد نفسه في غير ما كان يظن، وهذا هو عين الغرور، فالله تعالى يوجه قوله الكريم لبني الإنسان حتى لا يقع في مواقع الغرور وخاصة بعد أن أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، قال تعالى فيهم: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي

[١٣٨٠] الأعراف١٢-٢٢.

بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا}[١٣٨١]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}[١٣٨٢].

٦- الإتيان عن اليمين وعن الشمال ومن أمامهم ومن خلفهم، وخاصة أثناء الصلاة، قال تعالى: (قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ).

٧- ومن طرقه الأماني والوعود الكاذبة: قال تعالى: {إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا}[١٣٨٣].

٨-ومن طرق إضلال الناس عن طريق الهداية: وكما جاء في الآيات السابقة، قال تعالى: (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ).

وكل الطرق السابقة التي جاء ذكرها من طرق الغواية الشيطانية هي مانعة للخير ومؤدية للمحرمات والشرور والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وفي مقابل ذلك دون مقارنة أعمال الخليفة المتمركزة على الإصلاح والفلاح والعمار وقول الحق والعمل على إحقاقه. ولهذا فالمانع العظيم هو الحافظ لنا من كل وسوسة وانحراف، فجعل المانع جل جلاله لنا من نعمه علينا حماية إلهية تمنع الشيطان من أن يصل للإنسان بسهوله ويسر، من ذلك قوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا}[١٣٨٤]، فبمجرد ما يذكر الإنسان ربه يجد نفسه

[١٣٨١] الأنعام١١٢ ،١١٣.

[١٣٨٢] الانفطار٦-١٢.

[١٣٨٣] النساء١١٧-١٢١.

[١٣٨٤] الإسراء٦٢.

قد خرج من الضلالة إلى الهدى ومن طرق حفظ رب العالمين لمستخلفيه من شياطين الإنس والجن الذين قال تعالى فيهم: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ}[١٣٨٥]، فيكون رد الخليفة ممتثلا في قوله تعالى: {أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ}[١٣٨٦]، ومن طرق الحفظ الرباني لمستخلفيه: جعله الحفظة الكرام الكاتبين: قال تعالى: (كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ). وقوله تعالى: {إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ}[١٣٨٧].

ثانيا: إيتاء الزكاة: وتطبيقا لأمره قال تعالى: {وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[١٣٨٨].

[١٣٨٥] الأنعام١١٢ ،١١٣.

[١٣٨٦] الأنعام١١٤-١١٦.

[١٣٨٧] الطارق٤.

[١٣٨٨] البقرة٢٧٠-٢٧٤.

ثالثا: الصوم: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[١٣٨٩].

رابعا: الحج: قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آَيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آَمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ}[١٣٩٠].

خامسا: أن يتقي الشبهات: وذلك بأن يبتعد عن الأماكن المشبوه، أو الخطوات التي تقرب الإنسان من مواقع التهلكة، وهو يظن أنه بعيد عن المهالك، قال تعالى: {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[١٣٩١].

سادسا: جهاد النفس: قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آَوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ

[١٣٨٩] البقرة١٨٣–١٨٥.

[١٣٩٠] آل عمران٩٦–٩٨.

[١٣٩١] البقرة١٩٥.

الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٣٩٢].

والمانعُ هو العاصمُ وشَهادةَ أن لا إلهَ إلا اللهُ، عِصْمة المؤمن فالخليفة بقوله الشهادة يَعْصِمُه المانع من المَهالِك في الدنيا ويوم القيامة؛ ولأنه هو صاحب العصْمَة والمَنَعة فلا يجوز الاعْتِصامُ والمْتِساكُ بغيره من الخلق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}[١٣٩٣].

وتكون العصمة والمنعة بأنْ يحُولَ المانع جل جلاله بينَ الرَّجُلِ وبَيْنَ الشَّيءِ الّذي يُرِيدُه، قال تعالى: {وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ}[١٣٩٤]، ومن صور ذلك:

١ . قد يرى الإنسان أن شيئا مَا لَه فيه خير، والله يعصمه منه، من ذلك كراهية بعض المؤمنين القتال رجاء منهم في الربح الدنيوي، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[١٣٩٥].

٢ . كراهية الخليفة بعض التصرفات في المرأة، ويعاشرها بما تعارفت عليه الناس، فربما يكون الخير فيما كره البشر حيث لا يعلمون العلم الكامل؛ والله وحده علام الغيوب، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آَتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا}[١٣٩٦].

[١٣٩٢] الأنفال٧٢-٧٥.

[١٣٩٣] المائدة٦٧.

[١٣٩٤] سبأ٥٣ ، ٥٤.

[١٣٩٥] البقرة٢١٦.

[١٣٩٦] النساء١٩.

٣ . ومن ذلك كراهية خروج المهاجرين من ديارهم التي عاشوا فيها وأمضوا فيها سني شبابهم، وصرفوا فيها جهدهم وأموالهم، ويرجع ذلك إلى عدم علمهم بما ينتظرهم من الخير، فيأتيهم النداء الرباني بقوله تعالى: {كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[١٣٩٧]، كان المؤمنون يرون أن القافلة أسلم وأفيد لهم من الدخول في صراع مع الكفار، ولكن الله المانع هو الذي يعلم ما ينتظرهم من الخير، وذلك بأن يجعل كلمة الحق تنتشر بأيديهم التي خير مما كانوا ينتظرونه من الدراهم من تلك القافلة، وهذا الذي يجب أن يكون عليه الخليفة من النظر البعيد للأشياء، والمسائل لا تؤخذ بصورة سطحية قريبة بل بدراسة عميقة بعيدة تبحث في أغوار المستقبل الذي ينتظر أجياله الطموحة وليلحق بهم ركب الحضارة وليبن بهم الدين القويم المبني على العزة والرفعة دون حاجة إلى غيرهم من الأمم، وبما يقدمونه من العلوم النافعة، والذي يكون نتيجته البناء الصحيح السليم.

والمنعة تكون بالحِمَايَةِ الربانية لخلفائه من الأعداء، وما يلحق بهم من العذاب قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ وَأَخَذَ

[١٣٩٧] الأنفال٥-٨.

الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ}[١٣٩٨].

وقد يُرادُ بالمنع العكس أي يكون بعكس ما أمر به الله تعالى، من ذلك ما يأتي بعكس ما أمر الله به وهو:

١- منع الماعون: ما جاء في سورة الماعون قال تعالى: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ}[١٣٩٩]. في هذه الآيات الكريمة يوضح الله جل وعلا صور المنع البغيضة التي لا يرضى المانع الجليل أن تكون سيرةً ونهجا للخليفة في أرضه والتي يجب أن يكون على حذر منها، وهي:

٢ - التكذيب بالدين: ورأس التكذيب الكفر بهذا الدين القويم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهل كان الكفر إلا نتاج الحسد لخلفائه في أرضه، أو كان جهلا بسبب التبعية العمياء، أو بسبب ما زخرفه لهم الشيطان من الأكاذيب والترهات؛ إيفاءً بوعده الذي لا يبطل عن فعله إلى يوم الدين.

٣ - إهمال اليتيم: وتضييع حقوقه، وسوء معاملته، فالخليفة هو الذي يراعي حقوق الضعفاء والمساكين واليتامى، حتى إذا ما بلغوا فيدفع لهم حقوقهم ومع ما يلزم من التوجيه والإرشاد، قال تعالى: {وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا

[١٣٩٨] هود ٦١-٦٨.

[١٣٩٩] هود ٦١-٦٨.

بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آَنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا}[١٤٠٠].

٤ – ترك إطعام المسكين: أولئك الذين قال فيهم جل جلاله: {إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}[١٤٠١]، وقال جل جلاله: {كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ}[١٤٠٢]، فالخليفة من واجبه أن يهتم بمستخلفيه الضعفاء ويرفع من هممهم ويحثهم على العمل ليرفعوا بأنفسهم وبالتالي يكون نهضة للمجتمع ونصرة للدين الحنيف.

٥ – منع الماعون: ويراد به تقديم العون لمستحقيه، وذلك:

– يكون باختيار الوقت المناسب له.

– حسب حاجة صاحبه دون زيادة أو تفريط؛ لتصل بذلك الفائدة إلى أكبر عدد ممكن من المستحقين.

– أن يكون عن حسن وطيب خاطر منه فلا فائدة لمن يتصدق ابتغاء الرياء والسمعة ولمجرد القيل والقال، والذي يؤدي بصاحبه للخروج من دواعي الخلافة الحقة فيجد نفسه في أماكن الزيف والخسران، والعياذ بالله.

٦ – منع الخير: قال تعالى جل جلاله في ذلك: {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ

[١٤٠٠] النساء٢-٦.

[١٤٠١] الحاقة٣٣ ،٣٤.

[١٤٠٢] الفجر١٧ ،١٨.

حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ}[١٤٠٣]. ومنع الخير له صور منها:

١- الاعتداء على غيره من الناس: وقد نهى المانع عز وجل عن كل أنواع الاعتداء، وذلك في مواضع كثيرة من كتابه العزيز والتي بين فيها وجوه الاعتداء:

أ- منع الاعتداء على الأرزاق بأكل الحرام، ويكون ذلك بالتقوى والابتعاد عن كل ما هو محرَّم، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ}[١٤٠٤].

ب- منع الإفساد في الأرض بعد إصلاحها: وذلك بالتوجه إلى الله تعالى بالدعاء حتى يلهمهم الله تعالى إلى الصواب وحسن الختام، قال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[١٤٠٥]،

ج- منع الإسراف في القتل: وذلك لمن يتخذ الأعذار في دار الحرب بأن الحرب جائز فيها كل شيء، فليكن الخليفة منتبها لكل ما هو مخل لقوانين الحرب، قال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ}[١٤٠٦]، وليكن قصاصه على قدر القتل والجرح على قدر الجرح، ويكون الحر بالحر والعبد بالعبد، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[١٤٠٧].

[١٤٠٣] ق٢٥-٣٥.

[١٤٠٤] المائدة٨٧ ،٨٨.

[١٤٠٥] الأعراف٥٥ ،٥٦.

[١٤٠٦] البقرة١٩٠.

[١٤٠٧] البقرة١٧٨ ،١٧٩.

٢- زرع الريب والشك في قلوب الناس: و المريب: هو ذو ريب وشك في الدنيا والآخرة، ولا يعطي الزكاة لأنه في ريب من ثواب الآخرة، والمريب هو الذي يوقع غيره في الريب بإلقاء الشبهة.

٣- الشرك: فيمنع نفسه وغيره من الخير الذي يكون بسبب الإيمان، ويلقي بنفسه وغيره بسبب الكفر في الهلاك مع ما جاءهم من النذر، قال تعالى: (الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ)، أما الخليفة الذي يرجى خيره وهو بطبيعة الحال هو أهل لذلك فإنه يأمر بكل ما يقرب للخير ويحث عليه، فهو يبحث عن المروءة ويعمل لها ومن أجلها، فيكون جزاؤه كما قال تعالى: (وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ).

٤ - منع النميمة والزنا: قال تعالى: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ}[١٤٠٨].

٥ - منع الجزع والبخل: قال تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ}[١٤٠٩]، أوجد الله

[١٤٠٨] القلم١٠-١٥.

[١٤٠٩] المعارج١٩-٣٥.

المانع جل جلاله الجزع والهلع والمنع ولكن ذلك ليس من صفات المؤمنين الخلفاء؛ لأنه جل جلاله بيَّن لهم العلاج قبل أن يقعوا في الجزع والهلع، والعلاج يتمثل في:

١- إدامة الصلاة: قال تعالى: (إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ).

٢- التصدق بالمال بالزكاة المفروضة: قال تعالى: (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ).

٣- الإيمان باليوم الآخر: قال تعالى: (وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ).

٤- الإيمان بالجنة والنار: قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ).

٥- الابتعاد عن الزنا: قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ).

٦- حفظ الأمانة والعهد: قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ).

٧- إقامة الشهادة لله: قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ).

٨- إقامة الصلاة والمحافظة عليها: قال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ).

ومن أوفى بهذه الشروط فإن الله جل جلاله يحرم عليه النار قال تعالى: (أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ).

من مظاهر منعه:

١ . منع الكفار من أن يصلوا المؤمنين وهم المانعون بالإضافة: المانعُ جلَّ ذِكْرُه هُو الّذِي يَمْنَعُ مِنِ اسْتَحقَّ المَنْعَ، فيحُوطُ المؤمنين الخلفاء في أرضه ويَنْصُرُهُمْ، ومن أمثلة ذلك:

أ- ما حدث مع المسلمين يوم بدر، فقد نصرهم، وهم قلة، وذلك:

- بأن كثرهم في أعين عدوهم، وقلل عدوهم في أعينهم، قال تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ

الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[١٤١٠].

. قتال الملائكة معهم: قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آَمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ}[١٤١١].

ب- نصره لطالوت على جالوت: قال تعالى: {وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ

[١٤١٠] الأنفال ٤١-٤٥.

[١٤١١] الأنفال ٧-١٦.

لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آَيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آَلُ مُوسَى وَآَلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}[١٤١٢]، فمن دواعي نصرته تعالى لنبيه طالوت:

. زاده بسطة في الجسم والمال: قال تعالى: (وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)، وذلك بعد أن احتج قومه بأنه لا يملك المال أو الجسم.

. زاده بسطة في العلم: قال تعالى: (وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)، وذلك ليكمل فيه شروط الولاية والخلافة في الأرض، ومن ذلك يمكن أن نستنتج أن للولاية والخلافة شروط يجب توافرها في كل من يريد أن يكون خليفة وواليا في الأرض منها:

أ . أن يكون قدوة حسنة في المهارة والمسلك.

ب . أن يكون مصلحا في الأرض لا مفسدا فيها أو سافك للدماء بغير حق.

ج . أن يكون مؤمنا بالله واحد احد لا شريك له.

د . أن يكون مؤمنا بالله ورسله وكتبه وحسابه وعقابه ويوم بعثه والجنة والنار.

[١٤١٢] البقرة٢٤٧-٢٥١.

هـ أن يكون تقيا في أقواله وأفعاله.

و . أن يكون مُقدِما على ما يجب الإقدام عليه، ومنتهيا عما يجب الانتهاء عنه.

ر . أن يكون قويا قادرا على حمْل الأعباء مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}[١٤١٣].

ز . أن تكون نفسه مطمئنة.

ع . أن يكون غني النفس عدل يحق الحق ويزهق الباطل.

غ . أن يكون صادقا في النية والقول والفعل والسلوك والعمل.

٣- الصبر على مواجهة العدو: قال تعالى: (قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ).

٤- الثبات في القتال: قال تعالى: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

٥-النصرة الربانية: تلك التي تجعل المؤمن يثبت ويصبر أمام عدو الله، وهذا الذي يجب على الخليفة أن يدعو به عند المواجهة أيا كان نوعها كما جاء في الآيات السابقة، قال تعالى: (رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا

[١٤١٣] الأحزاب ٧٢، ٧٣.

إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ}[١٤١٤]، ننظر من هذه الآيات العناية الربانية التي لم تأت صدفة بل بعد أن تقلب فؤاد النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام زمنا وهو يفكر في من أوجد هذا الكون العجيب، الضخم المتنوع الذي لا يختلف فيه شيء مع شيء، بل يسير كل شيء فيه بنظام، وفي غاية الدقة فهو جل جلاله هو الذي منع أن تصدم الخلية بالخلية كما منع أن تصدم الكواكب ببعضها، وسيدنا إبراهيم انبهر بهذا التنظيم، فظل يفكر ليل نهار، فمرة يظن الشمس حتى إذا خانته، ظن في القمر، وينتقل إلى النجوم، ومن ثم انتقل إلى ربه الذي لا يخون ولا يترك من لجأ إليه، فيمنعه من أن يضل في الأرض تائها حيران تستهويه الشياطين، قال تعالى: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[١٤١٥]، وسلَّم سيدنا إبراهيم نفسه لربه، فسَلِمَ من أن يشقى في الدارين، وألهمه ربه رشده بعد أن كان حائرا، قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ)، فقام بواجبه عندما علم بمنعة ربه له، وعاش في صراع مع قومه الذين عاشوا دهرا مع الأصنام، وبدأ بأبيه الذي كان يشتغل بصناعتها، وكان حواره معهم على علم رباني وهبه إياه ربه، قال تعالى: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ قَالُوا وَجَدْنَا

[١٤١٤] الأنبياء٥١–٧٠.

[١٤١٥] الأنعام٧١.

آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ)، ولكن ضلوا في عنادهم ومكابرتهم له، وأراد أن يضعهم في واقع الحق وأن يريهم ما هم فيه من الباطل، وخاصة أنه يعلم أن ربه لا يتركه بل ينصره نصرا عزيزا لا طاقة لهم به لرده، قال تعالى: (وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)، ومع ذلك أرادوا أن يثبتوا له أنهم على حق وأن أصنامهم سوف تنتصر نفسها، ظنا منهم أنها قادرة على حمايتهم من طوارق الزمن ومن كل الفتن، فإذا بها لا تدفع عن نفسها نفعا أو ضرا، فكيف بها تدافع عنهم، وعندما رأوا أنها لا تفعل ما كانوا يظنون بها أنها ستفعله، ورأوا أنفسهم قد صاروا مكان السخرية بتبعيتهم لمن لا ينفع نفسه فكيف يكون نافعا لغيره، ووجدوا أنفسهم سخرية أمام الأمم الأخرى، وزين لهم الشيطان عملهم، وأرادوا بعد أن يظهروا أمام الأمم الأخرى أنهم على حق، وأنهم قادرون على نصرة آلهتهم متى شاءوا، وليس لآلهتهم ذلك، وقرروا أن يحرقوه بالنار، قال تعالى: (قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ)، وجمعوا ما قدروا على جمعه من الحطب ولأيام متوالية حتى يبقى آية وعبرة لغيره إذا أراد أحد أن يقترب منها، وجمعوا بعضهم، ووضعوا قيودا محكمة غاية في الشدة والقسوة حتى لا يتمكن من الهرب أو الفرار، وهذا التشديد يدل على شيء خفي يكمن داخلهم، ولكن لا يريدون البوح به لبعضهم خوفا من أن يضيع ملكهم الذي كسبوه بهذا الطريق المضل، فكيف إذا انكشف، فإنه سيجعل غيرهم يصعد في مكانهم، ورموه في قلب النار، وهم على يقين أن النار ستأكله، وهنا تدخلت العناية المانعة من أن يكون

غير ما أراد المانع جل جلاله أن يكون، قال تعالى: (قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ)، وخرج إبراهيم عليه الصلاة والسلام من النار فلا هو محروق ولا هو في حالة من البرد بل خرج سالما كأن لم يدخلها، وأهلكت الإرادة الإلهية أحلامهم وخسروا خسرانا مبينا، وكان ذلك بسبب المنعة التي أحاط الله بها نبيه، والتي يجب على الخليفة أن يكون مانعا بتقوى الله؛ لأنه المانع بالإضافة الذي يجب عليه أن يكون:

١- جادا في الدعوة لله.

٢- عاملا عليها ليل نهار دون رهبة أو خوف.

٣- أن يكون على يقين بأن الله ينصره، وهذا ما حدث مع سيدنا إبراهيم عندما جاءه ملك من السماء سائلا إبراهيم النصرة فكان الرد: إن كان منك فلا، وإن الله يعلم ما أنا فيه فإذا كان يريد بي ذلك فلا تستطيع أنت ولا غيرك أن يمنعه، فذهب الملك من حيث أتى، فهذا خير مثال لمن أراد أن يستند على ربه ويكون خليفة ناجحا في الدنيا والآخرة.

ولأنه المانع منع أهل الولاية من أن يصل إليهم أحد مادام الله أراد لهم الولاية؛ أنه جل في علاه هو الذي يجعل الخلافة والولاية في يد من يستحق، قال تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}[١٤١٦].

ومنعه للأرض من النيازك والشهب أن تدمرها؛ وهذه من الأشياء التي ظهرت وأكدتها العلوم الحديثة، فقد وجدوا أن لكل كوكب جاذبية، وتزداد قوة جاذبية الكوكب بزيادة حجمه، ووجدوا أن الكوكب المسمى بالمشتري، وكوكب نبتون، وكوكب بلوتو، من أكبر كواكب المجموعة الشمسية، فكوكب المشتري يزيد حجمه عن كوكب الأرض ثلاثمائة مرة، يعني بذلك أن قوة جاذبية هذا الكوكب تزيد عن كوكب الأرض ثلاثمائة مرة، وقد وجد العلماء في مدار كوكب

[١٤١٦] آل عمران٢٦ ،٢٧.

المشتري أجزاء لنيازك وشهب متناثرة، وآخرها ما كان يتوقع العلماء اصطدامه بالأرض وفجأة تغير مساره إلى كوكب المشتري ليصطدم بأحد أقماره الستة عشر، وهذا يدل دلالة واضحة على أن هذه الكواكب الضخمة كانت موجودة لحراسة كوكب الأرض بمنع أن تصطدم النيازك به، ولذلك نرى المانع جل جلاله يقسم بما وضعه فيها من مواضع ومواقع، قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ}[١٤١٧].

منعه للمؤمن من المعاصي ومن ذلك:

١ . منعه لخليفته يوسف عليه الصلاة والسلام من أن يغويه الشيطان. قال تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ}[١٤١٨].

٢ . منع المؤمن من ذهاب عقله: وذلك بمنع الخمر عنه، ولما كان سبحانه رحيما كريما عالما بأحوال عباده جعل تحريمه للخمر بالتدرج فيه لحكمة يعلمها والظاهر منها أنه رأفة بعبادة ورحمة لهم من عنده، وأنهم ليسوا بقادرين على التوقف فجأة عن التعامل معه، ولذلك جاء توضيح ما لهذا الشراب من أثر بالغ على العقل وأنه مهما رأوا فيه من المنافع فإن ذلك كله لا يساوي الإثم الذي يلحق منه فقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ}[١٤١٩]، واقترن الإنفاق بآية الخمر رجاء أن يكون ذلك في الوجه الذي ينفعهم وليس فيما يضرهم، من ثم جاءت آية الاجتناب عن الشراب بعد أن جاءت آية توضح لهم ما فيه من الآثام، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ

[١٤١٧] الواقعة٧٥.

[١٤١٨] يوسف٢٣ ،٢٤.

[١٤١٩] البقرة٢١٩.

رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [١٤٢٠]، ومن ثم جاءت الآية صريحة وصحيحة بالانتهاء عن التعامل به ومعه، قال تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} [١٤٢١]. فالمانع بالإضافة هو الذي يعرف كيف يمنع مستخلفيه من أن ينفروا عن أوامره ونواهيه تعالى والتي بلا شك هي في صالح عباد الرحمن، فلا يشرط مالا يقدر عليه المستخلف؛ لأن ذلك يؤدي إلى الفرار والعصيان والبعد عن فهم الحقيقة، فالقاعدة تقول: (إذا أردت أن تطاع فأمر بما هو مستطاع)، فلولا هذا التدرج الذي رأيناه في منع الخمر ما استطاع تنفيذه إلا القليل، ومن ثم تكون من المشقة الاستجابة لأمره تعالى، والحمد لله رب العالمين.

٣ . منع المؤمن من السرقة: قد وعد الذين يقومون بسرقة ما يمتلك بعض الناس من ثروة وأموال، ويقومون بأعمال باطلة ليست من حقهم، فإن الله تعالى قد وعدهم بالعذاب في الدنيا والآخرة أما في الدنيا فقال: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [١٤٢٢].

٤ . منع المؤمن من الحرابة: قال تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ

[١٤٢٠] المائدة٩٠.

[١٤٢١] المائدة٩١–٩٣.

[١٤٢٢] المائدة٣٨–٤٠.

لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[١٤٢٣].

٥ . منع الخلفاء من الجهل بالتعلم من العلماء: وذلك لغاية الحفظ والسلامة، ومثال على ذلك مرافقة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام لسيدنا الخضر ليتعلم منه أمورا يجهلها في الحياة، والتي يمكن له أن يمتنع عن فعلها، ومنها:

أ . منع الملك من أخذ السفينة بخرقها: قال تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا}[١٤٢٤]، فكان الرد بتعليمه كيف يتعامل ما يحدث بالصبر والأناءة وأن كل شيء جاء لمنع حدوث أي شيء يضره وربما لا يكون واضحا في وقته وحينه بل بنظرة لما سيقع في المستقبل القريب أو البعيد، قال تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا}[١٤٢٥].

ب . منع عقوق الوالدين بقتل الغلام: {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا}[١٤٢٦]، فكان الرد أشد من الأول بأن

[١٤٢٣] المائدة٣٣-٣٥.

[١٤٢٤] الكهف٦٥-٧٣.

[١٤٢٥] الكهف٧٩.

[١٤٢٦] الكهف٧٤-٧٦.

الفرصة الأخيرة لعدم التزامه بقواعد التعلم المتفق عليها، وأن السبب كان لعلم غيبي لم يكن ليحصل عليه إلا برفقة ذلك الرجل الصالح، وأن المنع إلهي من المانع جل جلاله بما يضمن منع العقوق للأبوين المؤمنين بأن يكون التبديل على يد المستخلف الصالح لما ينتظر فساده بما يرجى خيره بإذن الله تعالى، قال تعالى: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا}[١٤٢٧].

ج . منع ضياع مال اليتيم بإقامة الجدار عليه من جديد: وذلك ليقاوم الفترة المتبقية من الزمن المتبقي على بلوغ الغلامين، {فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[١٤٢٨]، كان الرد حاسما هذه المرة بمنعه من استكمال الرحلة معه؛ لأنه لم يستطع الوفاء بما عاهد عليه من السير وفق قواعد الاتفاق المنصوص عليه في أول الرحلة، وهذا المنع الذي لم يستطع أن يعرف أساسه لما يحمل من أسس غيبية ليس له القدرة على تحملها، وما في طياته من منع ذهاب أموال الغلامين اليتيمين اللذين يرجى صلاحهما، قال تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}[١٤٢٩].

أولا: منع المؤمن بالتقوى: قال تعالى: {وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ}[١٤٣٠]، وقال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا

[١٤٢٧] الكهف٨٠ ،٨١.

[١٤٢٨] الكهف٧٧ ،٧٨.

[١٤٢٩] الكهف٨٢.

[١٤٣٠] البقرة١٩٧.

الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}[١٤٣١]، وقال تعالى: {إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[١٤٣٢]، وعلى الخليفة أن يكون تقيا وذلك بإتباع الآتي:

ثانيا: أن يكون حذرا من الشيطان، قال تعالى: (يَا بَنِي آَدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآَتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ).

ثالثا: أن يجعل التقوى لباسه أي ملازمة له كملازمة ثيابه لجسمه، وبذلك يكون متقيا من كل محذور أو ممنوع، امتثالا لقوله تعالى: (وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)، وقوله: (وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ).

رابعا: منع الشر عن الإنسان بالحفظة: قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}[١٤٣٣].

خامسا: منع المحرمات: منع المانع جل جلاله المحرمات من الفواحش ما ظهر منها وما بطن بلطفه اللطيف وبعلمه العليم وبقدرته القادر وبقهره القاهر فوق عباده، وما منع المانع جل في علاه ما نراه وما لا نراه إلا لحكمة يعلمها، قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ

[١٤٣١] المائدة٩١-٩٣.

[١٤٣٢] الفتح٢٦.

[١٤٣٣] الأنعام٦٠-٦٢.

بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّـهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[١٤٣٤]، على الخليفة المانع بالإضافة أن يعرف ما هو محرم وما هو حلال فمن المحرمات التي يكون التحريم فيها قطعيا مؤبدا هي:

١ . الإشراك بالله تعالى عن ذلك علوا كبيرا: قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا).

٢ . عقوق الوالدين: قال تعالى: (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا).

٣ . قتل الأولاد خشية الفقر: قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ).

٤ . الفواحش ما ظهر منها وما بطن: قال تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ).

٥ . قتل النفس بغير حق: قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ).

٦ . القرب من مال اليتيم وأكله: قال تعالى: (وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ).

٧ . التطفيف في الميزان: قال تعالى: (وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا).

٨ . الجور في الحكم بين الناس: قال تعالى: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى).

٩ . نقض العهد والمواثيق: قال تعالى: (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ).

١٠ . البعد عن الصراط المستقيم: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ).

ولكن ترك المحرمات التي ذكرت أو لم تذكر لا يعني أن نترك الطيبات من الرزق تحت داعي التقشف والرهبنة والتفريط في المنع تحت اسم المنع منه تعالى؛ ولذلك قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ

[١٤٣٤] الأنعام١٥١-١٥٣.

اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}[١٤٣٥].

١١ . منع السؤال عن الذات الإلهية. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ}[١٤٣٦].

١٢- منع النهرين الحلو والمالح بالبرزخ. قال تعالى:{مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ}[١٤٣٧]، وقال تعالى: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا}[١٤٣٨]، وهذا الذي يجب أن يكون عليه الخليفة من الحجز بين الحق والباطل، وتوضيح ذلك للناس حتى يهتدوا إلى طريق الحق وطريق الخلافة التي جعلها الله جل جلاله في عنق بني آدم؛ لأن الحق واضح ولكنه يحتاج إلى من يوضحه ويسهله للناس حتى يرونه سهلا، وعلى عكس ما يعمل الشيطان يكون عمل الخليفة في الأرض، فإذا كان الشيطان هدفه الغواية والضلالة والعياذ بالله فإن هدف الخليفة في الأرض هو الهداية، ولمثل ذلك فليكن نهج الخليفة.

١٣- منع عقوق الوالدين: قال تعالى: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا

[١٤٣٥] الأعراف ٣١-٣٣.

[١٤٣٦] المائدة ٩١-٩٣.

[١٤٣٧] الرحمن ١٩-٢٢.

[١٤٣٨] الفرقان ٥٢، ٥٣.

وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}[١٤٣٩].

١٤- منع التبذير: قال تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا}[١٤٤٠]، من واجبات الخليفة أن يمنع التبذير؛ لأن التبذير لا يكون نتاجه خيرا، لذلك عد من أعمال الشيطان فالمبذر يكون أخاه الشيطان بما يقعه من الفساد الذي نهى الله عنه، قال تعالى: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}[١٤٤١]، ومن أمور التبذير التي جاء النهي عنها:

أ – تبذير الأموال في غير الوجوه التي أمر الله أن تصرف فيها.

ب – تبذير المياه وإن كان الإنسان على ضفاف نهر.

ج – تضييع الوقت في غير مصلحة النفس أو المجتمع.

د – تضييع الجهد في غير وجه حق بما يخدم الأمة وينصر الدين.

هـ – تضييع الفكر في غير محله فعلى الخليفة أن يفكر فيما يبني مجتمعه وأمته ودينه، فيكون ناصرا معينا فيحصل له من الأجر والثواب ما يقربه إلى الله زلفى، قال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا}[١٤٤٢].

١٥- منع المؤمنين من الكفر بإرسال الرسل: فالرسل أرسلها المانع لتمنع الناس من الشرك الذي يؤدي بصاحبه إلى الهلاك وهو النار والعياذ بالله، وهذه الرسل كلها بعد التكذيب الذي أساسه ما يحرض به الشيطان بني الإنسان من الكفر والشقاق والذي يؤدي بصاحبه إلى الثبور

[١٤٣٩] الإسراء٢٣-٢٥.

[١٤٤٠] الإسراء٢٦ ،٢٧.

[١٤٤١] محمد٢٢.

[١٤٤٢] النساء١٢٤-١٢٦.

والهلاك، وكل الرسل الخلفاء جاءوا ليخوفوا الناس من هول يوم النشور، قال تعالى: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآَيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآَيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآَنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا}[١٤٤٣].

١٦- منع الفساد: قال تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[١٤٤٤]، في هذه الآيات الكريمة نداء واضح للخليفة لأن يمنع الفساد في الأرض بل يدعو الله وهو على خوف من عذابه، وعلى وجل رجاء في أن يكون شاكرا على ما أولاه من النعم التي لا تحصى، وليكن في معلومه أن رحمته قريبة من المحسنين، الذين يدعونه وقلوبهم وجلة، لعلمهم أن الله عز وجل هو الذي أكرمهم بما منعه عنهم من الشرور، فيكون عملهم خالصا لوجهه الكريم المانع، قال تعالى: {وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آَتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[١٤٤٥].

المانع على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: للمانع المطلق الذي بيده الأمر هو مالك الملك جل جلاله، يمنع الشرور والأضرار عن عباده الصالحين، حتى وإن ابتلاهم بما يجعلهم على اليقين ثابتين، إنه مانع الظلم والكفر والشرك على من خلقهم في أحسن تقويم، وهو مانع الفسق والزنا أي محرم كل ما من شأنه يلحق ضررا بالعباد، وهو مانع الفساد في الأرض ومانع سفك الدماء فيها بغير حق،

[١٤٤٣] الإسراء٥٩ ،٦٠.

[١٤٤٤] الأعراف٥٥ ،٥٦.

[١٤٤٥] المؤمنون٦٠-٦٢.

إنه العادل في ملكه والمهيمن على أمره ونهيه وهو العليم الحكيم الذي له الأسماء الحسنى التي يدعوه الخليفة بها في كل حين إنه ربي جل جلاله.

الوجه الثاني: الخليفة: قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ}[١٤٤٦].

الإنسان الذي كرمه الله بالإيمان هو خليفته في الأرض وهو الوارث في الجنة بما عمل في الأرض من أعمال حسان فثقلت بها موازينه حسنات حتى كان من المفلحين. قال تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٤٤٧]، وقال تعالى: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٤٤٨]، والمفلحون هم المصلحون في الأرض الذين لم يفسدوا فيها، ولم يظلموا أحدا، يتقون الله في كل كبيرة وصغيره وهم طائعون. قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ}[١٤٤٩].

[١٤٤٦] البقرة ٣٠ ـ ٣٧.

[١٤٤٧] الأعراف ، ٨.

[١٤٤٨] المؤمنون ١٠٢.

[١٤٤٩] القارعة ٦ ، ٧.

الوجه الثالث: المناع للخير: وهو المفسد في الأرض وسافك الدماء فيها بغير حق، وهؤلاء منهم شياطين الجن والإنس، مصداقا لقوله تعالى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ}[١٤٥٠]، هؤلاء هم المانعون للخير المعتدون على أصحاب الحق بغير حق، وهؤلاء هم الذين تملأهم الشكوك والظنون فيشركون الولد والصاحبة لمن هو واحد احد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له مثيل ولا شبيه ولم تكن له الصاحبة قال تعالى: {مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ}[١٤٥١]. وقال تعالى: {وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ}[١٤٥٢]. مانعوا الخير هم الذين يلقون آثاما، وهم الذين خفت موازينهم، ومن تخف موازينه فأمه هاوية مصداقا لقوله تعالى: {وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَظْلِمُونَ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}[١٤٥٣]، وقال تعالى: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ}[١٤٥٤]، وقال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ}[١٤٥٥].

وعليه، على خليفة الله تعالى أن يكون عليماً بما فيه خير نفسه ومن حوله، وأن يكون متيقناً من أن في منع الله تعالى لحاجة من حاجاته خير له فلا يقنط ولا ييأس من رحمته الواسعة

[١٤٥٠] الأنعام ١١٢، ١١٣.

[١٤٥١] ق ،٢٥ .

[١٤٥٢] القلم ، ١٠ ـ ١٢.

[١٤٥٣] الأعراف ٨ ـ ١١.

[١٤٥٤] المؤمنون ١٠٢ ، ١٠٣.

[١٤٥٥] القارعة ٨ ـ ١١.

وفضله غير المتناهي، حتى لا يمنع بذلك دخول الشك والتذمر نفسه فتمتنع بذلك عن سماع صوت الحق والهدى، ولكن خليفة الله تعالى في الأرض يعلم أن كل الأمر أوله وآخره منه تعالى، وهو لا يعطي ولا يمنع إلا عن علم وخبرة وهو مؤمن بقوله سبحانه وتعالى: {لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[١٤٥٦].

المانع هو الحفيظ:

ما دام الإنسان سائراً في طاعة الله وحبه فالله حافظٌ له، وحفظه تعالى مطلق إذ أنه يمنع عنه كل أذىً وشر، ومن كان في حفظ الحافظ جل جلاله من ذا الذي يستطيع أن يؤذيه أو يمنع عنه خيراً مقدّراً له.

إن في حفظ الله تعالى لعبده آمانٌ له في الدنيا والآخرة من شر نفسه وغيره، قال تعالى: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[١٤٥٧]، وفي حفظه رحمة للإنسان بمنعه مما يهلكه ويفسده، فإذا وصل الإنسان بحبه وطاعته وإيمانه إلى أن يكون في حفظ الله فسيكون الله بالتالي مانعاً له ممن يعاديه ويبغضه، فلا يتمكن منه أعداؤه ولا ينتصروا عليه.

ولا يمنح المولى عز وجل نعمة حفظه ومنعه إلا لمن استحق أن يكون خليفة في الأرض يسعى بالإصلاح ويدعو للخير ويمنع الفساد والرذائل أن تسود فيها، فلا يمسك رحمته تعالى عن هذا الإنسان شيء لأنه تعالى القادر والعليم بمن يستحق رحمته وحفظه ومنعه من بين خلقه جميعاً، لذلك نجد أن الأنبياء والمرسلين والصالحين هم دائماً في حفظ الله جل جلاله، فكم من أذىً وبلاء أصاب رسله وأنبياءه وكم من مكيدة دُبرت لهم لكنّ المانع حفظهم بحفظه، كما حدث مع سيدنا يوسف صلى الله عليه وسلم عندما كادت له زوجة العزيز فمنع عنه المولى شرها بحفظه له، كما جاء في قوله تعالى: {وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَلَقَدْ هَمَّتْ

[١٤٥٦] الشورى ١٢.

[١٤٥٧] يوسف من ٦٤.

بِـهِ وَهَـمَّ بِهَـا لَـوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَـانَ رَبِّـهِ كَـذَلِكَ لِنَصْـرِفَ عَنْـهُ السُّـوءَ وَالْفَحْشَـاءَ إِنَّـهُ مِـنْ عِبَادِنَـا الْمُخْلَصِينَ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}[١٤٥٨]، فالحفظ فيه نجاة للمؤمن ورحمة من جميع الشرور التي تؤدي إلى خسارة الإنسان في الدنيا والآخرة، ونحن نرى كثيراً من المواقف التي يقع فيها حفظ الله على عباده من مصائب وكوارث مختلفة، فيمنع أن تصيب من يشاء من عباده ولا يمنعها عن غيرهم.

وعلى خليفة الله أن يكون حافظاً لنفسه أولاً من الوقوع في المهالك والمعاصي بمنعها من اتباع الشهوات وشراء الحياة الدنيا بالآخرة فيكون من الخاسرين، وأن يمنع أذاه عن الناس بحفظ لسانه ويده عنهم. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ"[١٤٥٩].

وخليفة الله تعالى في الأرض عليه أن يحفظ الله في كل قول وفعل، فبذلك يكون مانعاً نفسه من الزلات والنقائص فمن حفظ الله لابد أن يحفظ الله ويمنع عنه كل أذى.

المانع هو الرحيم:

الله جل جلاله سبقت رحمته كل شيء، لذلك فقد كان في كل أمر من الله للإنسان رحمة وخير حتى وإن كان الظاهر له غير ذلك، ففي ضيق الرزق رحمة للإنسان من ذنب آخر أو اختبار له لصبره وثباته فيُثاب عليه، وأيضاً في اعتلال صحة الإنسان وإصابته بمرضٍ ما فتح باب

[١٤٥٨] يوسف ٢٣ . ٢٨.

[١٤٥٩] صحيح البخاري، ج١، ص١٥.

رحمته ومغفرته عز وجل لذنوب هذا الإنسان ومنحه الرضا والود، فالرحيم يحيط عباده بحفظه ورعايته، قال تعالى: {فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ}[١٤٦٠].

والمانع رحيم بعباده بعدة صور منها:

١- منع المرض بالصحة:

لقد أعطى الله تعالى للإنسان كثير من النعم، ومن ضمنها نعمة الصحة التي قد لا يملكها جميع البشر بنفس النسبة والقدر، فمن الناس من يتمتع بصحة تامة، ومنهم من يملك مقداراً أقل، ومنهم من هو عليل.

ولكن من رحمته بالمريض إعفائه من التكاليف الشرعية، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآَنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ}[١٤٦١]، فبالرغم من لزوم قيام العباد بالتكاليف الشرعية تدخل هنا رحمة الله تعالى لترفع هذه التكاليف عن المريض بذلك يكون الله تعالى مانعاً لتفاقم المرض أو طول مدة شفاءه، لذلك فقد كان منعه رحمةً للمريض.

٢- منع الجهل بالعلم:

بدأت الدعوة الإسلامية في بدايتها بالدعوة للعلم والمعرفة لكي يصل الإنسان إلى معرفة الحق والاقتناع بما هو صحيح وصائب، ولا وسيلة للهداية بغير العلم، ولا وسيلة لمنع الجهل والكفر والعصيان بغير العلم، وأول آية نزلت على الرسول – صلى الله عليه وسلم- من القرآن الكريم هي كلمة (اقرأ)، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ}[١٤٦٢]، وكما في الآية الكريمة وضّح الله تعالى أن

[١٤٦٠] يوسف ٦٤.

[١٤٦١] البقرة ١٨٥.

[١٤٦٢] العلق ١ . ٥.

القراءة الحق تكون مانعة للكفر والجحود بقيادتها للعقل البشري نحو الرقي في التأمل والتفكر فيما يدور حوله في الدار الدنيا، والعلم الحق المانع للجهل هو ما كان متجهاً نحو الله ومن الله وفي الله، فكم من عباقرة وعلماء وصلوا إلى درجات رفيعة من العلم في المجالات العلمية والأدبية، ولكن لم تمنعهم هذه الدرجات الرفيعة من الوقوع في الضلال والفساد والجهل، فخسروا آخرتهم بمنعهم علم الحق والهداية من الدخول إلى قلوبهم، لذلك فقد تعددت الآيات الكريمة التي تخاطب العقل البشري وتدعوه أن يكون مانعاً للجحود والكفر وداعياً للتأمل والإيمان بما حوله بعد التحليل والتفصيل فلا بد أن تكون النتيجة لصالح الإنسان في دينه ودنياه، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}[١٤٦٣]، ومن الآية السابقة يتضّح لنا ما يلي:

أ- أن في خلق الكون كله آيات للعقل مانعة للعقل البشري من السقوط في مستنقع الكفر والعصيان، بما فيه من إبداع ونعم.

ب- التأكيد على دور العقل البشري في منعه للجهل باعث للإنسان على الاهتمام به لينأى عن الفواحش والمفاسد إذا أحسن استعماله كما أراد خالقه عز وجل.

ج - صحيح أن العقول البشرية جميعها تفكر، ولكن هناك أنواع للتفكير فمنها تفكير إيجابي وتفكير سلبي، فالتفكير الإيجابي من قاد صاحبه إلى النور والهدى فيكون بذلك مانعاً للجهل

[١٤٦٣] الرعد ٢ . ٥.

بحقائق الأمور، أما التفكير السلبي فهو الذي يقود صاحبه إلى الظلمات والضلال فيكون بذلك مانعاً للعلم بحقائق الأمور.

وعلى خليفة الله تعالى أن يكون علمه حصنه المنيع ضد التخلف والجهل، فلا يمنع وصول الحقيقة لعقله وقلبه، بل عليه أن يتركهما طليقين في هذا الكون ينطلقان حيث الفائدة والرجاء، فيكون بذلك الخليفة مانعاً للجهل المؤدي للهلاك، الجهل بدينه وأمور دنياه فتختلط عليه السبل، من هنا كان على خليفة الله أن يكون مانعاً للانجراف وراء الخرافات والأوهام التي قد توقع في أحد أنواع الشرك والكفر، وأن يكون ذاكراً حافظاً لقول الله تعالى: {يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[١٤٦٤]، فإذا لزم الخليفة السعي وراء العلم النافع منع عنه الله الكثير من الأوهام والشرور التي تجر الإنسان إلى الضلال والهلاك.

وقد يتساءل البعض: كيف يكون خليفة الله بالإضافة مانعاً للجهل بعلمه.

أولاً: أن يكون كريماً في إفادته للآخرين مما يحمله من علمٍ ومعرفة، بنشره بقدر استطاعته بين المسلمين، فلا يسكت عن مفسدة أو خرافة قد تتفشى بينهم وقد تؤدي بهم إلى الجهل أو التخلف، لأن من شأن الخرافات أن تجر المجتمع وحتى المتعلمين منهم إلى الامتناع عن الالتجاء إلى الله أولاً، بل يكون لجوء هؤلاء الناس إلى بعض الدجالين والسحرة بحجة أنهم مانعي الضرر والخوف عنهم، فيكون دور خليفة الله تعالى في الأرض أن يمنع بعلمه تفشي هذه الظاهرة وغيرها بين الناس بدعوته للإصلاح ونشر ما لديه من حقائق وتوعية بين المسلمين لأجل إحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ثانياً: أن يساعد في تثبيت الدعائم الأساسية في تكوين شخصية الإنسان منذ الطفولة فيكبر على مفاهيم صحيحة ويضع لحياته المعايير والمقاييس التي يراها مناسبة للمضي في الحياة دون أن يكون عُرضة للفشل والضياع، فيكون دور الخليفة إذا كان معلماً إرساء هذه المعايير وتثبيتها، وإذا كان والداً خلق حب التفكير والإبداع في نفوس أبنائه، وغير ذلك من أدوار

[١٤٦٤] المجادلة ١١.

متباينـة فـي المجتمـع مـن الممكـن أن تمكّـن خليفـة الله فـي الأرض مـن منـع الضـعف والهـوان اللذين إن تمكنا من جيل بأكمله يعيقانه من الإنتاج والرقي والنجاح.

ثالثاً: أن يكون مانعاً لانتشار بعض الأمراض الاجتماعية من التفشي بين المسلمين كالنميمة والظن والسخرية، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}[١٤٦٥]، فمن شأن هذه الأمراض الاجتماعية أن تكون مانعة للثقة بين الناس والصدق والتواضع وهذا ما يمنع من سيادة المحبة والأخوة بين المسلمين، وذلك بدوره يكون مانعاً لهم من تكوين أمة أرادها الخالق أن تكون، أمة شعارها المحبة والتعاون والإخاء، لا ضغينة بين أبنائها ولا عداوة، فيصلوا بذلك لقول الرسول- صلى الله عليه وسلم- عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – "مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى"[١٤٦٦]، بهذه الرحمة والأخوة تكون الأمة المانعة للضعف والتخلف والشرور والضياع، وهذا يكون في رقاب عباد الله العلماء والمثقفين الذين يخترعون ويبدعون بعلمهم الوسائل المانعة لانتشار تلك الأمراض الفتاكة، فيكون خطابهم للعقول والأفئدة، مانعة إياها من التمادي في السقوط في مستنقع المفاسد، بتصحيح المسارات وتقويم النفوس ومخاطبة العقول بالشكل والوقت الملائمين.

٣- منع الشهوات بنضوج العقل:

[١٤٦٥] الحجرات ١١، ١٢.

[١٤٦٦] صحيح مسلم، ج ١٢، ص٤٦٨.

خلق الله تعالى الإنسان وأسكنه الأرض التي تمتلئ بالمتع والإغراءات التي من شأنها أن تقود بعض الأنفس البشرية للانجراف وراء شهوات النفس التي خلقها الله تعالى، ولكن خلق معها مانعاً مباشراً يقوم بمنع هذه الشهوات من التحكم في الإنسان، فعند نضوج العقل تكون الشهوات داخل نفس الإنسان قد بدأت بالظهور، فيقوم العقل بدور المنظم لها والحائل بينها وبين سيطرتها على الإنسان، ولكن قد نجد في بعض الأحيان أن هذه الشهوات هي التي تقوم بمنع العقل من التحكم فيها وذلك حسب إيمان وتقوى الإنسان وانقياده وخضوعه لله تعالى، قال عز وجل: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ}[١٤٦٧].

٤- منع الفساد بسن العقوبات:

لا يمكن أن نَجِد من الجرائم والفساد بدون وجود رادع يمنع أولئك الناس من المضي في جهلهم وشرهم، والله سبحانه وتعالى مانع لانتشار ذلك بسن العقوبات والقوانين التي تمنع المجرمين من التمادي في ذلك، ولقد كان لنا في رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أفضل مثل وقدوة، إذ أنه كان يقيم الحد في أيٍ كان بدون النظر والاعتبار لأي رابط أو صلة، مانعاً بذلك الوساطة التي تمنع انتشار العدل والمساواة، عَنْ الزُّهْرِيِّ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ: "أَنَّ امْرَأَةً سَرَقَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي غَزْوَةِ الْفَتْحِ فَفَزِعَ قَوْمُهَا إِلَى أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ يَسْتَشْفِعُونَهُ قَالَ عُرْوَةُ فَلَمَّا كَلَّمَهُ أُسَامَةُ فِيهَا تَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ قَالَ أُسَامَةُ اسْتَغْفِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلَمَّا كَانَ الْعَشِيُّ قَامَ رَسُولُ اللَّهِ خَطِيبًا فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ قَالَ أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ

[١٤٦٧] آل عمران١٤.

فَقُطِعَتْ يَدُهَا فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ قَالَتْ عَائِشَةُ فَكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[١٤٦٨].

وقد يتساءل آخر: كيف يكون المنع من عند الله دائماً لخير الإنسان.

في منع الله سبحانه تعالى لعباده محبة ورحمة كبيرتين ظاهرتين ولكن لا يصل إلى فهم جوهرها إلا من ارتقى بنفسه وفكره وخلقه عن توافه الأمور وقشورها، فنأى بروحه عن النقائص والضعف النفسي، فيمنع الخالق عز وجل الخير أحياناً للخير، فمنعه كله خير ومنفعة للعباد، وليس أدل على ذلك أنه أحياناً يؤخر أو يمنع نزول الأمطار على بلدٍ ما حباً بهم وبنفعهم، ولا يكون هذا المنع نفوراً منهم وبغض، لأنه عند تأخر نزول الأمطار يلجأ المسلمين إلى صلاة الاستسقاء التي تمثّل لجوء المسلم إلى الخالق الرزاق وتُشْعِره بقدرته وقوته، فيتوكل عليه ويثق به، وهذا من شأنه أن يدعم صلة المسلم بربه، حين يدرك أنه لا منقذ إلا هو ولا مجيب لدعواته إلا هو عز وجل، بذلك يمنع هذا العبد اللجوء لغير الله في أموره وحاجاته، قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}[١٤٦٩].

ولله تعالى عدة سبل لمنع انتشار الباطل بين الناس فمنهم من اهتدى ومنع نفسه عن الفساد، ومنهم من كفر وعصى ومنع نفسه من الإيمان، ومن هذه السبل:

١- بعث الرسل والأنبياء:

لم تأتِ أمة وترحل إلا وكان الله تعالى باعثاً فيهم من يرفع عنهم الحجة والجهل بالحق، فمنذ تمرد الشيطان وعصيانه لأمر رب العالمين بالسجود لآدم توعد بإغواء البشر ضعاف النفس ومنعهم للوصول للحق، ومن هنا كان سبيلاً من السبل بعث الرسل والأنبياء لتوضيح ما

[١٤٦٨] صحيح البخاري، ج ١٣، ص٢٠١.

[١٤٦٩] البقرة ١٦٤.

يرضاه الله تعالى وما يأمر به، ولتوضيح طريق الهداية من الضلال، قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ}[١٤٧٠]، فكان الله تعالى عليما بما سيكون عليه حال البشر من ضياع وعصيان إذا تركهم بلا علامات للاهتداء في هذه الأرض، لذلك بعث الرسل والأنبياء مبشرين بالحق والجنة ومنذرين من النار، قال تعالى: {وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[١٤٧١].

٢- تقديم النصح:

النصيحة عادةً لا تأتي إلا من محب، فلن تجد يوماً عدواً لك يقدم لك ما تستفيد منه، والله عز وجل خلق البشر بحب ورحمة لا يبغي لهم العذاب والنار، فكان مقدّماً لهم كل سبل الهداية واليقين، ليكون بذلك مانعاً لهم من التمادي في الكفر والعصيان، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا

[١٤٧٠] الأعراف ١١ . ١٨.

[١٤٧١] النساء ١٦٤ . ١٧٠.

فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[١٤٧٢]، فالودود المطلق يعلم مسبقاً بعلمه المطلق أن هناك بعض النفوس البشرية التي تتخذ الشيطان حاجزاً بينها وبين الحق والإيمان، فكان رحيماً بنصحه لهم، قال تعالى أيضاً: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}[١٤٧٣].

والمانع لا يسلّط عذابه حتى على الكافر والعاصي من عباده إلا بعد إقامة الحجة والدليل بتوضيح طريق الهداية والحق، فالخالق خلق العقل للتمييز والاهتداء للحقيقة،الذي من شأنه أن يمنع اتباع طريق الشر والفساد إذا أُحسِن استعماله، فلا يكون تابعاً جاهلاً لأي فكر أو اعتقاد، قال تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[١٤٧٤]، فإذا أُلْغيَ العقل بالجهل والضلال من الإنسان أصبح بلا نفع ولا جدوى.

وأرسل الرسل والأنبياء بالتبشير والتنذير، لأن المانع عز وجل منزه عن الظلم لذلك فقد خرج من دائرة العقاب من حُرِم من نعمة العقل لعدم قدرته على التمييز، بذلك فإن الله تعالى كان مانحاً ومعطياً للبشر سبل الهداية والرشاد، قال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}[١٤٧٥]، وبعلم الله المسبق وقدرته

[١٤٧٢] النور ٢١، ٢٢.

[١٤٧٣] آل عمران ٢٨، ٢٩.

[١٤٧٤] البقرة ١٧٠، ١٧١.

[١٤٧٥] النساء ١٦٥.

المطلقة كانت حكمته في عدم استمالة قلوب العصاة الكافرين للهدى لعدم استحقاقهم تلك النعمة، فلا يمكن للعادل المطلق أن يساوي بين الطيب والخبيث ولا بين الحسن والقبيح، فهو يعطي كل ذي حقٍ حقه ، قال تعالى: {وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}[١٤٧٦] .

ولله المثل الأعلى إذ على كل راعٍ أو مسؤول أن يخاف الله في حقوق العباد، فلا يأخذ حق هذا ليعطيه لذاك، ولا يبخس العاملين حقوقهم بل عليه أن يكون مثالاً للاستقامة والعدل كي لا يجعل من رعيته أصحاب نفوسٍ حاقدة عليه لظلمه، لا تتمنى له إلا السوء فينشر بذلك الحقد والبغضاء والعداوة، لذلك من كان في مقام يمكّنه من منع الفساد والظلم فعليه أن لا يتأخر عن القيام بما يلزم لردع المفسدين والظالمين فيمنع بذلك وقوعه في الهلاك والضلال ويمنع أن يكون مستحقاً لغضب الله تعالى عليه.

٣- سرد القصص للعبرة:

القرآن الكريم مليء بقصص الأمم السابقة، التي أوجدها قبلنا فعاقب من عاقب منها سواء كانوا أشخاصاً أو أمماً وأقواماً، ذلك لنستخلص مصيرها وعاقبتها، فيكون ذلك مانعاً لنا من الوقوع في ما وقعوا فيه. قال تعالى: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ}[١٤٧٧]، فقد بلّغ الله نصحه للبشر بلسان رسله، الذين بعثهم رحمةً للناس ومنعاً لهم من

[١٤٧٦] يونس ٦١.

[١٤٧٧] الأعراف ٥٩ . ٦٤.

اتخاذ طريق الشيطان منهجاً لهم، قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آَيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آَلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آَمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ}[١٤٧٨]، فالنصح من الله يصل إلى العباد عن طريق الأنبياء والرسل والصالحين، كي لا تكون حُجَّة لأي كافرٍ أو عاصٍ على الله، فاستخلاص العبر والموعظة هي نتاج العقل الصائب الذي يصل إلى الحقيقة بأسرع وأبسط الطرق، هذا العقل الذي إذا استعمله الإنسان بالشكل الصحيح كان منارة للتبشير بالحق، وطريقاً للهداية مانعاً للكفر والعصيان.

٤- أخذ الحيطة والفائدة:

قد يمنع الله تعالى الخير والعطاء على المسلمين ليكون ذلك في صالحهم وخيرهم ومنفعتهم، وليس أدل على ذلك من منحه النصر للمسلمين في غزوة بدر مع قلة عددهم وعتادهم، إلا أن قوة إيمانهم وحرصهم على شراء آخرتهم استحقوا به نصر الله لهم مع التخلص من رؤوس الشرك والكفر، في حين أن المسلمين كانوا في غزوة أحد أكثر عدداً وعدة منهم في غزوة بدر إلا أن المانع منع النصر عنهم ذلك لقبولهم على متاع الدنيا ومخالفة أوامر رسولهم الكريم- صلى الله عليه وسلم- فيكون بذلك منع الله النصر لهم رادعاً ودرساً لهم استفادوا منه فيما بعد، فكان المنع لصالح المسلمين ورادعاً لأصحاب النفوس الضعيفة منهم.

[١٤٧٨] الأعراف ٧٤ ـ ٧٩.

وقد يتساءل بعض الناس ما الحكمة من منع انتصار المسلمين على أعداء الله.
هناك عدة أسباب قد تخفى على بعض المسلمين ومنها:

١- وصول الأجر والثواب لعباده المسلمين لصبرهم على هذا البلاء، فيواصلون الجهاد لحبهم لنيل الأجر العظيم.

٢- زرع الثبات والثقة بقدرة الخالق على كل شيء، قال تعالى: {وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ}[١٤٧٩].

٣- تمييز واختيار عباده الصالحين المتقين من بين المسلمين جميعاً، فيصفي خيرة المسلمين، قال تعالى: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ}[١٤٨٠].

٤- الإحساس بجمال النصر، ومنع دخول اليأس والغم إلى قلوب عباده المخلصين.

ولكن كيف يكون الخليفة مانعاً للفساد.

أولاً: بالعبادة:

العبادة هي منتهى الحب والطاعة والخوف من الخالق عز وجل، والمقصود بالعبادة هنا ليست العبادات المألوفة كالصلاة والصوم وغيرها، بل العبادة هي حب اللجوء لله والتوكل عليه واستشعار هذا الحب في كل جوانب الروح والجسد وطاعته التي من شأنها أن تمنع أية رذيلة أو مفسدة قد يقع فيها الإنسان بابتعاده عن طاعة خالقه، بذلك يصل الإنسان إلى الاستقامة، التي بها يصل إلى ذروة الاقتراب من العزيز الخالق.

فالاستقامة إذا وُجِدت في الإنسان فقد أوجدت معها مكارم الأخلاق التي دعا إليها الرسول – صلى الله عليه وسلم – فقد كان المثل الأعلى للخلق الكريم الذي إذا تحلى به الإنسان كان

[١٤٧٩] آل عمران ١٢٦.

[١٤٨٠] آل عمران ١٧٩.

مانعاً للباطل والفساد أن يسودا نفسه وروحه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : "ألا أدلكم على مكارم الأخلاق في الدنيا والآخرة. » قالوا : بلى يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « صل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك"[١٤٨١]، فمن كان واصلاً لرحمه ومعطي لمن منعه وعفو عمن ظلمه كان مانعاً للشر والضلال في نفسه.

وهناك نوعان من المنع يقوم به الإنسان: منع إيجابي ومنع سلبي.

أولا: المنع الإيجابي:

في هذا النوع من المنع يكون الإنسان مانعاً لانتشار الشرور في نفسه وفي المجتمع بصفة عامة، وله عدة أحوال منها:

أ– أن يكون مانعاً للجهل:

لأن الجهل هو أساس الضلال والكفر، فإذا تُرك العقل البشري لظلمات الجهل والضلال تاه في الشرور والمفاسد، هنا يأتي دور الخليفة بمنعه لذلك عن طريق محاربة هذا الجهل بالعلم الصحيح الذي يقيم الحجة على الجهل والتخلف، فلا يبخل بعلمه على أحد، ولا يستغله من أجل مآرب أخرى، وأن لا يوجّه علمه في وجوه الشر والفساد، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنْ الْعِبَادِ وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ حَتَّى إِذَا لَمْ يُبْقِ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"[١٤٨٢]، لأن العلم قد يُسْتغل في غير وجوه الخير والإصلاح، فبدل أن يكون منارة يستهدي بها الناس يكون مستنقعاً للظلمات والتيه فلا يدري الإنسان ما هو صحيح وما هو خاطئ.

ب– أن يكون مانعاً للظلم:

[١٤٨١] شعب الإيمان للبيهقي، ج ١٧، ص ١١٨.

[١٤٨٢] صحيح البخاري، ج ١، ص١٧٦.

الظلم يسود حينما يمنع الناس انتشار العدل، فيكثر الظلم ويتفشى في جسد الأمة، والظلم نوعان:

أحدهما: ظلم الإنسان لنفسه بأن يسعى إلى الشهوات والمفاسد فلا يحافظ عليها من الضياع، وبمنع نور الهداية بالتسلل إلى جنبات روحه لتضيء عتمتها، فالله تعالى لا يمكن أن يظلم عبداً من عباده، بل هو الرحيم بهم والهادي والرؤوف، ولكن اختيار الإنسان لولائه للشيطان فإنه يمنع الخير عنها بمنعها من صلة الرحمن بها، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}[١٤٨٣]، إذن الظلم يقع على العبد من نفسه بسماحه لسيطرة الشيطان عليها ومنعه وصول الحق والنور إليها.

وأخرهما: ظلم الناس لبعضهم البعض يأتي من تفاوت البشر فيما بينهم في المكانة العلمية والمادية والاجتماعية، وهذا التفاوت كان مانعاً لسيادة العدل والمساواة بين الناس، بالرغم أن الله تعالى كانت دعوته وأمره واضحين في هذا الشأن، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[١٤٨٤]، فالخالق عز وجل مانع للظلم بأمره بالعدل، فلا يمكن أن يجتمع كلٌ منهما مع الآخر، بل جعل من أسباب رضاه ودخول جنته العدل كما جاء على لسان رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام، عَنْ حَفْصِ بْنِ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – قَالَ: "سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ فِي خَلَاءٍ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسْجِدِ وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ إِلَى نَفْسِهَا قَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ"[١٤٨٥].

[١٤٨٣] يونس ٤٤.

[١٤٨٤] النحل ٩٠.

[١٤٨٥] صحيح البخاري، ج ٢١، ص ٧٤.

ج – أن يكون مانعاً لقطع الرحم:

صلة الرحم بين المسلمين من أكبر الأسباب المانعة للحقد والعداوة والبغضاء، لأن واصل الرحم لابد أن يكون يحمل بين جنبيه قلباً رحيماً ودوداً مانعاً للكراهية والقسوة، لأنه من وصل رحمه فقد وصل صلته بالله ومنع نفسه من الوقوع في إحدى الكبائر، فمهما كان الأقرباء وصلة رحمنا على خطأ لابد أن نكون راعين لهم ولحقوقهم علينا، لدرجة أن الله تعالى أوصى بعدم قطع الرحم حتى وإن كان ذلك بسبب الدعوة لترك توحيده وعبادته، قال تعالى: {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}[١٤٨٦]، فقد اجتمع في الآية الكريمة السابقة أمران من شأنهما أن يمنعا قطع الصلة:

أ– الأمر الأول عدم طاعة الوالدين في منعهما وصل الصلة بالله العلي العظيم، وبذلك يمنع الله تعالى الإنسان من الخضوع والاستسلام للكفر بأمر من الوالدين.

ب– الأمر الثاني عدم قطع صلة الإنسان بوالديه قطعاً نهائياً بمنعه له أن يرعاهما بالمعروف، فيكون بذلك الخالق عز وجل مانعاً لقطع صلة الرحم.

وعلى خليفة الله أن يكون واصلاً لرحمه بما أمر الله، فلا يمنع رحمه منه ولا يمنع طاعة الله بقطع هذه الرحم، قال تعالى: {فَآَتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٤٨٧] التي من شأنها أن تجعل الأمة متماسكة قوية ذات إحساس موحد، تمنع دخول الضعف والانحلال الاجتماعي فيها، فلا قيمة لإنسان بلا رحمه ولا عمل طيب يُقْبَل منه وهو قاطع لرحمه، لأنه خالف أمر المولى عز وجل في ذلك حين قال: {وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ

[١٤٨٦] لقمان ١٥.

[١٤٨٧] الروم ٣٨.

ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا}[١٤٨٨]، وأن يكون واصلاً لله بصلة رحمه فيمنه بذلك قطع صلته بالخالق عز وجل، عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ تَقُولُ مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللَّهُ"[١٤٨٩].

د- أن يكون مانعاً لليأس:

إذا احتل اليأس مواطن الأمل في الإنسان كانت حياته بلا فائدة ونهايتها الضياع والخسران الكبير، لأن الإيمان الصادق يدعمه ويقويه الأمل والثقة بالمولى عز وجل، فلا تهتز قلوبهم من وقع هم أو حزن ولا يتراجع إيمانهم بمنع الله لنعمة من نعمه أن تحل بهم أو زوال نعمة كانت بهم، بل يزدادوا إيماناً وحباً لله بصبرهم الذي يمنع عنهم بلاءً عظيماً، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ}[١٤٩٠]، فالأمل والثقة بالله منبعهما الإيمان القوي به جل جلاله ذلك الإيمان من شأنه أن يمنع اليأس من التمكن من نفس المؤمن التقي المتأمل دائماً بكرم ورحمة الله تعالى.

وخليفة الله هو من حمل الأمل بالله معه في كل خطوة من خطوات حياته فيكون مانعاً رادعاً لليأس، مغّلِقاً الأبواب في وجهه بالثقة بالمولى عز وجل.

هـ - أن يكون مانعاً لتغلب شهوات النفس: وهناك حالتان للإنسان مع الشهوات:

الحالة الأولى: تغلب النفس على الشهوات بأن يمنع الإنسان نفسه من التدهور واللهث ورائها، فلا يكون كل همه هو إرضاؤها وإشباعها بكل الوسائل والسبل، فيصل إلى حالة من التوازن بهذا المنع، ويحقق السعادة والرضا والقناعة به، فلا ينجرف خلف هذه الرغبات متناسياً أمر الله

[١٤٨٨] الإسراء ٢٣، ٢٤.

[١٤٨٩] صحيح مسلم، ج ١٢، ص ٤٠٧.

[١٤٩٠] البقرة ١٥٥ . ١٥٧.

لنا بالاعتدال والتوازن، عاملين بنصح الخالق لهم كما جاء في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ}[١٤٩١].

الحالة الثانية: تغلب الشهوات على النفس فيكون بذلك الإنسان تابعاً لها لاهثاً عليها، ففي هذه الحالة تكون الشهوة مانعة للعقل من السيطرة والتفكير في الصواب وفيما ينفع ويضر، فتمنع عن الإنسان كل خير بقيادتها له نحو الهاوية، لأنه من المستحيل إذا تحكمت الشهوة على النفس البشرية أن تجعله إنساناً راقياً مطيعاً لله، بل إنها تمنع هذه الصلة النبيلة التي يجب أن تكون بين العبد وربه، وتجعل صلته بالشيطان حائل بينه وبين الهداية، قال تعالى: {فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا}[١٤٩٢]، وكذلك قوله تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآَبِ}[١٤٩٣].

و- أن يكون مانعاً للتذمر وعدم الرضا بالقدر:

على خليفة الله تعالى أن يكون مسلِّماً بالقدر فيستسلم لإرادة الله تعالى لعلمه بأنه تعالى المانع النافع الضار المعطي وحده، فهذا الإيمان واليقين من شأنهما أن يجعلا من المسلم عبداً راضياً مطيعاً متوكلاً على الله في كل أموره، فلا ييأس مع حلول مصيبة ولا يلجأ لغير الله في التخلص منها، لقوله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}[١٤٩٤]، وبهذا اليقين يتحقق الشعور بالعزة والحرية داخل نفس المسلم، فنصل بذلك إلى القضاء على كثير من الظواهر

[١٤٩١] فاطر ٥. ٧.

[١٤٩٢] مريم ٥٩.

[١٤٩٣] آل عمران ١٤.

[١٤٩٤] الأنعام ١٧، ١٨.

الاجتماعية الفاسدة والمتخلفة التي تزيد منها شعور المسلم بالإحباط والفشل داخل نسيجه الاجتماعي الذي ينتمي إليه.

ثانياً: المنع السلبي:

أ- أن يكون مانعاً للخير، فقد نصادف من الناس نوعاً محباً لمنع الخير بين الناس، فيسعى بينهم بالشر والفساد فلا يجعل للمعروف مكاناً ولا للمودة محلاً، أولئك فتنة تمشي على الأرض من شأنها أن تمنع اجتماع المسلمين على الخير والمعروف، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آَمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[١٤٩٥]، وقال تعالى أيضاً: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ}[١٤٩٦].

ب- أن يكون مانعاً للحب، فالحب بصوره المتنوعة والمتعددة يحتاج للرعاية لكي ينمو ويزداد، لأنه بالحب نمنع وقوع الكثير من الكوارث الاجتماعية، كالخصام والعداء والقسوة وقطع صلة الرحم وغيرها، والحب الذي يستطيع أن يمنع كل هذه الآفات هو حب الخالق، فإذا انغرس حبه عز وجل في قلوبنا منع تسلل أي شر أو كره إلى القلب البشري الذي يفيض بحب خالقه سبحانه وتعالى، فطوبى لمن كان حبه لله ولنفسه ولمن حوله عنواناً لعلاقته وبرهاناً لآدميته، فبهذا الحب يرقى الإنسان ويمنع دخول المفاسد إلى روحه وإلى مجتمعه، لأن هذا الحب الصادق يمنع صاحبه من البحث وراء الرذائل والضلال، بل يدعوه للسعي وراء مرضاة الخالق ومرضاة نفسه ومن حوله، فمن يمنع مثل هذا الشعور النبيل فإنه يمنع الإحساس بما حوله من جمال وإبداع، فلا يستطيع مع هذا المنع أن يعطي أي شيء لأي أحد حتى وإن كان من أقرب الناس إليه، فمثلاً نجد بعض الآباء والأمهات يمنعون عن الأبناء جزءاً كبيراً من حقهم في الرعاية والحنان والدلال بحجة الفساد، مع أنها حاجات ضرورية لبناء شخصية الأبناء إذا

[١٤٩٥] النور ١٩.

[١٤٩٦] الحج ٧٧.

أُعْطيت بالشكل المعتدل والسليم، فتراه قاسياً جافاً مع أبنائه، فبهذا النوع من الجفاف يمنع الأب الشعور بالحب الصحيح بينه وبين أبنائه.

ولكن خليفة الله لابد أن يصل إلى المفهوم الصحيح للحب البنّاء الصادق الذي يجعل منه إنساناً معطاءاً، ينشر الحب بتنفيذ أوامر الودود المطلق، لأن حب المولى إذا تملّك من القلب منع عنه كثيراً من المفاسد، وجعله مستحقاً لخلافة الأرض وذلك بمنعه للبخل والشح، قال تعالى: {لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ}[١٤٩٧]، فحب الله يدعو صاحبه إلى حب الإنفاق في سبيله دون الشعور بالخسران والندم، بل عطاء هذا الإنسان يكون بحب ورغبة تمنع من الوقوع في حب تكديس المال وكنزه.

حب طلب المغفرة: من شأن هذا الحب أن يجعل الإنسان محباً لطلب المغفرة من الخالق عز وجل، فلا يهمه من الدنيا شيء أو من متاعها لأن حبه لله يمنعه من التطلع لتوافه الأمور، قال تعالى: {وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَآَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآَخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[١٤٩٨].

حب الغير على النفس: فهذا النوع من الحب النبيل يمنع الأنانية وحب الذات عن أي شيء آخر، لأن من أحب الله تعالى زرع الله في قلبه الطيبة والإيثار والزهد في الدنيا، فلا يطمع في مال لنفسه، أو في غيره من متاع الدنيا، قال تعالى: {وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[١٤٩٩].

[١٤٩٧] آل عمران ٩٢.

[١٤٩٨] آل عمران ١٤٧، ١٤٨.

[١٤٩٩] الحشر ٩.

حب الرسول – صلى الله عليه وسلم-: لأن حب الرسول عليه السلام من حب الخالق، وهذا الحب ينتج عنه اتباع الله وطاعته مانعاً انقياد القلب لأي جهة أخرى يعطيها حبه وطاعته، قال تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ}[١٥٠٠].

وفي اسم الله المانع درس عظيم لعباده المسلمين، فيتعلم المسلم المنع في الوقت المناسب لما يستطيع منعه في خير، ولو كان هذا الخير مؤجلاً، فقد يضطر المؤمن أن يكون مانعاً في موقف معين ليصل إلى هدف أسمى وأرقى، ويتعلم المؤمن التوازن بين العطاء والمنع في الوقت المناسب، فتكون مسئولية هذا الإنسان تجاه غيره متوازنة بالعطاء والمنع الإيجابيين، والمعتدلين.

وفي منعه عز وجل لفت لنظر بعض الناس الذين كُلّفوا بالقيام بمسئولية الغير ورعايتهم، لأن المنع والعطاء بحق وبدون ظلم يجعل أصحاب المسئولية يراعون الرعية في حقوقهم وواجباتهم، فيعطي هذا الراعي والمسؤول كل ذي حق حقه بالعدل والمساواة، كما أمر الله تعالى، فالإفراط في العطاء خطأٌ فادح والمنع الجائر أيضاً خطأٌ فادح، وإذا توصل الراعي وولي الأمر إلى حقيقة العطاء والمنع لوقفوا على حدود العدل والإصلاح، فلا يعطي رب العمل مثلاً منصباً لرجلٍ غير مستحقٍ له في الوقت الذي يمنعه مستحقه منه، فيؤثر ذلك سلباً في سير العمل والإنتاج، فأحياناً أنت نفسك تجد نفسك أمام موقف يمنعك من التساهل والعطاء، فتأخذ موقف المانع لأحب الأشياء عن أحب الأشخاص إليك وأقربهم إلى قلبه، ويكون الدافع لهذا المنع هو خيره ومنفعته حتى ولو أدرك هذا الشخص الحبيب ذلك، فمثلاً عندما يقف الأب موقف المانع والرادع لولده، حين يدرك أن في انجرافه وراء أمرٍ ما ضياعه وفساده، فلابد أن يمنع الوالد ذلك بالحسم والقوة، كاستعمال ابنه للانترنت والنقال وغيرها استعمالا سيئاً لا طائل منه إلا الفساد والضياع، عندها سيجد الوالد نفسه يقف موقفاً صارماً كي يمنع ابنه من الانجراف وراء هذه

[١٥٠٠] آل عمران ٣١، ٣٢.

المفاسد، وكذلك الأم تجد نفسها أحياناً مجبرة على أن منع ابنها أو ابنتها من السقوط والانحراف عند ملاحظة ذلك، وكذلك الزوج للزوجة وكل ولي أمر ومسئول عن رعية لابد أن يتعلم العطاء والمنع المتوازن والعادل لكي نصل بالمجتمع إلى أعلى درجات الرقي والإصلاح.

فبمنعه عز وجل لفت لنظر بعض الناس لحقوق الغير عليهم، فلو أن كل فرد في المجتمع حصل على حقه من غيره لأصبح كبيراً في نظر نفسه أولاً مكتفياً بتلبية حاجاته، فيشعر بقيمته وانتمائه لهذا المجتمع الكبير الذي هو جزءٌ منه لا يمكنه الانفصال عنه، فيكون جزءاً فعالاً فيه منتجاً سوياً، لا مكان للحقد والبغض على من أخذ حقه، ولا يستشعر الضعف والمهانة في مجتمعه، وبالتالي فإن هذا الفرد لن يفكر في اللجوء لأخذ حقه بطرق مؤذية وقاسية تؤدي إلى نتائج سيئة ومهلكة وخاسرة، ولكانت نسبة الجريمة بكافة أنواعها والانحراف السلوكي قلت بنسبة كبيرة جداً، وبذلك يرقى هذا المجتمع الإسلامي ويكون رائداً بين باقي المجتمعات الأخرى.

فبذلك يكون هذا المنع علاجاً لكثير من الأمراض الاجتماعية، التي أصبحت تتزايد في مجتمعنا الإسلامي، فيأتي المنع لإصلاح وبناء مجتمع سليم وراقٍ، فنتفادى بهذا المنع الكثير من ضحايا الفساد من شباب وأطفال قد لا يجدون من يردعهم ويمنعهم من السقوط في مستنقع الفساد والرذيلة، بمنع زيادة الدلال والعطاء في غير محله وعدم الاهتمام بأمور الشباب والأطفال بالانشغال في أمور الدنيا.

ولا ننسى دور المجتمع بصفة عامة في منع وحد الفساد والانحراف، بمنعه لدخول الأفكار الهدامة من أي مكان كانت التي من شأنها إفساد النفوس، ومنع الجهل من التزايد بين أبنائه بتوفير كل سبل تلقي العلم، فيمنع المسئولون أفراد المجتمع من الهروب من تلقي ضروب العلم والمعرفة، وبوضع شروط محددة لاستعمال الوسائل المتطورة والأجهزة الحديثة.

وإذا وصل الإنسان إلى الغاية من خلق الله له أدرك عطاء الخالق له، فاستخلاف الإنسان في الأرض يمنع ضياع حياته سدىً وعبثاً، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا

تُرْجَعُونَ}[١٥٠١]، لأن رجوع الإنسان لربه يوم القيامة للحساب تجعل من حياته في الدنيا ذات قيمة وهدف لكل إنسان مفكر عاقل فيمنع هو بدوره الضياع والعبث في حياته ليكون بذلك مستحقاً لما منحه الله وكرّمه به، فلولا خَلْق الإنسان عاقلاً متدبراً لكانت حياته كالدواب لا نفع منها ولا فائدة، يأكل ويشرب ويتناسل فقط، فيعيش حياته لاهياً ضائعاً دون هدف أو غاية، ولكنّ الله تعالى منع ذلك بوجود حكمة لخلقه وغاية، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}[١٥٠٢]، لذلك لابد أن يكون الإنسان مدركاً لحكمة خلقه وغاية استخلافه في الأرض ليمنع خسارته في الدنيا والآخرة بطاعته وتوحيده وإخلاصه للخالق عز وجل، بذلك فالإنسان مكلف بالشكر والحمد والتسبيح لله تعالى وذلك لا يتم إلا بالعلم والوعي اللذين يتممان أخلاق الإنسان ويمنعانه من سوء الخاتمة.

وعلى من استخلفهم الله تعالى في الأرض أن يكونوا مانعي أنفسهم من الرذائل والمفاسد بتذكير أنفسهم بالموت فيكون ذلك مانعاً لهم الضلالة والفساد، لا أن يكون هذا التذكير لكي يتقوقع الإنسان داخل نفسه خوفاً ورهبةً منه، منتظراً قدومه وهو في غاية الانزواء، بل من شأن هذا التذكير أن يجعلك أكثر إنتاجاً وعطاء، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: "كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ. وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَقُولُ إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الصَّبَاحَ وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرْ الْمَسَاءَ وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ"[١٥٠٣].

وعليك أيها الخليفة بالتوبة الصادقة النصوح عند ارتكابك لذنبٍ ما، إذا أردت أن تمنع نفسك من التمادي في الذنوب والآثام، فتمتنع بذلك رحمة الله لك ومغفرته، ولكن بتوبتك يفتح الله تعالى باب الخير والعطاء والبركة عليك، لما في التوبة منع لتدهور وانحلال الأمة وفساد

[١٥٠١] المؤمنون ١١٥.

[١٥٠٢] الذاريات ٥٦.

[١٥٠٣] صحيح البخاري ج ٢٠، ص ٣٩.

أخلاقها، فلو عمت التوبة قلوب المذنبين لما وجدنا هذا العدد الهائل من الفاسدين والمجرمين والظالمين الذين تمادوا في الآثام ممتنعين عن سماع صوت الضمير الناطق بالحق، فيمنع بذلك الخالق عز وجل عليهم رحمته وبركته، ولكن في التوبة إصلاح للنفس البشرية وللأمة بشكل عام، ولها كثير من الفوائد منها إن التوبة سبب من أسباب منع الخالق تنزيل عقابه وعذابه على عباده المذنبين، إذ أنها ترفع هذا العذاب وتمنعه توافقاً مع رحمة الخالق بهم، قال تعالى: {فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ}[١٥٠٤]، بل إن الله سبحانه وتعالى يعطي لعباده التائبين والمستغفرين من ذنوبهم السابقة الرحمة والخير والمغفرة، قال تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [١٥٠٥]، فالاستغفار والتوبة يفتحان أبواب الخير لينهمر على نفوس التائبين ناشراً السكينة والطمأنينة والخير.

إذن منع الله تعالى يكون في الدنيا والآخرة، وفي أغلب الأحيان يكون المنع منطوياً على عطاء، لذلك فإن مفهوم اسم المانع يكون له وجهان بالنسبة لعقول البشر وهما:

المفهوم الأول:

منعٌ يجعل القلب يتعلق بالمانع عز وجل، فيكون المنع هنا نعمة على الإنسان، لأن من رضي وفهم منع الله تعالى في الدنيا بالشكل الصحيح، أعطاه المانع الخير كله في الآخرة فكان من الرابحين، ففي اسم الله المانع معنى عميق للشعور بالأمان والود من الخالق لعباده، فإذا كنا نحن العباد نشعر بالقرب والحب لمن حولنا في الحياة، فمثلاً الزوجة تشعر بالثقة والأمان لوجود زوجها القوي الحامي لها والمانع عنها الأذى والخطر فتعيش في كنفه وهي تشعر بالطمأنينة والحماية في ظل قوته وحبه، وينعكس هذا الشعور في تربية الأبناء الذين

[١٥٠٤] يونس ٩٨.

[١٥٠٥] هود ٥٢.

ستنتقل إليهم هذه المشاعر الإيجابية، فيكوّنوا بذلك الأسرة السوية التي هي نواة المجتمع القوية الصحيحة نفسياً التي لا تحتاج إلى مصحات للأمراض النفسية ولا لمؤسسات إعادة التأهيل، لأن الشعور بالأمان والحماية لم يتزعزع لدى الإنسان منذ ولادته، ويكبر هذا الشعور بالشكل السليم لدى الأبناء فإنه سيصل إلى المصدر الأساسي للأمان والحب وهو الخالق عز وجل.

المفهوم الثاني:

منعٌ يجعل قلب الإنسان مليء بالحسرة والغضب، كأن يُنْقص الله من ماله أو ولده أو أي نعمة أخرى هو سبحانه وتعالى كان قد أنعم عليه بها سابقاً، بذلك يكون هذا الإنسان منع نفسه من النعم في الدنيا والآخرة.

وعلى خليفة الله أن لا يكون ممن يمنعهم جهلهم من شكر وذكر المانع في حياته، حتى لا ينقطع عن الخير بهذا المنع، فالخير يزيد بصلتك بالله تعالى وقربك منه فلا يلجئون لغيره ولا يطلبون إلا رضاه، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ} بأن يكون هذا الخليفة على يقين بأن الله وحده هو المعطي والمانع، قال تعالى: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[١٥٠٦]، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُون}[١٥٠٧]، فيمنع نفسه عن الطمع والشرور واتباع الأهواء، فإن أعطاه الله تعالى جعل هذا الخليفة عطاءه في طاعة الله، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ

[١٥٠٦] فاطر ٢.

[١٥٠٧] الزمر ٣٨.

عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}[١٥٠٨]، وإن منع عنه فذلك لخيرٍ هو غير مدركه، وإن فُتِحت أبواب الرزق له ثانيةً رد ذلك الخير إلى المعطي الذي بيده منعه منه في أية لحظة، وإن حال بينه وبين رزقه أحد من العباد فلابد أن يكون مدركاً إن الذي حال بينه وبين رزقه ليس هذا الإنسان الماثل أمامه والذي يفوقه سلطة ونفوذ بل المانع هو الله تعالى، فلا يتجه إلا لله تعالى ولا يتضرع إلا له ولا يطلب إلا منه عز وجل القادر على المنع والعطاء، فمن فضل الله علينا أنه هو المانع فبذلك من آمن بهذا الاسم وأدرك أسراره وصل إلى أن الله جل جلاله هو وحده المتصرف والمقدّر لأمورنا نحن العباد، فيرتاح الإنسان بهذا الشعور ويتخلص من أن يكون تابعاً لغيره من العباد، فيصبح الإنسان سيد نفسه وهذا الشعور بحد ذاته فيه متعة كبيرة فتتجه لله بالعبادة والتوحيد والثقة برحمته وقدرته لأنه المنزه عن النقائص فلا يحتاج للخلق بل هم في حاجة لا تنقطع إليه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ}[١٥٠٩]، من هنا ينشأ الشعور بالعبودية لله وحده ويمنع عبوديته لأي إنسان، ويمنحه شعوراً بالأمان والحرية والقوة والثقة، هذا ما يجب أن يكون عليه الفرد المسلم النموذجي على سطح الكرة الأرضية.

ولابد للخليفة أن يكون متذكراً أن الله قد يمنع عنه نعمة أو رزق أو غيرهما لكنه في الوقت نفسه قد أسبغ عليه جل جلاله بنعم أخرى لا تُحصى ولا تعد، فلا يطمع ولا يمد نظره إلى ما عند غيره من البشر من عطايا المولى عز وجل من جاه ومال وسلطان وغيرها من النعم الدنيوية الفانية، فهي نعمٌ زائلة وامتحان عسير لمن امتلكها ، فكما حدث مع قارون حين طغى وتجبر بما أنعم الخالق عليه فكانت هذه النعمة نقمة عليه، فيدرك الخليفة أن الله تعالى حتى في منعه خير ومصلحة للإنسان، فلا ييأس الفقير من فقره، ولا المريض من مرضه، لأنه معطي وكريم ولا يمكن أن يحرم عباده مما هو خير لهم.

[١٥٠٨] آل عمران ١٣٣، ١٣٤.

[١٥٠٩] فاطر ١٥ . ١٧.

وليكن في خلق الكون أكبر دليل على حب الخالق لنا في منعه ومن ذلك:

أ- لو تخلينا أن البحار والمحيطات لم يكن الله مانعاً لها من الحركة على هواها في مدها وجزرها، فماذا ستكون النتيجة بالنسبة للإنسان. أكيد ستدمر هذا الكميات الهائلة المختلطة ببعضها البعض كل ما فيه نفعٌ للإنسان من أراضي زراعية ومن دواب وحتى الإنسان نفسه لن ينجو من قوة تدميرها، ولكن الله تعالى منعها من ذلك بقدرته وجعل لكل منها سيرها ونظامها الذي لا تستطيع أن تخرج عنه إلا بمشيئته عز وجل، كما يحدث في بعض الأوقات من فيضانات تؤدي إلى كارثة إنسانية.

ب- الإنسان نفسه يحمل أكثر من عدد سكان الكرة الأرضية من الفيروسات في جسده والميكروبات المتنوعة، ولكن في نفس الوقت زوّد المولى عز وجل هذا الإنسان بدروع طبيعية تصد هذه الفيروسات والميكروبات عنه، فتحميه وتمنع تغلبها عليه، بوجود مضادات داخل جسم الإنسان وجهاز كامل مانع لسيطرتها على الجسم البشري، وبرحمة الله تعالى وحبه لا يكون الإنسان فريسة لأي فيروس أو ميكروب وإلا لقضى حياته عليلاً يتمنى الشفاء والصحة، فإذا لم يكن الله مانعاً لذلك من الحدوث فمن الذي سيمنع الأمراض عنه. وكذلك حتى عند إصابة الإنسان بمرضٍ ما فإن ذلك يكون خير له في كل حال، لأن الإصابة بمرض أحياناً يقوّي من مناعة وحصانة الجسم ضد الإصابة به مرة أخرى أو الإصابة بأمراض أخرى فيمنع بذلك الجسم من الاستسلام لأكثر من نوع من الفيروسات المسببة لأمراض مختلفة، وقد يكون اختباراً لصبره وحبه لله تعالى فيمنع عنه الشفاء أو يؤخره بهدف تكفير عن ذنب أو زيادة في الأجر.

وإذا لاحظنا نجد أن أغلب الأمراض التي بدأت تنتشر وتتزايد هي من صنع البشر أنفسهم، قال تعالى: {وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ}[١٥١٠] ذلك أن ما يقوم به الناس من تجارب علمية ومن حروب ودمار تسببت في تلوث الجو وفساد البيئة المحيطة به مما أدى إلى انتشار أمراض جديدة

[١٥١٠] الشعراء ٨٠.

وكثيرة في الحياة، ولكن الله تعالى منع سيطرتها على الإنسان بإعطائه العقل والعلم اللذان يمنعان سيادة المرض عليه.

ج- من الطبيعي أن يكون في نزول الأمطار الخير الوفير، وفي الأحوال العادية يكون الناس في حالة انتظار لها لما تحمله من خير ورزق، ولكن أحياناً يمنع الله المطر عن بعض الأمصار أو بعض الأماكن رغبةً من الله في لجوء هؤلاء الناس إليه بالصلاة والدعاء فيستشعرون قدرته ويرجع مذنبهم إلى الطاعة وناسيهم إلى الذكر ومتكبرهم للتواضع.

وخليفة الله في الأرض هو من منع سوء الظن بالله، ووثق بقدرته وإرادته وحكمته، فمن شأن سوء الظن بالله أن تمنع صلتك به عز وجل، كما هو شأن من أشرك بالله ولم يوحده في العبادة والطاعة وهذا ما جاء في قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}[١٥١١]، فالخالق جل جلاله له العزة والقوة متوحد في القدرة والإرادة بيده مفاتيح كل شيء وهذا ما يجب أن يكون واثقاً منه كل مؤمن مطيع لله عز وجل، فلا يخالجه أدنى شك في قدرة وحكمة خالقه الكريم، فتنقطع صلته به لمنع الثقة والتوكل عليه، فثقة العبد بربه هي التي تحدد صلته وعلاقته بخالقه إذ أنه يلتجأ إليه ويحتمي به، ولا يطلب إلا منه ولا يخضع لسواه، ومن قطع صلته بالله فقد قطع صلته بالرحيم والكريم والرزاق والمانع فمن الذي سيرحمه ويكرمه ويعطيه ويمنع عنه البلاء والشرور.

قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}[١٥١٢]، فإذا وصل المسلم إلى هذه الثقة بخالقه بخالقه فقد وصل إلى بر الأمان في الدنيا والآخرة، فلزم طاعة ربه ومنع نفسه من الانقياد للخرافات والأوهام على يد الدجالين والسحرة طلباً لتحقيق غاياته وطموحاته، فيبحث عن رزقه

[١٥١١] الزمر ٦٧.

[١٥١٢] يونس ١٠٧.

عندهم وعن ذرية هو فاقدها أو مركز هو منتهى طموحاته لعلهم يحققون له ذلك، وهو لا يدري بأنه بذلك يمنع وصول الخير والبركة من الله إليه، وكيف يصله الخير وهو يطلبه من سواه.

وعليك أن تكون صابراً على البلاء، فائزاً في امتحان المولى لك في الدنيا لأنها دار ابتلاء وفناء، فالصبر يمنع الضعف والاستسلام، ويدفعك لأن توكل الخالق في كل أمورك متيقناً من قدرته ورحمته بك، بذلك فقط تستحق أن تكون خليفة الله في الأرض كما أرادك المولى عز وجل فتحقق الهدف والرسالة المنشودة من خلقك، قال تعالى: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}[١٥١٣]

أنت أيها الإنسان يا من كرّمك الله واستخلفك في أرضه، كن مانعاً عن اتباع الأهواء يعطيك الله الخير الكثير، كن مانعاً للفساد والضلال يعطيك الله الجنة، كن مانعاً للظلم والرذائل يعطيك الله حبه ورضاه.

إن المانع سبحانه وتعالى يمنع عنا عظيم الأذى بجملة واحدة إذا نطقها المؤمن بقلبٍ خاشع ونية صادقة إلا وهي (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) فيمنع عنا وسوسة الشيطان الرجيم، قال تعالى: { وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ}[١٥١٤]، فالمانع عز وجل لا يكلّفنا إلا ما نستطيع أن نتحمله، ولا يمنع عنا إلا ما هو ضار بنا في الدنيا أو في الآخرة بعلمه وحكمته المطلقين، فكيف أيها المسلم تمنع عن هذا الكريم طاعتك وحبك وخضوعك.

اللهم يا المانع امنع عنا شرور أنفسنا، وطهّر قلوبنا من الغل والحسد والبغض والنميمة والتكبر والحقد، وامنع عنا شرور الناس، وأحفظنا منهم وأهدهم وأهدنا سبل النجاة والفلاح، اللهم يا

[١٥١٣] الأعراف ١٢٨، ١٢٩.

[١٥١٤] المؤمنون ٩٧، ٩٨.

المانع امنع عنا الاغترار بالدنيا وحبها والوقوف عند بابها والتشبث بها، ولا تجعلنا من الذين ينسون نصيبهم منها، اللهم امنع عنا عذابك وارحمنا إنك أنت الرحمن، اللهم امنع عنا نار جهنم وامنع عنا كل ما يقربنا إليها، وحبب وزين لنا كل ما يقربنا منك يا المانع يا الحفيظ يا الله.

اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطٍ لما منعت، اللهم امنع عنا شياطين الإنس والجن، وأرسل علينا حفظة يحفظوننا من كل سوء وشر، اللهم إننا نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، فلا تمنع ذلك عنا، ولا تحرمنا منه، اللهم امنع عنا الظمأ والجوع والألم والحسد والضرر واجعلنا في نعيمك نعيش الرحمة، اللهم يا المانع لا تمنع عنا التواد والتراحم والإصلاح وامنع عنَّا كل فساد، اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك، وتحوّل عافيتك، وجميع سخطك، اللهم أنت المانع فامنع عنا جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء وشماتة الأعداء، اللهم أنت ربنا لا إله إلا أنت، عليك توكلنا وأنت رب العرش العظيم، اللهم إننا نعوذ بك من شر أنفسنا، ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها فامنع عنا شرورها يا المانع إنك بنا رؤوف رحيم.

اللهم يا المانع امنع عنا شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا وأهدنا كمن هديت بجاه من رفع قواعد البيت وبجاه من طاف عليه وصلى وصليت، اللهم يا المانع أمنع عن قلوبنا وأنفسنا الغل والحسد والبغض والنميمة والحقد واجعلنا إخوة متحابين في محبتك، وامنع عنا شرور الناس، واحفظنا منهم وأهدهم وأهدنا سبل النجاة والفلاح يا ارحم الراحمين.

موسوعة أسماء الله الحسنى

وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض

تأليف
أ.د عقيل حسين عقيل
جامعة الفاتح - كلية الآداب

الجزء التاسع

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها

دار ابن كثير
دمشق - بيروت